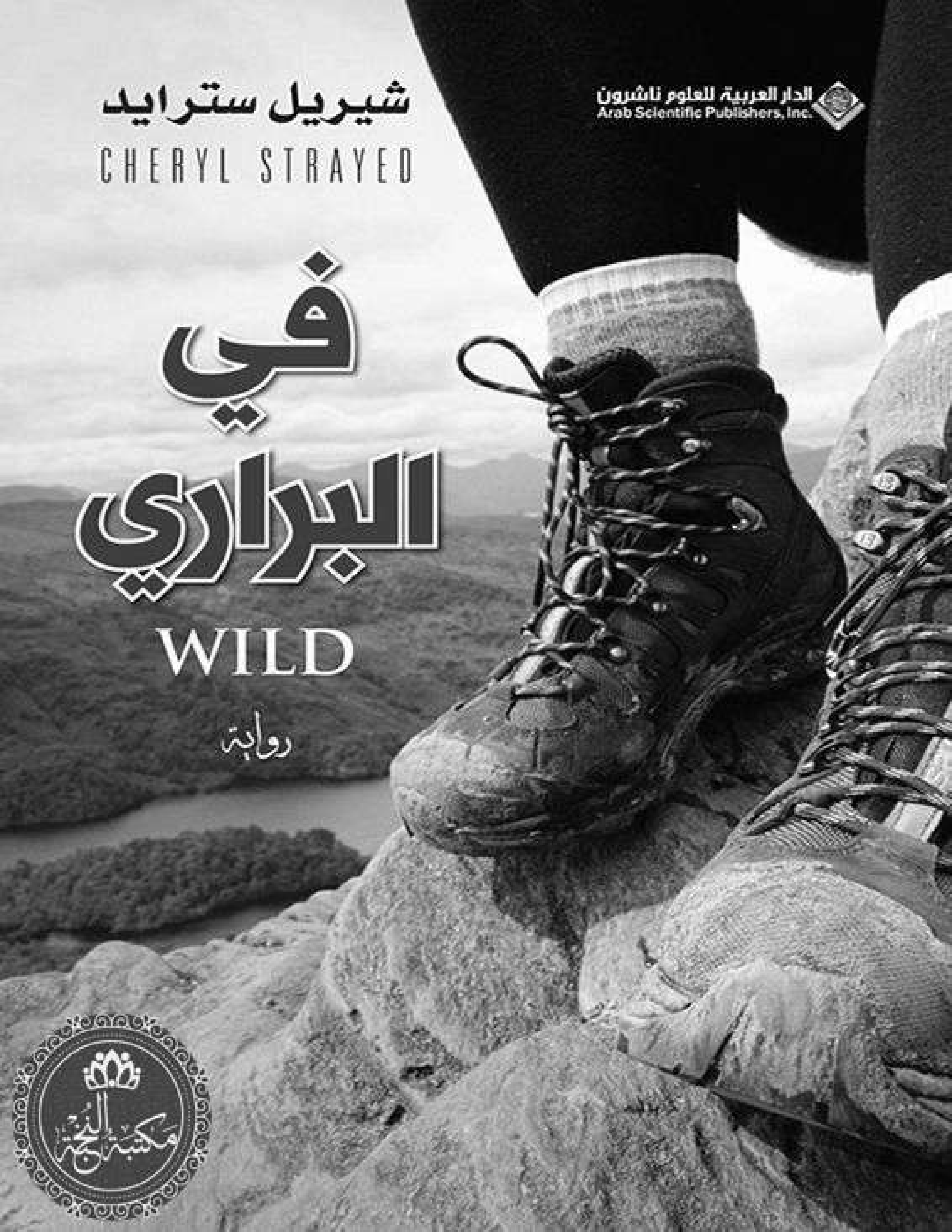
شيريل سترايد
CHERYL STRAYED
الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.
في البراري
WILD
رواية
مكتبة النخبة

في البراري

Wild

في البراري

WILD

رواية

شيريل سترايد

CHERYL STRAYED

ترجمة معن عبد الرحمن الكشك

مراجعة وتحرير مركز التعريب والبرمجة

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. SAL

بسم الله الرحمن الرحيم

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنكليزي
WILD
From Lost to Found on the Pacific Crest Trail
حقوق الترجمة العربية مرخّص بها قانونياً من الناشر
A Borzoi Book Published by Alfred A. Knopf
بمقتضى الاتفاق الخطي الموقّع بينه وبين الدار العربية للعلوم ناشرون، ش.م.ل.
Copyright © 2012 by Cheryl Strayed
All rights reserved
Arabic Copyright © 2016 by Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

الطبعة الأولى: 2016 م – 1437 هـ

ردمك 978-614-02-2755-2

جميع الحقوق محفوظة للناشر

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. SAL
عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 – 785108 – 785107 (1-961+)
ص.ب: 13-5574 شوران – بيروت 2050-1102 – لبنان
فاكس: 786230 (1-961+) – البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو الكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أية وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات واسترجاعها، من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل

تصميم الغلاف: **علي القهوجي**

التنضيد وفرز الألوان: **أبجد غرافيكس**، بيروت – هاتف 785107 (1-961+)
الطباعة: **مطابع الدار العربية للعلوم**، بيروت – هاتف 786233 (1-961+)

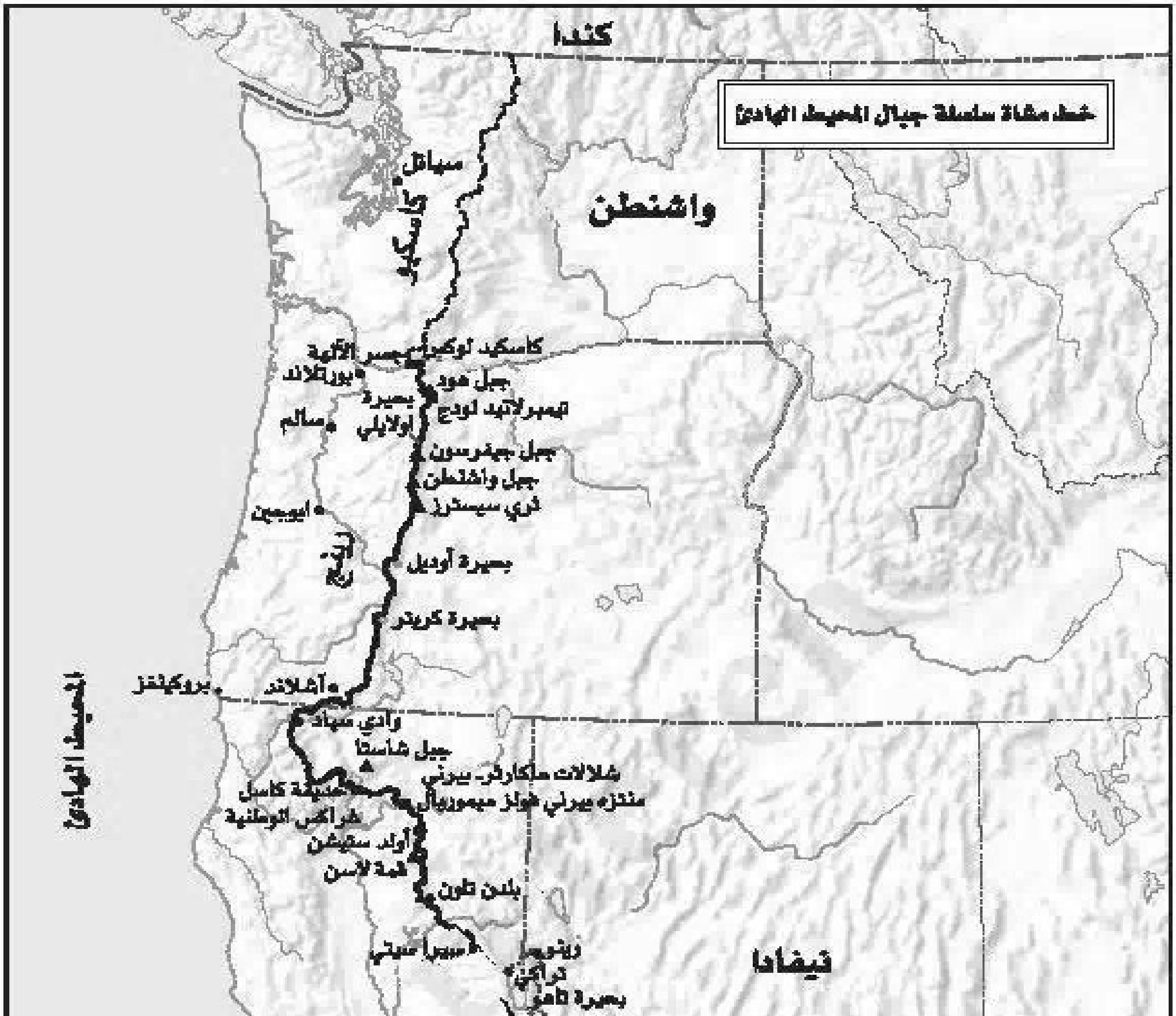
كندا
خط مشاة سلسلة جبال المحيط الهادئ
سياتل
واشنطن
كاسكيد لوكس
جسر الآلهة
بورتلاند
جبل هود
تيمبرلاين لودج
بحيرة أولايلي
سالم
جبل جيفرسون
جبل واشنطن
ثري سيسترز
يوجين
بحيرة أوديل
بحيرة كريتر
بروكينغز
آشلاند
جبل شاستا
شلالات ماكارثر-بيرني
منتزه بيرني فولز ميموريال
أولد ستيشن
قمة لاسن
بلدن تاون
سييرا سيتي
رينو
بحيرة تاهو
نيفادا
سكرامنتو
سان فرانسيسكو
كاليفورنيا
كينغز كانيون
جبل ويتني
لون باين
حديقة سيكويا الوطنية
ممر المشاة
سهول كندي
صحراء
موهافي
ريدجكريست
ممر تيهاتشابي
موهافي
لوس أنجلوس
بالم سبرينغز
سان دييغو
المكسيك
المحيط الهادئ
0 50 100 150 كلم
0 50 100 150 ميل
طريق مشاة كرست تريل
تسلق شيريل سترايد
ممر

تمهيد

كانت الأشجار عالية ولكنني أعلى، حيث وقفت عند منحدر جبلي شاهق في شمال كاليفورنيا بعد لحظات من خلعي حذاء المشي، ورميي إحدى فردتيه باتجاه تلك الأشجار لتهوي في الهواء ثم تنزلق في الوادي الحصوي. في البداية، اصطدمت بنتوء صخري يقع تحتي ويبعد بضع أقدام قبل أن تختفي في الغابة في الأسفل حيث تستحيل استعادتها، فشهقت بذهول على الرغم من بقائي في البراري ثمانية وثلاثين يوماً ورغم معرفتي أنه قد يحصل أي شيء، لكن ذلك لا يعني أنني لم أصدم حين قمت بذلك.

لقد اختفى حذائي... اختفى بالفعل.

ضممت فردة الحذاء الأخرى إلى صدري كطفل رضيع؛ على الرغم من كونها بلا فائدة؛ إذ ماذا عساي أفعل بفردة حذاء واحدة؟ إنها بلا فائدة... يتيمة إلى الأبد... ولم أعد أستطيع أن أرحمها، فقد كانت عبئاً كبيراً وثقلاً هائلاً... الحذاء جلدي وبني اللون مع تطريز أحمر ورباط فضي. رفعت الفردة عالياً، ثم رميتها بكل قوتي، وشاهدتها وهي تهوي فوق الأشجار الكثيفة خارجة من حياتي.

كنت وحيدة وحافية القدمين في السادسة والعشرين من العمر ويتيمة أيضاً... مشردة... كان أبي قد غادر حياتي حين كنت في السادسة من العمر، وتوفيت أمي حين كنت في الثانية والعشرين، وبعد وفاتها تحول زوج أمي من الشخص الذي كنت أعتبره أبي إلى رجل بالكاد أعرفه، في حين تاه أخواي في حزنهما – على الرغم من جهودي لكي نبقى مع بعضنا – حتى استسلمت ورحلت أيضاً.

خلال السنوات الماضية، رميت حذائي من جرف جبلي، وكدت أرمي بنفسي أيضاً. فقد طفت وجلت ومشيت من مينيسوتا إلى نيويورك إلى

أوريغون وعبر الغرب حتى وجدت نفسي في النهاية حافية القدمين في صيف عام 1995 ولا تربطني بالعالم روابط قوية.

لقد كان عالماً لم أدخله قط، لكنني كنت هناك طوال الوقت؛ حيث ترنحت بأسف وارتباك وخوف وأمل... إنه عالم ظننت أنه سيجعلني المرأة التي كنت أعلم أنه بإمكاني أن أصبحها، وسيعيدني الطفلة التي كنت عليها... عالم عرضه قدمان وطوله 2663 ميلاً.

عالم يدعى طريق جبال المحيط الهادئ.

كنت قد سمعت به لأول مرة قبل سبعة أشهر حين كنت أقيم في مينابوليس حزينة ويائسة وعلى وشك الطلاق من الرجل الذي أحببته. كنت أقف في طابور عند متجر في الهواء الطلق لأشتري رفشاً قابلاً للطي حين تناولت كتاباً يدعى **طريق جبال المحيط الهادئ المجلد الأول كاليفورنيا** من رف مجاور، وقرأت الغلاف الخلفي حيث كان مذكوراً أن طريق جبال المحيط الهادئ طريق بري متواصل يمتد من الحدود المكسيكية في كاليفورنيا إلى ما وراء الحدود الكندية على طول الجبال في تسع سلاسل جبلية هي لاغونا وسان جاكينتو وسان برناردينو وسان غابرييل وليبر وتيهاشابي وسيرا نيفادا وكلاماث وكاسكيدز، وتمتد هذه الطريق على آلاف الأميال، لكن الطريق كان أكثر من ضعف تلك المسافة، فهو يمتد على كامل طول ولايات كاليفورنيا وأوريغون وواشنطن ويمر عبر منتزهات وطنية ومحميات برية بالإضافة إلى أراضٍ خاصة وقبلية وفيدرالية وعبر صحارٍ وجبال وغابات مطرية وعبر أنهار وطرقٍ سريعة. قلّبت الكتاب وحدقت إلى الغلاف الأمامي فوجدت بحيرة محاطة بالجروف الصخرية التي تناطح السماء الزرقاء، ثم أعدت الكتاب إلى الرف ودفعت ثمن الرفش وغادرت.

لكنني لاحقاً عدت واشتريت الكتاب، ولم يكن حينها طريق جبال المحيط الهادئ عالماً بالنسبة إليّ وإنما كان مجرد فكرة غامضة وغريبة ومليئة بالغموض والوعود، حيث أزهر شيء ما بداخلي وأنا أتتبع خطه المتعرج بإصبعي على خريطة.

وقررت أن أمشي ذلك الطريق أو على الأقل قدر ما أستطيع منه خلال مائة يوم. فقد كنت أعيش وحدي في شقة صغيرة في مينابوليس بعد انفصالي عن زوجي وعملي كنادلة، وقد انهارت حياتي على نحو دراماتيكي، إذ كنت أشعر كل يوم أنني أنظر إلى الأعلى من قاع بئر عميقة، ومن هناك قررت أن

أمشي في البراري لوحدي... ولم لا؟ لقد جرّبت الكثير من الأمور؛ كأن أكون زوجة رؤوم أو أن أكون ابنة عطوف أصبحت تمضي العطلات وحدها، أو كاتبة طموحة انتقلت من وظيفة تافهة إلى أخرى وهي تتعاطى المخدرات وتقيم علاقات مع من تصادفهم دون اكتراث. كنت حفيدة عامل منجم من بنسلفانيا، وابنة عامل فولاذ انتقل للعمل بائعاً، وبعد انفصال والديّ عشت مع أمي وأخي وأختي في مبنى شقق تقطن فيه الأمهات العزباوات وأطفالهن، وخلال مراهقتي عشت بأسلوب ريفي في الغابات الشمالية لمينيسوتا في منزل لا توجد داخله دورة مياه أو كهرباء أو تمديدات مياه، ومع ذلك أصبحت رئيسة فريق تشجيع في المدرسة الثانوية وملكة في منزلي، ثم دخلت الجامعة وأصبحت متطرفة نسائية يسارية.

لكن، أن أصبح امرأة تمشي وحدها في البراري مسافة ألف ومائة ميل؟! فهذا ما لم أقم به من قبل، ولكن ليس لديّ ما أخسره بتجربة ذلك.

يبدو الأمر وكأنه حصل قبل سنوات من الآن، حين وقفت حافية القدمين على ذلك الجبل في كاليفورنيا، وحين اتخذت قراري غير المنطقي بالمشي الطويل على طريق جبال المحيط الهادئ لأستعيد ذاتي. كنت أثق أن كل ما مررت به قد هيّأني لهذه الرحلة، لكن ذلك لم يكن صحيحاً على الإطلاق، فكل يوم على الطريق كان التحضير الممكن الوحيد لما يتبعه، وأحياناً حتى اليوم السابق لم يكن قد هيّأني لما سيحدث في ما بعد؛ مثل تحليق فردة حذائي بلا رجعة من على حافة الجرف.

الحقيقة أنني كنت فقط شبه آسفة على رؤيتها وهي تختفي. فخلال الأسابيع الستة التي انتعلت بها ذلك الحذاء، غاصت قدماي في رمال الصحاري وثلوج الجبال، ومررت بأشجار وشجيرات وأعشاب وأزهار من جميع الأنواع والأشكال والألوان، وسرت في طرق جبلية وحقول ومزارع وسهول لم أستطع تحديدها؛ باستثناء أنني كنت هناك ومررت منها، وطوال ذلك الوقت كان الحذاء يتعب قدميّ ويقرحهما ويجعل أظافري تسوّد وتنفصل عن أربع من أصابع قدمي. لذا حين فقدت ذلك الحذاء كنت قد اكتفيت منه واكتفى مني؛ على الرغم من أنني أحببته، ولم يعد بالنسبة إليّ غرضاً غير حي مثله مثل جميع الأغراض التي حملتها معي ذلك الصيف... حقيبة ظهري وخيمتي وكيس النوم ومنقي المياه والموقد الخفيف والصفارة البرتقالية الصغيرة التي حملتها بدلاً من المسدس... كانت هذه هي الأشياء التي كنت أعرف أنه بإمكاني الاعتماد عليها لأنجو.

نظرت إلى الأشجار في الأسفل، حيث كانت قممها تلامس النسيم الدافئ بلطف. كنت قد اخترت هذا المكان لأرتاح فيه بسبب إطلالته في تلك

الأمسية في منتصف يوليو وأنا على بعد أميال من المدنية من كل الاتجاهات؛ إذ يبعد عني مكتب البريد الوحيد أياماً. كان هناك احتمال أن ألتقي أحدهم وهو يمشي في الطريق، لكن ذلك لا يحصل إلا نادراً. ففي العادة، كنت أمشي أياماً دون أن أرى أي شخص، وفي كل الأحوال لم يكن يهمني إن كنت سألتقي أحدهم؛ فأنا في ذلك وحدي.

حدقت بقدمي الحافيتين والمتقرحتين والشاحبتين. أما ساقاي فكانتا مكسوتين بالعضلات والشعر، ولونهما ذهبي مغبر، كما أنهما مغطاتان بالخدوش والكدمات. كنت قد بدأت بالمشي في صحراء موهافي دون أن أخطط للتوقف، حتى تلامس يدي جسراً يعبر نهر كولومبيا على حدود واشنطن وأوريغون اسمه جسر الآلهة.

نظرت شمالاً باتجاه الجسر، ثم نظرت جنوباً إلى حيث كنت في البراري التي علمتني وانتقدتني، ثم فكّرت في خياراتي فلم أجد سوى خيار واحد... أن أستمر بالمشي.

القسم الأول

عشرة آلاف شيء

ينبغي على ولادة مثل هذا الشيء العظيم أن تتسبب بألم عظيم.

وليام شكسبير

أنطوني وكليوباترا

1

عشرة آلاف شيء

كان لرحلتي مشياً على الأقدام وحدي على طريق جبال المحيط الهادئ الكثيرُ من البدايات. ففي البداية، كنت مترددة في القيام بذلك، ثم اتخذت قراراً جاداً بالقيام به، ثم جاءت المرحلة الثالثة المكونة من أسابيع من التسوق والتحضير للقيام بذلك؛ حيث استقلت من عملي كنادلة، وأنهيت أوراق طلاقي، وبعت كل ما أملكه تقريباً، وودعت أصدقائي، وزرت قبر أمي للمرة الأخيرة، وبعد ذلك سافرت بالسيارة عبر البلاد من مينابوليس إلى بورتلاند وأوريغون، وبعد بضعة أيام ركبت الطائرة إلى لوس أنجلوس، ثم انتقلت إلى بلدة موهافي، وبعدها إلى المكان الذي يتقاطع فيه طريق جبال المحيط الهادئ مع طريق سريع.

عند تلك النقطة بدأت رحلتي الفعلية، وبسرعة أدركت العواقب الوخيمة المترتبة على ما أقوم به، ثم قررت التوقف عن هذا العمل لأنه عبثي ولا جدوى منه وصعب للغاية وبعيد كل البعد عما توقعته، وقد كنت غير مستعدة له على الإطلاق.

ثم جاءت الحماسة الحقيقية للقيام بذلك.

لقد بقيت وقمت بالرحلة على الرغم من كل شيء... على الرغم من الدببة والأفاعي وأسود الجبال التي لم أرها قط... وعلى الرغم من الخدوش والبثور والجروح والإرهاق والحرمان والبرد والحرارة والوحدة والألم والعطش والجوع والنصر والأشباح التي طاردتني وأنا أمشي ألفاً ومائة ميل من صحراء موهافي إلى ولاية واشنطن لوحدي.

وأخيراً، ما إن ذهبت وقمت بالرحلة ومشيت كل تلك الأميال طوال تلك الأيام حتى أدركت أن ما كنت أظنه البداية لم يكن البداية على الإطلاق؛ فرحلتي مشياً على الأقدام على طريق جبال المحيط الهادئ لم تبدأ حين اتخذت قراري المفاجئ بالقيام بها، وإنما بدأت قبل ذلك، حين وقفت في غرفة صغيرة في مايو كلينك في روتشستر في مينيسوتا وعلمت أن أمي ستموت.

كنت أرتدي اللون الأخضر... إذ لبست سروالاً أخضر وقميصاً أخضر ووضعت عصبة خضراء على شعري. كانت أمي قد حاكت لي ذلك اللباس، إذ

إنها صنعت لي ملابسي طوال حياتي، وكان بعضها أكثر مما أحلم به وبعضها أقل، ومع أنني لم أحب البذلة الخضراء لكنني ارتديتها ككفارة أو عطية أو تميمة.

طوال ذلك اليوم وأنا بصحبة أمي وزوج أمي إيدي من طابق لطابق في مايو كلينك بينما كانوا يجرون لأمي الكثير من الاختبارات كنت أدعو لها في سري... أو ربما كلمة دعاء ليست مناسبة؛ فأنا لست امرأة مؤمنة، ولم يكن دعائي: أرجوك يا الله ارحمنا.

لم أكن لأطلب الرحمة، فأمي في الخامسة والأربعين وتبدو بصحة جيدة، وقد بقيت لسنوات عديدة نباتية، وزرعت القطيفة في أنحاء حديقتها لتبعد عنها البعوض لكي لا تستخدم المبيدات الحشرية، وقد كانت تجبرنا– أنا وأخواي– على بلع فصوص الثوم عندما نصاب بالزكام. الناس أمثال أمي لا يصابون بالسرطان، وستثبت الاختبارات في مايو كلينك كلامي وتدحض ما قاله الأطباء في دولوث... كنت واثقة من ذلك... من هم أولئك الأطباء في دولوث؟ ما هي دولوث؟ دولوث! كانت دولوث بلدة باردة، حيث قام الأطباء الذين لا يفقهون شيئاً في الطب بإخبار المرأة النباتية غير المدخنة والتي تتناول الثوم وتتداوى بالأعشاب الطبية وذات الخمسة والأربعين عاماً أنها مصابة بسرطان الرئة في مرحلة متقدمة.

تباً لهم.

لقد كان ما أردده: تباً لهم! تباً لهم! تباً لهم!

ولكن، ها هي أمي في مايو كلينك على وشك الانهيار إن بقيت واقفة على قدميها لأكثر من ثلاث دقائق.

سألها إيدي حين وصلنا إلى صف من الكراسي المتحركة في بهو طويل مكسوّ بالسجاد:

- أتريدين كرسياً متحركاً؟

أجبتُ:

- ليست بحاجة لكرسي متحرك.

ردت أمي:

- لدقيقة فقط.

وارتمت على كرسي والتقت عيناها عينيّ، بينما دفع إيدي الكرسي المتحرك نحو المصعد.

تبعتهما دون أن أسمح لنفسي بالتفكير بشيء بينما كنا في طريقنا للقاء الطبيب الأخير... الطبيب الحقيقي كما كنا نسميه... الطبيب الذي سيجمع كل ما توفر لديه من معلومات حول أمي ويخبرنا بالحقيقة. مع ارتفاع المصعد مدت أمي يدها إلى سروالي لتفرك القطن الأخضر بين أصابعها.

- ممتاز.

كنت في الثانية والعشرين، أي في السن نفسها التي كانت فيها حاملاً بي... إنها ستغادر حياتي في العمر نفسه الذي دخلت فيه حياتها. لسبب من الأسباب تشكلت تلك العبارة في رأسي لتطرد عبارة «تباً لهم». كدت أولول من شدة الألم... كدت أموت اختناقاً مما عرفته قبل أن أعرفه... سأكمل حياتي دون أمي. لم أسمح لنفسي بتصديق ذلك حينها في ذلك المصعد وأنا أستمر بالتنفس، لذا فقد صدقت أشياء أخرى بدلاً من ذلك؛ مثل لو أن الطبيب سيخبرك أنك ستموت قريباً لكانوا أخذوك إلى غرفة فيها مكتب خشبي لماع.

ولم يحصل ذلك.

قادونا إلى غرفة فحص حيث طلبت الممرضة من أمي أن تخلع قميصها وترتدي رداء قطنياً يتدلى على جانبيها. وبعد أن قامت أمي بذلك، صعدت إلى سرير مغطى بورق أبيض ليصدر صوت خشخشة الورق مع كل حركة تتحركها. رأيت ظهرها العاري والتجويف الصغير للحم تحت خصرها... لن تموت... ظهرها العاري برهان على ذلك. كنت أحدق به حين دخل الطبيب الحقيقي الغرفة، وقال إن أمي ستكون محظوظة إن عاشت لسنة، وشرح لنا أنهم لن يحاولوا معالجتها لأنها في مرحلة متقدمة من المرض، وليس هناك ما يمكن فعله؛ إذ إنه من الشائع التأخر في تشخيص المرض حين يتعلق الأمر بسرطان الرئة.

قاطعته وكأن بإمكاني تغيير تشخيصه أو كأن السرطان يتحرك بخط منطقي قابل للنقاش:

- لكنها غير مدخنة، فهي لم تدخن إلا حين كانت صغيرة. لم تدخن أمي سيجارة منذ سنوات.

هز الطبيب رأسه بحزن، وأكد أنه بإمكانهم تخفيف الألم في ظهرها بالأشعة التي يمكنها تقليص حجم الورم الممتد على طول عمودها الفقري.

لم أبكِ وإنما تنفست فقط بشكل رهيب، ثم نسيت أن أتنفس. حين كنت في الثالثة من عمري فقدت الوعي، إذ حبست نفسي بسبب غضبي لأنني لا أريد الخروج من حوض الاستحمام. وطوال طفولتي كنت أسأل أمي عما فعلته لتخبرني بالقصة مراراً وتكراراً سعيدة ومندهشة من إرادتي الطائشة. لقد مدت يديها وشاهدتني وأنا أتلون باللون الأزرق، فانتظرتني حتى وقع رأسي في راحتي يديها وأخذت نفساً وعدت للحياة.

تنفسي.

سألت أمي الطبيب الحقيقي:

- أيمكنني امتطاء حصاني؟

جلست وقد جمعت يديها وقدميها إلى بعضهما.

أخرج قلم رصاص وأوقفه بشكل مستقيم على المغسلة ونقر به بقوة على السطح ثم قال:

- هذا عمودك الفقري بعد الأشعة... ضربة واحدة وستنهار عظامك كبسكويتة هشّة.

توجهنا إلى دورات مياه السيدات، ودخلت كل واحدة منا حجيرة منفصلة ونحن نبكي دون أن نتبادل كلمة واحدة، لا لأننا شعرنا بالوحدة في كربنا، وإنما لأننا كنا معًا في ذلك؛ كما لو أننا جسد واحد ولسنا جسدين. أحسست بثقل أمي وهي متكئة على الباب وتضربه بيديها ببطء مما تسبب باهتزاز كامل إطار حجيرات دورات المياه، وبعد قليل خرجنا لنغسل أيدينا ووجهينا وننظر إلى نفسينا في المرآة المشرقة.

أرسلونا إلى الصيدلية لننتظر، حيث جلست بين أمي وإيدي في بذلتي الخضراء وعلى رأسي العقدة الخضراء. كان هناك صبي أصلع كبير في حضن رجل كبير، كما توجد امرأة تدلت ذراعها من مرفقها وقد أمسكتها بيدها الأخرى محاولة تهدئتها وهي تنتظر ونحن ننتظر. وكانت هناك امرأة جميلة بشعر داكن اللون تجلس على كرسي متحرك وترتدي قبعة بنفسجية ومجموعة من الخواتم الماسية. لم نستطع إبعاد أنظارنا عنها وهي تتكلم بالإسبانية مع الناس المتجمعين حولها... عائلتها وربما زوجها.

همست لي أمي بصوت مرتفع:

- أتظنين أنها مصابة بالسرطان؟

جلس إيدي إلى جانبي الآخر، لكنني لم أستطع النظر إليه، فلو نظرت إليه سننهار كلانا كالبسكويت الهش. فكرت بأختي الكبيرة كارين، وأخي الصغير ليف، وبزوجي بول، وبوالدَي أمي وأختها الذين يقطنون على بعد آلاف الأميال... ماذا سيقولون حين يعلمون؟ كيف سيبكون؟ اختلف الكلام الذي رحت أردده الآن: سنة... سنة... سنة... لتنقر تلك الكلمة كنبض القلب في صدري.

هذه هي المدة التي ستعيشها أمي.

سألتها:

- فيم تفكرين؟

كانت هناك موسيقى أغنية منبعثة من مكبرات الصوت في غرفة الانتظار... موسيقى بدون كلمات، لكن أمي تعرف الكلمات لذا بدلاً من أن تجيبني على سؤالي بدأت تدندنها لي بهدوء، ثم وضعت يدها على يدي وقالت:

- كنت أستمع لهذه الأغنية عندما كنت شابة... من المضحك التفكير في ذلك... التفكير في الاستماع إلى الأغنية نفسها الآن... ما كنت لأعلم.

حينها نادوا على أمي، فقد أصبحت وصفتها جاهزة.

- اذهبي وأحضريها لي. أخبريهم من أنت، وقولي لهم إنك ابنتي.

كنت ابنتها وأكثر من ذلك؛ كنا كارن وشيريل وليف... كارن وشيريل وليف... كارن وشيريل وليف. كانت أسماؤنا تمتزج ببعضها في فم أمي طوال حياتها، فقد كانت تهمس بها وتصرخ بها وتدندن بها؛ فقد كنا أطفالها ورفاقها وبدايتها ونهايتها. كانت تسألنا وهي تفتح ذراعيها لستة إنشات:

- هل أحبكم لهذه الدرجة؟ فنجيبها لا، لتفتح يديها أكثر بقليل وتعيد السؤال مراراً وتكراراً وهي تفتح ذراعيها أكثر فأكثر لكنها لا تصل إلى مبتغاها مهما فتحت ذراعيها أكثر. كان مقدار حبها لنا أبعد مما تتصور، ولا يمكن قياسه أو احتواؤه؛ فهو بقدر عشرة آلاف شيء في هذا العالم، وعشرات آلاف المرات أكثر. كان حبها شاملاً وكبيراً وعفوياً.

لقد ترعرعت كابنة جندي كاثوليكية، وعاشت في خمس ولايات مختلفة ودولتين قبل أن تبلغ الخامسة عشرة، وكانت تحب الخيول وهانك ويليامز

ولديها صديقة مفضلة تدعى بابس. وحين بلغت التاسعة عشرة من عمرها حملت فتزوجت من أبي، وبعد ثلاثة أيام ضربها فتركته، ثم عادت إليه، ثم تركته، ثم عادت إليه دون أن تتخذ قراراً حازماً. كان قد كسر أنفها وأطباقها، وكشط الجلد عن ركبتيها وهو يجرها في الطريق في وضح النهار من شعرها لكنه لم يتركها، وحين بلغتُ الثامنة عشرة تركته للمرة الأخيرة.

كانت وحيدة مع كارن وشيريل وليف.

حينها كنا نقطن في بلدة صغيرة على بعد ساعة من مينابوليس في مجمع أبنية شقق تحمل أسماء راقية وخادعة مثل ميل بوند وبارباري نول وتري لوفت وليك غريس مانور، وكانت تتنقل من وظيفة لأخرى؛ حيث عملت كنادلة في مطعم يدعى نورسمان، ثم في مطعم يدعى إنفينيتي حيث كانت ترتدي كنزة سوداء اللون مكتوباً على صدرها بألوان قوس قزح. وكانت تعمل في النهار في مصنع عبوات بلاستيكية تحوي موادّ كيميائية تسبب التآكل بقوة، وتحضر القطع المرفوضة إلى المنزل... من صوانٍ وصناديق متشققة أو مقصوصة أو فيها عيب لنصنع منها ألعاباً... أسرة لدمانا ومطبات لسياراتنا. كانت تعمل وتعمل وتعمل ومع ذلك بقينا فقراء، حيث تلقينا المعونات من الحكومة كالجبن ومسحوق الحليب المجفف وقسائم الطعام وبطاقات المساعدة الطبية والهدايا المجانية من فاعلي الخير في الكريسمس. وكنا نلعب بصناديق بريد الشقق التي لا يمكن فتحها إلا بمفتاح، وننتظر وصول الوصل المالي.

كانت أمي تقول مراراً وتكراراً:

- نحن لسنا فقراء لأننا أغنياء بالحب.

كانت تمزج ملون الطعام مع الماء والسكر وتتظاهر أنه شراب خاص كعصير الليمون أو البرتقال، وكانت تسألنا: «أترغبين بشراب آخر يا سيدتي؟» بصوت بريطاني متعجرف يجعلنا نضحك كل مرة، كما كانت تفتح ذراعيها وتسألنا عن مدى حبها دون أن تكون هناك نهاية للعبة. كانت تحبنا أكثر من أي شيء في العالم، بالإضافة لصفائها وتفاؤلها؛ باستثناء بعض المرات حين تفقد أعصابها وتضربنا بملعقة خشبية أو حين تشتم وتنهار باكية لأننا لم ننظف غرفتنا. كانت لطيفة ومتسامحة وكريمة وبسيطة وتواعد رجالاً أسماؤهم كيلر ودوبي وموتورسايكل دان ورجل يدعى فيكتور يحب النظر إلى السماء الصافية، وكانوا يعطوننا خمسة دولارات لشراء السكاكر من المتجر ليبقوا بمفردهم في الشقة مع أمنا.

وكانت تصرخ وراءنا ونحن ننطلق كمجموعة من الكلاب الجائعة:

- انظروا يميناً ويساراً.

وحين التقت إيدي لم تعتقد أن الأمر سينجح، لأنه كان أصغر منها بثماني سنوات ولكنهما أحبا بعضهما، وقد أحببته أنا وكارن وليف أيضاً. كان في الخامسة والعشرين حين التقيناه، وفي السابعة والعشرين حين تزوج من أمنا وقطع على نفسه عهداً بأن يكون أباً لنا، فغادرنا مجمع الشقق ذات الأسماء الراقية، وانتقلنا معه إلى منزل ريفي مستأجر ومتداع فيه قبو قذر وأربعة ألوان مختلفة من الطلاء من الخارج. وفي الشتاء التالي لزواجه من أمي، سقط إيدي من على السطح في عمله وكسر ظهره، وبعد عام أخذ هو وأمي التعويض بقيمة اثني عشر ألف دولار، واشترى أربعين إكراً من الأرض في مقاطعة أيتكين على بعد ساعة ونصف من دولوث، ودفع ثمنها مباشرة نقداً.

لم يكن هناك منزل قط، وإنما كانت مجرد مساحة من الأشجار والشجيرات والأعشاب والبرك والمستنقعات المرقطة بالنباتات المائية، ولم يكن هناك أي شيء يميزها عن الأشجار والشجيرات والأعشاب والبرك والمستنقعات المحيطة بها من كل اتجاه على بعد أميال، حيث كنا نمشي حول أرضنا خلال الأشهر الأولى من امتلاكها، ونشق طريقنا في البراري من الجانبين المجاورين للطريق كما لو أننا حين نمشي نفصلها عن باقي العالم. ومع الوقت، أصبحت الأشجار التي كانت في ما مضى كأي شجرة أخرى مألوفة لدي كوجوه الأصدقاء القدامى، حيث تلوح أغصانها بمعانٍ مفاجئة، وتشير أوراقها كأيادٍ معروفة لتصبح الحشائش وحواف المستنقعات علامات وإرشادات لا يعرفها سوانا.

كنا ندعو المكان أعلى الشمال في حين كنا لا نزال نقيم في البلدة على بعد ساعة من مينابوليس، إذ بقينا ستة أشهر لا نذهب سوى نحو أعلى الشمال في عطلات نهاية الأسبوع، ونعمل بجد لتهيئة قطعة أرض وبناء كوخ من غرفة واحدة حيث يمكننا النوم نحن الخمسة. وفي بداية يونيو، حين كنت في الثالثة عشرة من العمر انتقلنا نحو أعلى الشمال أو بالأحرى انتقلت أمي وليف وكارن وأنا مع حصانينا وقططنا وكلابنا وصندوق يحتوي على عشرة صيصان حصلت عليها أمي مجاناً من متجر طعام للحيوانات لشرائها خمسة وعشرين باونداً من طعام الدجاج، بينما كان إيدي يقود سيارته في عطلات نهاية الأسبوع طوال الصيف وقد تعافى ظهره بالكامل حيث أصبح بإمكانه العمل مجدداً، كما ضمن عملاً كنجار خلال موسم الذروة الذي انقضى بسرعة.

وهكذا بقينا كارن وشيريل وليف لوحدنا مع أمنا كما كنا من قبل خلال سنوات عزوبيتها، وسواء أكنا نائمين أو مستيقظين فإننا نادراً ما نغيب عن أنظار بعضنا، ونادراً ما نرى أحداً آخر؛ إذ إننا نبعد عشرين ميلاً عن البلدات الصغيرة في الاتجاهات الأخرى، حيث تحدّنا بحيرة موس من الشرق وماك غريغور من الشمال الغربي. وفي الخريف، ذهبنا إلى مدرسة في ماك غريغور؛ البلدة الصغيرة التي يبلغ تعداد سكانها أربعمائة. أما في الصيف فكنا نبقى وحدنا مع أمنا باستثناء بعض المرات التي يزورنا فيها الجيران البعيدون الذين يمرون ليعرّفوا عن أنفسهم، وهكذا كنا نتشاجر ونتكلم ونختلق الدعابات والخدع لتمضية الوقت.

كنا نسأل بعضنا مراراً وتكراراً: من أنا؟ ونلعب لعبة ينبغي فيها على الشخص النكرة أن يفكر بشخص شهير أو لا، وعلى الآخرين تخمين هويته بالاعتماد على عدد لا متناهٍ من الأسئلة التي تحتاج إلى إجابة بكلمة نعم أو لا. هل أنت رجل؟ هل أنت أمريكي؟ هل أنت ميت؟ هل أنت تشارلز مانسون؟

كنا نلعب ونحن نزرع ونعتني بالحديقة التي ستطعمنا طوال الشتاء؛ بتربة لم يتم الاعتناء بها منذ ألف عام، أو ونحن نتقدم في إنشاء المنزل الذي كنا نبنيه على الجانب الآخر من أرضنا ونأمل إكماله مع نهاية فصل الصيف بينما يهاجمنا البعوض، لكن أمنا منعتنا من استخدام أي مادة كيماوية مؤذية للدماغ أو ملوثة للأرض، وبدلاً من ذلك أمرتنا بدهن أجسادنا بزيت النعناع. وفي المساء، كنا نتسلى بعد القرصات على أجسادنا على ضوء الشموع، ليكون العدد تسعاً وسبعين أو ستاً وثمانين أو مائة وثلاثة.

كانت أمي تقول لنا دائماً حين نتذمر– أنا وأخواي– بشأن الأمور التي تنقصنا:

- يوماً ما ستشكرونني على هذا.

لم نكن نعيش برفاهية أو حتى بمستوى الطبقة الوسطى، ولكن لدينا جميع وسائل الراحة في العصر الحديث. إذ دائماً ما كان لدينا تلفاز في منزلنا، بالإضافة إلى مرحاض بتمديدات صحية، وصنبور حيث يمكنك الحصول على كأس من الماء، أما في حياتنا الجديدة فحتى الحصول على أبسط الاحتياجات يحتاج إلى سلسلة مرهقة من المهام الصارمة والمليئة بالأعمال اليدوية. كان مطبخنا يحتوي على موقد تخييم وصندوق ثلج قديم الطراز ويعتمد على الجليد للحفاظ على برودة الأشياء، وبالوعة منفصلة ناتئة من جدار خارجي للكوخ، وجردل ماء مع غطاء. كانت جميع الأغراض تحتاج لجهد أقل بقليل مما تمنحه،

كما أنه تلزمها عناية مستمرة، حيث يتم ملؤها وتفريغها وسحبها ورميها وقلبها وتعبئتها وتخزينها ومراقبتها.

كنا أنا وكارن نتشارك سريراً على منصة مرتفعة مبنية بالقرب من السقف؛ حيث كان بالكاد يمكننا الجلوس، في حين نام ليف على بعد بضع أقدام على منصته الصغيرة الخاصة، بينما نامت أمي في سرير في الطابق الأسفل مع إيدي في عطلات نهاية الأسبوع. وفي كل ليلة، كنا نتكلم معاً حتى يغلبنا النوم. كانت هناك نافذة في السقف ليدخل منها نور السماء على طول سرير المنصة الذي أتشاركه مع كارن، ولا يبعد إفريزها إلا بضع أقدام عن وجهينا لترافقني في كل ليلة السماء السوداء والنجوم الساطعة، ويظهر لي أحياناً جمالها ووقارها فأدرك بطريقة مؤلمة أن أمي محقة، وأنني يوماً ما سأشعر بالامتنان لها، وأنني ممتنة حالياً لأن هناك شيئاً ما يكبر بداخلي... شيئاً قوياً وحقيقياً.

كان ذلك الشيء الذي كبر بداخلي هو ما سأذكره بعد سنوات، حين أصبحت حياتي مغلفة بالأسى... الشيء الذي سيجعلني أعتقد أن المشي في طريق جبال المحيط الهادئ هو أسلوبي للعودة إلى الشخص الذي كنت عليه.

وفي ليلة الهالوين انتقلنا إلى المنزل الذي بنيناه من الأشجار والخشب دون أي كهرباء أو تمديدات مياه أو هاتف أو دورة مياه في الداخل، أو حتى غرفة واحدة بباب. وطوال سنوات المراهقة، كانت أمي وإيدي يعملان باستمرار على بنائه واضعين إضافات وتحسينات. فقد زرعت أمي حديقة، وقامت بتعبئة الخضروات وحفظها وتجميدها في الخريف، كما كانت تصنع شراباً من لحاء الشجر، وتخبز الخبز، وتصنع الصوف، وتصنع صباغ الأقمشة من أوراق البروكلي والهندباء البرية.

ترعرعت وغادرت المنزل إلى جامعة تدعى سانت توماس لكن مع أمي؛ حيث ذكرت رسالة القبول أنه يمكن لآباء الطلاب وأمهاتهم حضور دروس في سانت توماس مجاناً، ولطالما كانت أمي ترغب بالحصول على شهادة، وكنا نضحك على الأمر مع بعضنا ثم نفكر فيه لوحدنا. فحين ناقشنا الأمر، قالت أمي إنها الآن في الأربعين من عمرها، وقد كبرت على دخول الجامعة وكان كلامها صحيحاً، كما أن سانت توماس تبعد ثلاث ساعات بالسيارة. ناقشنا الأمر مراراً وتكراراً حتى توصلنا إلى اتفاق بأن تذهب إلى سانت توماس، لكننا سننفصل عن بعضنا في حياتينا حسب رغبتي؛ حيث سأنام في السكن الجامعي، في حين أنها ستقود سيارتها ذهاباً وإياباً، وفي حال التقينا في الجامعة عليها ألا تقترب مني إلا إن اقتربت منها أنا أولاً.

وقد قالت لي ونحن نتفق على التفاصيل:

- ربما يكون كل هذا بلا طائل، فأنا على الأغلب لن أكمل.

وكاستعداد، اطلعت خلال الأشهر الأخيرة من الثانوية على جميع الواجبات المدرسية الموكلة إليّ لتنمي مهاراتها، كما عملت على أوراق العمل نفسها وكتبت الأبحاث نفسها التي علي كتابتها، وقرأت جميع الكتب، في حين كنتُ أقوم بتقييم عملها باستخدام علامات أساتذتي كدليل، وفي أفضل الحالات كنت أعتبرها طالبة مهددة بالرسوب.

لكنها حين ذهبت إلى الجامعة حصلت على درجات ممتازة.

وأحياناً حين كنت أراها في الجامعة كنت أعانقها بحرارة، في حين كنت أتجاهلها في أحيان أخرى؛ وكأنها لا تعني لي شيئاً.

كنا كلتانا في السنة الأخيرة من الجامعة حين علمنا أنها مصابة بالسرطان، ولم نكن حينها في سانت توماس، وإنما انتقلنا كلتانا إلى جامعة مينيسوتا بعد تلك السنة الأولى... هي إلى فرع مدينة دولوث وأنا إلى فرع مينابوليس، وكنا في غاية السعادة لكون اختصاصينا متشابهين؛ فقد كانت تدرس دراسات المرأة والتاريخ، في حين درست أنا دراسات المرأة واللغة الإنكليزية. وفي الليل، كنا نتكلم لساعة عبر الهاتف، حيث كنت متزوجة من رجل طيب يدعى بول تزوجته في الغابات في أرضنا، حيث ارتديت ثوباً من الحرير الأبيض حاكته لي أمي.

بعد مرضها تغيرت حياتي بالكامل، وطلبت من بول أن لا يعتمد عليّ؛ إذ إنني سآتي وأذهب وفقاً لاحتياجات أمي. وحين فكرت بترك الجامعة أمرتني أمي أن لا أفعل وتوسلت إلي أنه مهما حصل علي الحصول على الشهادة، فهي نفسها أخذت قسطاً من الراحة وستتخرج قريباً بعد إنهائها مقررين؛ إذ كانت مصممة على الحصول على الشهادة حتى لو كان ذلك سبب موتها، فضحكنا ثم نظرنا إلى بعضنا بوجوم. وهكذا، كانت أمي تقوم بعملها من سريرها، وتخبرني بما تريد مني أن أطبعه لها؛ فهي ستكون قوية بما يكفي لتبدأ بذينك المقررين حالاً. وبقيت أنا في الجامعة بعد أن أقنعت أساتذتي أن يسمحوا لي بالحضور ليومين في الأسبوع فقط. وما إن ينتهي ذانك اليومان كنت أنطلق إلى البيت لأبقى مع أمي، وبعكس كارن وليف اللذين لم يعودا يحتملان البقاء بجانب أمي منذ مرضت، لم أعد أنا أحتمل البعد عنها، كما أنها بحاجة لي، فعلى الرغم من بقاء إيدي معها عندما يستطيع لكن لديه عملاً ليدفع الفواتير.

طهوت الطعام الذي حاولت أمي تناوله، لكنها نادراً ما كانت تستطيع الأكل. فقد كانت تظن أنها جائعة، وحين أحضِّر لها الطعام كانت تجلس كسجين وتحملق بالطعام في طبقها وتقول:

- يبدو شهياً... أظن أنني سأتمكن من تناوله لاحقاً.

كنت أنظف الأرضيات، وأخرج كل شيء من الخزائن وأضع أوراقاً جديدة، في حين بقيت أمي نائمة تئن وتتناول حبوب الدواء. وفي بعض الأيام الجيدة، كانت تجلس على كرسي وتتكلم معي.

لم يكن هناك الكثير لأقوله، ولكنني كنت أعلم أن حبها لي أكبر من عشرة آلاف شيء، ومن عشرة آلاف شيء أكبر منها، وكنت أعلم أسماء الخيول التي كانت تحبها حين كانت فتاة: بال وبادي وباكوس، كما كنت أعلم أنها فقدت عذريتها في سن السابعة عشرة مع فتى يدعى مايك، وأعلم كيف التقت أبي في السنة التالية، وكيف بدا لها في لقاءاتهما القليلة الأولى، وكيف أنها حين أعلنت عن حملها أوقع أبوها الملعقة من يده، وأعلم أنها كانت تمقت الاعتراف ولكنها اعترفت، وكيف أنها كانت ترتدي ثوباً وهي خارجة من البيت إلى المدرسة وفي الطريق تستبدله بسروال الجينز المخبأ في حقيبتها. كنت طوال طفولتي أسأل وأسأل لأجعلها تصف لي تلك المشاهد وأكثر لأعرف من قال ماذا وكيف وبماذا شعرت أثناء حصول الأمر، وقد أخبرتني بمرح أو معارضة وهي تضحك وتسألني عن سبب رغبتي بأن أعرف، لكن لم يكن لدي تفسير؛ فأنا أريد أن أعرف فحسب.

لكن الآن وهي تموت كنت أعرف كل شيء، فأمي كانت بداخلي؛ لا الأجزاء التي أعرفها منها فحسب، وإنما الأجزاء التي تصادفني.

ولم يمر وقت طويل حتى أصبحت مضطرة للسفر ذهاباً وإياباً بين مينابوليس والمنزل. وبعد أقل من شهر أصبحت فكرة أن أمي ستعيش سنة حلماً حزيناً، فقد ذهبنا إلى عيادة مايو في 12 فبراير ليحددوا لها موعداً في الثالث من مارس لتذهب إلى المشفى في دولوث على بعد سبعين ميلاً لأنها كانت تعاني من آلام شديدة. وبينما كانت ترتدي ثيابها لم تستطع ارتداء جوربيها فنادتني إلى غرفتها وطلبت المساعدة. جلست على السرير ونزلت أنا على ركبتي... لم أكن قد ساعدت أحداً من قبل بارتداء جوربيه، وقد كان الأمر أصعب مما تصورت، فالجوربان لم ينزلقا على بشرتها بسهولة؛ مما أزعجني من أمي كما لو أنها تتعمد منع قدميها من دخول الجوربين في حين جلست هي متكئة للخلف ومغمضة عينيها، وأنا أسمع صوت تنفسها العميق والبطيء.

قلت لها:

- تباً... ساعديني.

نظرت إليّ أمي ولم تقل كلمة لبضع لحظات، ثم قالت وهي تحدق في وتربت بيدها على رأسي:

- حبيبتي.

كانت تستخدم هذه الكلمة كثيراً في طفولتي، وما أزعجني من أمي هو تقبلها للمعاناة وابتهاجها وتفاؤلها غير المتناهيين.

قلت وأنا أصارع مع حذائها:

- لنذهب.

كانت حركتها بطيئة وثقيلة وهي ترتدي معطفها وتمسك بالجدار وتشق طريقها عبر المنزل بينما يتبعها كلباها الحبيبان وهما يشماها من يديها وفخذيها. راقبتها وهي تربت على رأسيهما ثم قالت:

- وداعاً يا عزيزيّ... وداعاً أيها المنزل.

وتبعتني خارجة من الباب.

لم يخطر ببالي أن أمي ستموت إلا حين كانت تحتضر، فتلك الفكرة لم تدخل رأسي قط، فقد كنت أثق في أنها ستهرم وتبقى تعمل في الحديقة، فتلك الصورة كانت ثابتة في رأسي كواحدة من ذكريات طفولتها التي جعلتها تشرحها لي بالتفصيل، حيث تذكرتها كما لو أنها من طفولتي. ستكبر وتبقى جميلة كصورة جورجيا أوكيف بالأبيض والأسود التي أرسلتها لها مرة، وقد تمسكت بتلك الصورة خلال الأسابيع الأولى بعد مغادرتنا لعيادة مايو، ثم تم إدخالها إلى المشفى في دولوث لتضمحل تلك الصورة وتفسح المجال لصور أخرى أكثر بساطة وواقعية. تصورت أمي في أكتوبر وكتبت المشهد في ذهني، ثم تصورتها في أغسطس، ثم في مايو لتمر الأيام والشهور بسرعة.

في يومها الأول في المشفى، عرضت ممرضة على أمي المورفين ولكنها رفضت وقالت:

- المورفين يعطونه للناس الذين يحتضرون، وهو يعني أنه ما من أمل.

لكنها لم تستطع الامتناع عنه إلا ليوم واحد؛ حيث نامت واستيقظت وضحكت وبكت من الألم في حين بقيت ملازمة لها طوال النهار ليحل إيدي محلي في الليل. أما كارن وليف فبقيا بعيدين ليقدما الأعذار غير المقبولة على الرغم من أن غيابهما لم يكن يبدو أنه يزعج أمي، فقد كانت مشغولة بالتخلص من ألمها؛ وهي مهمة مستحيلة في الفترات بين جرعات المورفين. لم يكن باستطاعتنا تهيئة الوسائد لها بالشكل الصحيح، وفي أحد الأيام جاء إلى الغرفة طبيب لم نره من قبل وشرح لنا أن أمي تحتضر.

فقلت باشمئزاز:

- لكن، لم يمض سوى شهر، وقد أخبرنا الطبيب الآخر أنها ستعيش سنة.

لم يجبني، وإنما وقف بجوار أمي ومد يده اللطيفة المكسوة بالشعر إلى جيبه، ونظر إليها على السرير وقال:

- منذ هذه اللحظة فصاعداً سيكون جل اهتمامنا منصباً على راحتها.

راحتها... لكن الممرضين كانوا يحاولون إعطاءها أقل جرعة من المورفين. كان هناك ممرض رجل، وقد رغبت بشدة في أن أقنعه بمساعدتنا، وأحطم قلبه حزناً علينا.

وحين طلبت منه أمي المزيد من المورفين، طلبته بطريقة لم أسمع أحداً يطلب بها من قبل... كالكلب المسعور... لم ينظر إليها حين طلبته منه وإنما إلى ساعة معصمه، بينما احتفظ بالتعابير نفسها على وجهه بغض النظر عن الجواب. أحياناً كان يعطيها إياه بدون كلمة، وأحياناً كان يقول لها لا بصوت ناعم. كانت أمي تتوسل وتئن ثم تبكي لتنهمر دموعها في الاتجاه الخطأ... ليس على وجنتيها الناعمتين باتجاه فمها، وإنما بعيداً عن طرفي عينيها نحو أذنيها وإلى شعرها على السرير.

لم تعش أمي لسنة، ولا حتى لأكتوبر أو أغسطس أو مايو، وإنما عاشت تسعة وأربعين يوماً بعد أن أخبرها أول طبيب في دولوث أنها مصابة بالسرطان، وأربعة وثلاثين يوماً بعد أن أكد لها الطبيب في عيادة مايو ذلك. لكن كل يوم منها كان كابوساً بلا نهاية.

لم يأتِ ليف لزيارتها، في حين جاءت كارن مرة بعد أن أصررت على ذلك، فقد كنت غاضبة وحزينة ولكن أختي كانت تقول:

- لا أريد أن أراها بذلك الشكل.

وبعد ذلك كانت تنفجر باكية. لم أستطع الحديث مع أخي، فمكانه خلال تلك الأسابيع كان أمراً غامضاً بالنسبة لي ولإيدي، فأحد أصدقائه أخبرنا أنه مقيم مع فتاة تدعى سو في سانت كلاود، في حين رآه آخر يصيد السمك في الجليد في بحيرة شيريف، ولم يكن لدي متسع من الوقت لأقوم بشيء تجاهه؛ فقد كانت أيامي كلها مليئة بجانب أمي وأنا أحمل أوعية بلاستيكية لتتقيأ فيها، وأعدل لها الوسائد مراراً وتكراراً، وأرفعها على مرحاض السرير الذي وضعته الممرضة بجانب سريرها، وأساعدها في تناول لقمة طعام لتتقيأها بعد عشر دقائق. وفي معظم الأحيان كنت أراقبها وهي نائمة. وقد كانت تلك أصعب مهمة... أن أراها نائمة لكن وجهها لا يزال محتداً من الألم، ومع كل حركة كانت الأنابيب المتدلية حولها تتأرجح، في حين يتسارع نبض قلبي خوفاً من أن تحرك الإبر التي تصل الأنابيب بيديها وعروقها المتورمة.

وحين تستيقظ كنت أسألها بأمل وأنا أربت على شعرها:

- كيف حالك؟

لكنها في كل مرة لا تقول لي سوى:

- آه يا حبيبتي.

ثم تشيح بناظريها بعيداً.

أثناء نوم أمي كنت أجول في ممرات المشفى محاولة استراق النظر إلى غرف المرضى الآخرين وأنا أمر بأبوابهم لألمح رجالاً كباراً في السن يسعلون بشدة وقد تلونت بشراتهم، ونساء يضعن ضمادات على ركبهن البدينة.

وكانت الممرضات يسألنني بنبرة حزينة:

- كيف حالك؟

- نحن بخير.

كانت تلك إجابتي، وكأننا نحن، لكنني كنت أنا وحدي، فزوجي بول كان يقوم بكل ما يمكنه ليخفف من شعوري بالوحدة؛ إذ كان الرجل اللطيف والحنون الذي أحببته قبل بضع سنوات نفسه... الرجل الذي أحببته بشدة، وصدمت الجميع بزواجي منه بمجرد بلوغي العشرين من العمر. لكن، ما إن

بدأت أمي تحتضر بدأ شيء ما بداخلي يموت تجاه بول مهما فعل أو قال. ومع ذلك، كنت أتصل به يومياً من الهاتف المدفوع مسبقاً في المشفى خلال الأمسيات الطويلة لنتحادث أحاديث طويلة أبكي خلالها، وأخبره بكل شيء، وقد يبكي معي ويحاول تخفيف الأمر عني، لكن كلماته كانت تبدو لي جوفاء وكأنني لم أعد أستطيع سماعها... ما الذي يعرفه عن الفقدان؟ والداه ما زالا على قيد الحياة ومتزوجين وسعيدين مع بعضهما. وهكذا، بدأ ارتباطي به وبحياته غير المتأثرة يزيد من ألمي... لم يكن ذلك خطأه، ولكنني لم أعد أحتمل البقاء معه ولا مع أي أحد آخر. كان الشخص الوحيد الذي أحتمل البقاء معه هو أكثر شخص لا يحتمل: أمي.

في الصباح كنت أجلس بجوار سريرها، وأحاول القراءة لها. إذ كان معي كتابان كنا نقرأهما في الجامعة ونحبهما، لذا بدأت بهما، ولكنني لم أستطع الاستمرار؛ فكل كلمة تكلمتها كانت تمحي نفسها في الهواء.

وخلال آخر يومين من حياة أمي، كانت صحتها متقلبة بشدة؛ فقد كانت تتناول حقن المورفين من كيس كبير من السوائل المتدفقة ببطء في أنبوب موصول بمعصمها، وحين كانت تستيقظ كانت تقول: «آه... آه» وتأخذ شهيقاً كبيراً، ثم تنظر إليّ ليلوح في عينيها بريق الحب، وأحياناً كانت تعود للنوم وكأنني لست هناك، وأحياناً حين تستيقظ لم تكن تعرف أين هي، وكانت تطلب الشطائر المكسيكية وصلصة التفاح، كما كانت تظن أن جميع الحيوانات التي أحبتها موجودة في الغرفة معها وقد كانت تلك الحيوانات كثيرة؛ إذ كانت تقول:

- ذلك الحصان داس علي.

وكانت تنظر إليه باتهام، أو تحرك يديها لتربت على قطة خفية نائمة في حضنها. في ذلك الحين، كنت أريد من أمي أن تخبرني أنني كنت أفضل ابنة في العالم... لم تعجبني تلك الرغبة لكنني لم أستطع كبحها؛ كما لو أنها حمى شديدة لا يمكن تخفيفها سوى بتلك الكلمات. لذا سألتها بصراحة:

- هل كنت أفضل ابنة في العالم؟

فأجابتني أنني كنت كذلك بالطبع.

لكن ذلك لم يكن كافياً، فأنا أريد أن تتشابك تلك الكلمات في ذهن أمي وتخبرني بها.

لقد كنت شديدة التوق للحب.

توفيت أمي بسرعة، ولكن ليس فجأة... نار تشتعل ببطء حين يختفي اللهب ويتحول إلى دخان، ثم يتحول الدخان إلى هواء، ولم يكن معها وقت طويل لتنحل؛ فقد تغيرت لكنها كانت لا تزال ممتلئة عند موتها... جسد امرأة بين الأحياء، كما أن شعرها البني والهش مشعث من الاستلقاء في السرير لأسابيع.

من الغرفة التي توفيت فيها، كان بإمكاني رؤية بحيرة سوبيريور العظيمة من النافذة؛ وهي أكبر بحيرة في العالم وأكثرها برودة. ضغطت بوجهي بقوة على الزجاج لأرى جزءاً منها يمتد في الأفق بلا نهاية.

تعجبت أمي على الرغم من أنها كانت واهنة للغاية لتنهض وترى البحيرة بنفسها:

- غرفة ذات إطلالة! لقد انتظرت طوال حياتي لأحصل على غرفة بإطلالة.

كانت تريد أن تموت جالسة، لذا أخذت جميع الوسائد التي وصلت إليها يداي وصنعت لها مسنداً لظهرها. كنت أرغب بإخراجها من المشفى وأخذها إلى حقول شجيرات الألفية لتموت فيها. كنت قد غطيتها بلحاف أحضرته معي من المنزل وكانت قد حاكته بنفسها من قطع ملابسنا القديمة.

صرخت بوحشية ثم ركلت بقدميها كسباحة تشق طريقها:

- أخرجيه من هنا.

شاهدت أمي بينما انزلقت الشمس عن الممرات والمرتفعات المغطاة بالثلوج... كان ذلك يوم باتريك، وتبين أنه آخر يوم كامل من حياتها، وقد بقيت عيناها مفتوحتين وثابتتين بدون أن تنام أو تستيقظ، وإنما كانت تعاني من الهلوسات.

في تلك الأمسية تركتها على الرغم من أنني لم أكن أريد ذلك، لكن الممرضات والأطباء أخبرونا أنا وإيدي أن الأمر قد انتهى، لكنني فهمت الأمر على أنه يعني أنها ستموت خلال بضعة أسابيع، فقد كنت أظن أن مرضى السرطان يستغرقون وقتاً حتى يموتوا، واتفقنا أن يأتي بول وكارن معاً من مينابوليس في الصباح التالي، وأن يأتي والدا أمي من ألاباما خلال بضعة أيام، لكن ليف كان لا يزال مختفياً، فقد اتصلت أنا وإيدي بأصدقاء ليف وأهل أصدقائه وتركنا له رسائل توسل وطلبنا منه أن يتصل لكنه لم يتصل، وقد قررت مغادرة المشفى لليلة واحدة لأجده وأحضره إلى المشفى للمرة

الأخيرة، فقلت لأمي وأنا أنظر إلى إيدي الذي كان مستلقياً على الأريكة الصغيرة:

- سأعود في الصباح... سأعود مع ليف.

حين سمعت باسمه فتحت عينيها الزرقاوين اللامعتين كما هما دائماً دون أن تتغيرا، فسألتها بمرارة للمرة الأخيرة ربما:

- كيف لا تغضبين منه؟

كانت في العادة تجيبني:

- لا يمكنك عصر الدم من اللفت.

أو:

- إنه في الثامنة عشرة فحسب يا شيريل.

لكنها هذه المرة اكتفت بالتحديق بي وقالت:

- حبيبتي.

كما فعلت حين غضبت بشأن جوربيها، أو كما فعلت حين كانت تراني أعاني لأنني أردت شيئاً مختلفاً عن وضعه وكانت تحاول إقناعي بتلك الكلمة وحدها أنه عليّ قبول الأشياء كما هي.

فقلت:

- سنجتمع كلنا غداً وسنبقى جميعنا هنا معك... اتفقنا؟ لن يغادر أحد منا.

ومددت يدي بين الأنابيب المتدلية حولها وربت على كتفها وقلت وأنا أقبل وجنتها:

- أحبك.

لكنها أبعدتني عنها من الألم الشديد؛ إذ لم تكن تحتمل القبلة حتى، وهمست بوهن:

- أحبك.

ركبت المصعد وخرجت إلى الشارع البارد ومشيت على الرصيف لأمر بمقهى مليء بالناس الذين رأيتهم عبر نافذة زجاجية كبيرة... كانوا جميعهم يرتدون قبعات ورقية خضراء براقة وقمصاناً خضراء وحمالات سراويل خضراء ويحتسون الشراب الأخضر. التقت عيناي عيني رجل في الداخل فأشار لي وقد ظهرت على وجهه تعابير الضحك الصامت.

قدت السيارة إلى المنزل، وأطعمت الخيول والدجاج، وأمسكت بالهاتف بينما كانت الكلاب تلعق يديّ، وبينما كان القط يتمسح بي. اتصلت بكل من قد يكون لديه علم بمكان أخي فأخبرني بعضهم أنه يفرط في تناول الشراب، وأكد لي آخرون أنه كان يتسكع مع فتاة من سانت كلاود تدعى سو، وفي منتصف الليل رن الهاتف وأخبرته أن الكيل طفح.

أردت الصراخ في وجهه حين دخل من الباب بعد نصف ساعة، وأن أوبّخه وأتهمه، ولكنني حين رأيته كل ما أمكنني فعله هو أن أمسكه وأبكي؛ فقد بدا لي كبيراً للغاية تلك الليلة، مما جعلني أشعر كم كان صبياً صغيراً من قبل... الصبي الصغير... الصبي الذي كنت شبه أم له طوال حياتي ليس باختياري وإنما لأساعد أمي أثناء غيابها في العمل. كان فارق السن بيني وبين كارن ثلاث سنوات، لكننا تربينا كتوأم فقد كنا كلتانا مسؤولتين عن ليف كطفل.

ظل يردد باكياً:

- لا يمكنني فعل ذلك... لا يمكنني العيش دون ماما... لا يمكنني... لا يمكنني... لا يمكنني.

فأجبته على الرغم من أنني لم أكن أصدق ذلك:

- علينا فعل ذلك.

استلقينا هناك معاً في سريره المفرد نتكلم ونبكي حتى استسلمنا للنوم جنباً إلى جنب.

استيقظت بعد بضع ساعات، وقبل أن أوقظ ليف أطعمت الحيوانات، وملأت أكياساً من الطعام لنتناوله خلال بقائنا في المشفى. وبحلول الساعة الثامنة، كنا في طريقنا إلى دولوث حيث قاد أخي سيارة أمي بسرعة، وقد صدح صوت الموسيقى من مكبرات الصوت. كنا ننصت للموسيقى دون كلام وقد سطعت الشمس على الثلج على جانبي الطريق.

حين وصلنا إلى غرفة أمي في المشفى، رأينا ورقة معلقة على الباب المغلق مكتوباً عليها أنه ينبغي لنا أن نراجع مكتب التمريض قبل الدخول. كان ذلك أمراً جديداً، لكنني افترضت أنه إجراء روتيني. وبينما كنا نمشي نحو المركز، اقتربت منا ممرضة في الممر وقالت لي قبل أن أتكلم:

- وضعنا الثلج على عينيها، فقد أرادت التبرع بقرنتيها، لذا علينا أن نبقي الثلج...

قلت بقوة جعلتها تقفز:

- ماذا؟

لم أنتظر ردها، وإنما ركضت نحو غرفة أمي بينما ركض أخي خلفي. وحين فتحت الباب، وقف إيدي وجاء إلينا فاتحاً ذراعيه، لكنني ابتعدت عنه واتجهت إلى أمي. كانت ذراعاها ثابتتين على جانبيها؛ صفراوين وبيضاوين وسوداوين وزرقاوين بعد إزالة الإبر والأنابيب، وقد غطوا عينيها بكيسين طبيين مليئين بالثلج، وحين تشبثت بها انزلق الكيسان وسقطا على السرير ثم على الأرض.

بكيت وبكيت وبكيت وأنا أدفن وجهي في جسدها كحيوان... كانت قد ماتت قبل ساعة، وقد بردت أعضاؤها لكن بطنها ما زال دافئاً، فدفنت وجهي في دفئها وبكيت أكثر.

كنت قد حلمت بها باستمرار، حيث كنت أرى نفسي بجانبها دائماً حين تموت... كنت أنا من يقتلها... مرة تلو الأخرى فالأخرى. كانت قد أمرتني بفعل ذلك، وفي كل مرة كنت أركع على ركبتيّ وأبكي وأتوسل إليها أن لا تدفعني لفعل ذلك، لكنها لا تلين. وفي كل مرة كنت أذعن، حيث كنت أربطها بشجرة في باحة بيتنا الأمامية وأصب عليها البنزين ثم أضرم النار بها، أو كنت أدعها تركض في الطريق الترابي الذي يمر أمام المنزل الذي بنيناه ثم أدهسها بشاحنتي الصغيرة، أو كنت أحضر مضرب بيسبول وأضربها به حتى الموت ببطء وصلابة وحزن، أو أحشرها في حفرة كنت قد حفرتها ثم ألقي عليها التراب والحجارة وأدفنها حية. لم تكن تلك الأحلام سريالية وإنما كانت تراودني في وضح النهار... كانت الأفلام الوثائقية للاوعي، وبدت لي حقيقية كأنها الواقع.

لم أكن أستيقظ من تلك الأحلام باكية، وإنما أستيقظ وأنا أصرخ، في حين يمسكني بول ويحضنني حتى أهدأ. بللت قطعة قماش بالماء البارد،

وغطيت بها وجهي لكن تلك الأقمشة لم تستطع تخليصي من أحلامي حول أمي.

لا شيء يمكنه ذلك... لا شيء يمكنه إعادة أمي أو يعوضني عن رحيلها... لا شيء سيضعني بجانبها لحظة وفاتها. كان ذلك يحطمني ويعذبني ويمزقني.

وقد استغرق معي الأمر سنوات لآخذ مركزي بين عشرة آلاف شيء، وأصبح المرأة التي ربتها أمي، وأتذكر كيف كانت تقول لي «حبيبتي»، وأتصور نظرتها الفريدة... سأعاني... سأعاني... إذ إنني أريد الأشياء أن تكون مختلفة عما هي عليه... كانت رغباتي كالبراري، وعلي إيجاد طريقي خارجها. استغرق معي الأمر أربع سنوات وسبعة أشهر وثلاثة أيام للقيام بذلك... لم أكن أعلم إلى أين أنا ذاهبة حتى وصلت إلى هناك.

كان مكاناً يدعى جسر الآلهة.

2

الانفصال

إن كان علي رسم خريطة لتلك السنوات الأربعة لتوضيح الفترة الزمنية بين وفاة أمي واليوم الذي بدأت فيه رحلتي مشياً على الأقدام على طريق جبال المحيط الهادئ فستكون الخريطة مجموعة متشابكة من الخطوط في جميع الاتجاهات، تقع مينيسوتا في مركزها. حيث توجهت إلى تكساس وعدت منها، ثم إلى نيويورك وعدت منها، ثم إلى نيو مكسيكو وأريزونا ونيفادا وكاليفورنيا وأوريغون وعدت منها، وبعدها إلى وايومينغ وعدت منهما، وإلى بورتلاند وأوريغون وعدت منهما، وإلى بورتلاند وعدت منها مجدداً. لكن تلك الخطوط لن تروي القصة وإنما ستلقي الضوء على جميع الأماكن التي ركضت إليها، ولكن ليس كل الطرق التي جربتها لأبقى. ولن أريكم كيف أنني خلال الأشهر التالية لوفاة أمي حاولت وفشلت في تولي مهمتها لأحافظ على عائلتنا مجتمعة، أو كيف جاهدت لأنقذ زواجي حتى حين كنت أخربه بكذبي، وسيبدو الأمر كأنه تلك النجمة التي تنبعث منها الخطوط المتلألئة.

حين وصلت إلى بلدة موهافي في كاليفورنيا في الليلة السابقة لبدء رحلتي مشياً على الأقدام في طريق جبال المحيط الهادئ كنت قد خرجت من مينيسوتا للمرة الأخيرة بعد أن أخبرت أمي وكأنها تسمعني حيث جلست عند مجموعة الورود في الغابات على أرضنا– حيث قمنا أنا وإيدي وبول وأخواي بمزج رماد جثتها بالتراب ووضع حجر الضريح– وشرحت لها أنني لن آتي للعناية بقبرها بعد الآن، مما يعني أن أحداً لن يفعل ذلك. وفي النهاية، لم يعد أمامي خيار سوى أن أترك قبرها للشجيرات والأغصان المنخفضة وأكواز الصنوبر المتساقطة والثلج وما تريد النمال والغزلان والدببة السوداء ويسروع الأرض أن تفعله به. أخبرتها أن الأمور على ما يرام، وأنني استسلمت، وأنه منذ وفاتها وكل شيء تغير... أشياء ما كانت لتتخيلها أو تخمنها. جاءت كلماتي بصوت منخفض وثابت، وكنت في غاية الحزن لدرجة أنني شعرت أن شخصاً ما يخنقني، لكن بدا لي أن حياتي بكاملها معتمدة على إفصاحي عن تلك الكلمات. أخبرتها أنها ستظل أمي دائماً وأبداً ولكن علي الرحيل، فأنا لم أعد أجدها عند الأزهار وإنما وضعتها في مكان آخر... في المكان الوحيد الذي يمكنني الوصول إليها فيه... في قلبي.

في اليوم التالي، غادرت مينيسوتا إلى الأبد لأقوم برحلتي مشياً على الأقدام على طريق جبال المحيط الهادئ.

في الأسبوع الأول من يونيو قدت شاحنتي الصغيرة شيفي لوف إلى بورتلاند وقد حمّلتها بعشرات صناديق الأطعمة المجففة، وأمضيت الأسابيع السابقة وأنا أرتبها وأوجّه كل صندوق لنفسي في أماكن لم أزرها قط... مواقف على طول طريق جبال المحيط الهادئ بأسماء مثيرة للذكريات كبحيرة إيكو وينابيع صودا وشلالات بيرني ووادي سياد، وتركت شاحنتي الصغيرة والصناديق مع صديقتي ليزا في بورتلاند لترسل لي الصناديق طوال الصيف، ثم استقللت الطائرة إلى لوس أنجلوس، وبعدها ركبت السيارة إلى موهافي مع أخ صديقتي.

توقفنا في المدينة في بداية المساء بينما كانت الشمس تغرب في جبال تيهاشابي على بعد عشرات الأميال وراءنا غرباً... تلك الجبال التي سأجول فيها في اليوم التالي. تقع بلدة موهافي على ارتفاع 2800 قدم، على الرغم من أنه بدا لي وكأنني في القاع وذلك لدى رؤيتي لافتات محطات البترول والمطاعم والفنادق ترتفع فوق الأشجار العالية.

قلت للرجل الذي أحضرني من لوس أنجلوس:

- يمكنك التوقف هنا.

وأشرت إلى لافتة مضيئة مكتوب عليها فندق وايت، ومن منظر المبنى القديم خمّنت أنه أرخص مكان في البلدة، أي أنه مناسب لي.

قلت ما إن توقفنا بالقرب من المرأب:

- شكراً على إيصالي.

أجابني:

- أهلاً بك. هل أنت متأكدة من أنك بخير؟

أجبته بثقة زائفة:

- نعم. لقد سافرت وحدي كثيراً.

ونزلت من السيارة مع حقيبة ظهري وكيسين كبيرين مليئين بالأغراض. كنت أنوي أخذ كل الأشياء من الأكياس وحشرها في حقيبة ظهري قبل مغادرة بورتلاند، لكنني لم أجد الوقت الكافي، فأحضرت الأكياس إلى هنا لأوضب كل شيء في غرفتي.

- حظاً موفقاً.

شاهدته وهو يقود سيارته بعيداً بينما انبعثت من الهواء الساخن رائحة الغبار، وتطاير شعري على عينيّ بسبب الرياح الجافة. كان المرأب مساحة مغطاة بالحصى البيضاء الصغيرة المثبتة بالإسمنت، في حين أن الفندق يتكون من صف طويل من الأبواب والنوافذ المغطاة بالستائر المهترئة. رميت حقيبة ظهري على كتفي، وحملت الأكياس لأشعر فجأة أنني وحيدة وأقل حماسة مما توقعت على الرغم من أنني أمضيت الأشهر الستة الماضية وأنا أتصور هذه اللحظة. لكنني بعد أن وصلت إلى هنا ولم يعد يفصل بيني وبين طريق جبال المحيط الهادئ سوى أقل من عشرة أميال بدا الأمر أقل حيوية مما كنت أتخيله، كما لو أنني كنت في حلم وتباطأت أفكاري وسيطرت عليها إرادتي لا حدسي. وقبل أن أتمكن من الاتجاه إلى مكتب الفندق قلت لنفسي:

- ادخلي واطلبي غرفة.

قالت المرأة العجوز الواقفة وراء الطاولة:

- ثمانية عشر دولاراً.

ثم نظرت خلفي عبر الباب الزجاجي الذي دخلت منه قبل لحظات:

- إلا إن كان معك مرافق فالأجرة أعلى.

قلت وقد احمرت وجنتاي:

- ليس معي مرافق. ذلك الرجل كان يوصلني فقط.

- إذاً ثمانية عشر دولاراً. لكن في حال انضم إليك مرافق فعليك دفع المزيد.

- لن ينضم إلي أي مرافق.

وسحبت ورقة من فئة العشرين دولاراً من جيب سروالي القصير ووضعتها على الطاولة، فأخذت النقود وأعطتني دولارين وبطاقة لأملأها مع قلم مثبت بسلسلة.

- أنا أسافر مشياً على الأقدام، لذا لا يمكنني ملء القسم الخاص بالسيارة، كما أنه ليس لدي عنوان فأنا مسافرة، لذا...

- اكتبي العنوان الذي ستعودين إليه.

- هنا المشكلة... أنا لست متأكدة من المكان الذي سأعيش فيه في ما بعد لأن...

- إذاً عنوان والديك... أي منزل.

- حسناً.

وكتبت عنوان إيدي، على الرغم من أن علاقتي بإيدي خلال السنوات الأربعة منذ وفاة والدتي ضعفت، ولم يعد بإمكاني اعتباره زوج أمي بعد الآن. كما لم يعد لدي منزل على الرغم من أن المنزل الذي بنيناه ما زال قائماً. وعلى الرغم من ارتباطي بليف وكارن لكونهما أخويّ لكننا نادراً ما كنا نتكلم معاً أو نلتقي؛ إذ إن حيواتنا كانت مختلفة بالكامل. وفي الشهر الماضي، أنهيت أنا وبول أوراق طلاقنا بعد انفصال مليء بالعذاب لمدة سنة. لكن لدي بعض الأصدقاء الذين أحبهم ولطالما اعتبرتهم عائلتي، غير أن التزاماتنا تجاه بعضنا كانت غير رسمية ومتقطعة، أي مبنية على الأقوال أكثر من الأفعال. لطالما كانت أمي تقول: «الدم لا يتحول إلى ماء»، لكن تبين لي أنه لا يهم إن كانت مصيبة أو مخطئة.

- تفضّلي.

وناولتها الاستمارة عبر الطاولة لكنها لم تلتفت إلي لبضع لحظات، وإنما كانت تشاهد تلفازاً صغيراً... نشرة أخبار المساء... شيئاً ما حول محاكمة أو. ج. سيمبسون.

سألتني وهي تنظر إلى التلفاز:

- أتظنينه مذنباً؟

- يبدو الأمر كذلك، لكن أظن أن الوقت باكر لمعرفة ذلك؛ إذ لا توجد لدينا جميع المعلومات بعد.

فصرخت:

- بالطبع هو من قام بذلك.

وحين أعطتني المفتاح في النهاية مشيت عبر مرأب السيارات إلى باب في آخر المبنى وفتحته، ثم دخلت ووضعت أغراضي وجلست على سرير

طري. كنت في صحراء موهافي لكن الغرفة كانت شديدة الرطوبة وتفوح منها رائحة السجاد المبلل. وفجأة دوى صندوق معدني أبيض في الزاوية... مكيف الهواء ضخّ الهواء البارد لبضع دقائق ثم توقف عن العمل فجأة مما زاد من شعوري المزعج بالوحدة.

فكرت بالخروج وإيجاد مرافق لكنه كان أمراً غير سهل. فخلال السنوات السابقة كانت حياتي تزخر باللقاءات، لكن الآن بدت لي كل تلك الحميمية مع أناس لا أعرفهم أمراً سخيفاً، إلا أنني ما زلت أتوق إلى الرفقة؛ مما محى جميع الأفكار الأخرى، فنهضت عن السرير لأتخلص من رغبتي وتوقي وأوقف ذهني عن التفكير:

- يمكنني الذهاب إلى مقهى وأترك رجلاً ما يشتري لي شراباً ثم نعود إلى هنا بسرعة.

ووراء ذلك التوق كانت لدي رغبة ملحة أن أتصل ببول، فقد كان زوجي السابق ولكنه لا يزال صديقي المفضل. فبقدر ما ابتعدت عنه خلال السنوات التي تلت وفاة أمي اعتمدت عليه بقوة، ففي خضم معاناتنا الصامتة في زواجنا أمضينا أوقاتاً ممتعة، وكنا زوجين سعيدين.

عمل الصندوق المعدني في الزاوية مجدداً، فقمت ووقفت أمامه لأسمح للهواء البارد بالانبعاث على ساقيّ العاريتين. كنت أرتدي الملابس التي كنت أرتديها منذ أن تركت بورتلاند في الليلة الماضية... كل شيء جديد... كانت تلك ملابس نزهتي مشياً على الأقدام، وقد أحسست بالغرابة فيها كشخص مختلف عني... جوربان صوفيان تحت زوج من الأحذية الجلدية مع مثبتات معدنية، وسروال قصير أزرق مع جيوب يمكن إغلاقها، وملابس داخلية مصنوعة من قماش خاص سريع التجفاف، وقميص قطني فوق حمالة صدر رياضية.

كانت تلك من بين الأشياء الكثيرة التي أمضيت الشتاء والربيع وأنا أدخر المال لشرائها، حيث عملت الكثير من النوبات في المطعم كنادلة، وحين اشتريتها لم أشعر بالغرابة، فعلى الرغم من حياتي الريفية المعزولة لكنني كنت كثيرة الخروج، كما أنني أمضيت سنوات مراهقتي في غابات مينيسوتا، وقد كانت عطلات عائلتي تشمل دائماً نوعاً ما من التخييم، بالإضافة إلى الرحلات الشاقة التي ذهبت فيها مع بول أو وحدي أو مع الأصدقاء، حيث نمت في مؤخر شاحنتي الصغيرة وخيمت في المنتزهات والغابات الوطنية مرات لا تعد ولا تحصى. لكن الآن وهنا، حين لم أجد سوى هذه الملابس أحسست فجأة كما لو أنني مخادعة. فخلال الأشهر الستة منذ أن قررت القيام بنزهة مشياً

على الأقدام في طريق جبال المحيط الهادئ قمت بعشرات المحادثات التي شرحت فيها سبب كون ذلك فكرة جيدة، ومدى ملاءمتي للتحدي، لكنني الآن وحدي في غرفتي في فندق وايت ولا يمكنني أن أنكر فكرة أنني كنت في وضع حرج.

حين أخبرت بول بخطتي حين كنا نتناقش إن كان علينا البقاء مع بعضنا أو الطلاق قبل بضعة أشهر اقترح قائلاً:

- ربما ينبغي عليك تجربة رحلة أقصر أولاً.

- لماذا؟ ألا تظن أنه بإمكاني القيام بذلك؟

- ليس الأمر كذلك، لكنك لم تذهبي من قبل في رحلة كهذه على حد علمي.

وعلى الرغم من أنه كان محقاً لكنني قلت:

- بل ذهبت في رحلات مشابهة.

ففي الواقع، أنا لم أمشِ قط في البراري مع حقيبة ظهر، ولم أمضِ الليل هنا ولا لمرة واحدة.

فكرت الآن بحزن، ونظرت فجأة إلى حقيبتي والأكياس التي أحضرتها معي من بورتلاند والتي تحمل كل الأشياء التي لم أخرجها من علبها. كانت حقيبتي خضراء ومزركشة باللون الأسود ومكونة من ثلاثة أقسام ومليئة بالجيوب على الجانبين. قبل شهر من الآن نصحوني بملء حقيبتي كما لو أنني سأذهب في الرحلة ثم أذهب في رحلة تجريبية، وقد قررت القيام بذلك قبل مغادرة مينابوليس، ثم قررت القيام بذلك حين أصل إلى بورتلاند لكنني لم أفعل... رحلتي التجريبية ستكون غداً... أول يوم من التجربة.

تناولت الأكياس وأخرجت صفارة برتقالية مكتوباً على غلافها أنها الأعلى صفيراً في العالم، وفتحت الغلاف وأنا أمسك بالصفارة من حبلها الأصفر، ثم وضعتها حول عنقي كما لو كنت مدرباً... هل من المفترض أن أمشي وأنا أضعها هكذا؟ بدا لي الأمر سخيفاً لكنني لم أعرف، فكما هي الحال مع أغلب الأغراض التي اشتريتها لم أفكر في الأمر، وهكذا خلعتها وربطتها بيد حقيبتي لتتدلى من على كتفي أثناء المشي، وهكذا سيصبح من السهل علي الوصول إليها في حال احتجت إليها.

هل سأحتاج إليها؟ تساءلت بخنوع ووجوم وأنا أرتمي على السرير. كان وقت العشاء قد حان منذ حين، لكنني كنت مشغولة للغاية فلم أشعر بالجوع؛ فوحدتي ملأت أحشائي.

وحين ودّعت بول قبل عشرة أيام في مينابوليس قال لي:

- وأخيراً وصلت إلى ما تريدينه.

- وما هو؟

- أن تكوني وحيدة.

كان ذلك ما أردته، وقد كانت نهاية زواجي نقطة فاصلة بدأت برسالة وصلت بعد وفاة أمي بأسبوع على الرغم من أن بداياته تعود إلى أبعد من ذلك.

لم تكن الرسالة موجهة إلي وإنما إلى بول، فاندفعت بحماسة إلى غرفة نومنا وناولته إياها حين رأيت العنوان... كانت من جامعة نيو سكول في مدينة نيويورك، فقبل ثلاثة أشهر وقبل أن نعلم أن أمي مصابة بالسرطان قمت بمساعدته في التقدم لبرنامج الدكتوراه في الفلسفة السياسية. في منتصف يناير بدت فكرة الحياة في مدينة نيويورك كأكثر الأشياء إثارة في العالم، لكنها الآن في آخر مارس وبينما فتح الرسالة وأعلن مبتهجاً أنه تم قبوله عانقته محتفلة بالخبر الجيد لكنني أحسست أنني أنقسم إلى قسمين... المرأة التي كنت عليها قبل وفاة ماما، والمرأة التي أنا عليها الآن... حياتي السابقة وأنا أجلس على سطحي ككدمة، وحياتي الحقيقية تحت ذلك. كيف سأنهي دراستي الجامعية في يونيو وبعد بضعة أشهر سنذهب؟ كيف سنستأجر شقة في إيست فيليج أو بارك سلوب؟ كيف سأرتدي العباءات المضحكة والقبعات المطرزة الرائعة وأنتعل الأحذية الأنيقة وأصبح كاتبة بالطريقة الرومانسية نفسها التي قام بها الكثير من أبطالي وبطلاتي في الأعمال الأدبية.

كان كل ذلك مستحيلاً، بغض النظر عما تقوله الرسالة. فأمي ماتت... أمي ماتت... أمي ماتت. لقد تلاشى كل ما تخيلته عن نفسي مع آخر نفس لها.

لا يمكنني مغادرة مينيسوتا فعائلتي بحاجة إلي... من سيساعد ليف حتى يكبر؟ من سيكون إلى جانب إيدي في وحدته؟ من سيعد عشاء الشكر ويكمل تقاليد عائلتنا؟ يجب على أحدنا أن يحافظ على ما تبقى من عائلتنا... وهذا الشخص هو أنا؛ فأنا مدينة لأمي بذلك.

قلت لبول وهو ممسك بالرسالة:

- ينبغي أن تذهب بدوني.

وقد أعدت الشيء نفسه مراراً وتكراراً ونحن نتكلم خلال الأسابيع التالية، وقد تزايد اعتقادي يوماً تلو الآخر. كان هناك جزء مني خائف من فكرة تركه لي، وجزء يتمنى ذلك بشدة. فلو غادر فسيغلق باب زواجنا دون أن أضطر لدفعه، وسأصبح حرة دون أن يكون ذلك خطئي. لقد أحببته، لكنني كنت طائشة وفي التاسعة عشرة من عمري عند زفافنا؛ أي أنني لست مستعدة للالتزام بشخص آخر مهما كان عزيزاً على قلبي. وعلى الرغم من إعجابي برجال آخرين بعد زواجي بأمد قصير إلا أنني تجنبتهم. غير أن حزني قضى على إرادتي.

بعد وفاة أمي بأسبوع قبلت رجلاً آخر، وبعد أسبوع آخر قبلت رجلاً ثانياً، لكنني كنت قد عاهدت نفسي على عدم تخطي القواعد. وبسبب تأكدي من أنني كنت مخطئة في كذبي وخيانتي، أردت من بول أن يتركني ويذهب لمتابعة دراسته وحده، ولكنه رفض.

فقد أجل تسجيله لسنة، وبقينا في مينيسوتا لأبقى بالقرب من عائلتي على الرغم من عدم تحقيقي أي شيء بقربي منها في السنة التي تلت وفاة أمي؛ إذ تبيّن لي أنني غير قادرة على جمع عائلتي. فأنا لست كأمي، فبعد وفاة أمي بدأت أدرك أنها القوة السحرية في مركز عائلتنا التي حافظت علينا جميعاً لندور في مدار حولها، فبدونها بدأ إيدي يصبح غريباً عنا، بينما انجرفنا أنا وكارن وليف في حياتنا الخاصة، حتى اضطررت للاعتراف بأننا بدون أمي لسنا من نحن عليه، وإنما نحن أربعة أشخاص نسير وراء أحزاننا ولا يربطنا سوى رابط هش. كما أنني لم أعد عشاء الشكر. فحين جاء يوم الشكر كانت قد مضت على وفاة أمي ثمانية أشهر، وأصبحت عائلتي شيئاً من الماضي.

لذا حين انتقلنا أنا وبول في النهاية إلى نيويورك بعد سنة كنت سعيدة بذلك. إذ يمكنني هناك البدء بحياة جديدة، وسأتوقف عن الحزن الشديد، وسأتوقف عن الغضب لأجل العائلة التي كانت لدي، وسأصبح كاتبة تقيم في مدينة نيويورك، وسأتجول منتعلة حذاء أنيقاً ومعتمرة قبعة مطرزة ورائعة.

لكن الأمر لم يسر على ذلك المنوال، إذ بقيت على ما أنا عليه... المرأة المختبئة وراء حياتها القديمة نفسها، لكنني في مكان مختلف.

خلال النهار كنت أكتب القصص، وفي الليل كنت أعمل نادلة وأتسكع مع أحد الرجلين اللذين كنت لا أتجاوز الخط معهما. وبعد إقامتنا في نيويورك

لشهر واحد، ترك بول الجامعة وقرر أن يعزف على الغيتار بدلاً من ذلك. وبعد ستة أشهر غادرنا معاً وعدنا إلى مينيسوتا لفترة وجيزة قبل أن نغادر في رحلة عمل عبر الغرب استمرت لأشهر، ومررنا بمناطق كثيرة كالوادي العظيم ووادي الموت وبيغ سور وسان فرانسيسكو. وفي نهاية الربيع توقفنا في بورتلاند، ووجدنا وظائف في مطاعم، حيث أقمنا أولاً مع صديقتي ليزا في شقتها الصغيرة، ثم في مزرعة على بعد عشرة أميال خارج المدينة، حيث أقمنا طوال الصيف بدون إيجار مقابل العناية بماعز وقطة وسرب من الدجاج، فسحبنا الأريكة القابلة للطي من شاحنتنا الصغيرة ونمنا عليها في غرفة الجلوس تحت نافذة كبيرة وواسعة مطلة على بستان من أشجار البندق، كما كنا نمشي لفترات طويلة ونقطف التوت ونقوم بعلاقات حميمة وأنا أفكر:

- يمكنني القيام بذلك... يمكنني أن أكون زوجة بول.

لكنني كنت مخطئة مجدداً، إذ لا يمكنني أن أكون سوى من أنا عليه. وقد ازداد الأمر سوءاً لاحقاً، إذ لم أعد أخاف من تجاوز الخط بعد ذلك؛ فقد أقمت في مزرعة صغيرة في طرف بورتلاند. وحين قبل بول بعرض عمل في مينابوليس يتطلب منه العودة إلى مينيسوتا، بقيت أنا في أوريغون.

وفي النهاية، أحسست بضرورة التحدث إلى بول؛ بذلك الكلام الذي سيمزق حياتي. ليس لأنني لا أحبه، وإنما لأنه علي البقاء وحيدة على الرغم من عدم معرفتي السبب.

كانت قد مضت ثلاث سنوات على وفاة أمي.

وحين قلت كل الأشياء التي عليّ قولها سقطنا كلانا على الأرض وبكينا. وفي اليوم التالي، انتقل بول من المزرعة، ثم بدأنا بإخبار أصدقائنا أننا سننفصل، وكنا نقول إننا نأمل أن نخرج من هذه المشكلة، فنحن قد لا نتطلق بالضرورة. لكنهم في البداية لم يصدقوا، إذ كنا نبدو سعيدين للغاية حسب قولهم، ثم غضبوا لا علينا وإنما عليّ، حيث قامت واحدة من أعز صديقاتي بأخذ صورتي التي كانت تحتفظ بها ومزقتها لنصفين ثم أرسلتها لي، في حين خرجت أخرى مع بول. وحين شعرت بالانزعاج والغيرة أخبرتني صديقة أخرى أن هذا ما أستحقه بالضبط، وأنه علي أن أشرب من الكأس نفسها التي جعلت الآخرين يشربون منها. لم أستطع الإنكار، لكنني بقيت مكسورة الخاطر، حيث استلقيت وحدي على أريكتي وأنا أشعر بالألم يمزقني.

وبعد ثلاثة أشهر من انفصالنا، كنا لا نزال في نوبة تعذيب؛ حيث لم أكن أريد العودة إلى بول ولا الطلاق وإنما كنت أن أفعل الأمرين. ففي حين كان

بول يواعد عدداَ من النساء أصبحت فجأة عزباء وحيدة. وبعد أن حطمت زواجي لأجل علاقات عابرة، أصبحت تلك العلاقات أبعد شيء عن فكري.

قالت لي صديقتي ليزا خلال واحدة من محادثاتنا خلال وقت متأخر في الليل:

- عليك مغادرة مينابوليس... تعالي وزوريني في بورتلاند.

وخلال ذلك الأسبوع، تركت عملي كنادلة، وعبأت شاحنتي ثم قدتها باتجاه الغرب، بالطريق نفسه الذي سأسلكه بعد سنة بالضبط في رحلتي على طريق جبال المحيط الهادئ.

وحين وصلت إلى مونتانا علمت أنني فعلت الأمر الصواب... فالأراضي الخضراء الشاسعة الممتدة لأميال، والسماء الممتدة في الأفق بينما كانت مدينة بورتلاند بعيدة عن ناظري بعد... كانت مهربي المغري ولو لفترة وجيزة من الوقت، حيث كنت أظن أنني سأترك أحزاني ورائي.

لكنني بدلاً من ذلك وجدت المزيد.

3

الانحناء بوضعية مستقيمة

حين استيقظت في الصباح التالي في غرفتي في فندق وايت، استحممت ووقفت عارية أمام المرآة وأنا أشاهد نفسي وأنا أنظف أسناني. حاولت أن أشعر بشيء من الحماسة، لكنها كانت مترافقة مع بعض الضيق والندم. فبين الفينة والأخرى، كانت تصدر مني عبارة تدوي في رأسي مثل «المرأة ذات الثقب في قلبها»... كانت تلك أنا... لهذا كنت أتوق لرفيق في الليلة الماضية... لهذا أنا هنا في الفندق مع فكرة منافية للعقل؛ وهي أن أمشي وحيدة لثلاثة أشهر في طريق جبال المحيط الهادئ. وضعت فرشاة أسناني جانباً، ثم انحنيت نحو المرآة وحدقت في عينيّ لأشعر بنفسي أتمزق من الداخل؛ كزهرة بدأت بالذبول. ومع كل حركة أتحركها، كانت تسقط مني بتلة أخرى.

اتجهت إلى السرير، ونظرت إلى ملابس النزهة التي وضعتها بعناية على السرير قبل أن أدخل الحمام كما كانت ماما تفعل لي حين كنت طفلة في أول أيام المدرسة. حين ارتديت حمالة الصدر والقميص احتكت الخدوش الصغيرة الناتجة عن وشمي الجديد بكم القميص... كان ذلك هو الوشم الوحيد لدي... حصان أزرق على زندي الأيسر ولدى بول واحد مثله... فقد صنعناهما معاً احتفالاً بطلاقنا الذي لم تنته إجراءاته حتى الشهر الماضي. وعلى الرغم من أننا لم نعد متزوجين إلا أن الوشم بدا كإثبات لنا لروابطنا الأبدية.

أردت الاتصال ببول بشدة؛ أكثر من الليلة الماضية، لكنني لم أسمح لنفسي بذلك. فهو يعرفني جيداً، وسيسمع الأسف والتردد في صوتي، وسيكتشف أنني لم أكن أشعر بالقلق من بداية رحلتي فحسب وإنما هناك شيء ما أريد إخباره به.

ارتديت جوربيّ وانتعلت حذائي واتجهت إلى النافذة وفتحت الستائر لأرى الشمس ساطعة على الحجارة البيضاء لمرأب السيارات في محطة الوقود في الجهة المقابلة من الطريق. وحين تركت الستارة أظلمت الغرفة مجدداً، فأحببتها هكذا؛ كشرنقة آمنة لن أغادرها على الرغم من معرفتي أنني مخطئة. كانت الساعة هي التاسعة صباحاً، والحرارة مرتفعة في الخارج. وفجأة، عاد الصندوق الأبيض في الزاوية للعمل مدوياً ونافثاً النسيم العليل. وعلى الرغم من كل ما يشير إلى أنه ما من مكان لأذهب إليه إلا أن هناك مكاناً

ينبغي علي التواجد فيه؛ فقد كان هذا اليوم هو الأول على طريق جبال المحيط الهادئ.

فتحت جيوب حقيبتي وأخرجت كل الأغراض منها ورميتها على السرير، ثم رفعت الأكياس وأفرغتها أيضاً، وبعدها بدأت بتكويم الأغراض. كان ذلك كل ما علي حمله خلال الأشهر الثلاثة التالية.

كان هناك كيس أزرق يحتوي على الملابس التي لا أرتديها، وهي سروال وقميص ذو كمين طويلين وسترة ذات كمين طويلين أيضاً وزوجان من الملابس الداخلية وقفازات رقيقة وقبعة واقية من الشمس وقبعة صوفية وسروال مطري وكيس آخر مليء بجميع الأطعمة التي سأحتاج إليها خلال الأربعة عشر يوماً القادمة؛ أي قبل أن أصل إلى نقطة التوقف التالية للحصول على المؤن في مكان يدعى سهول كينيدي. وهناك كيس نوم وكرسي تخييم يمكن فكه واستخدامه كسرير، ومصباح رأسي كذلك الذي يستعمله عمال المناجم، ومنقي مياه، وموقد صغير، وعبوة غاز طويلة من الألمنيوم، وولاعة صغيرة وردية اللون، كما يوجد وعاء طهي صغير داخل وعاء أكبر، وأدوات يمكن طيها، وزوج زهيد الثمن من الأحذية الرياضية التي كنت أنوي انتعالها في المخيم في نهاية كل يوم. كانت معي منشفة سريعة الجفاف، وسلسلة مفاتيح، مع مقياس حرارة، وقماش مشمع، وكوب بلاستيكي عازل للحرارة ذي مقبض، كما أحضرت مجموعة العلاج من لدغ الأفاعي وسكيناً عسكرياً ومنظاراً صغيراً في علبة من الجلد الصناعي وحبلاً بلون الأزهار وبوصلة لم أتعلم بعد كيف أستخدمها وكتاباً لتعليم استخدام البوصلة كنت أنوي قراءته في الطائرة وأنا متجهة إلى لوس أنجلوس ولكنني لم أفعل. وبالإضافة إلى كل ذلك، كانت هناك أدوات الإسعافات الأولية في علبة حمراء مطرزة ولفافة من مناديل الحمام في حقيبة بسحاب ورفش صغير من الفولاذ غير القابل للصدأ في غمد أسود، كما توجد حقيبة صغيرة من مستحضرات التجميل والأغراض الشخصية التي كنت أظن أنني سأحتاج إليها في طريقي كشامبو وبلسم وصابون وكريم مرطب ومزيل للتعرق وقلامة أظفار وطارد للحشرات وواقٍ شمسي وفرشاة شعر وأنبوب من الواقي الشمسي للشفاه المضاد للماء. وأحضرت معي مصباحاً كشافاً وشمعداناً معدنياً مع شمعة في الداخل وشمعة إضافية ومنشاراً قابلاً للطي إلى جانب زجاجتي ماء بلاستيكيتين وكيس يتسع لغالونين من الماء. وقد اشتريت أشياء في حال تعطلت الأشياء الأخرى التي أحضرتها؛ كبطاريات إضافية وصندوق من أعواد الثقاب المضادة للماء وغطاء صوفي وزجاجة من حبوب اليود بالإضافة إلى قلمين وثلاثة كتب ودفتر رسم من مائتي صفحة استخدمته كمفكرة وحقيبة تحتوي على رخصة القيادة وكمية صغيرة من النقود وكومة من الطوابع البريدية ومذكرة صغيرة عليها عناوين

الأصدقاء مكتوبة على بضع صفحات، وكانت هناك آلة تصوير احترافية بدقة 35 ميلليمتر مع عدسة تكبير منفصلة وضوء فلاش منفصل وحامل ثلاثي القوائم صغير كلها محشورة في علبة آلة تصوير محشوة بحجم كرة قدم.

لم يكن إحضاري إياها لأنني كنت مصورة.

ولكنني ذهبت إلى متجر في مينابوليس يدعى راي عشرات المرات خلال الأشهر الماضية لشراء كمية كبيرة من تلك الأغراض، فتلك العملية نادراً ما كانت بسيطة؛ إذ لم أشتر حتى زجاجة ماء دون أن أفكر أولاً في أحدث تكنولوجيا تعبئة المياه، كما كنت أفكر دائماً في سلبيات وإيجابيات الأغراض المتعددة بالإضافة إلى إجراء بحث عن تصميمها، وقد كانت تلك فقط أصغر عمليات الشراء وأقلها تعقيداً، أما باقي المعدات التي سأحتاج إليها فكانت أكثر تعقيداً. وبعد استشارتي لموظفي راي الذين كانوا يسألونني إن كان بإمكانهم المساعدة كلما رأوني أمام نوافذ العرض للمواقد بالأشعة فوق البنفسجية أو أمشي بين الخيام، وكان أولئك الموظفون يتراوحون في أعمارهم وأساليبهم ومجالاتهم لكن القاسم المشترك بينهم هو أن كل واحد منهم يمكنه الحديث عن المعدات باهتمام ودقة لفترة طويلة من الوقت لدرجة أنهم كانوا يبهرونني. كانوا يهتمون إن كانت حقيبة النوم لها سحاب، كما يسعدون لوجود زجاج قابل للطي في منقي المياه. وحين اتخذت قراري حول أي حقيبة أشتري كنت أشعر كأنني خبيرة في حقائب الظهر.

وحين وقفت أحدق في تلك الكومة من المعدات المختارة بعناية على السرير في غرفة الفندق في موهافي علمت أنني لم أكن تلك الخبيرة.

عملت مع جبل الأغراض تلك، حيث حشرتها في كل مساحة متوفرة في الحقيبة حتى لم يعد هناك أي متسع، فلففت الحبل حول بعض الأغراض وربطته بالحقيبة.

وحين انتهيت، جلست على الأرض وأنا أتصبب عرقاً من الجهد، وحدقت بسلام بحقيبتي، ثم تذكرت شيئاً أخيراً... الماء.

كنت قد اخترت البدء بالنزهة من هذا المكان ببساطة لأنني قدرت أن تستغرق الرحلة معي من تلك النقطة مائة يوم لأصل إلى آشلاند في أوريغون حيث سأنهي رحلتي؛ لأنني سمعت أموراً جيدة عن تلك البلدة وقد أفكر بالبقاء فيها. قبل أشهر تتبعت بإصبعي نحو الجنوب على الخريطة وحسبت الأميال والأيام ثم توقفت عند معبر تيهاشابي حيث يتقاطع طريق جبال المحيط الهادئ مع الطريق السريع 58 في الشمال الغربي لصحراء موهافي بالقرب

من بلدة موهافي، لكنّ ما لم أدركه إلا قبل أسبوعين هو أنني سأبدأ رحلتي في واحد من أشد أجزاء الطريق جفافاً؛ حيث إن أكثر المتنزهين سيراً على الأقدام تمرساً لا يمكنهم دائماً الانتقال من مصدر للماء إلى آخر يومياً. وبالنسبة لي، سيكون ذلك مستحيلاً؛ إذ سأحتاج ليومين للوصول إلى أول مصدر للمياه على بعد سبعة عشر ميلاً، لذا علي حمل كميات وفيرة من المياه.

ملأت عبوتي الماء من مغسلة الحمام ووضعتهما في الجيبين الجانبيين لحقيبة ظهري، ثم ملأت كيس الماء بغالونين ونصف، ولا أدري كم كانت حقيبتي تزن في اليوم الأول لكنني أعلم أنني كنت أحمل 24.5 باونداً من الماء، حيث شعرت بكيس الماء كبالون مائي ضخم ينزلق من يدي ويسقط على الأرض وأنا أحاول ربطه بحقيبتي. كانت الحقيبة موصولة بشرائط لذا تمكنت بجهد كبير من إدخال الحبال عبرها إلى جانب حقيبة آلة التصوير والحذاء الرياضي والكوب المعزول ومصباح الشموع حتى انزعجت؛ لدرجة أنني سحبت الكوب المعزول ورميته عبر الغرفة.

وفي النهاية، حين استقر كل ما سأحمله في مكانه، أصبحت مستعدة للبدء، فارتديت ساعتي ووضعت نظارتي الشمسية واعتمرت قبعتي ونظرت إلى حقيبتي الضخمة لأشعر أن لدي مرافقاً، وأنني لست وحيدة. فبينما كنت واقفة كانت تصل إلى خصري فانحنيت لأرفعها.

لكنها لم تتحرك.

جلست القرفصاء وأمسكتها بقوة أكبر محاولة رفعها مجدداً لكنها لم تتحرك ولا حتى لبوصة، فحاولت رفعها بكلتا يديّ بكل قوتي وإرادتي وكل ما فيّ لكنها لم تتحرك؛ وكأنني أحاول رفع سيارة فوكس فاجن بيتل. كانت مرتبة وجاهزة لكي أرفعها، لكن كان من المستحيل فعل ذلك.

جلست على الأرض بجانبها، وفكرت في الوضع. كيف يمكنني حمل حقيبة لأكثر من ألف ميل في الجبال الوعرة والصحاري الجافة إن كنت لا أستطيع تحريكها بوصة في غرفة فندق مكيفة الهواء؟ لقد كان موظفو راي محقين، فقد كانوا يؤكدون على الوزن حين يتكلمون عن خصائص المعدات، لكنني لم أعرهم أي اهتمام فقد كنت أظن أن هناك أموراً أكثر أهمية.

فكرت في ما يمكنني إخراجه من الحقيبة، لكنني كلما فكرت بشيء وجدته لازماً جداً أو أنه ضروري في حالات الطوارئ لدرجة أنني لم أجرؤ على التخلص منه... علي محاولة حمل الحقيبة كما هي.

جثوت على السجادة أمام الحقيبة، وأدخلت ذراعيّ تحت حمالتَي الكتفين، ثم أقفلت الشريط على صدري وأخذت نفساً عميقاً وبدأت بالتمايل يمنة ويسرة لكي أتوازن حتى تمكنت من التقدم على يديّ وركبتيّ ولم تعد حقيبتي على الأرض وإنما عليّ ولكنها لا تزال تبدو كسيارة فوكس فاجن بيتل؛ غير أنها مركونة على ظهري. بقيت على تلك الحال لبضع لحظات محاولة التوازن، ثم جاهدت لأقف حتى وقفت، أو لنقل انحنيت بوضعية مستقيمة وأنا ممسكة باللوح المعدني الذي فككته دون قصد عن وحدة التبريد أثناء جهودي.

لم أستطع حتى البدء بإعادة تركيبه على الرغم من أن مكانه لا يبعد سوى بضع بوصات عن متناول يدي، لكن تلك البوصات كانت بعيدة المنال، فأسندت اللوح على الجدار، وأحكمت حزام الورك، وترنحت وتمايلت في أنحاء الغرفة، بينما تمركز الألم بسبب الثقل على كتفيّ. كانت الحقيبة مرتفعة كمعطف ورائي، وترتفع فوقي بضع بوصات. شعرت بإحساس فظيع، لكن قد يكون هذا هو الشعور الذي يراود المتنزهين مشياً على الأقدام.

لم أكن أعلم.

كل ما علمته هو أنه حان موعد الذهاب، لذا فتحت الباب وخطوت نحو النور.

القسم الثاني

4

طريق جبال المحيط الهادئ

المجلد الأول: كاليفورنيا

لقد قمت بالكثير من الأشياء الغبية والخطرة في حياتي، لكن لم يسبق لي أن طلبت من شخص غريب أن يقلني. ورغم أنني كنت أعلم أن أحداثاً فظيعة قد حصلت للمسافرين الذين طلبوا الركوب في سيارات المارة وخاصة النساء المسافرات وحدهن– فقد كان يتم الاعتداء عليهن، وقطع رؤوسهن، وتعذيبهن، ثم يُتركن للموت– لكن لم أسمح لهذه الأفكار بأن تربكني وأنا في طريقي من فندق وايت إلى أقرب محطة وقود. فقد كنت بحاجة إلى الركوب، وإلا فسأضطر إلى قطع مسافة اثني عشر ميلاً مشياً على طول جانب الطريق السريع الحارق إلى أن أصل إلى طريق الجبال.

بالإضافة إلى أن السفر مع طلب الركوب من السيارات المارة هو ببساطة ما يقوم به مسافرو طريق جبال المحيط الهادئ من وقت لآخر، وأنا من مسافري طريق جبال المحيط الهادئ، أليس كذلك؟

نعم، هذا صحيح.

طريق جبال المحيط الهادئ، المجلد الأول: لقد شرحت كاليفورنيا العملية باتزانها المعهود، ففي بعض الأحيان يتقاطع طريق جبال المحيط الهادئ مع طريق يوجد مكتب البريد على بعد أميال منه، حيث يقوم الأشخاص بإرسال صندوق الطعام والمؤن المطلوبة في القسم التالي من الطريق، فيكون الانتقال مع طلب الركوب من السيارات المارة الحل العملي من أجل إحضار هذه الصناديق والعودة إلى الطريق.

وقفت بالقرب من آلة بيع المشروبات الغازية مقابل بناء محطة الوقود، مراقبة الناس وهم يأتون ويذهبون، ومحاولة أن أجد الشجاعة لأقترب من أحدهم، آملة أن أشعر بالأمان من أي أذى عندما أرى الشخص المناسب. فشاهدت رجال الصحراء المسنين ذوي الشعر الأشيب الذين يرتدون قبعات رعاة البقر، وعائلات في سيارات ممتلئة أصلاً، ومراهقين توقفوا والموسيقى تتفجر عبر نوافذهم المفتوحة. ورغم أنه لم يبدُ لي أحد على وجه الخصوص

كقاتل أو معتدٍ، فإنه لم يبدُ لي أحد على وجه الخصوص أنه ليس كذلك أيضاَ. اشتريت عبوة من المشروبات الغازية وشربتها بطريقة عفوية تخفي حقيقة أنني لم أكن أستطيع الوقوف بشكل لائق بسبب الثقل غير المعقول على ظهري. وفي النهاية، كان علي التحرك، فقد كانت الساعة الحادية عشرة تقريباً، والجو يميل بثبات نحو حرارة يوم من أيام يونيو في الصحراء.

توقفت سيارة مغلقة صغيرة تحمل لوحة أرقام خاصة بكولورادو، ونزل منها رجلان أحدهما يبدو في مثل عمري، بينما كان الآخر يبدو في الخمسين، فاقتربت منهما وطلبت الركوب معهما ليوصلاني، لكنهما ترددا ونظرا إلى بعضهما بعضاً، وكانت تعبيرات وجهيهما تظهر أن كلاً منهما كان يبحث بصمت عن سبب ليرفض، فمضيت في الحديث لأشرح باندفاع سريع عن طريق جبال المحيط الهادئ.

وفي النهاية أجاب الأكبر سناً بتردد واضح: - طبعاً.

فرددت بنبرة طفولية: - شكراً.

وعندما تعثرت نحو الباب الكبير في جانب السيارة المغلقة سحبه الرجل الأصغر ليفتحه لي، فنظرت إلى الداخل مدركة فجأة أنه ليست لدي فكرة عن كيفية الدخول، حتى إنني لم أستطع أن أحاول الصعود وحقيبتي على ظهري، لذلك كان علي أن أخلعها، ولكن كيف؟ فإن حللت المشابك التي تحفظ الأربطة حول خصري وفوق كتفيّ فسيكون من الصعب علي أن أمنعها من السقوط بعنف مقطعة ذراعيّ.

فسألني الشاب: - هل تريدين أي مساعدة؟

فقلت بنبرة وقورة متكلفة: - لا.

وكان الشيء الوحيد الذي استطعت أن أفكر به هو أن أدير ظهري للسيارة، وأن أقرفص لأجلس على إطار الباب وأنا أتمسك بحافة الباب المنزلق لأدع حقيبتي تستقر على الأرضية خلفي، وقد كان ذلك سهلاً. فقد حللت أربطة حقيبة الظهر، وحررت نفسي بعناية دون أن أقلب الحقيبة، ثم التفت لأصعد السيارة وأجلس إلى جانب الحقيبة.

كان الرجلان أكثر لطفاً معي حالما انطلقنا في طريقنا نحو الغرب عبر مناظر قاحلة لشجيرات تبدو ظمأى، وجبال شاحبة تمتد إلى مسافة بعيدة. كان الرجلان أباً وابنه من ضاحية دنفر في طريقهما إلى حفلة تخرج في سان لويس أوبيسبو، وقبل أن يمر وقت طويل ظهرت لافتة تعلن الوصول إلى ممر

تيهاتشابي، فأبطأ الرجل المسن وتوقف على جانب الطريق، وخرج الشاب وسحب الباب الكبير ليفتحه لي، فقررت أن أحمل حقيبتي بالطريقة نفسها التي خلعتها بها؛ أي بالاستعانة بارتفاع السيارة المغلقة وأنا أقرفص عند الباب. لكن، قبل أن أتمكن من الخروج، سحب الشاب حقيبتي ورماها بقوة على الأرض الحصوية على جانب الطريق، فسقطت بقوة مما جعلني أخشى أن تنفجر حقيبة الماء الجلدية، فنزلت خلفها وسحبتها إلى وضعية الانتصاب ونفضت الغبار عنها، فسألني: - هل أنت متأكدة من أنك تستطيعين رفعها، لأنني بالكاد أستطيع فعل ذلك.

- طبعاً أستطيع رفعها.

فوقف كما لو أنه ينتظر مني أن أثبت ذلك، فقلت له: - شكراً على التوصيلة.

وكنت أريده أن يذهب كيلا يشهد روتين ارتداء حقيبتي المخزي، فهز رأسه وسحب باب السيارة لإغلاقه قائلاً: - انتبهي لنفسك كي تكوني بأمان هناك.

- سأفعل.

وشاهدته وهو يعود إلى السيارة.

وقفت على جانب الطريق السريع الهادئ بعد أن انطلقا. هبت غيوم من الغبار في نفحات دوامة تحت شمس الظهيرة الساطعة، وكنت على ارتفاع يبلغ تقريباً 3800 قدم، ومحاطة من جميع الجهات بالجبال البنية ذات المظهر القاحل والمرقطة بمجموعات من شجيرات الميرمية وأشجار البلوط عالية الساق. كنت واقفة على الحافة الغربية لصحراء موهافي، وعلى الجانب الجنوبي لسلسلة جبال سيرا نيفادا الواسعة الممتدة شمالاً لأكثر من أربعمائة ميل نحو حديقة لاسن الوطنية البركانية حيث تتصل بسلسلة كاسكيد التي تمتد من شمال كاليفورنيا عبر أوريغون وواشنطن إلى ما وراء الحدود الكندية. إن سلسلتي الجبال هاتين ستكونان عالمي لثلاثة أشهر قادمة، وجبالهما وطني، وعلى عمود سياج خلف الخندق رأيت بريق لوحة معدنية بحجم الكف مكتوب عليها: طريق جبال المحيط الهادئ.

وصلت إلى هنا... وأخيراً، يمكنني أن أبدأ.

وخطر ببالي أن الآن هو الوقت الأمثل لالتقاط صورة، لكن إخراج الكاميرا يستلزم مجموعة من إزالة حبال القفز والتجهيزات؛ الأمر الذي لا أريد

حتى تجريبه، بالإضافة إلى أن إدراجي نفسي في الصورة يتطلب العثور على شيء لأسند عليه الكاميرا لكي يتسنى لي أن أضبط المؤقت وأقف في المكان قبل أن تلتقط الصورة، لكنني لم أجد شيئاً حولي يبدو مشجعاً؛ حتى إن عمود السياج الذي عُلقت عليه لوحة طريق جبال المحيط الهادئ كان يبدو متيبساً وهشاً، لذا بدلاً من ذلك جلست على التراب أمام حقيبة ظهري بالطريقة نفسها التي جلست فيها في غرفة الفندق، وطرحتها على كتفي، ثم اتكأت على كفيّ وركبتيّ وقمت بالرفعة المميتة لأقف.

بابتهاج وتوتر، تحدبت بوضعية منتصبة، وربطت أحزمة الحقيبة على ظهري، وتمايلت في خطواتي الأولى على طول الطريق إلى صندوق معدني بني اللون مثبت على عمود سياج آخر، وعندما رفعت الغطاء وجدت في الصندوق دفتراً وقلماً وهذا هو سجل الطريق الذي قرأت عنه في كتاب الدليل، فكتبت اسمي والتاريخ، وقرأت الأسماء والملاحظات من المسافرين الذين مروا قبلي بأسابيع وكان معظمهم رجالاً يسافرون مثنى، ولم يكن أي منهم امرأة تسافر وحدها، فتريثت قليلاً بعد أن شعرت بتصاعد المشاعر بهذه المناسبة، ثم أدركت أنه لم يكن بوسعي أن أفعل شيئاً إلا أن أمضي فمضيت.

وكان الطريق يقود نحو الشرق موازياً الطريق السريع لفترة، ثم ينحدر نحو الأراضي المغطاة بأمواج البحر ويعاود الصعود مجدداً، ففكرت: إنني أسافر مشياً على الأقدام، ثم إنني أسافر مشياً على طريق جبال المحيط الهادئ. إن هذا العمل– أي السفر سيراً على الأقدام– كان أساس اعتقادي أن هذه الرحلة تجربة معقولة. فهذه الرحلة ما هي في النهاية إلا مشي على الأقدام، وأنا قادرة على المشي، وهكذا ناقشت بول عندما أبدى قلقه لأنني لم أسافر سيراً على الأقدام مع حقيبة الظهر فقط، فقد كنت أمشي طوال الوقت: كنت أمشي لساعات دون توقف في عملي كنادلة، وكنت أمشي في أرجاء المدن التي سكنتها وزرتها، كما كنت أمشي للتسلية أو لهدف ما. كل هذه الأشياء صحيحة، لكن بعد المشي لمدة خمس عشرة دقيقة تقريباً على طريق جبال المحيط الهادئ كان من الواضح أنه لم يسبق لي أن مشيت على جبال الصحراء في بداية شهر يونيو حاملة على ظهري حقيبة تزن أكثر من نصف وزني بكثير.

وهذا يجعل الرحلة كما يبدو غير شبيهة بالمشي على الإطلاق، بل يجعلها في الواقع تشبه الجحيم أكثر مما تشبه المشي.

بدأت ألهث وأتعرق فوراً والغبار يغطي حذائي الطويل وساقيّ مع تحول الطريق نحو الشمال صعوداً بدلاً من كونه متموجاً، وكانت كل خطوة أخطوها تتطلب جهداً؛ إذ كنت أصعد إلى الأعلى فالأعلى، ولا يقطع هذِا الصعود

سوى الهبوط القصير المؤقت، والذي لم يكن راحة بقدر كونه نوعاً آخر من الألم لأنه كان علي أن أثبّت نفسي في كل خطوة كيلا تجعلني قوة الجاذبية أقذف نحو الأمام وأسقط بسبب ثقلي الهائل الذي لا يمكن التحكم به. فقد كنت أشعر أنني مثبتة بحقيبة الظهر أكثر من كونها مثبتة بي، كبناء بأطراف منفصلة عن أساسه يتمايل في البرية.

وخلال أربعين دقيقة، ارتفع صوت الصراخ داخل رأسي: ماذا فعلت بنفسك؟ فحاولت أن أتجاهله وبدأت أدندن أثناء سيري، رغم أنه تبيّن لي أن الدندنة صعبة جداً وأنا ألهث وأتأوه بألم وأحاول أن أبقى محدبة في وضع منتصب بينما أدفع نفسي نحو الأمام عندما أشعر أنني بناء على أقدام، لذلك حاولت أن أركز ببساطة على ما كنت أسمعه: صوت قدميّ وهما ترتطمان بالطريق الصخري الجاف، وصوت حفيف أوراق الشجيرات الهشة المنخفضة التي مررت بها وأغصانها في الرياح الحارة، لكنني لم أستطع القيام بذلك فصرخت: ماذا فعلت بنفسك؟ كانت صرخة قوية لا يمكن تغطيتها، وقد كان الشيء الوحيد الذي يلهيني عنها هو بحثي اليقظ عن الأفاعي إذ كنت أتوقع وجود واحدة عند كل منعطف جاهزة للهجوم، فالمنطقة مناسبة لها كما يبدو، ومناسبة أيضاً لأسود الجبال والقتلة المتسلسلين الذين يعرفون البرية.

لكنني لم أكن أفكر بهم.

إذ إن هذا كان اتفاقاً عقدته مع نفسي قبل شهور، وهو الشيء الوحيد الذي مكّنني من السفر مشياً وحدي، فقد كنت أعلم أنني لو سمحت للخوف بأن يتغلب علي لحكمت على رحلتي بالفشل؛ فالخوف لدرجة كبيرة يتولد من قصة نحكيها لأنفسنا، لذا قررت أن أخبر نفسي قصة مختلفة عن القصة التي يخبرونها للنساء، وقررت أنني في أمان، وأنني قوية وشجاعة ولا شيء يهزمني، وقد كان الإصرار على هذه القصة نوعاً من التحكم بالعقل، ولكنه كان يجدي نفعاً في معظم الأحيان؛ ففي كل مرة كنت أسمع فيها صوتاً لا أعرف مصدره أو أشعر بشيء مريع يلازم مخيلتي، كنت أدفعه عني ببساطة لئلا أدع نفسي أخاف، فالخوف يولد الخوف والقوة تولد القوة، وأنا أردت لنفسي أن أشعر بالقوة، ولم يمر وقت طويل قبل أن أشعر بأنني غير خائفة فعلاً، حيث كنت أبذل جهداً كبيراً لدرجة أنني لم أشعر بالخوف.

تحركت خطوة ثم خطوة أخرى، لكنني لم أتحرك بأكثر من مجرد الزحف. ورغم أنني لم أكن أعتقد أن السفر مشياً على طريق جبال المحيط الهادئ سيكون سهلاً، ورغم أنني كنت أعلم أن هذا سيتطلب من البعض القدرة على التكيف فإنني الآن أقل ثقة بقدرتي على التكيف؛ فالسفر مشياً على طريق جبال المحيط الهادئ مختلف عما كنت أتخيله، وأنا نفسي مختلفة

عما كنت أتخيل نفسي، حتى إنني لم أكن أذكر ما كنت أتوقعه قبل ستة أشهر في شهر يناير عندما قررت أول مرة أن أقوم بهذه الرحلة.

كنت أقود السيارة على امتداد الطريق السريع شرق سايوكس فالز في داكوتا الجنوبية عندما خطرت لي الفكرة، وكنت قد قمت بقيادة السيارة إلى سايوكس فالز من مينيابولس مع صديقتي إيمي قبل يوم لاستعادة شاحنتي التي كانت هناك منذ أسبوع بعد أن تعطلت أثناء استعارة إحدى صديقاتي لها.

وقبل وصولي مع إيمي إلى سايوكس فالز تم سحب شاحنتي من الشارع. وفي ذلك الوقت، كانت في مكان ما محاطة بسلسلة من الحلقات، ومدفونة في ثلوج العاصفة الثلجية التي هبت قبل يومين، وكانت تلك العاصفة هي السبب الذي جعلني أذهب إلى متجر للمعدات في اليوم السابق لشراء مجرفة. وبينما كنت أنتظر في الصف للدفع، شاهدت كتاب دليل عن شيء يدعى طريق جبال المحيط الهادئ، فأخذته وتفحصت غلافه، وقرأت الغلاف الخلفي قبل أن أعيده إلى مكانه على الرف.

وحالما أزلت بمساعدة إيمي الثلج عن شاحنتي في ذلك اليوم في سايوكس فالز، دخلت الشاحنة وأدرت المفتاح، وكنت أظن أنني لن أسمع إلا صوت طقطقة المفتاح الميتة التي تصدرها السيارات عندما لا يبقى فيها شيء تقدمه لك، لكن الشاحنة تحركت فوراً. كان بإمكاننا أن نعود إلى مينيابولس، لكننا قررنا بدلاً من ذلك أن ننزل في فندق صغير تلك الليلة، ثم خرجنا لنتناول عشاء باكراً في مطعم مكسيكي ونحن مبتهجتان للسهولة غير المتوقعة لرحلتنا. وبينما نحن نتناول البطاطا مع الصلصة انتابني شعور مضحك في أحشائي، فأخبرت إيمي: - أشعر وكأنني ابتلعت قطع البطاطا كما هي، وكأن الحواف لا تزال سليمة وتسبب وخزة داخلي.

كنت أشعر بالشبع وبوخز إلى الأسفل كما لم أشعر من قبل، فقلت مازحة: - قد أكون حاملاً.

ثم أدركت في تلك اللحظة أنني لم أكن أمزح، فسألتني إيمي: - هل أنت حامل؟

فأجبتها وأنا أشعر بالذعر فجأة: - قد أكون.

فقد قمت بعلاقة حميمة قبل بضعة أسابيع مع رجل يدعى جو قابلته الصيف الماضي في بورتلاند عندما ذهبت إلى هناك لزيارة ليزا لأهرب من مشاكلي، ولم أكن قد قضيت هناك إلا بضعة أيام عندما تقدم نحوي في

المقهى ووضع يده على معصمي قائلاً وهو يداعب بأصابعه الأطراف الحادة لسواري المصنوع من المعدن: - إنه جميل.

كان يمتلك شعراً لامعاً– يشبه قصة شعر البانك– قريباً من فروة الرأس، ووشماً مبهرجاً يغطي نصف ذراعه، رغم أن وجهه كان مناقضاً تماماً لهذا التمويه؛ فقد كان وجهه رقيقاً كقطة صغيرة ترغب بالحليب، وكان يبلغ من العمر أربعة وعشرين عاماً بينما كنت في الخامسة والعشرين من عمري، ولم أكن قد تقربت من أحد منذ أن انتهت علاقتي ببول قبل ثلاثة أشهر. وفي تلك الليلة، قمنا بعلاقة حميمة على الأرض على فوتون ياباني متكتل تعود ملكيته لجو، وبالكاد نمنا فقد كنا نتحدث حتى طلعت الشمس، وفي الغالب كان الحديث عنه؛ فقد أخبرني عن ذكاء أمه وإدمان أبيه على الشراب والمدرسة الصارمة والفاخرة التي نال منها الشهادة الجامعية في السنة الماضية.

سألني في الصباح: - هل سبق لك أن جربت الهيروين؟

فهززت رأسي بالنفي وضحكت بفتور قائلة: - وهل يجب علي ذلك؟

كان باستطاعتي أن أجعله يكف عنه، فهو لم يبدأ باستخدامه إلا عندما التقينا، وكان يتعاطاه بعيداً عني مع مجموعة من الأصدقاء لا أعرفهم، وكان من الممكن أن أنزلق معه، لكن شيئاً ما أجبرني على التوقف بدلاً من ذلك، فقد كنت مفتونة ومستقلة، وكنت في شبابي، وحزني يدفعني لأدمر نفسي.

لذلك لم أوافق فقط على الهيروين، وإنما تمسكت به بكلتا يديّ. وأول مرة استخدمته فيها كان جو يحتضنني ونحن متمددان على أريكة وضيعة، بعد أسبوع من لقائنا، وكنا قد تبادلنا في سَحِب الدخان من نقطة مشتعلة من هيروين القطران الأسود الموضوع على صفيحة من قصدير الألمنيوم عبر أنبوب مصنوع من القصدير أيضاً. وخلال بضعة أيام، لم أعد أذهب إلى بورتلاند لزيارة ليزا أو للهروب من أحزاني، وذلك بسبب وقوعي في شبه حب لجو توقده المخدرات؛ حيث انتقلت إلى شقته فوق متجر أدوية مهجور، وأمضينا معظم الصيف ونحن نتعاطى الهيروين. في البداية، كنا نقوم بذلك بضع مرات في الأسبوع، ثم كل يومين، ثم يومياً. وكنا ندخنه في البداية، ثم أصبحنا نشمه، لكننا كنا نقول إننا لن نأخذه كحقن قطعاً.

ثم أخذناه كحقن.

وقد كان جيداً كشيء جميل على نحو جامح وخارج عن هذا العالم، وكأنني اكتشفت كوكباً حقيقياً لم أعرف أنه كان موجوداً من البداية، وهو كوكبِ الهيروينِ والمكان الذي لا ألم فيه، حيث كان مؤسفاً لكنه أمر عادي

أساساً، إذ إن أمي توفيت وأبي البيولوجي لم يكن في حياتي وعائلتي قد انهارت ولم يكن بمقدوري أن أبقى متزوجة من رجل أحبه.

على الأقل، هذا ما كنت أشعر به وأنا في حالة النشوة.

لكن في الصباح كان ألمي يتضاعف إلى ألف ضعف. ففي الصباح، لم تكن هناك فقط الحقائق الحزينة المتعلقة بعائلتي، وإنما أيضاً توجد حقيقة إضافية، وهي أنني كتلة من الغباء عديمة القيمة، إذ كنت أستيقظ في غرفة جو القذرة وسط كل شيء تافه: المصباح والطاولة والكتاب الذي سقط وبقي مفتوحاً إلى الأسفل وصفحاته المهلهلة محدبة نحو الأرض. وفي الحمام، كنت أغسل وجهي وأنشج بكاء بين كفي ببضعة أنفاس سريعة لأحضر نفسي لعملي الذي اخترته كنادلة في مكان لتقديم الفطور، وكنت أفكر: «هذه ليست أنا ولا طريقة حياتي... توقفي... كفى». لكنني بعد الظهيرة أعود ومعي رزمة من الأوراق النقدية لأشتري قليلاً من الهيرويين أيضاً وأنا أفكر: «نعم... علي أن أقوم بذلك وأن أضيّع حياتي... علي أن أكون من الحثالة».

لكن ذلك لم يتم. إذ إن ليزا اتصلت بي في أحد الأيام وطلبت أن تراني. كنت قد بقيت على اتصال بها، حيث كنت أمكث عندها لفترة طويلة مساء وأعطيها لمحات عما قد وصلت إليه. لكن حالما دخلت بيتها هذه المرة عرفت أن هناك شيئاً ما سيحصل، فقد قالت: - إذاً، أخبريني عن الهيرويين.

فأجبت بطريقة هزلية: - الهيرويين؟

إذ ماذا عساي أن أقول؟ فهو أمر لا يمكن شرحه حتى بالنسبة لي، فقلت مقترحة وأنا أتكئ على طاولة المطبخ وأشاهدها وهي تكنس الأرض: - لم أتحول إلى مدمنة إذا كان ذلك ما يقلقك.

فقالت بصرامة: - نعم هذا ما يقلقني.

- حسناً لا تقلقي.

وشرحت لها بعقلانية ومرح قدر الإمكان أن ذلك لم يكن إلا لمجرد شهرين، وأننا سنتوقف قريباً، وأنني وجو كنا نلهو فقط ونمرح، وصرخت قائلة: - إنه وقت الصيف. هل تذكرين كيف اقترحت أنت علي أن آتي إلى هنا لأهرب؟ إنني أهرب.

وضحكت رغم أنها لم تضحك معي، وذكّرتها أنه لم يسبق أن كانت لي مشكلة مع المخدرات، وأنني أحتسي الشراب باعتدال وتحفظ، وأخبرتها أنني

تجريبية وفنانة، ومن نوع النساء اللاتي يقلن نعم بدلاً من لا.

وكانت تدحض كل ما أقوله وتشكك في كل مبرر أعطيه، وهي تستمر في كنس الأرض بينما تحول حديثنا إلى جدال. وفي النهاية، غضبت مني لدرجة أنها ضربتني بالمكنسة، فعدت إلى شقة جو وتحدثنا أن ليزا لا تتفهم فحسب.

ثم بعد أسبوعين اتصل بول، وطلب أن يراني فوراً، فقد أخبرته ليزا عن جو وعن استخدامي للهيروين، فقطع بسيارته ألفاً وسبعمائة ميل فوراً من مينيابولس ليكلمني. التقيته خلال أقل من ساعة في شقة ليزا، وكان يوماً مشمساً ودافئاً في أواخر شهر سبتمبر، وكنت قد أصبحت في السادسة والعشرين من عمري قبل أسبوع. لكن جو لم يتذكر، فكان أول ذكرى ميلاد لي لا يقول لي فيها أي شخص: كل عام وأنت بخير.

لكن بول قال لي وأنا أدخل من الباب: - كل عام وأنت بخير.

فقلت برسمية شديدة: - شكراً.

- كنت أريد أن أتصل، لكنني لا أعرف رقمك... أقصد رقم جو.

فهززت رأسي، إذ كان من الغريب أن أراه: زوجي... سراب من حياتي الفعلية.... أصدق من عرفت.

جلسنا إلى طاولة المطبخ، وأغصان شجرة التين تنقر على النافذة القريبة، والمكنسة التي ضربتني بها ليزا مستندة على الحائط، فقال: - تبدين مختلفة. تبدين... لا أدري كيف أعبر عن ذلك؟ تبدين كما لو أنك لست هنا.

كنت أعرف ما يقصده، فطريقة نظره إلي كانت تخبرني بكل ما رفضت أن أسمعه من ليزا. فقد كنت مختلفة حقاً، ولم أكن موجودة هناك، فالهيروين جعلني أبدو كذلك. لكن فكرة الإقلاع عنه كانت تبدو مستحيلة، فالنظر مباشرة إلى وجه بول جعلني أدرك أنني لا أستطيع أن أفكر على نحو سليم. سألني وعيناه تنظران إليّ برفق ووجهه كما أعرفه جيداً: - فقط أخبريني، لماذا تفعلين ذلك بنفسك؟

ومد يديه عبر الطاولة وأخذ يديّ، وأمسكت يداي يديه، وظلت عيناي وعيناه مثبتة على بعضنا بعضاً، والدموع تنهمر على وجهي أولاً ثم على وجهه. كان يريد مني أن أذهب معه إلى بيته في ذاك المساء كما قال بهدوء؛ لا لأجل جمع الشمل معه من جديد، وإنما لأبتعد، ليس عن جو وإنما عن الهيروين.

فأخبرته أنني أحتاج إلى التفكير، ثم قدت السيارة عائدة إلى شقة جو، وجلست في الشمس على كرسي تركه جو على الرصيف خارج البناء. الهيروين جعلني معتوهة وبعيدة عن نفسي؛ فالأفكار كانت تتشكل ثم تتبخر، ولم يكن باستطاعتي أن أتحكم بذهني حتى عندما لم أكن في قمة النشوة. وبينما كنت جالسة هناك، جاء رجل لعندي وذكر أن اسمه تيم وأخذ بيدي وصافحني وأخبرني أنه يمكنني الوثوق به، وطلب مني أن أعطيه ثلاثة دولارات من أجل الحفاضات، ثم طلب أن يستخدم هاتفي داخل الشقة، ثم سألني إن كان لدي صرف ورقة خمسة دولارات نقدية. وهكذا، طرح سلسلة من الأسئلة الملتوية والقصص المؤسفة التي أربكتني وأجبرتني على الوقوف لأسحب آخر عشرة دولارات أملكها من جيب سروالي.

وعندما رأى المال سحب سكيناً من قميصه ورفعها إلى صدري بأدب وهمس: - أعطيني إياها يا عزيزتي.

وضعت بضعة أغراض في الحقيبة، وكتبت ملاحظة لجو وألصقتها على المرآة واتصلت ببول. وعندما توقف عند الزاوية دخلت سيارته.

جلست على المقعد الأمامي بينما قاد السيارة عبر البلد وأنا أشعر أن حياتي الحقيقية موجودة لكنها صعبة الإدراك. فقد تشاجرت مع بول وبكينا وزلزلنا السيارة بغضبنا؛ إذ كنا فظيعين بوحشيتنا ثم تحدثنا بلطف بعد ذلك، وقد أذهلنا نفسينا وبعضنا بعضاً، فقررنا أن ننفصل بالطلاق ثم عدلنا عن هذا الرأي، ففي وجوده كنت أشعر بأنني مأسورة ومميزة ومسجونة ومحبوبة مثل الابنة.

في أحد شجاراتنا صرخت: - لم أطلب منك أن تأتي لتأخذني، وإنما أتيت لأسباب خاصة بك؛ لكي تبدو كالبطل الكبير.

- ربما.

فسألته وأنا ألهث حزناً: - لماذا قطعت كل هذه المسافة لتأخذني؟

فأجاب وهو يمسك بالمقود وينظر إلى الليلة المقمرة من زجاج السيارة الأمامي: - لسبب ما.

قابلت جو بعد عدة أسابيع عندما أتى لزيارتي في مينيابولس، ورغم أننا لم نعد مع بعضنا فإننا مباشرة عدنا لأيامنا القديمة، أي لتعاطي المخدرات كل يوم من الأسبوع الذي كان موجوداً فيه. لكن عندما غادر انتهيت منه ومن

الهيروبين، ولم أفكر فيه إلا عندما كنت مع إيمي في سايوكس فالز؛ عندما لاحظت شعوري بوخز أطراف قطع البطاطا غير المطحونة في أحشائي.

غادرت المطعم المكسيكي وذهبت إلى متجر كبير بحثاً عن جهاز الكشف عن الحمل. وعندما دخلت المتجر المضاء بأضواء لامعة فكرت مع سري بصمت أنني لست حاملاً، فقد تجنبت تلك الرصاصة عدة مرات بعد أن شعرت بالقلق والاضطراب بلا فائدة متخيلة أن أعراض الحمل مقنعة لدرجة أنني كنت أشعر بالذهول حين تأتيني الدورة الشهرية. لكنني الآن في السادسة والعشرين من عمري ولم أكن مستعدة لكي أقع في مخاوف أخرى.

وفي الفندق الصغير أغلقت باب الحمام خلفي، ونظرت إلى مؤشر تحليل الكشف عن الحمل بينما كانت إيمي تجلس على السرير خارجاً. وخلال لحظات ظهر خطان أزرقان غامقان على لوحة فحص الحمل الصغيرة.

فقلت لإيمي عندما خرجت والدموع تملأ عينيّ: - إنني حامل.

واتكأت مع إيمي على السرير لنتحدث عن هذا الأمر لساعة رغم أنه لم يكن هناك الكثير لنتحدث عنه، فحقيقة وجوب الإجهاض كانت واضحة حيث كان من السفه مناقشة أي خيار آخر.

استغرق طريقي من سايوكس فالز إلى مينيابولس أربع ساعات بالسيارة، ولحقت إيمي بي في الصباح التالي بسيارتها خشية أن تتعطل شاحنتي في الطريق مرة ثانية، وكنت أقود دون الاستماع إلى الراديو لأنني كنت أفكر بالحمل. فرغم أن الأمر كان بحجم حبة الأرز فقد كنت أشعر به في أعمق وأقوى جزء مني يأخذني نحو الأسفل ثم يهزني نحو الأعلى ثم يرتد صداه. وفي إحدى المزارع جنوب غرب مينيسوتا انفجرت بالبكاء، حتى إنني لم أستطع القيادة. ولم أكن أبكي بسبب الحمل الذي لم أكن أريده فقط، وإنما من كل شيء... من المستنقع السقيم الذي آلت إليه حياتي منذ أن توفيت والدتي، ومن وجودي الغبي الذي انتهيت إليه، فلم يكن مكتوباً لي أن أعيش بهذه الطريقة وأن أسقط في الظلام؟

وهنا تذكرت كتاب الدليل الذي سحبته من الرف في متجر بيع المعدات وأنا أنتظر لشراء المجرفة قبل يومين. فصورة البحيرة ذات الصخور المتناثرة والمحاطة بالجرف الصخري، والسماء الزرقاء المعروضة على الغلاف كانتا واضحتين كضربة في وجهي. ورغم أنني كنت أعتقد أنني أمضي الوقت عندما سحبت الكتاب وأنا أنتظر ضمن الطابور، فإنني أجده الآن شيئاً أكبر من ذلك، فهو إشارة ليس فقط إلى ما يمكنني فعله وإنما إلى ما عليّ فعله.

وعندما وصلت مع إيمي إلى مينيابولس لوّحت لها عند مكان نزولها، لكنني لم أذهب إلى وجهتي وإنما توجهت نحو متجر المعدات، واشتريت كتاب «طريق جبال المحيط الهادئ، المجلد الأول: كاليفورنيا»، وأخذته إلى شقتي وسهرت طوال الليل وأنا أقرأه. أجريت عملية الإجهاض، وتعلمت كيفية صنع رقائق التونا المجففة، واللحم المقدد، واتبعت دورة تدريبية في الإسعافات الأولية، وتعلمت استخدام جهاز تنقية المياه في مجلاة المطبخ؛ فقد كان علي أن أتغير، وفكرة التغيير هذه هي التي دفعتني إلى التخطيط في تلك الأشهر، لا إلى التغيير إلى إنسانة أخرى، وإنما إلى الإنسانة التي اعتدت أن أكونها: قوية ومسؤولة وصافية الذهن وصالحة وأخلاقية وعندها دافع، وطريق جبال المحيط الهادئ سيجعلني كذلك، فهناك يمكنني السير والتفكير بحياتي كلها، واستعادة قوتي بعيداً عن كل ما جعل حياتي سخيفة.

لكنني الآن على طريق جبال المحيط الهادئ أشعر بالسخف– ولكن بطريقة مختلفة– وأنا أنحني في وضعية الانتصاب في أول يوم من رحلتي.

وبعد ثلاث ساعات وصلت إلى مكان مستوٍ قرب تجمع لأشجار الجاشوا واليوكا والعرعر فتوقفت لأستريح. وما أراحني كثيراً وجود صخرة كبيرة يمكنني أن أجلس عليها وأنزع حقيبتي عن ظهري بالطريقة نفسها التي اتبعتها في السيارة المغلقة في موهافي. ومن دهشتي لتحرري من ثقلها، تمشيت واحتككت بإحدى أشجار الجاشوا فطعنتني أشواكها الحادة وتدفق الدم فوراً من ثلاثة جروح في ذراعي. وكانت الرياح شديدة، حيث تطايرت كل أدوات التضميد من علبة الإسعافات الأولية عندما أخرجتها من حقيبتي وفتحتها، فتبعتها عبر السهل المنبسط بلا جدوى؛ إذ غابت أسفل الجبل بعيدة عن المنال، فجلست على التراب، وضغطت كم قميصي على ذراعي، وشربت جرعات كبيرة من قارورة المياه.

لم يسبق لي أن شعرت بهذا التعب من قبل، فقد كان جزء من هذا التعب ناجماً عن تكيف جسمي على المجهود والارتفاع، فأنا الآن على ارتفاع 5000 قدم، أي أعلى من النقطة التي بدأت عندها وهي طريق تيهاتشابي بحوالي 1200 قدم. لكن معظم إرهاقي كان بسبب ثقل حقيبتي الفظيع. نظرت إليها بيأس، فهي العبء الذي علي حمله والذي كان من صنعي العجيب، لكن لم تكن لدي أدنى فكرة عن كيفية حمله، فأخذت كتاب الدليل مرة أخرى وتصفحته ممسكة بصفحاته المضطربة بسبب الرياح وأنا آمل أن تزيل الكلمات التي أقرأها والخرائط التي أشاهدها قلقي المتزايد، وأن يقنعني الكتاب بالانسجام اللطيف لأجزائه الأربعة أنه يمكنني القيام بذلك بالطريقة نفسها التي أقنعني بها في الأشهر التي كنت أفكر فيها بالمشروع. ورغم أنه لم

تكن هناك صور لمؤلفي الكتاب الأربعة، فقد كان باستطاعتي أن أرى كلاً منهم بعيني عقلي وهم: جيفري شافر وتوماس وينيت وبين شيفرن وروبي جينكنز، فكلهم لطفاء ومتعقلون وحكماء وعلماء، لذلك سيقودونني في رحلتي كما ينبغي عليهم.

حدثني الكثير من الناس في متجر المعدات عن رحلات السفر سيراً على الأقدام، لكن لم يسبق لأحد منهم أن مشى في طريق جبال المحيط الهادئ، ولم يخطر لي أن أبحث عن شخص جرب ذلك من قبل. ففي صيف 1995 كنا في العصر الحجري في ما يتعلق بالإنترنت، أما الآن فتوجد عشرات المجلات الإلكترونية عن السفر في طريق جبال المحيط الهادئ، وفيض من المعلومات العميقة والثابتة والمتجددة عن الطريق، لكن لم يكن لدي أي منها، إذ لم يكن لدي سوى كتاب: طريق جبال المحيط الهادئ، المجلد الأول: كاليفورنيا، الذي كان حبل نجاتي والكتاب الوحيد الذي قرأته عن السفر مشياً على طريق جبال المحيط الهادئ أو أي مكان آخر يتعلق بهذا الأمر.

لكن تصفح الكتاب لأول مرة أثناء الجلوس على الطريق فعلاً كان أقل طمأنة مما كنت آمل، إذ إن هناك أشياء كنت قد أغفلتها لكنني رأيتها الآن؛ مثل اقتباس في الصفحة السادسة من شخص يدعى تشارلز لونغ وافقه مؤلفو الكتاب بشدة عليه ويقول فيه: «كيف يمكن لكتاب أن يصف العوامل النفسية التي يجب على الشخص أن يستعد لها... اليأس والغربة والقلق وخاصة الألم الجسدي والذهني الذي يضرب صميم إرادة المسافر مشياً، وهي الأشياء الحقيقية التي يجب التخطيط لها؟ إذ لا يمكن للكلمات أن تنقل تلك العوامل...»

جلست بعينين مشدوهتين وبمعرفة مترنحة، وهي أنه حقاً لا توجد كلمات يمكن أن تنقل هذه العوامل. لكن ليس من الضرورة أن تنقلها، فأنا الآن أعرفها تماماً، حيث عرفتها بعد المشي أكثر من ثلاثة أميال في الجبال الصحراوية تحت حقيبة تشبه سيارة فولكس فاغن بيتل. وأكملت القراءة، فلاحظت تنويهات مفادها أنه من الحكمة أن يحسن الشخص لياقته البدنية قبل الانطلاق للتدريب خاصة على السير، وطبعاً تحذيرات أيضاً بشأن ثقل حقيبة الظهر، واقتراحات حتى بالإحجام عن حمل كتاب الدليل نفسه لأنه ثقيل جداً ليحمل بأكمله، وهو غير ضروري على أية حال. إذ يمكن تصوير أو انتزاع الأجزاء المطلوبة ووضع الجزء المهم في صندوق إعادة التموين، ثم أغلقت الكتاب.

لماذا لم أفكر بذلك من قبل؟ لم أفكر بتجزئة الكتاب إلى أجزاء؟

لأنني بلهاء غبية لا أعرف ما أقوم به، هذا هو السبب. وأنا الآن وحيدة في البرية ومعي حمل كبير لأحمله بينما اكتشفت ذلك.

لففت ذراعيّ حول ساقيّ وضغطت بوجهي على ركبتيّ وأغمضت عينيّ وجثمت على شكل كرة والرياح تضرب شعري الذي يبلغ كتفيّ بجنون.

وعندما فتحت عينيّ بعد عدة دقائق، لاحظت أنني كنت جالسة بجوار نبتة أعرفها، لكن نبتة المريمية هذه كانت أقل خضرة من المريمية التي كانت أمي تزرعها في حديقتنا لسنوات، رغم أن الشكل والرائحة نفساهما. مددت يدي وقطفت قبضة من الأوراق وفركتها بين راحتَي كفيّ، ثم قربت وجهي منها واستنشقت بعمق كما علمتني أمي، فقد كانت تخبرني أنها تعطي دفعة من الطاقة، وتطلب مني ومن أخويّ أن نحذو حذوها في تلك الأيام الطويلة التي قضيناها في بناء منزلنا بينما كانت أجسامنا وأرواحنا ضعيفة.

لكن باستنشاقها الآن لم أشم رائحة مريمية الصحراء الترابية الوخازة بقدر ذكرى أمي القوية، فنظرت إلى السماء الزرقاء وشعرت حقاً بدفعة من الطاقة؛ لكن لشعوري بحضور أمي، وتذكري سبب تفكيري أنه بمقدوري القيام بهذه الرحلة. فمن بين كل الأشياء التي أقنعتني بعدم الخوف أثناء هذه الرحلة، ومن بين كل الأفكار التي زرعتها في نفسي لأتمكن من السفر سيراً على طريق جبال المحيط الهادئ، كانت وفاة أمي أكثر أمر جعلني أشعر بالأمان بعمق؛ فلا شيء سيئ قد يحصل لي لأنني عشت الأسوأ.

وقفت وتركت الرياح تحمل أوراق المريمية من يدي، ومشيت إلى حافة المنطقة المستوية التي كنت أشغلها، فكانت الأرض البعيدة تفسح الطريق لبروز صخري تحتها؛ إذ كنت أستطيع رؤية الجبال التي تحيط بي لأميال وهي تنحدر بلطف نحو وادٍ صحراوي واسع، وكانت عنفات الرياح النحيلة البيضاء تشكل خطاً عند السلاسل البعيدة، وحسب كتاب الدليل فإنها تولد الكهرباء لسكان المدن والبلدات في الأسفل، لكنني الآن بعيدة عنها وعن المدن والبلدات وعن الكهرباء وعن كاليفورنيا أيضاً كما يبدو، رغم أنني كنت في قلبها أي في قلب كاليفورنيا الحقيقية برياحها العاتية وأشجار الجاشوا والأفاعي المجلجلة المختبئة في أماكن لا يزال علي أن أكتشفها.

وبينما كنت واقفة هناك كنت أعلم أنني انتهيت ذلك اليوم رغم أنني كنت أنوي المتابعة عندما توقفت، فنصبت خيمتي رغم أن الساعة كانت الرابعة عصراً. ولأنني كنت متعبة جداً لم أستطع أن أشعل الموقد، كما كنت مرهقة جداً لكي أجوع على أية حال، فأخرجت أشيائي من حقيبتي ورميتها في الخيمة لأمنع الرياح من حملها، ثم ألقيت الحقيبة أيضاً وزحفت خلفها، فشعرت

فوراً بالراحة لكوني في الداخل رغم أن الداخل كان يعني فقط كهفاً ضيقاً من النايلون. جهزت كرسي المخيم الصغير وجلست عند البوابة حيث كان سقف الخيمة عالياً بما فيه الكفاية ليتسع لرأسي، ثم بحثت ضمن أشيائي لأجد كتاباً غير كتاب «طريق جبال المحيط الهادئ، المجلد الأول: كاليفورنيا» الذي كنت أقرأه لأجد ما ينتظرني في اليوم التالي، وغير الكتاب الإرشادي لاستخدام البوصلة والذي كان يجب أن أقرأه بداية الرحلة، وإنما قصائد أدريان ريتش «الحلم بلغة مشتركة».

كنت أعلم أن هذا ثقل لا يمكن التكيف معه، وكان بإمكاني أن أتخيل التعبيرات الناقدة على وجوه مؤلفي كتاب «طريق جبال المحيط الهادئ، المجلد الأول: كاليفورنيا»، وحتى رواية فولكنر كانت تستحق الوجود في حقيبتي أكثر إذا أخذنا بعين الاعتبار أنني لم أقرأها بعد، ولذلك يمكن تبرير وجودها كطريقة للتسلية. أما كتاب «الحلم بلغة مشتركة» فقد قرأته مرات عديدة لدرجة أنني حفظته فعلياً، فقد كانت بعض الأسطر فيه في السنوات القليلة الماضية كالسحر بالنسبة لي، حيث كنت أترنم بتلك الكلمات خلال حزني واضطرابي، لذلك كان هذا الكتاب عزاء لي وصديقاً قديماً، وعندما حملته بيديّ في أول ليلة من الرحلة لم أندم على أخذه ولا مقدار ذرة، رغم أن أخذه كان يعني أنني سأنحني تحت ثقله لا أكثر، ورغم أنه من الصحيح أن كتاب «طريق جبال المحيط الهادئ، المجلد الأول: كاليفورنيا» دليلي الآن، فإن كتاب «الحلم بلغة مشتركة» هو الذي يمنحني الأمل.

فتحته وقرأت أول قصيدة بصوت مرتفع وصوتي يعلو على صوت الرياح وهي تضرب جدران الخيمة، وأعدت قراءتها مرات وكرات، وقد كان عنوان القصيدة «القوة».

5

الآثار

تقنياً أنا أكبر من طريق جبال المحيط الهادئ بخمسة عشر يوماً، فقد ولدت عام 1968 في 17 ديسمبر بينما تم تحديد الطريق رسمياً بمرسوم من الكونغرس في 2 أكتوبر من السنة نفسها، لكن الطريق كان موجوداً بعدة أشكال قبل ذلك– فقد تم شق أجزاء منه وتجميعها مع بعضها منذ الثلاثينيات من القرن العشرين، عندما أبدت مجموعة من المسافرين سيراً على الأقدام والمناصرين للبرية اهتماماً بإنشاء طريق من المكسيك إلى كندا– لكن، لم يتم تحديد طريق جبال المحيط الهادئ حتى عام 1968، ولم يتم إكماله حتى عام 1993، وتم افتتاحه رسمياً تقريباً قبل عامين بالضبط من استيقاظي في أول يوم لي بين أشجار الجاشوا التي جرحتني، لكنه لم يبد لي بعمر السنتين، ولا حتى بعمري نفسه، وإنما بدا لي قديماً وعالماً ومحايد تماماً.

استيقظت عند الفجر، لكنني لم أستطع أن أستجمع قوتي للجلوس لمدة ساعة، فبقيت مستلقية في حقيبة النوم وأنا أقرأ كتاب الدليل. كنت لا أزال أشعر بالنعاس رغم أنني نمت اثنتي عشرة ساعة أو على الأقل بقيت أستريح طوال تلك الفترة، وقد أيقظتني الرياح عدة مرات أثناء الليل وهي تضرب خيمتي بهبّات عظيمة بلغت قوتها أحياناً حداً عظيماً جعل جدران الخيمة تضرب رأسي، ثم هدأت قبل الفجر بقليل، لكن شيئاً آخر أيقظني عند ذلك وهو السكون، فهو البرهان الذي لا يقبل الجدل أنني هنا وحدي في هذا المكان العظيم.

زحفت لأخرج من الخيمة ووقفت ببطء؛ فعضلاتي كانت متيبسة من المشي في اليوم السابق، وقدماي العاريتان رقيقتان على التراب الصخري. ورغم أنني لم أكن أشعر بالجوع إلا أنني أجبرت نفسي على تناول الفطور حيث سكبت ملعقتين من مادة مؤلفة من بودرة الصويا تدعى «أفضل من الحليب» في إناء وحركتها في الماء ثم أضفت الغرانولا، لكن مذاقها لم يبد أفضل من الحليب بالنسبة لي ولا أسوأ، بل إن مذاقها لم يكن يشبه أي شيء، وكأنني أتناول العشب. فالحليمات الذوقية عندي تخدرت على ما يبدو، ولذلك تابعت الضغط بالملعقة في فمي، فأنا على أي حال بحاجة للغذاء استعداداً لليوم الطويل الذي ينتظرني، وشربت ما تبقى من الماء في قارورة المياه، وأعدت ملأها بارتباك من حقيبتي المحدبة التي انطرحت بثقل على يديّ. حسب كتاب «طريق جبال المحيط الهادئ، المجلد الأول: كاليفورنيا» كنت

على بعد ثلاثة عشر ميلاً من أول مصدر للمياه، وهو ينابيع البلوط الذهبية التي كنت أتوقع الوصول إليها مع نهاية اليوم؛ رغم ما ظهر في اليوم السابق من حال سيئة.

عبأت حقيبتي بالطريقة نفسها التي عبأتها بها قبل يوم في الفندق الصغير، حيث حشوتها وأقحمت فيها الأشياء حتى لم تعد تتسع لأي شيء آخر فعلقت ما تبقى بحبال القفز من الخارج، واستغرقت ساعة لأفض المخيم وأنطلق. وعلى الفور تقريباً، تعثرت بشيء متكتل صغير على الطريق على بعد بضع أقدام عن المكان الذي كنت أنام فيه، وكان لونه أسود كالقطران فتأملت أن يكون ذئب البراري، أم أنه أسد الجبال؟ وبحثت في التراب عن الآثار لكنني لم أر أياً منها، كما دققت في صفحة الأرض وأنا أتوقع رؤية وجه هرّ كبير بين أغصان المريمية والصخور.

بدأت أسير وأنا أشعر أن لدي خبرة لم تكن لدي يوم أمس، فقد أصبحت أقل حذراً في كل خطوة أخطوها، وأصبحت أقوى؛ رغم وجود الشيء المتكتل على ظهري، والمتمثل في عبء حمل الحقيبة. لكن هذه القوة تقلصت خلال خمس عشرة دقيقة بينما كنت أتابع الصعود مندفعة نحو الجبال الصخرية، وقاطعة الطرق المتعرجة الواحد تلو الآخر، والحقيبة تصدر صريراً مع كل خطوة. أرهقني الثقل، فقد انعقدت عضلات كتفيّ والجزء العلوي من ظهري بعقد ساخنة شديدة، مما جعلني أتوقف بين الفينة والأخرى وأنحني لأسند يديّ على ركبتيّ وأزيح ثقل الحقيبة عن كتفيّ للحظة من الراحة قبل أن أتابع السير بتمايل.

وبحلول الظهيرة وصلت إلى ارتفاع أكثر من 6000 قدم، وكان الهواء قد برد والشمس قد اختفت فجأة خلف الغيوم. وقد كان يوم أمس يوماً حاراً في الصحراء، أما اليوم فكنت أرتجف وأنا أتناول غدائي المؤلف من قطعة بروتين ومشمش مجفف؛ إذ إن قميصي المبلل بالعرق أصبح بارداً على ظهري، فبحثت بعمق لأخرج معطفي الصوفي من حقيبة الملابس وارتديته، وبعد ذلك استلقيت على غطاء من القنب لبضع دقائق فاستغرقت في النوم دون قصد.

استيقظت وأنا أحس بحبات المطر التي كانت تتساقط على وجهي. وحين نظرت إلى الساعة، وجدت أنني قد نمت ما يقارب الساعتين، لكنني لم أحلم بأي شيء، ولم أكن أدرك أنني كنت نائمة على الإطلاق، كما لو أن أحدهم قد صعد خلفي وضربني بصخرة ففقدت الوعي. وعندما نهضت، رأيت أنني كنت محاطة بالغيوم، فلم أستطع الرؤية لأكثر من بضع أقدام؛ إذ إن الضباب كان غير قابل للاختراق، فأحكمت الأحزمة التي تثبت الحقيبة إلى جسدي، وتابعت السير عبر الأمطار الخفيفة، رغم أن كل جسمي كان يشعر

بأنه يندفع عبر المياه العميقة مع كل خطوة. جمعت حافة قميصي وسروالي القصير وثبّتهما على الأماكن في وركيّ وظهري وكتفيّ التي كانت تحتك بالحقيبة الثقيلة لكن ذلك لم يجعل الأمر إلا أكثر سوءاً.

أكملت مسيري صعوداً حتى وقت متأخر من المساء وأنا غير قادرة على رؤية أي شيء سوى ما كان أمامي مباشرة، لكنني لم أكن أفكر بالأفاعي كما كنت أفكر في اليوم السابق، ولم أكن أفكر بأنني أسير على طريق جبال المحيط الهادئ، ولم أكن أفكر حتى: ما الذي فعلته بنفسي؟ فكل ما كنت أفكر به هو التقدم بنفسي إلى الأمام؛ إذ كان ذهني كإناء زهور بلوري لا يحوي سوى تلك الرغبة، بينما كان جسدي العكس تماماً؛ كحقيبة من الزجاج المكسور. إذ إن كل حركة كنت أقوم بها كانت تسبب لي ألماً، مما جعلني أحصي الخطوات لأبعد تفكيري عن الألم وأنا أعد بصمت الأرقام في رأسي حتى المائة، ثم أكرر العد من جديد؛ حيث إن الأرقام جعلتني أتحمل السير أكثر قليلاً، وكأنه علي أن أصل فقط إلى نهاية كل عد.

وبينما كنت أصعد أدركت أنني لم أكن أفهم ما معنى الجبل، أو حتى ما إذا كنت أسير لأصعد جبلاً واحداً أو سلسلة من الجبال متعلقة ببعضها، فأنا لم أترعرع بالقرب من الجبال. ورغم أنني جربت السير على بعض الجبال إلا أنني لم أمش إلا على طرق معبدة جيداً في وضح النهار، لذلك لم تبد لي أكثر من هضاب كبيرة حقاً. أما الآن، فلم تبد الجبال كذلك، وإنما كانت كما أدركت؛ متعددة الطبقات ومعقدة وغير مفهومة ولا شبيهة بأي شيء. فكلما ظننت أنني وصلت إلى مكان اعتقدته قمة جبل أو سلسلة من الجبال المرتبطة ببعضها أدركت لاحقاً أنني مخطئة، ووجدت أنه لا تزال هناك مرتفعات أكثر لصعودها، حتى لو كان هناك منحدر صغير في البداية يتجه نزولاً بشكل مثير. لذلك صعدت نحو الأعلى حتى وصلت إلى القمة فعلاً، وقد علمت أنها القمة لأنه كانت هناك ثلوج، ليس على الأرض وإنما تتساقط من السماء بندف رقيقة تدور بقوة الرياح في نماذج هائجة.

لم أكن أتوقع أن تمطر في الصحراء، كما أنني بالتأكيد لم أتوقع أن تتساقط الثلوج فيها. ومثل ما ذكرته عن الجبال، لم تكن هناك صحارٍ حيث ترعرعت، ورغم أنني قد جربت السير في بعض الصحاري في وضح النهار، فإنني لم أكن أفهم ما معنى الصحراء وإنما كنت أعتقد أنها مكان جاف وحار ورملي ومليء بالأفاعي والعقارب والصبار، لكنها فعلاً لم تكن كذلك؛ فقد كانت مؤلفة من ذلك ومجموعة من الأشياء الأخرى. فهي متعددة الطبقات ومعقدة وغير مفهومة وغير شبيهة بأي شيء، أدركت في هذا اليوم الثاني من الرحلة أن وجودي الجديد لا مثيل له.

فأنا على أرض جديدة كلياً.

لكن لم تقتصر الأمور التي لم أكن أتوقعها على ماهية الجبال والصحراء، فأنا لم أتوقع أن ينزف اللحم على عصعصي ووركي ومقدمة كتفيّ، كما أنني لم أكن أتوقع أن أقطع مسافة بمعدل أقل بقليل من الميل في الساعة وهي المسافة التي قطعتها حتى الآن وفقاً لحساباتي التي استقيتها من كتاب الدليل المفصل، حيث حسبت إجمالي الاستراحات الكثيرة التي أخذتها مع الزمن الذي قضيته فعلياً بالسير. فعندما كانت رحلتي مجرد فكرة، كنت أخطط للوصول إلى معدل أربعة عشر ميلاً في اليوم خلال الرحلة، رغم أنني في معظم الأيام كنت أسير أكثر من ذلك؛ لأن المعدل الذي كنت أتوقعه كان يضم أيام الراحة التي آخذها كل أسبوع أو أسبوعين، لكنني لم آخذ بعين الاعتبار عوامل نقص اللياقة ولا قسوة الطريق الحقيقية حتى بدأت بالرحلة.

سيطر عليّ ذعر طفيف حتى تحوّلت الثلوج إلى ضباب، ثم تحوّل الضباب إلى مناظر صافية من الخضرة الساكنة واللون البني للجبال التي كانت تحيط بي من قريب ومن بعيد، حيث تناقض صورتها الجانبية المنحدرة والمتعرجة السماء الباهتة. وبينما كنت أمشي، كان الصوت الوحيد الذي أسمعه صوت حذائي طويل الساقين وهو يضرب الطريق الحصوي، وصرير حقيبتي الحاد الذي كان يثير جنوني ببطء، فوقفت ونزعت حقيبتي، ومسحت حافتها بمرهم الشفاه في المكان الذي كنت أظن أن الصرير يصدر عنه. لكنني عندما عاودت السير أدركت أن هذا لم يحدث أي فرق، فتلفظت ببضع كلمات لأشتت تركيزي. ورغم أنه لم يكن قد مر على وداع الرجلين اللذين أوصلاني إلى الطريق سوى ما يزيد على ثمان وأربعين ساعة بقليل، فقد بدا أنه قد مر أسبوع، كما بدا صوتي غريباً وحده في الهواء. فكرت أنني سأقابل مسافراً آخر على الطريق قريباً، وقد كنت متفاجئة لأنني لم أرَ أي مسافر على الطريق حتى الآن؛ رغم أن وحدتي كانت أمراً عملياً بعد ساعة عندما شعرت بحاجة يدعوها ذهني «استخدام الحمام»، رغم أن استخدام الحمام هنا يعني الحفاظ على وضعية القرفصاء دون دعم لكي أتغوط في حفرة من صنعي. ولهذا السبب أحضرت مجرفة فولاذية كانت معقودة على حزام الحقيبة في غمد أسود من النايلون مطبوعة عليه من المقدمة كلمة: احفر.

لم أكن لأحفر بها لولا أن هذا جزء من حياة المسافر سيراً؛ إذ لم يكن هناك شيء آخر يمكنني أن أقوم به. لذا مشيت حتى وجدت ما يبدو مكاناً معقولاً لأتجرأ على الخروج عن الطريق لعدة خطوات، ثم نزعت حقيبتي وسحبت المجرفة من غمدها واندفعت خلف أغصان المريمية لأحفر، لكن الأرض كانت صخرية وبنية فاتحة مائلة للحمرة وصلبة على ما يبدو، والحفر

فيها كان أشبه بمحاولة اختراق طاولة مطبخ من الجرانيت منثور عليها الرمل والحصى. فكرت بغضب وأنا أقحم رأس المجرفة في التربة حتى شعرت بأن معصميّ سيتكسران، وأدركت أنه لا يمكن إلا لمجرفة إلكترونية أو لرجل أن ينجز العمل، فحاولت قص رقاقات من التربة ولكن دون جدوى، وجسدي متشنج ومتلألئ بالعرق البارد. وفي النهاية، اضطررت إلى أن أتوقف كيلا أتغوط في بنطالي، ولم يكن لدي خيار سوى نزع البنطال والتغوط ببساطة ثم الانطلاق؛ فقد تخليت عن الثياب الداخلية لأنها تزيد وضع وركيّ المسلوخين تفاقماً، وكنت ضعيفة بعد هذا الارتياح عندما انتهيت، لدرجة أنني كدت أسقط على كومة برازي الحار.

وبعد ذلك، تقدمت ببطء لأجمع الحجارة وأكومها لدفن الأثر قبل أن أعاود الانطلاق في رحلتي.

كنت أعتقد أنني أتوجه إلى ينابيع البلوط الذهبية، لكن حتى الساعة السابعة لم تظهر هذه الينابيع على مرأى النظر، إلا أنني لم أهتم ولم أتناول الغداء مرة ثانية لأنني كنت متعبة جداً فلم أشعر بالجوع، وبذلك وفرت الماء الذي كنت سأستخدمه لتحضير الغداء. وجدت مكاناً مستوياً بما فيه الكفاية لأنصب خيمتي، وقد أشار ميزان الحرارة الذي كان متدلياً من جانب حقيبتي إلى أن الحرارة تصل إلى 42 درجة، فخلعت ملابسي المبللة بالعرق ونشرتها على غصن لتجف ثم زحفت إلى داخل الخيمة.

وفي الصباح، كان علي أن أرتديها بصعوبة؛ فقد كانت قاسية كقطعة خشب وقد تجمدت خلال الليل.

وصلت إلى ينابيع البلوط الذهبية بعد السير بضع ساعات في يومي الثالث على الطريق، وقد رفع منظر البركة المربعة الواقعية من معنوياتي كثيراً؛ لا لوجود المياه فحسب، وإنما لأنه من الواضح أن البشر قد أنشأوا هذه الينابيع. وضعت يدي في الماء فأزعجت بعض الحشرات التي كانت تسبح على السطح، وأخرجت منقي المياه ووضعت أنبوب الامتصاص في المياه وبدأت أضخ المياه بالطريقة نفسها التي مارستها في المجلى في مطبخي في مينيابولس. وقد بدت العملية أصعب مما أذكر أنها كانت؛ ربما لأنني عندما كنت أتدرب عليها لم أضخ إلا بضع مرات، بينما بدا لي الآن أن ضغط المضخة يتطلب جهداً أكبر. وعندما استطعت أن أضخ، طفا أنبوب الامتصاص على السطح فلم يسحب إلا الهواء، فقمت بالضخ عدة مرات حتى لم أعد أستطيع الضخ، وبعدها أخذت استراحة، ثم قمت بالضخ مرة ثانية، وملأت في النهاية قارورة المياه وحقيبة المياه الجلدية. ورغم أنني استغرقت في ذلك ما يقارب

الساعة، إلا أن الأمر كان ضرورياَ، فمصدر المياه التالي يبعد مسافة تسعة عشر ميلاً رهيبة.

وعلى الرغم من أنه كانت لدي كامل النية بأن أسير ذلك اليوم، لكنني بقيت جالسة على كرسي المخيم قرب النبع، ثم شعرت بالدفء مرة ثانية بعد أن توهّجت الشمس على ذراعيّ وساقيّ العارية، فخلعت قميصي وسحبت سروالي القصير إلى الأسفل، واستلقيت مغمضة عينيّ وأنا أرجو أن تسكّن الشمس الألم الذي أشعر به على جلد جذعي الذي كشطته الحقيبة. وعندما فتحت عينيّ، شاهدت سحلية صغيرة على صخرة قريبة، وبدا أنها تقوم بتمرين الضغط.

فقلت لها:

- أهلاً أيتها السحلية.

فتوقفت عن تمرين الضغط وبقيت تماماً بلا حراك، ثم اختفت بومضة.

وكان علي أن أستغل الوقت لأنني كنت متأخرة عن الجدول الذي كنت قد وضعته لنفسي، لكنني لم أستطع ذلك اليوم إجبار نفسي على مغادرة البقعة الوارفة الصغيرة من أشجار البلوط المحيطة بينابيع البلوط الذهبية. وبالإضافة إلى بقع اللحم المكشوطة على جسدي، كانت عضلاتي وعظامي تتألم من جراء السير، وكانت قدماي منقطتين بعدد متزايد من القروح، فجلست على التراب أتفحصها وأنا أعلم أنه لا يوجد الكثير لأفعله لكي أمنع القروح من التحول من سيئ إلى أسوأ. مرّرت يدي برقة فوقها، ثم فوق الكدمة السوداء التي انتشرت على كاحلي والتي كانت بحجم دولار فضي؛ وهي ليست إصابة تعرضت لها على طريق جبال المحيط الهادئ، وإنما دليل على غبائي قبل قيامي بالرحلة على طريق جبال المحيط الهادئ.

وبسبب هذه الكدمة آثرت ألا أتصل ببول عندما كنت أشعر بالوحدة في الفندق الصغير في موهافي. فهذه الكدمة في قلب القصة التي كنت أعلم أنه سيسمعها مختبئة في صوتي: كيف نويت الابتعاد عن جو في اليومين اللذين قضيتهما في بورتلاند قبل أن أسافر على متن الطائرة إلى لوس أنجلوس، لكنني لم أبتعد عنه. وكيف انتهى بي الأمر معه وأنا أحقن نفسي بالهيروين؛ رغم أنني لم أمسّه منذ أن زارني في مينيابولس قبل ستة أشهر.

فقد قلت له بإلحاح بعد أن شاهدته مرات يحقن في بوتلاند:

- دوري.

فقد كانت رحلة طريق جبال المحيط الهادئ تبدو بعيدة جداً في المستقبل؛ رغم أنه لم يكن يفصلني عنها سوى ثمانٍ وأربعين ساعة.

فأجاب جو عندما لم يجد الوريد في ذراعي:

- أعطيني كاحلك.

قضيت اليوم في ينابيع البلوط الذهبية وبوصلتي في يدي، وأنا أقرأ الكتاب الإرشادي لاستخدام البوصلة. فقد وجدت الشرق والغرب والشمال والجنوب، ومشيت بمرح دون حقيبتي على طريق وعر يوصل إلى الينابيع لأرى ما يمكن رؤيته، وقد كان من الرائع السير دون حقيبتي حتى في الوضع الذي كانت عليه قدماي؛ إذ كانتا تؤلمانني كما كانت عضلاتي تماماً، وهنا لم أشعر فقط بأنني منتصبة وإنما أنني مرتفعة كما لو أن حبلين مرنين مربوطان بكتفيّ من الأعلى، فكانت كل خطوة كقفزة خفيفة، كنسمة الهواء.

وعندما وصلت إلى مكان مشرف توقفت ونظرت إلى الامتداد، فلم أشاهد إلا المزيد من الجبال الصحراوية الجميلة القاسية، والمزيد من صفوف عنفات الرياح النحيلة البيضاء عن بعد، فعدت إلى المخيم وأشعلت الموقد محاولة صنع وجبة ساخنة لنفسي؛ وهي الوجبة الأولى لي في الرحلة، لكنني لم أستطع أن أجعل الموقد يبقى مشتعلاً مهما حاولت، فسحبت كتاب التعليمات وقرأت قسم المشكلات وحلها وعلمت أنني ملأت علبة الوقود بالنوع الخاطئ من الغاز، فقد ملأتها بوقود خال من الرصاص بدلاً من الغاز الأبيض الخاص الذي يفترض أن أضعه فيها.

لم أعد أشعر بالجوع، فقد تحول جوعي إلى إصبع مخدرة بالكاد تسبب وخزاً، فأكلت القليل من رقائق التونا المقددة واستغرقت بالنوم عند الساعة 6:15.

وقبل أن أنطلق في اليوم الرابع طببت جروحي، فقد شجعني عامل في متجر المعدات على أن أشتري صندوقاً من لصاقات الجيل التي كانت تعالج الحروق الكبيرة جداً لأنها تعتبر قروحاً، فضمدت كل أماكن النزيف الجلدي أو التقرحات أو احمرار الطفح الجلدي على رؤوس أصابع قدميّ ومؤخر كعبي وفوق عظام وركي وأمام كتفيّ وأسفل ظهري. وعندما انتهيت، نفضت جوربيّ لألينهما قبل أن أرتديهما. ورغم أنه كان لدي زوجان من الجوارب فقد تيبس الزوجان بفعل التراب والعرق الجاف، فبدا زوجا الجوارب وكأنهما مصنوعان من الورق المقوى بدلاً من القماش؛ رغم أنني كنت أبدلهما

كل بضع ساعات، فألبس زوجاَ بينما أترك الآخر ليجف في الهواء وهو متدل من حبال القفز على حقيبتي.

وبعد أن مشيت مبتعدة عن الينابيع في ذلك الصباح، محملة تماماً بنحو11 ليتراً من المياه مرة ثانية، أدركت أنني استعدت نوعاً من المرح المعنوي الغريب. فأثناء لحظات الألم، كنت ألاحظ الجمال الذي يحيط بي وأعاجيب الأشياء الصغيرة والكبيرة؛ مثل لون أزهار الصحراء التي كانت تلتصق بي على الطريق، أو النطاق الواسع للسماء عندما كانت الشمس تتلاشى خلف الجبال. وكنت وسط هذا الخيال الحالم عندما انزلقت على الحصى وسقطت على الطريق السفلي الصلب بقوة قطعت أنفاسي، فاستلقيت بلا حراك لدقيقة كاملة بسبب الألم الحارق في رجلي والثقل الهائل على ظهري الذي ثبتني على الأرض. وعندما زحفت من تحت حقيبتي وقيمت الضرر الذي تعرضت له، شاهدت جرحاً في مقدمة ساقي كان يقطر دماً غزيراً، حيث تشكلت عقدة بحجم قبضة اليد تحت الجرح، فسكبت القليل من المياه الثمينة بالنسبة لي عليه، ونقرت بأصابعي على الحصى والتراب لأبعدها أفضل ما يمكن، ثم ضغطت عليه بكتلة من الضمادات حتى تباطأ النزيف، ثم تابعت السير بترنح.

مشيت ما بقي من فترة ما بعد الظهيرة وعيناي مثبتتان على الطريق أمامي مباشرة خشية أن أفقد موضع قدمَيّ وأسقط. وفي ذلك الوقت، لاحظت ما كنت قد بحثت عنه قبل أيام: آثار أسد الجبال. فقد سار قبلي على الطريق ليس بعيداً، في الاتجاه الذي كنت أسير فيه، وآثار قوائمه كانت واضحة في التراب لربع ميل، ولذلك توقفت كل بضع دقائق لأنظر حولي. لكن، باستثناء بعض البقع الخضراء كان المنظر مزيجاً من الأشقر والبني، وهو لون أسد الجبال نفسه. تابعت السير وأنا أفكر بالمقالة الصحفية التي قرأتها مؤخراً عن ثلاث نسوة في كاليفورنيا قتل أسد الجبال كلاً منهن على حدة في حادثة منفصلة خلال السنوات الأخيرة، كما كنت أفكر بكل برامج الطبيعة التي شاهدتها وأنا صغيرة عن الحيوانات المفترسة التي تلاحق الفرد الذي تعتبره الأضعف في المجموعة، ولم يكن هناك شك في أنني المقصودة في هذه الحالة؛ أي أنني الفرد الأكثر احتمالاً لأن يتمزق إرباً إرباً. أخذت أغني بصوت مرتفع الأغاني الصغيرة التي خطرت ببالي، وأنا آمل أن يخيف صوتي المذعور الأسد ويبعده. وفي الوقت نفسه، كنت خائفة من أن أنبه الأسد إلى وجودي، كما لو أن الدم المتجمع على قدمي والرائحة الكريهة لجسدي على مدار أيام لم تكن كافية لإغرائه.

وأثناء تفحصي للأرض أدركت أنني قطعت مسافة بعيدة بما فيه الكفاية حتى الآن، لدرجة أن الأرض بدأت تتغير، بينما كان المنظر حولي لا يزال قاحلاً ويسيطر عليه البلوط والمريمية نفسها التي كانت موجودة على طول الطريق، لكن أشجار الجاشوا التي تميز صحراء موهافي لم تعد تظهر إلا على نحو متقطع، وقد ظهرت أشجار العرعر والصنوبر والسنديان بشكل أكبر، وأحياناً كنت أمر بمروج ظليلة كثيفة العشب، وكان العشب والأشجار الكبيرة مريحة بالنسبة لي؛ فهي توحي بالماء والحياة، وتعلن أنني قادرة على القيام بالرحلة.

إلى أن أوقفتني شجرة كانت قد سقطت وقطعت الطريق. كان الجذع ثخيناً، وتدلت الأغصان منخفضة جداً فلم أستطع المرور من تحتها، كما أنها كانت مرتفعة جداً فلم أستطع المرور من فوقها؛ وخاصة مع ثقل حقيبتي. وكان الدوران حولها مستبعداً، فالطريق ينحدر بشكل حاد من أحد الجوانب، والأغصان كثيفة من الجانب الآخر. وقفت لفترة طويلة وأنا أحاول أن أجد طريقاً أتجاوز به الشجرة، فالأمر ضروري مهما بدا مستحيلاً. فإما أن أجد طريقاً أو أعود أدراجي إلى الفندق الصغير في موهافي. فكرت برغبة جامحة في غرفتي الصغيرة التي تكلفني ثمانية عشر دولاراً، وغمرني حنين للعودة إليها. إلا أنني استندت على الشجرة، وفككت الحقيبة، ورفعتها فوق الجذع الخشن، وقمت بأقصى ما أستطيع لأنزلها من الجانب الآخر دون أن أدعها تسقط بقوة على الأرض كيلا تتفجر حقيبة الماء الجلدية نتيجة السقوط. ثم صعدت فوق الشجرة خلفها وأنا أفرك يديّ اللتين كانتا واهنتين بعد السقوط الذي تعرضت له، وواجهت في الميل التالي ثلاث شجرات منهارة. وحين تجاوزتها كلها، انفتح الجرح على ساقي وعاد النزيف من جديد.

وفي فترة ما بعد الظهيرة من اليوم الخامس، وبينما كنت أشق طريقي عبر قطعة ضيقة ومنحدرة من الطريق، رفعت نظري فشاهدت حيواناً ضخماً بني اللون له قرنان يريد أن ينقض علي، فصرخت:

- إنه موظ.

رغم أنني كنت أعلم أنه لم يكن كذلك. ففي لحظة الذعر، لم يستطع ذهني أن يحيط بما كنت أراه والذي بدا أقرب ما يكون إلى الموظ، وصرخت بيأس أكبر وهو يقترب:

- إنه موظ.

ثم اندفعت نحو نبات التفيحة والسنديان التي كانت تحيط بالطريق ودفعت بنفسي بين أغصانها بكل ما أستطيع وقد أعاقني ثقل الحقيبة.

وبينما كنت أقوم بذلك، تقدم هذا الحيوان نحوي، فأدركت أن ثوراً طويل القرن من تكساس على وشك أن يهاجمني، فصرخت بصوت أعلى:

- موظ.

وتلمست الحبل الأصفر المربوط بالحقيبة، والذي يحمل صافرة ذات أعلى صوت في العالم، فوجدتها وقربتها من شفتيّ وأغمضت عينيّ ونفخت فيها بكل قوتي حتى اضطررت إلى التوقف لآخذ نفساً، وعندما فتحت عينيّ كان الثور قد اختفى.

كما اختفى الجلد الموجود في أعلى سبابتي اليمنى، والذي كشطته أغصان نبات التفيحة المحززة في نوبة جنوني.

إن أهم شيء في السير على طريق جبال المحيط الهادئ هو قلة الخيارات المتاحة، وكيف اضطررت غالباً لفعل آخر شيء أود فعله، وكيف أنه لا مهرب ولا إنكار؛ إذ لا يمكن أن تهرب من الواقع باحتساء الشراب أو غير ذلك. وبينما كنت متمسكة بالبلوط في ذلك اليوم وأنا أحاول أن أضمد إصبعي النازفة، ومرتعدة من أي صوت يصدر خشية أن يعود الثور، أخذت أفكر بخياراتي. لكن، لم يكن هناك إلا خياران أساساً لا يُفضل أحدهما على الآخر. حيث كان بإمكاني أن أعود بالاتجاه نفسه الذي أتيت منه، أو أتقدم في الاتجاه الذي كنت أنوي أن أقصده. وقد يكون الثور في أي من هذين الاتجاهين كما اعترفت بتجهم؛ فأنا لم أرَ الاتجاه الذي ذهب فيه بعد أن أغمضت عينيّ. لذلك، كان علي أن أختار بين الثور الذي يعيدني إلى الخلف والثور الذي يجعلني أتقدم.

فأكملت المسير إلى الأمام.

لكنني استنفدت كل طاقتي لأغطي مسافة تسعة أميال في اليوم، فتغطية مسافة تسعة أميال في اليوم كانت إنجازاً جسمياً يفوق أي إنجاز أحرزته في حياتي؛ لأن كل جزء من جسدي كان يؤلمني إلا قلبي. ومن الغريب أنه رغم أنني لم أرَ أحداً فإنني لم أشتق إلى أحد. فكل ما كنت أتوق إليه هو الطعام والماء وأن أتمكن من نزع الحقيبة عن ظهري، لكنني تابعت حمل حقيبتي على أي حال صعوداً وهبوطاً وحول الجبال الجافة، حيث كانت أشجار الصنوبر والسنديان الأسود تحيط بالطريق، وعبرت الطرق الوعرة التي كانت تحمل آثار الشاحنات الكبيرة رغم أنني لم أر أياً منها.

وفي صباح اليوم الثامن جعت فأخرجت كل الطعام وألقيته على الأرض لأقيّم الوضع، فقد كانت رغبتي بتناول وجبة ساخنة جامحة حتى في حالتي المرهقة المانعة للشهية؛ فحتى الآن أكلت أغلب الأطعمة التي لا تحتاج إلى طهي كالغرانولا مع المكسرات والفواكه المجففة واللحم المقدد والتونا المقددة وقطع البروتين والشوكولا وبودرة الصويا، وأغلب الطعام الذي تركته كان يحتاج إلى طهي وليس لدي موقد يعمل، كما أن صندوق إعادة التموين لم يكن بانتظاري حتى أصل إلى كينيدي ميدوز التي تبعد 135 ميلاً على طريق رحلتي؛ وهي مسافة يمكن أن يقطعها مسافر متمرس بالمشي في الوقت الذي أقضيه في الوصول إلى بداية الطريق. فوفقاً لمعدلي في المشي، لم أصل بعد إلى نصف الطريق إلى هناك. وحتى لو استطعت أن أتابع حتى أصل إلى كينيدي ميدوز مع الطعام الذي لدي فإنني لا أزال بحاجة إلى إصلاح الموقد وملئه بالوقود المناسب، لكن كينيدي ميدوز لم تكن مكاناً مناسباً للقيام بذلك، لكونها قاعدة عالية الارتفاع للصيادين والمشاة وصيادي السمك أكثر من كونها بلدة. جلست على التراب، وأكياس الطعام المجفف المغلقة التي لا أستطيع طهيها مبعثرة حولي، وقررت الانحراف عن الطريق ليس بعيداً عن المكان الذي كنت جالسة فيه، فقد كان طريق جبال المحيط الهادئ يتقاطع مع شبكة من الطرق الوعرة باتجاهات متنوعة.

بدأت المسير في أحد الطرق معتقدة أنني سأجد حضارة في النهاية على شكل طريق سريع يوازي الطريق بما يقارب عشرين ميلاً نحو الشرق. مشيت وأنا لا أعلم على أي طريق أمشي تماماً، لكنني كنت واثقة أنني سأجد شيئاً وأنا أواصل المسير تحت الشمس اللامعة والحارة، وكنت أشم رائحة العرق التي تصدر مني أثناء الحركة رغم أنني وضعت مزيل الروائح مع أغراضي. ورغم أنني كنت أمسح به تحت ذراعيّ كل يوم إلا أنه لم يعد يُحدث أي فرق؛ إذ إنني لم أستحم منذ أكثر من أسبوع، وكان جسمي مغطى بالتراب والدم، وشعري الملبد مغطى بالغبار والعرق وملتصق برأسي تحت قبعتي، وشعرت بأن عضلات جسمي كانت تقوى يومياً، وفي الوقت نفسه وعلى نحو موازٍ كانت أوتار العضلات والمفاصل تشعر بالإنهاك. وكانت قدماي تؤلمانني من الداخل والخارج، واللحم فيهما مكشوط بسبب القروح، وعضلاتهما وعظامهما متعبة من المسافة التي قطعتها. ورغم أن الطريق كان مستوياً على نحو مبهج أو هابط بلطف؛ وهذا يشكل راحة مبشرة أكثر من الطريق الصاعد والهابط الذي لا يلين، فإن معاناتي استمرت. لذلك، حاولت لمسافة ممتدة من الأرض أن أتخيل أنني لا أمتلك قدمين وإنما ساقين منتهيتين بعقبين مبتورتين لا تتأثران وتتحملان أي شيء.

وبعد أربع ساعات بدأت أندم على قراري. فمن الممكن أن أموت جوعاً هناك، أو أن يقتلني ثور مهاجم طويل القرن. أما على طريق جبال المحيط الهادئ فعلى الأقل كنت أعلم أين أنا، لذلك أعدت قراءة الكتيب الإرشادي، وقد كنت غير متأكدة الآن حتى من أنني على أحد الطرق الموصوفة على عجالة، وكنت أخرج خريطتي وبوصلتي كل ساعة لأقيّم وأعيد تقييم وضعي، وسحبت الكتاب الإرشادي الخاص باستخدام البوصلة لأقرأ للمرة الثانية كيفية استخدام الخريطة والبوصلة، ثم تفحصت الشمس ومررت بقطيع صغير من الأبقار التي لم تكن مقيدة بسياج فقفز قلبي لدى رؤيتها؛ رغم أن أي بقرة لم تتحرك باتجاهي، وإنما توقفت عن الأكل لترفع رؤوسها وتشاهدني وأنا أمر وأغني لها برقة: «بقرة... بقرة... بقرة».

كانت الأرض التي يمر فيها الطريق مخضرة من أماكن وجافة وصخرية من أماكن أخرى على نحو مفاجئ، ومررت مرتين بجرار ساكن مركون على جانب الطريق على نحو غريب، فمشيت بحالة من التعجب من الجمال والصمت. ولكن بحلول فترة ما بعد الظهيرة بدأ القلق يخنقني.

فقد كنت على طريق لم أرَ فيه إنساناً واحداً خلال ثمانية أيام، وقد كانت هنا الحضارة بالنسبة لي رغم أنه لم تكن هناك أية إشارة إليها ما عدا الأبقار الطليقة والجرارين المهجورين والطريق نفسه، فشعرت وكأنني نجمة في فيلم خيال علمي، وكأنني الشخص الوحيد المتبقي على الكوكب. ولأول مرة في رحلتي شعرت أنني على وشك البكاء، فأخذت نفساً عميقاً لأشتت دموعي ونزعت حقيبتي ووضعتها على التراب. وجدت منعطفاً في الطريق أمامي فمشيت حوله دون حقيبتي لأرى ما أستطيع رؤيته.

وما رأيته كان ثلاثة رجال يجلسون في شاحنة صفراء: أحدهم أبيض والثاني أسود والثالث من أمريكا اللاتينية.

استغرقت ربما ستين ثانية لأصل إليهم مشياً على الأقدام، فنظروا إليّ بالتعبير نفسه الذي كان على وجهي عندما رأيت الثور ذا القرنين قبل ليلة؛ وكأنهم قد يصرخون في أي لحظة: «موظ»! ورغم أن راحتي لدى رؤيتهم كانت عظيمة، فقد شعرت بارتعاش يسري في جسدي كله وأنا أخطو بخطى واسعة نحوهم؛ إذ لم أعد النجمة الوحيدة على الكوكب الخالي من الناس. فأنا الآن في نوع مختلف كلياً من الأفلام. فقد كنت المرأة الوحيدة مع ثلاثة رجال غير معروفي الأصل والشخصية والغرض يتأملونني في ظل شاحنة صفراء.

عندما شرحت لهم وضعي من خلال النافذة المفتوحة للمقعد المحاذي للسائق، نظروا إليّ بصمت وأعينهم تتحول من الجفول إلى الذهول إلى

التهكم، ثم انفجروا جميعاً بالضحك. وسألني الرجل الأبيض بعد أن توقف عن الضحك:

- هل تعلمين يا عزيزتي ما مشيت عليه؟

فهززت رأسي بالنفي، وقد كان يبدو هو والرجل الأسود في الستين من العمر، بينما الرجل الثالث من أمريكا اللاتينية فبالكاد يتجاوز العشرين، فسألني:

- هل ترين هذا الجبل؟ إننا نستعد لتفجيره.

وأشار إلى الأمام مباشرة عبر الزجاج الأمامي للسيارة من مكانه خلف المقود، ثم شرح لي أن عملية تنقيب أعطتهم الحق بالعمل في هذه القطعة من الأرض، وهم ينقبون عن أحجار الزينة التي يستخدمها الناس في حدائق منازلهم. وقال لي وهو ينقر على حافة قبعة رعاة البقر:

- اسمي فرانك، وأنت أيتها الفتاة تقنياً تتعدين على المكان، لكننا لن نحسب ذلك ضدك.

ثم نظر إليّ بطرف عينه وقال:

- إننا مجرد منقّبين لا نملك الأرض، وإلا كان علينا أن نطلق النار عليك.

ثم ضحك مرة ثانية وأشار إلى الرجل من أمريكا اللاتينية في الوسط وأخبرني أن اسمه كارلوس، وبدوره قال الرجل الأسود الجالس قرب نافذة الركاب:

- وأنا والتر.

كان هؤلاء الرجال أول الناس الذين أراهم بعد الرجلين اللذين أوصلاني منذ أكثر من أسبوع إلى جانب الطريق في السيارة المغلقة الصغيرة التي تحمل لوحة أرقام خاصة بكولورادو. عندما تكلمت بدا صوتي مضحكاً وأعلى وأسرع مما أذكره، كأنه شيء لا يمكن اللحاق به والإمساك به، وكأن كل كلمة طائر صغير يرفرف بعيداً. طلبوا مني أن أدخل مؤخر الشاحنة، ثم ذهبنا في الشاحنة مسافة قصيرة إلى المنعطف لأحضر حقيبتي. توقف فرانك، ونزلنا جميعاً، ثم حمل والتر الحقيبة وتفاجأ من ثقلها.

فقال وهو يرفعها إلى الأرضية المعدنية للشاحنة بجهد كبير:

- لقد كنت في كوريا ولم أحمل أية حقيبة بهذا الثقل، أو ربما حملت واحدة مرة بهذا الثقل لكن ذلك كان عقاباً لي.

وبسرعة، قرروا دون أن يأخذوا رأيي أن أذهب إلى منزل فرانك حيث ستقوم زوجته بتقديم الغداء لي، ويمكنني أن أستحم وأنام على السرير. وفي الصباح، سيساعدوني للوصول إلى مكان يمكنني أن أصلح الموقد فيه.

وكان فرانك يطلب عدة مرات:

- الآن، اشرحي كل هذا لي مرة ثانية؟

وكل مرة، كان الثلاثة يستمعون بانتباه متحير ومستغرق. فرغم أنهم كانوا يسكنون ربما على بعد عشرين ميلاً من طريق جبال المحيط الهادئ، لم يسمع أحد منهم به من قبل، كما لم يستطع أحد منهم أن يفهم السبب الذي يجعل امرأة تسير وحدها على هذا الطريق. وذكر فرانك ووالتر ذلك لي بصراحة بعبارات مرحة ومهذبة.

وبعد فترة قال كارلوس، وكان في الثامنة عشرة من عمره وعلى وشك الانضمام للجيش:

- إنه أمر رائع.

- يجب أن تقوم بذلك بدلاً من الانضمام للجيش.

- لا.

صعد الرجال إلى الشاحنة مرة ثانية، وكنت أنا وحدي في مؤخرها لعدة أميال، حتى وصلنا إلى المكان الذي ركن فيه والتر شاحنته، فانطلق مع كارلوس فيها وتركاني لوحدي مع فرانك الذي كانت لا تزال لديه ساعة من العمل.

جلست في مقدمة الشاحنة الصفراء ونظرت إليه وهو يروح جيئة وذهاباً على الجرار ليمهد الطريق، وكان يلوح لي كلما مر بي، كما كنت أستكشف محتويات شاحنته خلسة كلما ابتعد، فوجدت قارورة شراب فضية اللون في السيارة، أخذت جرعة صغيرة منها وأعدتها، فقد كانت شفتاي تلتهبان، ثم مددت يدي تحت المقعد وسحبت علبة نحيلة سوداء وفتحتها، فشاهدت مسدساً فضياً بلون القارورة فأغلقتها ودفعتها تحت المقعد. وكانت مفاتيح الشاحنة معلقة بفتحة التشغيل ففكرت بفتور في ما قد يحصل لو شغلت المحرك وقدت الشاحنة بعيداً. ثم خلعت حذائي طويل الساقين ودلكت

قدميّ. كانت الكدمة الصغيرة التي تكونت على كاحلي من حقن الهيروين في بورتلاند لا تزال موجودة، لكنها بهتت الآن وتحوّلت إلى اللون الأصفر الكالح الباهت، فمررت إصبعي فوقها وفوق نتوء علامة الأثر الذي لا يزال مكشوفاً في الصميم، ثم ارتديت الجوربين مجدداً كيلا أراها مطلقاً.

وعندما انتهى فرانك من عمله، صعد إلى الشاحنة بجانبي وسألني:

- أي نوع من النساء أنت؟

فسألته:

- أي نوع؟

والتقت عيوننا، فكشفت لي عيناه عن شيء فأشحت بنظري، فتابع:

- هل أنت مثل جين؟ مثل المرأة التي يريدها طرزان؟

فأجبته:

- أعتقد ذلك.

وضحكت رغم أنني شعرت بقلق يدب في جسدي، وتمنيت أن يشغل فرانك محرك الشاحنة ويقودها. فقد كان رجلاً ضخماً ممشوق القامة ومنحوت الجسد، أسمر ومنقّباً يشبه رعاة البقر. وكانت يداه تذكرانني بأيدي كل الرجال الذين عرفتهم وأنا أكبر، وهم رجال كانوا يعملون أعمالاً جسدية لتأمين معيشتهم، فكان من الصعب أن تنظف أيديهم جيداً مهما بالغوا بالفرك. وبينما كنت أجلس إلى جانبه، كنت أشعر بالشعور نفسه الذي كان يراودني عندما أكون لوحدي في بعض الظروف مع بعض الرجال؛ أي أن أي شيء قد يحصل. فقد يقوم بعمله بتهذيب ولطف، وقد يمسكني ويغير مسار الأحداث تماماً في ثانية. لذلك، عندما كان فرانك في شاحنته كنت أراقب يديه وكل حركاته وكل خلية في جسدي متيقظة؛ رغم أنني كنت أبدو مسترخية وكأنني استيقظت للتو من قيلولة.

أخرج قارورة الشراب قائلاً:

- لدي شيء صغير لنا كمكافأة على عمل يوم شاق.

وفتح الغطاء وسلمني إياها وقال:

- «السيدات أولاً».

فأخذتها منه، ووضعتها على شفتي، وتركت الشراب يغسل فمي، فقال:

- نعم، أنت من هذا النوع من النساء. وهذا هو الاسم الذي سأدعوك به: جين.

ثم أخذ القارورة مني وشرب طويلاً.

فقلت فجأة وأنا أحبك الكذبة أثناء الكلام:

- إنني لست وحدي تماماً هنا، فزوجي واسمه بول يسافر مشياً أيضاً، وقد بدأ رحلته من كينيدي ميدوز، هل تعرفها؟ كلانا نريد أن نجرب السير في الطريق وحدنا، لذلك أنا أتجه شمالاً أما هو فيتجه جنوباً، ثم سنلتقي في المنتصف لنقضي بقية الصيف معاً.

هز فرانك رأسه وأخذ رشفة أخرى من القارورة، ثم قال بعد التفكير لفترة:

- إذاً، هو أكثر جنوناً منك. فأن تكوني امرأة مجنونة وتفعلي ما تقومين به شيء، وأن تكون رجلاً وتسمح لامرأتك بأن تقوم بذلك شيء آخر.

أجبته وكأنني أوافقه:

- نعم.

ثم قلت بإقناع:

- على أي حال، سنلتقي ثانية في غضون أيام.

وشعرت بأنني اقتنعت بذلك أيضاً؛ أي أن بول كان في تلك اللحظة يشق طريقه نحوي، وأننا في الواقع لم نقدم أوراق الطلاق منذ شهرين في يوم مثلج في أبريل، وإنما سيأتي إلي أو سيعرف إن لم أتقدم عبر الطريق، وسيلاحظ اختفائي خلال أيام.

لكن العكس كان صحيحاً. فالناس الذين في حياتي كانوا مثل الضمادات الإسعافية التي ذهبت مع رياح الصحراء في أول يوم؛ فقد تبعثروا

ثم اختفوا، ولم يكن أحد منهم يتوقع مني أي شيء ولا حتى الاتصال عندما أصل إلى أول استراحة أو الثانية أو الثالثة.

أرجع فرانك جسده ليتكئ على المقعد، وعدّل مشبك حزامه المعدني الكبير وقال:

- يوجد شيء آخر أحب أن أكافئ نفسي به بعد عمل يوم شاق.

فسألته بابتسامة مترددة وقلبي يدق في صدري:

- وما هو؟

وشعرت بيدي تتخدر على حضني، فقد كنت مدركة بقوة أن حقيبتي بعيدة جداً على أرضية الشاحنة، فقررت أن أتركها إذا اضطررت أن أدفع باب الشاحنة لأفتحه وأهرب.

مد فرانك يده تحت المقعد حيث يوجد المسدس في صندوقه الأسود الصغير، وأخرج كيساً بلاستيكياً شفافاً بداخله حبال طويلة ورفيعة من العرق سوس الأحمر؛ كل مجموعة منها ملفوفة كحبل الصيد. قرب الكيس مني وسألني:

- هل تريدين بعضاً منها آنسة جين؟

6

ثور في كلا الاتجاهين

تناولت ست أقدام من أعواد السوس الحمراء التي يملكها فرانك، ولو كان معه المزيد لتناولت ست أقدام أخرى.

ركن سيارته في الممر الموحل الذي يمر بمنزله وقال:

- انتظريني هنا... سأدخل وأخبر آنيت من أنت.

بعد بضع دقائق خرجا معاً. كانت آنيت مكتنزة الجسم ورمادية الشعر وتبدو عليها علامات الارتياب وعدم الترحيب. وقالت بينما أنزل فرانك حقيبة ظهري من شاحنته:

- أهذا كل ما معك؟

تبعتهما إلى الداخل حيث اختفى فرانك مباشرة في الحمام.

قالت آنيت:

- اعتبري نفسك في منزلك.

ففهمت من كلامها أنه علي الجلوس إلى طاولة الطعام المحاذية للمطبخ بينما تعد لي طبقاً من الطعام. كان هناك تلفاز صغير في الطرف البعيد من الطاولة، والصوت الصادر منه مرتفع، حيث كان السماع صعباً للغاية... قصة أخرى حول محاكمة أو.ج. سيمبسون. تابعت التلفاز حتى جاءت آنيت ووضعت الطبق أمامي ثم أطفأت التلفاز وقالت:

- هذا كل ما تسمعه... أو.ج... أو.ج. هم لا يفكرون أن هناك أطفالاً يتضورون جوعاً في أفريقيا... تفضلي.

وأشارت إلى طعامي.

قلت بنبرة عادية تخفي اليأس الذي كنت أشعر به:

- سأنتظر.

كان الطبق مليئاَ بالأضلاع المشوية والذرة المعلبة وسلطة البطاطا. فكرت في النهوض وغسل يديّ لكنني خفت أن يؤخر ذلك العشاء. كما أن فكرة أنه من الضروري أن يغسل المرء يديه قبل الطعام بعيدة عني الآن كبعد نشرات الأخبار التي تظهر على التلفاز.

أمرتني آنيت:

- كلي!

رفعت شوكة مليئة بسلطة البطاطا إلى فمي فوجدتها شهية؛ حتى إنني كدت أقع عن مقعدي.

- هل أنت طالبة جامعية؟

- نعم... أو كنت كذلك... تخرجت قبل أربع سنوات.

ثم تناولت لقمة أخرى من الطعام مدركة أنني كنت أكذب. فعلى الرغم من أنني وعدت أمي في آخر أيام حياتها أن أحصل على شهادتي الجامعية إلا أنني لم أفعل. فقد توفيت أمي في آخر يوم اثنين من عطلة الربيع وعدت للجامعة في يوم الاثنين التالي. وبعد معاناة مع محاضرات الربع الأخير لم أحصل على شهادتي لأنني لم أقم بشيء واحد... لم أكتب مقالاً من خمس صفحات لصف اللغة الإنكليزية من المستوى المتوسط. كانت المهمة تبدو سخيفة، لكنني حين حاولت البدء بالكتابة لم أستطع سوى التحديق بشاشة جهاز الحاسب الفارغة. وقد مشيت على المنصة مرتدية رداء وقبعة واستلمت وثيقة، لكنني حين فتحتها وجدت أنه قد كتب فيها ما كنت أعرفه... وهو أنني لن أحصل على شهادتي الجامعية حتى أنهي ذلك المقال، أي أنني لم أحصل سوى على قروضي الجامعية التي سأظل أسددها حتى أبلغ الثالثة والأربعين وفقاً لحساباتي.

في الصباح التالي، تركني فرانك في متجر على الطريق السريع بعد إعطائي إرشادات بالركوب إلى مدينة تدعى ريدجكريست. جلست على الشرفة الأمامية للمتجر حتى جاء شاب يوزع أكياس رقائق البطاطا ووافق على توصيلي على الرغم من أن قواعد الشركة تمنع ركوب المتنزهين. كان اسمه تروي، وكان يقود سيارته حول جنوب كاليفورنيا خمسة أيام في الأسبوع، حيث يوصل أكياس رقائق البطاطا من جميع الأنواع. كما أنه متزوج من حبيبته في المدرسة الثانوية منذ سبعة عشر عاماً، أي منذ أن كان في السابعة عشرة من عمره.

مازحني على الرغم من أن نبرة صوته كانت مليئة بالندم:

- سبعة عشر عاماً خارج القفص وسبعة عشر عاماً داخله. لن أفعل شيئاً لأكون مكانك، فأنا روح حرة ليست لديها الجرأة لتكون حرة.

تركني في متجر تود في الهواء الطلق حين فك السيد تود موقدي ونظفه وركب فلتراً جديداً وباعني الغاز المناسب، فاشتريت المزيد من الأنابيب ودواء لجروحي، ثم توجهت إلى مطعم وطلبت كعكة الشوكولا مع شطيرة وأصابع البطاطا ليراودني شعور العشاء السابق نفسه... كنت أتحطم مع كل قضمة لذيذة. بعد ذلك، مشيت عبر البلدة، بينما مرت بي السيارات والتفت السائقون والركاب لينظروا إليّ بفضول بارد. كما مررت بمطاعم الوجبات السريعة ومتاجر السيارات وأنا أفكر إن كان علي مد يدي لركوب سيارة أو إمضاء الليلة في ريدجكريست ثم العودة إلى طريق جبال المحيط الهادئ في اليوم التالي. وبينما وقفت بالقرب من تقاطع طرق محاولة معرفة الاتجاه الذي يجدر بي سلوكه، مرّ بي رجل وضيع على دراجة حاملاً كيساً ورقياً مجعداً:

- أخارجة من المدينة؟

- ربما.

كانت دراجته صغيرة عليه ومصنوعة لصبي لا لرجل، ومرسومة على جانبيها ألسنة لهب.

- أي اتجاه ستسلكين؟

كانت رائحة جسمه قوية لدرجة أنني سعلت على الرغم من معرفتي أن رائحتي قذرة كرائحته؛ رغم أنني استحممت في الليلة السابقة لدى فرانك وآنيت بعد العشاء، لكنني ما زلت أرتدي ملابسي القذرة.

- قد أنزل في فندق صغير الليلة.

- لا تفعلي. لقد قمت بذلك فزجوا بي في السجن.

أومأت مدركة أنه كان يظنني مثله... خارجة عن القانون لا طالبة جامعية أو طالبة سابقة، لذا لم أحاول حتى أن أشرح له عن طريق جبال المحيط الهادئ.

مد لي يده بالكيس الورقي وقال:

- يمكنك الحصول على هذا... إنه خبز ونقانق لتصنعي الشطائر.

- لا، شكراً.

- من أين أنت؟

- مينيسوتا.

- هيه! أنت أختي. أنا من إيلينوي... إيلينوي ومينيسوتا جارتان.

- نعم... شبه جارتين، فويسكونسين بينهما.

ثم ندمت على ذلك مباشرة؛ إذ لم أرغب بجرح مشاعره.

- لكنهما ما زالتا جارتين.

ومد لي يده مصافحاً.

فصافحته.

وبينما انطلق مبتعداً قلت له:

- حظاً موفقاً.

مشيت نحو متجر بقالة، وتجولت بين الممرات قبل أن ألمس شيئاً وقد أبهرتني أكوام الطعام. فاشتريت بضعة أشياء بدلاً من الطعام الذي تناولته، ثم خرجت ماشية حتى وجدت ما بدا أنه أرخص فندق في المدينة.

حين سألت عن غرفة قال لي الرجل وراء المنضدة:

- اسمي باد.

وحين أخبرته عن التنزه في طريق جبال المحيط الهادئ أصر على غسل ملابسي.

- يمكنني رميها بين المناشف وملاءات السرير يا عزيزتي. الأمر ليس صعباً على الإطلاق.

توجهت إلى غرفتي وخلعت ملابسي وارتديت السروال المطري والمعطف المطري ثم عدت إلى المكتب وسلمت باد الكومة الصغيرة من الملابس القذرة وشكرته مجدداً.

- لأنني أحببت سوارك... لهذا عرضت عليك ذلك.

رفعت كم معطفي المطري ونظرنا إليه... كان سواراً فضياً باهت اللون وضعته صديقتي إيمي في معصمي ونحن نودع بعضنا في شارع في مينابوليس قبل بضعة أسابيع.

مد يده عبر الطاولة وتناول معصمي وأداره ليتمكن من قراءة الكلمات:

- لنرَ من لديك هنا... ويليام ج. كروكيت.

كانت إيمي قد قامت ببعض البحث وأخبرتني من هو ويليام ج. كروكيت... إنه طيار في القوى الجوية، وقد توفي قبل ذكرى ميلاده السادسة والعشرين حين تم استهداف طائرته في فيتنام. وكانت قد ارتدت السوار لسنوات دون أن تخلعه كما فعلت أنا منذ اللحظة التي ألبستني إياه فيها.

- لقد كنت جندياً سابقاً في فيتنام، ولهذا تلفت مثل هذه الأشياء نظري، ولهذا أيضاً أعطيتك الغرفة الوحيدة لدينا التي تحوي حوض استحمام. كنت هناك في 1963 ما إن بلغت الثامنة عشرة من عمري، لكنني الآن ضد الحروب... جميع أنواع الحروب... ضد الحروب مائة بالمائة... إلا في بعض الحالات.

كانت هناك سيجارة تحترق على منفضة السجائر البلاستيكية بالقرب من باد فتناولها، ولكنه لم يقربها من شفتيه وقال:

- أفترض أنك تعرفين أن هناك الكثير من الثلج هناك في سيرا نيفادا هذا العام.

- ثلج؟!

- إنها حالة غير مسبوقة، فالمنطقة مغلقة بالكامل... هناك مكتب لإدارة الأراضي هنا في المدينة إن كنت تريدين الاتصال بهم وسؤالهم عن الأحوال الجوية. ستجهز ملابسك خلال ساعة أو اثنتين.

عدت إلى غرفتي واستحممت ثم رفعت غطاء السرير واستلقيت على ملاءات السرير. لم يكن في غرفتي مكيف هواء، لكنني شعرت بالرطوبة، بل شعرت بأحسن شعور راودني طوال حياتي، ثم نهضت وبحثت في حقيبتي وعدت إلى سريري وقرأت «آز آي لاي داييغ» بينما كانت كلمات باد عن الثلج تطن في أذنيّ.

كنت أعرف الثلج؛ فقد ترعرعت في مينيسوتا، وقد جرفته، وقدت سيارتي فيه، ولعبت به، وشاهدته من النافذة وهو يتساقط ويتكوم ليبقى متجمداً على الأرض لشهور. لكن هذا الثلج كان مختلفاً، فهذا ثلج غطى سيرا نيفادا بالكامل لدرجة أنه تمت تسمية الجبال على اسمه. ففي اللغة الإسبانية، سيرا نيفادا تعني «سلسلة الجبال الثلجية».

بدا من العبثي بالنسبة لي أنني كنت أتنزه في تلك الجبال الثلجية، أي أن الجبال الجافة التي قطعتها منذ أن وطأت قدماي طريق جبال المحيط الهادئ كانت جزءاً من سيرا نيفادا لكنها ليست الجبال الشاهقة... السلسلة الرائعة لقمم الغرانيت وراء كينيدي ميدوز التي استكشفها وعشقها متسلق الجبال والكاتب جون موار قبل أكثر من مائة عام. لم أقرأ كتب موار حول سيرا نيفادا قبل أن أبدأ نزهتي في طريق جبال المحيط الهادئ، لكنني أعلم أنه كان مؤسس نادي سيرا، حيث أنقذ سيرا نيفادا من الرعي الجائر وعمليات التنقيب والمنشآت السياحية وغيرها من صروح العصر الحديث. وبفضله وفضل من ساندوا قضيته ظلت سيرا نيفادا أراضي برية... ظلت براري مغطاة الآن بالثلوج.

لم أتفاجأ بالكامل، فمؤلفو الكتيب الإرشادي حذروني من الثلج الذي قد يعترض طريقي في مرتفعات سيرا، وقد كنت مستعدة، أو كنت أظن نفسي مستعدة؛ إذ اشتريت فأساً للجليد وأرسلتها لنفسي بالبريد الذي سأحصل عليه في كينيدي ميدوز... وكنت قد افترضت حين اشتريت الفأس أنني لن أحتاج إليها إلا بالصدفة في الأجزاء المرتفعة من الطريق؛ حيث أكد الكتيب الإرشادي أنه في السنوات العادية يكون أكثر الثلج قد ذاب قبل الوقت الذي سأقطع فيه مرتفعات سيرا في نهاية يونيو ويوليو، لكن لم يخطر ببالي أن أتحقق إن كانت هذه سنة عادية.

وجدت دليل هواتف على الطاولة المجاورة للسرير، وبحثت فيه، ثم اتصلت برقم المكتب المحلي لإدارة الأراضي.

ردت علي امرأة وقالت:

- أوه... نعم... هناك الكثير من الثلج هناك.

لم تكن تعرف التفاصيل، لكنها متأكدة أن نسبة تساقط الثلج قد تجاوزت المعدل في سيرا. وحين أخبرتها أنني سأتنزه في طريق جبال المحيط الهادئ عرضت علي إيصالي إلى الطريق، فأغلقت الخط وأنا أشعر

براحة كبيرة لأنني لن أضطر إلى السفر متطفلة أكثر من قلقي بشأن الثلج... لقد بدا الأمر ببساطة بعيداً... بل مستحيلاً.

أعادتني المرأة اللطيفة من مكتب إدارة الأراضي إلى الطريق في مكان يدعى ووكر باس في مساء اليوم التالي. وبينما راقبتها وهي تقود سيارتها مبتعدة أحسست بالتطهير والثقة أكثر مما كنت عليه قبل تسعة أيام من بدء نزهتي. فخلال الأيام السابقة، كنت أشق طريقي في طريق بعيد عبر الجبال حيث عبرت أميالاً من الصحاري، وصعدت ونزلت جبالاً لا حصر لها، وأمضيت أياماً دون رؤية شخص آخر. لقد تورمت قدماي وآلمني جسدي وحملت نفسي لأميال من البراري الموحشة، كما حملت حقيبة تزن أكثر من نصف وزني، وقد فعلت ذلك وحدي.

ذلك يستحق شيئاً... أليس كذلك؟ فكرت وأنا أمشي عبر المخيم الريفي بالقرب من ووكر باس حتى وجدت مكاناً أخيم فيه. كان الوقت متأخراً، لكن ما زال هناك بعض النور... يونيو في آخر أسبوع من الربيع. نصبت خيمتي وطهوت أول وجبة ساخنة في الطريق على موقدي... الفاصولياء المجففة والأرز... وشاهدت نور السماء يتلاشى في عرض رائع للألوان فوق الجبال وأنا أشعر بأنني أكثر الناس حظاً على وجه الأرض. كان لا يزال أمامي اثنان وخمسون ميلاً للوصول إلى كينيدي ميدوز، وستة عشر ميلاً للوصول إلى أول مصدر للماء على الطريق.

في الصباح، ملأت حقيبة ظهري بكمية كاملة من الماء، وعبرت الطريق السريع 178، حيث كان الطريق التالي الذي يقطع سيرا نيفادا على بعد 150 ميلاً شمالاً بالقرب من تولومن ميدوز. مشيت في طريق جبال المحيط الهادئ نزولاً في شمس الصباح الحارة وأنا أشاهد الجبال في جميع الاتجاهات... القريبة والبعيدة... بدت كلها متشابهة بالنسبة لي، على الرغم من أن كل واحد منها كان مختلفاً عن الجبال الأخرى. كنت قد اعتدت على رؤية الجبال باستمرار، فقد تغيّر بصري خلال الأسبوع الماضي، وأصبحت معتادة على المشاهد البانورامية اللامتناهية، كما أن المشي في الأراضي الشاسعة حيث تلتقي الأرض السماء أصبح أمراً مألوفاً... المرتفعات.

لكن في معظم الأحيان لم أكن أنظر للأعلى، فقد كانت عيناي مثبتتين على الطريق الرملي والحصوي، كما كانت قدماي تنزلقان أحياناً تحتي وأنا أتسلق، في حين كانت حقيبة ظهري تصدر أصواتاً مزعجة مع كل خطوة أخطوها؛ إذ ظل الصوت ينبعث من تلك البقعة التي لا تبعد سوى بضع بوصات عن أذني.

وبينما كنت أتنزه، حاولت إجبار نفسي على عدم التفكير بالأشياء التي تؤلمني... أي كتفيّ وظهري من الأعلى، وقدميّ وردفيّ لكنني لم أنجح في ذلك سوى لوقت قصير. فبينما كنت أقطع الطرف الشرقي من جبل جينكينز توقفت عدة مرات للاستمتاع بمنظر الصحراء الممتدة شرقاً من تحتي حتى تتلاشى. وبحلول المساء، كنت قد وصلت إلى منزلق صخري وتوقفت، فنظرت إلى الجبل في الأعلى وتابعت المنزلق بعيني حتى أسفله. كان هناك نهر عظيم من الصخور الخشنة بحجم قبضة اليد في الطريق الذي يبلغ عرضه قدمين، والذي يمكن لأي إنسان المشي فيه. لكنني لم أكن إنسانة عادية حتى، وإنما كان هناك حمل هائل على ظهري، وكنت أسير دون عصا تنزه لأتوازن. لماذا نسيت إحضار عصا التنزه في حين أنني لم أنسَ إحضار منشار؟ كان من المستحيل العثور على عصا، كما أن الأشجار النحيلة حولنا لم تكن لها أية فائدة، وما كان أمامي أي شيء أفعله سوى الاندفاع.

ارتعشت ساقاي وأنا أخطو على المنزلق الصخري شبه مقرفصة خوفاً من أن أحرك الصخور فتنزلق إلى أسفل الجبل وأنزلق معها. وقعت مرة على ركبتيّ بقوة فنهضت وأكملت طريقي، بينما أصدر الماء صوت قرقعة مع كل خطوة كنت أخطوها. وحين وصلت إلى الطرف الآخر من المنزلق شعرت براحة كبيرة ولم يعد يهمني أن ركبتي كانت تنزف وتؤلمني، وإنما فكرت بامتنان أنني قطعت المنزلق الصعب؛ لكنني كنت مخطئة.

ففي ذلك المساء اضطررت لاجتياز ثلاثة منزلقات صخرية.

في تلك الليلة، خيّمت على قمة مرتفعة بين جبل جينكينز وجبل أوينز، وقد تأذى جسدي من صعوبة الوصول إلى هناك على الرغم من أنني لم أقطع سوى 8.5 أميال. كنت قد وبخت نفسي بصمت لأنني سرت بسرعة. لكن الآن وأنا أجلس متصلبة على كرسي التخييم وأتناول عشائي من القدر الساخنة الموضوعة في الطين بين قدميّ شعرت بالامتنان لقطعي كل هذه المسافة، فقد كنت على ارتفاع 7000 قدم، وتحيط بي السماء من كل مكان. فمن الغرب يمكنني رؤية غروب الشمس عن الأراضي المتموجة مظهرة عشرة درجات من اللونين البرتقالي والوردي، أما في الشرق فتمتد الصحاري اللامتناهية على امتداد النظر.

كانت سيرا نيفادا قمة منحدرة للأعلى. يشكل سفحها الغربي 90 بالمائة من السلسلة، في حين تهبط القمم تدريجياً إلى الوديان الخصبة التي تصل في النهاية إلى ساحل كاليفورنيا الذي يوازي طريق جبال المحيط الهادئ بمائتي ميل غرباً في معظم الطريق. أما السفح الشرقي لسيرا نيفادا فمختلف بالكامل... فهو عبارة عن جرف حاد ينزل بقوة إلى سهل مستوٍ من

الصحاري الممتدة على طول الطريق إلى الحوض العظيم في نيفادا. لم أكن قد رأيت سيرا نيفادا من قبل سوى مرة واحدة؛ حين جئت إلى الغرب مع بول بعد بضعة أشهر من مغادرتنا لنيويورك، حيث خيّمنا في وادي الموت، ثم قدنا السيارة في اليوم التالي لساعات عبر أراضٍ مهجورة للغاية، حيث بدت من غير هذه الأرض. وبحلول منتصف اليوم، بدتْ سيرا نيفادا في الأفق الغربي كجدار أبيض هائل لا يمكن اختراقه ويرتفع عن الأرض. كان شبه مستحيل بالنسبة لي أن أتصور تلك الصورة الآن وأنا أجلس على هذه القمة الجبلية المرتفعة. فأنا لست بعيدة عن الجدار وإنما في قلبه. حدقت في الأراضي بنشوة، ولكنني كنت منهكة فلم أستطع النهوض والمشي إلى خيمتي وأنا أشاهد السماء تظلم. وفوقي ارتفع القمر براقاً، وتحتي من بعيد تلألأت أنوار بلدتَي إنيوكيرن وريدجكريست. لكن الصمت كان مهولاً، بينما شعرت بثقل الغياب... هذا ما جئت لأجله... وهذا ما حصلت عليه.

وحين نهضت وجهزت مخيمي للنوم أدركت أنني وللمرة الأولى على الطريق لم أرتدِ سترتي مع غروب الشمس، كما أنني لم أرتدِ قميصاً طويل الكمين؛ إذ لم يكن هناك أي برد في الجو، حتى على ارتفاع 7000 قدم. في تلك الليلة، شعرت بالامتنان للهواء الدافئ على ذراعيّ العاريتين. لكن، بحلول الساعة العاشرة صباحاً تلاشى ذلك الامتنان.

فقد ذهب امتناني بسبب الحرارة الشديدة المرتفعة.

وبحلول الظهيرة، أصبح الحر قاسياً والطريق مكشوفاً للشمس، حيث تساءلت بصراحة إن كنت سأتمكن من الاستمرار. فبسبب شدة الحر كنت مضطرة للتوقف كل عشر دقائق لأرتاح خمس دقائق وأشرب الماء الساخن كأنه شاي. وبينما كنت أمشي بدأت بالأنين مراراً وتكراراً؛ كما لو أن ذلك سيريحني ويبردني، لكنّ شيئاً لم يتغير، فالشمس لا تزال تحدق بي بوحشية دون أن تكترث لي سواء أمت أو عشت، أما الأشجار الهزيلة والشجيرات الجافة فلا تزال واقفة بلا اكتراث كما فعلت وستفعل على الدوام.

كنت كالحصاة... كورقة الشجر... كنت غصن الشجر المتثلم... لم أكن شيئاً بالنسبة لهم فيما كانوا كل شيء بالنسبة لي.

كنت أستريح في الظلال التي تصادفني وأنا أحلم بكل تفاصيل الماء البارد. فقد كانت الحرارة شديدة، حيث إن ذكراها بالنسبة لي ليست إحساساً وإنما صوتاً... نحيباً متنافراً علا متمركزاً في رأسي. وعلى الرغم من الأمور التي احتملتها حتى الآن على الطريق إلا أنني لم أفكر قط بالتوقف. لكن الآن، وبعد مضي عشرة أيام فقط، شعرت بالاكتفاء والرغبة بقطع رحلتي.

ترنحت شمالاً باتجاه كينيدي ميدوز غاضبة من نفسي لأنني خرجت بهذه الفكرة الجنونية. ففي أماكن أخرى، يقيم الناس حفلات الشواء، ويستمتعون أيام العطلات بالاسترخاء عند البحيرات والنوم في الظهيرة، كما أن لديهم مكعبات ثلج وعصير الليمون وغرفاً مكيفة الهواء. كنت أعرف أولئك الناس... كنت أحب أولئك الناس... كنت أكرههم أيضاً... سأقطع رحلتي... سأتوقف... أتوقف... أتوقف... أتوقف... بدأت أغني تلك العبارة لنفسي وأنا أئن وأمشي وأرتاح (عشرة خمسة عشرة خمسة). كنت سأصل إلى كينيدي ميدوز للحصول على صندوق المؤونة وتناول الحلوى المحشورة فيه، ثم سأستقل سيارة إلى أي بلدة يتجه إليها السائق الذي سأركب معه، حيث سأنزل في موقف الحافلات وأذهب من هناك إلى أي مكان.

ألاسكا... قررت مباشرة... لأنه بالتأكيد يوجد ثلج في ألاسكا.

وحين اعتزمت التوقف، خطر ببالي سبب آخر عزز اعتقادي بأن كامل هذه الرحلة على طريق جبال المحيط الهادئ فكرة غبية وغريبة. فقد انطلقت في الرحلة لأفكر في حياتي وفي كل شيء مدمر حولي، ولأستجمع نفسي مجدداً، لكن الحقيقة هي أنني حتى الآن على الأقل منشغلة فقط بمعاناتي الجسدية المباشرة، فمنذ أن بدأت المشي لم يخطر أي من صراعات حياتي ببالي... أي لماذا توفيت أمي؟ وكيف سأكمل حياتي بدونها؟ كيف يمكن لعائلتي التي كانت متقاربة ومترابطة أن تتفكك بهذه السرعة مباشرة بعد وفاتها؟ ما الذي فعلته حين أفسدت زواجي ببول– الزوج القوي والحنون– الذي أحبني من كل قلبه؟ لماذا أوقعت نفسي في ورطة مأساوية بسبب الهيروين وجو والعلاقات المتعددة مع رجال بالكاد أعرفهم؟

كانت تلك الأسئلة تثقل كاهلي كالحجارة طوال الشتاء والربيع وأنا أحضِّر لرحلتي على طريق جبال المحيط الهادئ... الأسئلة التي تثير فيّ الحزن والأسى، والتي كنت أنوي العثور على إجابات لها خلال رحلتي؛ حيث كنت أتخيل نفسي وأنا أتأمل طوال الوقت عند غروب الشمس، وأنا أحدق بالبحيرات الجبلية البكر، كما كنت أظنني سأبكي دموع الأسف والفرح كل يوم، لكنني بدلاً من ذلك استمررت بالأنين؛ ليس لأن قلبي يعتصر ألماً، وإنما لأن قدميّ وظهري تؤلمني، وكذلك الجروح التي لا تزال مفتوحة حول ردفيّ، ولأنني خلال الأسبوع الثاني من رحلتي– عند انتهاء الربيع وبدء الصيف رسمياً– بدأت أشعر بحر شديد يكاد رأسي ينفجر بسببه.

حين لم أكن أتذمر في سري حول وضعي الجسدي، كان ذهني يعيد ويكرر مقاطع من أغانٍ؛ كما لو أن هناك محطة إذاعة غنائية في رأسي. ففي الصمت، كان ذهني يجيبني بمقاطع من أنغام كنت قد سمعتها خلال حياتي...

أجزاء من أغنيات أحببتها، ومعزوفات من إعلانات تجارية، لأمضي ساعات طويلة محاولة إخراج إعلانات العلكة والوجبات السريعة من رأسي، كما أمضيت فترة بعد الظهيرة محاولة تذكر السطر التالي من إحدى الأغنيات، ويوماً كاملاً محاولة تجميع جميع كلمات أغنية أخرى.

كانت قدماي متورمتين، وعضلاتي ومفاصلي تؤلمني، وأصابعي مكشوطة مع التهاب بسيط، كما أن رأسي يهدر ويطن بأجزاء عشوائية من الموسيقى. وفي نهاية اليوم العاشر من رحلتي، زحفت إلى خميلة ظليلة من حقول القطن والصفصاف أرشدني إليها كتيبي الإرشادي. وبعكس الكثير من الأماكن التي ذكرها الكتيب الإرشادي والتي تحوي أسماء واعدة وزائفة، كان المكان جيداً على الأقل بالنسبة لي، حيث يترقرق الماء على الصخور. فرميت حقيبة ظهري، وخلعت حذائي وثيابي مباشرة، وجلست عارية في الماء الضحل البارد أرش به وجهي ورأسي. فخلال الأيام العشرة التي أمضيتها على الطريق لم أرَ أي شخص آخر، لذا عبثت دون أن أكترث لقدوم أحد، وقد شعرت بالدوار من النشوة وأنا أضخ الماء البارد عبر منقي المياه وأملأ العبوات.

حين استيقظت في الصباح التالي على صوت الطبيعة، بقيت في خيمتي وأنا أراقب السماء المشرقة عبر سقف الخيمة. تناولت لوحاً من الغرانيولا، وقرأت الكتيب الإرشادي لأتابع طريقي مجدداً. وفي النهاية، نهضت ونزلت إلى الماء، حيث استحممت فيه للمرة الأخيرة وأنا أتذوق الفخامة؛ فقد كان الحر شديداً على الرغم من أن الوقت لا يزال التاسعة صباحاً؛ مما جعلني أهاب مغادرة هذه البقعة الظليلة. وبينما كنت مستلقية في الماء قررت عدم التوجه إلى كينيدي ميدوز، فهي بعيدة جداً ويوجد على الكتيب الإرشادي طريق يبعد اثني عشر ميلاً سأفعل فيه ما فعلته من قبل... سأمشي حتى أجد من يوصلني بسيارته، لكنني هذه المرة لن أعود.

وبينما كنت أستعد للرحيل سمعت صوتاً من جهة الجنوب، فالتفتُّ ورأيت رجلاً ملتحياً يحمل حقيبة ظهر ويمشي نحوي، بينما كان يطقطق بعصا المشي على الوحل.

ناداني الرجل بابتسامة:

- مرحباً، لا بد أنك شيريل سترايد.

أجبته متلعثمة:

- نعم.

كنت متفاجئة برؤية إنسان آخر، وسماعه يناديني باسمي.

وحين رأى تعابير وجهي قال:

- لقد قرأت اسمك في سجل الطريق، وقد كنت أتبع خطواتك لأيام... هل تحملين ذلك الشيء فعلاً؟!

جلسنا في الظل نتكلم عن وجهتينا، وعن الأماكن التي ذهبنا إليها. كان في العقد الرابع من عمره، ويعمل محاسباً في تاكوما في واشنطن، وقد بدأ رحلته على طريق جبال المحيط الهادئ منذ بداية شهر مايو لأنه بدأ من حيث يبدأ الطريق على الحدود المكسيكية، وينوي إكماله حتى يصل إلى كندا. كان أول شخص ألتقيه يقوم تماماً بما أفعله، على الرغم من أن رحلته أطول، كما أنه لم يكن بحاجة إليّ لأشرح له ما كنت أفعله هنا.

وبينما كنا نتكلم، شعرت بالبهجة لصحبته والتواضع لإدراكي المتزايد أنه مختلف عني تماماً. فقد كان مستعداً بالكامل أما أنا فلا، حيث شرح لي عن أمور لم أكن أعلم بوجودها، إذ أعد لرحلته منذ سنوات، وجمع المعلومات بالتواصل مع آخرين قاموا بالرحلة نفسها في السنوات السابقة، وحضر مؤتمرات حول هذا الأمر، كما اهتم بالمسافات والارتفاعات، وتكلم بالتفصيل عن مزايا حقيبة الظهر وعيوبها، كما ظل يذكر لي شخصاً لم أسمع به قط ويدعى راي جاردان؛ وهو أسطورة رحلات المشي لمسافات طويلة، وخبير ومطلع على جميع جوانب طريق جبال المحيط الهادئ، وخاصة كيفية التنزه دون حمل وزن ثقيل. ثم سألني عن منقي المياه، وكمية البروتين التي أتناولها في اليوم، ونوعية الجوارب التي أرتديها، كما أراد معرفة كيفية معالجتي للخدوش، وعدد الأميال التي أقطعها في اليوم وسطياً؛ إذ إنه يقطع ما يقارب اثنين وعشرين ميلاً، وفي هذا الصباح قطع الأميال السبعة التي عانيت حتى قطعتها في اليوم السابق.

اعترفت مستاءة لمعرفتي أنني حمقاء بدينة أكثر مما كنت أتخيل:

- الأمر أصعب مما تخيلته، فأنا لا أستطيع قطع أكثر من أحد عشر أو اثنا عشر ميلاً.

قال غريغ غير متفاجئ:

- أوه بالطبع... هكذا كان الأمر بالنسبة لي يا شيريل... لا تقلقي، فقد كنت لا أقطع أكثر من أربعة عشر أو خمسة عشر ميلاً إن كنت محظوظاً؛ مع أنني تمرنت قبل فترة، حيث كنت أقوم برحلات في عطلة نهاية الأسبوع أملاً

فيها حقيبتي بالكامل. لكنك حين تأتين إلى هنا يختلف الوضع؛ إذ يحتاج جسدك إلى أسبوعين حتى يتهيأ لقطع المسافات الطويلة.

أومأت وقد شعرت براحة كبيرة؛ ليس بفضل إجابته وإنما لوجوده. فعلى الرغم من تفوّقه عليّ لكنه كان مشابهاً لي.

سألته بخجل خوفاً من جوابه:

- ماذا كنت تفعل بطعامك في الليل؟

- عادة أنام معه.

أجبته براحة:

- وأنا أيضاً.

فقبل أن أبدأ الرحلة، كنت أفكر بتعليق طعامي على الأشجار كل ليلة؛ أي كما يفعل كل المتنزهين. لكنني أكون متعبة للغاية للتفكير بذلك، لذا كنت أترك حقيبة طعامي معي داخل خيمتي على الرغم من كل التحذيرات من ذلك، كما استخدمتها كوسادة أسند عليها قدميّ المتورمتين.

قال غريغ:

- أنا أضعها في خيمتي كما يفعل الكثيرون دون أن يخبروا أحداً؛ لأنهم سيقعون في ورطة في حال أتى دب وآذى أحدهم بسببها، إلا أنني سأعلق طعامي في الأجزاء السياحية من الطريق حيث توجد الدببة، لكنني قبل ذلك لن أقلق بشأنه.

أومأت بثقة فقال غريغ:

- لكن بالطبع قد لا نتمكن من الوصول إلى تلك المناطق.

قلت وقد احمرت وجنتاي من مجرد فكرة أن أحدهم ربما يكون قد توقع أنني أنوي التوقف عن الرحلة:

- قد لا نتمكن من الوصول؟

- بسبب الثلج.

- صحيح... الثلج... سمعت أن هناك بعض الثلج.

في خضم الحر الشديد نسيت أمر الثلج بالكامل، فباد والمرأة من مكتب إدارة الأراضي والسيد تود والرجل الذي حاول إعطائي كيس الخبز والنقانق بدوا كحلم بعيد.

قال غريغ مؤكداً كلام باد:

- سيرا مغلفة بالثلج بالكامل، وقد توقف الكثير من المتنزهين بسبب كثافة الثلج هذا العام... سيكون من الصعب قطع المسافة.

شعرت بمزيج من الخوف والراحة لوجود عذر للتوقف... «أردت التنزه في طريق جبال المحيط الهادئ لكنني لم أستطع لأنه مغطى بالثلج!».

قال غريغ:

- سنقوم بوضع خطة في كينيدي ميدوز، حيث سأبقى هناك لبضعة أيام حتى نجتمع؛ أي سأكون هناك حين تصلين، ويمكننا التوصل إلى حل.

- عظيم.

ولم أرغب بإخباره أنه حين سيصل إلى كينيدي ميدوز سأكون في حافلة متجهة إلى أنكوراج.

وقف وحمل حقيبته بسهولة، بينما بدت ساقاه المغطاتان بالشعر كدعامتي منصة على بحيرة في مينيسوتا:

- لقد اخترنا السنة الخطأ لنمشي في طريق جبال المحيط الهادئ.

- أظن ذلك.

حاولت رفع حقيبة ظهري وإحكام أشرطتها كما فعل غريغ، وكما لو أنني أرغب بتجنب الذل، عملت عضلاتي بقوة مضاعفة، لكن حقيبتي كانت ثقيلة للغاية ولم أستطع رفعها بوصة واحدة عن الأرض.

عندها، تقدم نحوي ليساعدني في رفعها وقال:

- هذه الحقيبة ثقيلة... أثقل من حقيبتي بكثير.

وما إن حملت الحقيبة قلت:

- من الجيد رؤيتك؛ فأنا لم أرَ أحداً على الطريق حتى الآن... ظننت أنه سيكون هناك المزيد من المتنزهين.

- لا يقوم الكثيرون بالتنزه على طريق جبال المحيط الهادئ، وخاصة هذا العام مع كل هذا الثلج. فالكثيرون علموا بأمر الثلج وأجّلوا رحلتهم إلى السنة المقبلة.

- أتساءل إن كان هذا ما علينا فعله؟

كنت آمل أن يقول لي إن قدومنا في العام القادم فكرة رائعة.

- أنت المرأة الوحيدة التي تسافر بمفردها التي التقيتها حتى الآن، كما أنك الوحيدة التي وجدتها في السجل أيضاً... هذا رائع.

رددت بابتسامة خفيفة.

- هل أنت مستعدة للذهاب؟

- مستعدة!

وتبعته في الطريق وأنا أمشي بأسرع ما يمكنني لألحق به. وحين وصلنا إلى مجموعة من الطرق المتعرجة بعد خمس عشرة دقيقة توقفت لأحتسي بعض الماء.

ناديته وهو يكمل طريقه:

- سعدت بلقائك يا غريغ.

توقف والتفت قائلاً:

- فقط قبل ثلاثين ميلاً من كينيدي ميدوز.

- نعم.

سيصل إلى هناك في الصباح التالي، أما أنا فإن أكملت فسأحتاج لثلاثة أيام.

- سيكون الجو أبرد هناك، فتلك المنطقة أعلى بألف قدم.

- جيد.

- أنت تبلين بلاء حسناً يا شيريل. لا تقلقي حيال الأمر، فأنت غير متمرسة، ولكنك قوية؛ والقوة هي ما يهم هنا، فقلة من يمكنهم القيام بما تفعلينه.

- شكراً.

وغمرتني كلماته حتى شعرت بضيق في حنجرتي من كثرة المشاعر.

قال وهو يمشي بعيداً:

- سأراك في كينيدي ميدوز.

- في كينيدي ميدوز.

وقبل أن يتلاشى في الأفق قال:

- سنضع خطة من أجل الثلج.

مشيت في قيظ النهار بتصميم جديد وإلهام بسبب ثقة غريغ بي، ولم أعد أفكر في التوقف، لكنني بينما كنت أمشي بدأت بالتفكير بفأس الجليد التي ستكون في صندوق البريد القادم... فأس الجليد السوداء والفضية ذات المنظر الخطير، والتي اشتريتها وأحضرتها إلى المنزل، ووضعتها في الصندوق المكتوب عليه كينيدي ميدوز، مفترضة أنني في الوقت الذي سأصل فيه إلى كينيدي ميدوز سأعرف كيفية استخدامها، حيث سأكون حينها قد تحولت إلى متسلقة جبال خبيرة.

وحتى الآن أصبحت معارفي أكثر، فقد روضني الطريق دون أي تدريب على استخدام فأس الجليد. وخلال الاستراحات على جانب الطريق ذلك اليوم في درجة الحرارة التي تتجاوز المائة، قلبت صفحات الكتيب الإرشادي لأرى إن كان يذكر شيئاً حول استخدام فأس جليد، لكنني لم أجد أي شيء. غير أنه ذكر أن المشي على الأراضي المغطاة بالثلوج يتطلب فأس جليد، وكلّاباً، بالإضافة إلى معرفة جيدة باستخدام البوصلة، واطلاع على انهيارات الجبال الثلجية، والكثير من خبرات تسلق الجبال.

أغلقت الكتاب ومشيت في الحر إلى براري دوم لاند، نحو ما كنت آمل أن يكون دورة في استخدام فأس الجليد التي سيعلمني إياها غريغ في كينيدي ميدوز. فعلى الرغم من أنني بالكاد أعرفه، لكنه أصبح منارة بالنسبة لي... نجمي الدليل إلى الشمال. وإن استطاع القيام بذلك فسأستطيع أنا أيضاً؛ فهو

ليس أقوى مني... كنت أقول هذا لنفسي دون أن أصدق حرفاً منه. كنت قد اعتدت دائماً وأبداً على طرح هذا السؤال كلما توقفت قبل مجموعة من الطرق المتعرجة، أو نزلت منحدراً، أو كشطت الجلد عن قدميّ أو استلقيت وحدي في خيمتي في الليل؛ إذ كنت أسأل بصوت مرتفع: من أقوى مني؟

وبينما كنت أمشي، بدأت الأراضي تتحول من صحراء إلى غابات، حيث طالت الأشجار وأصبحت مورقة أكثر، كما بدأت أرى بعض الماء، وأصبحت السهول مليئة بالأزهار البرية. كانت هناك أزهار في الصحراء أيضاً، لكنها أقل وفرة وأكثر غرابة. أما الأزهار البرية التي أراها الآن فتنمو بغزارة على جانبي الطريق، ومعظمها مألوفة بالنسبة لي لكونها من الأنواع نفسها التي تنمو في مينيسوتا في فصل الصيف. وحين اجتزتها، شعرت بوجود أمي بقوة، لدرجة أنني أحسست أنها موجودة هناك. وقد توقفت مرة ونظرت حولي قبل أن أكمل طريقي.

بعد ظهر اليوم الذي التقيت فيه غريغ رأيت أول دب على الطريق، لكنني سمعته أولاً... شخير ذكوري أوقفني في الطريق. وحين نظرت إلى الأعلى رأيت حيواناً كبيراً بحجم ثلاجة يقف على قوائمه الأربع على بعد عشرين قدماً مني. وما إن التقت عيوننا حتى ظهرت التعابير الخائفة نفسها على وجهينا.

صرخت:

- دب!

وتناولت صفارتي وصفرت بقوة شديدة ليلتفت ويركض تحت الشمس.

استغرقت بضع دقائق حتى استجمعت شجاعتي للاستمرار، لا سيما أنه كان علي الآن المشي في الاتجاه نفسه الذي مشى فيه الدب، كما أنه لم يبدُ دباً أسود، فقد رأيت الكثير من الدببة السوداء من قبل، إذ كانت تملأ غابات شمال مينيسوتا، حيث كنت أجعلها تجفل بالطريقة نفسها وأنا أمشي أو أركض على الطريق الحصوي الذي ترعرعت عليه. لكن تلك الدببة السوداء مختلفة عن الدب الذي رأيته للتو، فهي سوداء... سوداء كالليل... سوداء كالتراب الزراعي الذي تشتريه في أكياس كبيرة من متجر الحديقة، ولم يكن هذا الدب واحداً منها، إذ كان بنيّاً بلون القرفة، وفي بعض الأماكن أشقر.

بدأت المشي بتردد محاولة إقناع نفسي أن الدب ليس دباً بنياً أو دباً أشيب مفترساً، وبالطبع لم يكن كذلك... أنا أعرف أنه لا يمكن أن يكون كذلك،

فتلك الدببة غير موجودة في كاليفورنيا حيث تم قتلها قبل سنوات. لكن، لماذا لم يكن ذلك الدب الذي رأيته أسود؟

أمسكت بصفارتي لساعة مستعدة للنفخ فيها وأنا أغني؛ لئلا أفاجئ ذلك الدب الضخم في حال التقيته في طريقي. كنت أغني بنبرة شجاعة مصطنعة، ثم أدع الإذاعة المختلطة في رأسي تتولى المهمة لأتمكن ببساطة من أداء أغانٍ كنت أتوق لسماعها: أسمر... أمهق... بعوضة... يااااي!

وبسبب ذلك الغناء، كدت أدوس على أفعى دون أن أنتبه، ولم تكن كأي أفعى، وإنما كانت ثخينة كذراعي.

وعندما وقعت عيناي على الأفعى التي لا تبعد عني سوى بضع أقدام صرخت:

- آه!

ولو كنت قادرة على القفز لقفزت. فقد قفزت، لكن قدميّ لم تفارقا الأرض، وإنما ابتعدتا عن رأس الأفعى الصغير المدبب وأنا أصرخ خوفاً، واحتجت لعشر دقائق حتى استجمعت شجاعتي ومشيت حولها في قوس عريض بينما كان جسدي كله يرتجف.

وفي باقي اليوم مشيت ببطء وعيناي تتفحصان الأرض والأفق، وصوتي يثير خوفي وأنا أغني لنفسي: «أنا لست خائفة». وفي خضم هذا الرعب، كنت أشعر بالامتنان لرؤيتي حيوانين يتشاركان هذا المكان الذي بدأت أشعر بأنه لي، وأدركت أنه على الرغم من معاناتي وأنا أقترب من نهاية أول قسم من رحلتي فقد بدأت أشعر بمشاعر متزايدة تجاه طريق جبال المحيط الهادئ، كما أن حقيبتي الثقيلة أصبحت كأعز رفاقي، ولم تعد سيارة الفولكس فاجن بيتل التي كنت أحملها وأنا متألمة في غرفة ذلك الفندق الصغير في موهافي قبل بضعة أسابيع، وإنما أصبح لحقيبتي اسم... الوحش.

كنت أعني بذلك الاسم أمراً جيداً؛ إذ كنت متفاجئة من أن كل ما أحتاج إليه لأستمر في الحياة يمكن حمله على ظهري، والمفاجئ أكثر أنه بإمكاني حمله... أنه بإمكاني حمل ما لا يمكن حمله، ولم أعد أستطيع كبت تلك الإدراكات حول حياتي الفيزيولوجية المادية التي كانت تهيمن على العالم الروحي العاطفي، وأن حياتي المعقدة يمكن أن تصبح بسيطة ومذهلة، وبدأ يخطر ببالي أنه قد يكون من الجيد أنني لم أمضِ أول أيامي على الطريق وأنا أفكر في مآسي حياتي، وأنني حين اضطررت للتركيز على معاناتي الجسدية

تلاشى شيء من معاناتي العاطفية. وفي نهاية ذلك الأسبوع الثاني، أدركت أنني منذ أن بدأت رحلتي لم أذرف دمعة واحدة.

وفي الليلة السابقة لوصولي إلى كينيدي ميدوز، مشيت الأميال الأخيرة إلى الأرض الضيقة، حيث خيمت مع الألم المألوف الذي أصبح رفيقي الدائم. شعرت بالراحة حين وجدت شجرة كبيرة قد سقطت أمام مخيمي... كانت قد ماتت منذ زمن، وأصبح جذعها أملس ورمادي اللون، وشكّلت مقعداً أملس مرتفعاً جلست عليه وخلعت حقيبتي براحة. وما إن وضعت الحقيبة جانباً استلقيت على الشجرة وكأنها أريكة عريضة، حيث كان بإمكاني الاستلقاء عليها دون أن أنزلق إلى أحد الجانبين. أحسست بشعور رائع؛ فقد كنت أشعر بالحر والعطش والجوع والتعب، لكن كل تلك الأشياء لم تكن تعني شيئاً مقارنة مع الألم الحارق المنبعث من فقرات ظهري، فأغمضت عينيّ وتنهدت براحة.

بعد بضع دقائق، شعرت بشيء يمشي على ساقيّ فنظرت للأسفل، ووجدت نفسي مغطاة بالنمل الأسود... جيش كامل منه يشكل خطاً ينبثق من فتحة في الشجرة ويتدفق على جسدي، فقفزت وصرخت بصوت أعلى من صراخي حين رأيت الدب والأفعى، وبدأت أبعد النمل غير المؤذي، وقد هيمن علي شعور بالخوف غير المنطقي... ليس من النمل فحسب، وإنما من كل شيء... من فكرة أنني لا أنتمي إلى هذا العالم حتى لو أصررت على أن أكون كذلك.

طهوت عشائي وأويت إلى خيمتي بأسرع وقت ممكن قبل حلول الظلام، لأكون في الداخل ببساطة؛ حتى لو كانت عبارة «في الداخل» لا تعني سوى أن أكون محاطة بقماش رقيق من النايلون. قبل أن أبدأ رحلتي على طريق جبال المحيط الهادئ، كنت أتخيل أنني لن أنام في خيمتي إلا عند هطول المطر، وأنني سأستلقي في أغلب الليالي في العراء تحت النجوم، لكنني كنت مخطئة، فقد كنت كل مساء أتوق لأن آوي إلى خيمتي لأشعر أن هناك شيئاً يحميني من باقي العالم؛ مما يمنحني الشعور بالأمان ويحميني من الخطر. كنت أحب الظلام القاتم والرطب لخيمتي، والألفة والدفء اللذين كنت أرتب بهما مقتنياتي حولي كل ليلة.

تناولت كتاباً وأشعلت المصباح، ووضعت حقيبة طعامي تحت ساقيّ ودعوت ألا يظهر الدب الذي رأيته اليوم– الدب الأسود– وألا يقتحم خيمتي ليسرق طعامي مني.

وحين استيقظت عند الساعة الحادية عشرة على صوت عواء الذئاب، كان ضوء مصباحي قد خفت، بينما لا تزال الرواية مفتوحة على صدري.

في الصباح، بالكاد استطعت الاستيقاظ. ولم يكن ذلك يحصل فقط في ذلك الصباح من اليوم 14، وإنما استمر خلال الأسبوع الماضي... إذ إن مجموعة متزايدة من المشاكل والآلام جعلت من المستحيل بالنسبة لي الوقوف أو المشي كشخص عادي حين خرجت من خيمتي لأول مرة وكأنني امرأة عجوز. وعلى الرغم من تمكني من حمل الوحش لأكثر من مائة ميل فوق الأراضي الوعرة والشاهقة، لكنني مع بداية كل يوم لم يكن بإمكاني احتمال وزني؛ إذ كانت قدماي متورمتين ومتقرحتين بسبب الجهد المبذول في اليوم السابق.

كنت قد أنهيت السير حول مخيمي متمهلة وحافية القدمين وقد حزمت حقيبتي، واستعددت للذهاب حين ظهر رجلان على الطريق من ناحية الجنوب. وكما هي الحال مع غريغ، فقد ألقيا التحية عليّ باسمي قبل أن أنطق بكلمة... كانا ألبرت ومات... إنهما أب وابنه من جورجيا... وسيقطعان الطريق بكامله. كان ألبرت في الثانية والخمسين من العمر، ومات في الرابعة والعشرين، وكلاهما من كشافة الصقور. كما بدا عليهما الصفاء والدقة العسكرية المتجلية في كل حركة من حركاتهما.

قال ألبرت حين رأى الوحش:

- يا إلهي! ماذا تضعين في هذه يا فتاة؟ يبدو أنك وضعت كل شيء.

- مجرد أغراض النزهة.

واحمرت وجنتاي خزياً، فكل واحدة من حقيبتيهما كانت تبدو بنصف حجم حقيبتي.

رد ألبرت بلطف:

- لقد كنت أمزح فقط.

وتكلمنا قليلاً حول الطريق الحار وراءنا، والطريق المتجمد أمامنا. وبينما كنا نتكلم، راودني الشعور نفسه الذي أحسست به حين التقيت غريغ... إذ كنت سعيدة لوجودي معهما؛ على الرغم من أن وجودهما كان يظهر لي مدى قلة استعدادي للرحلة. كنت أشعر بنظراتهما إليّ، وأقرأها وهي تنتقل من فكرة لأخرى وهما يتفحصان حقيبتي المخالفة للتفكير العقلاني، ويدركان فهمي المشوش للأمور، في حين أنهما يعترفان بالقوة التي احتجت إليها لأصل

إلى هنا لوحدي. كان مات شاباً ضخماً، وشعره البني المحمر متجعد فوق أذنيه ويرصف باللون الذهبي على ساقيه العملاقتين. لم يكن يصغرني سوى بسنتين، ولكنه خجول للغاية كما لو أنه طفل، وكان يترك والده يقوم بمعظم الحديث بينما يقف هو جانباً.

سأل ألبرت:

- اعذري فضولي، لكن مرة تتبوّلين في اليوم في هذا الحر؟

- ممم... لم أنتبه إلى الأمر... أكان ينبغي لي ذلك؟

وهنا بدأت آمل ألا يكونا قد خيّما في مكان قريب مني في المساء السابق، حيث يسمعانني وأنا أصرخ لدى رؤيتي النمل.

- من الناحية المثالية، سبع مرات وفقاً لقواعد الكشافة. لكنْ مع هذا الحر وانعدام الماء على الطريق ومستوى الجهد المرتفع فسنكون محظوظين إن تبولنا ثلاث مرات.

- نعم وأنا أيضاً.

على الرغم من أنني أمضيت فترة أربع وعشرين ساعة في الحر اللاهب دون أن أتبول لمرة واحدة. قلت لأغير الموضوع:

- رأيت دباً في الجنوب... دباً أسود ولكنه بدا بنياً.

- في هذه الأجزاء جميع الدببة بلون القرفة بسبب شمس كاليفورنيا. سنراك في كينيدي ميدوز يا آنسة... سعدنا بلقائك.

قلت:

- هناك رجل آخر يدعى غريغ التقيته قبل بضعة أيام، وقال إنه سيبقى هناك.

قفز شيء بداخلي حين ذكرت اسم غريغ... لا لسبب، وإنما لكونه الشخص الوحيد الذي عرفته على الطريق.

- لقد تبعناه لمسافة طويلة، لذا سيكون من الرائع لقاؤه في النهاية. كما أن هناك شابين آخرين وراءنا، ومن المرجح أن يمرا بك في أي وقت... إنهما يدعيان دوغ وتوم... وفي مثل عمرك. لم يبدأا قبلك بكثير.

لوحت لألبرت ومات، وجلست لبضع دقائق أفكر في وجود دوغ وتوم، ثم نهضت وأمضيت الساعات التالية وأنا أمشي بسرعة أكبر من قبل لهدف واحد فقط... وهو ألا يصلا إليّ قبل أن أصل إلى كينيدي ميدوز. بالطبع كنت أتوق لرؤيتهما، ولكنني أردت لقاءهما على أنني المرأة التي سبقتهما. ومثل غريغ، كان ألبرت ومات قد بدأا المشي من الحدود المكسيكية، وكانا يسيران بسرعة كبيرة. لكنّ دوغ وتوم مختلفان، فقد بدأا من مكان قريب من النقطة التي بدأت منها، ولم يكن ذلك قبلي بمدة طويلة. وكما لو أن هذا الأمر هو الأهم في تحديد نجاحي أو فشلي، كان هذا أكثر عمل شاق أقوم به.

توقفت في طريقي حين خطرت ببالي فكرة أن المشي في طريق جبال المحيط الهادئ أصعب عمل أقوم به، لكنني صححت تلك الفكرة مباشرة؛ فمشاهدة أمي وهي تموت، واضطراري للحياة دونها كانا أصعب شيء أفعله. كما أن هجري بول، وتدميري زواجنا وحياتنا معاً لسبب بسيط وغير واضح كانا أمراً صعباً أيضاً. إلا أن التنزه على طريق جبال المحيط الهادئ كان صعباً بطريقة مختلفة... ربما كان اندفاعي لشراء الكتيب الإرشادي لطريق جبال المحيط الهادئ قبل شهور يشكل عملية البحث المبدئية عن العلاج... عن الخيط الذي انقطع في حياتي.

بدأت أشعر بالخيوط تتفكك من ورائي... الخيط القديم الذي فقدته والخيط الجديد الذي كنت أحوكه... وبينما كنت أمشي ذلك الصباح، ظهرت أمامي قمم سيرا العالية والمغطاة بالثلج. لكنني تجاهلت الأمر، ومشيت دون أن أفكر بتلك القمم المغطاة بالثلوج، وإنما فكرت بما سأفعله فور وصولي إلى متجر كينيدي ميدوز ذلك المساء، ورحت أتخيل بالتفصيل الممل الأشياء التي سأشتريها لآكلها أو أشربها: عصير الليمون البارد، وألواح الحلوى، والطعام المؤذي الذي كنت نادراً ما آكله في حياتي العادية. كما تخيّلت لحظة استلامي أول صندوق مؤونة؛ وهو الدليل القاطع على أنني اجتزت تلك المسافة على الأقل. وبدأت أفكر في ما سأقوله فور وصولي إلى المتجر:

- مرحباً. أنا متنزهة على طريق جبال المحيط الهادئ، وقد جئت لاستلام صندوقي... اسمي شيريل سترايد.

شيريل سترايد... شيريل سترايد... شيريل سترايد... لا تزال تانك الكلمتان تدوران على لساني. فقد كان شيريل اسمي منذ الأزل، لكن سترايد إضافة جديدة، ولم تصبح رسمية إلا منذ أبريل، حين أنهيت أنا وبول أوراق الطلاق. فعند زواجنا، حملنا أنا وبول لقبه، وكان اسماً لم أحبه قط؛ فقط كان معقداً ومزعجاً، ونادراً ما كان أحد يقرأه بأسلوب صحيح. وحتى أنا كنت أتلعثم به في الكثير من الأحيان.

وخلال فترة الحيرة التي شعرت بها حين انفصلنا أنا وبول لبضعة أشهر– لكننا لم نكن واثقين من أننا نريد الطلاق– جلسنا معاً لنتفق على تنسيق أوراق الطلاق التي طلبناها عبر الهاتف، وكأن الإمساك بأيدينا سيساعدنا على تحديد ما نريده. وبينما كنا نقلب الأوراق، وجدنا سؤالاً عن الاسم الذي سيحمله كل منا بعد الطلاق، وتحته سطر فارغ لنكتب عليه أي شيء ونكون أي أحد. ضحكنا من الأمر حينها، وبدأنا نضع لنفسينا أسماء جديدة غير ملائمة... أسماء نجوم السينما وشخصيات الرسوم المتحركة وكلمات غريبة لم تكن أسماء على الإطلاق.

لكن في ما بعد، وبينما كنت وحدي في شقتي، شغل ذلك السطر الفارغ تفكيري؛ إذ ما من شك في أنني إن تطلقت من بول فسأختار اسماً جديداً لنفسي. إذ لا يمكنني الاحتفاظ باسمه، ولا استعادة الاسم الذي كان لي في المدرسة الثانوية والعودة لكي أكون الفتاة التي كنتها. لذا، خلال الأشهر التي بقيت فيها متزوجة من بول ونحن غير واثقين في أي اتجاه نتجه، فكرت بموضوع لقبي، وبدأت أبحث في الكلمات التي تبدو جيدة مع شيريل، ووضعت قائمة بأسماء شخصيات الروايات التي تعجبني، لكن لا شيء منها أعجبني، حتى خطرت كلمة سترايد ببالي في أحد الأيام، فبحثت عن معناها في المعجم مباشرة، وعلمت أنها تناسبني؛ فهي تعني «الانحراف عن الطريق الصحيح، والانحراف عن الطريق المباشر، والضياع والبقاء دون أب أو أم، أو التجوال بلا هدف بحثاً عن شيء ما».

وأنا كنت منحرفة ومتجولة، لكنني لم أختر تلك الكلمة لتكون اسمي الجديد لأنها تحدد جوانب سلبية من ظروفي أو حياتي، بل لأنني في أسوأ أيامي تلك رأيت القوة في الظلام؛ حيث رأيت أنني أصبحت أشياء لم أعرفها من قبل.

شيريل سترايد... كتبت الاسم مراراً وتكراراً على صفحة كاملة من دفتر مذكراتي كفتاة معجبة بفتى وتتمنى الزواج منه لكن ذلك الفتى غير موجود. كنت مليئة بالشكوك... إذ إن اختياري كلمة من المعجم واعتبارها لي بدوَا أمراً خادعاً بالنسبة لي، وربما طفولياً وأحمق، بالإضافة إلى كونه يتضمن بعض النفاق. فمنذ سنوات عدة وأنا أسخر من أقراني الذين اختاروا لأنفسهم أسماء اختلقوها بأنفسهم... جينيفر وميتشل اللذان أصبحا سيكوياس ولوناس، ومايك وجاسون اللذان أصبحا أوكس وثيسلز. لكنني لم أكترث، وأخبرت بعض أصدقائي بقراري، وطلبت منهم أن يبدأوا بمناداتي باسمي الجديد ليساعدوني في اختباره.

وحين قررنا أنا وبول إنهاء أوراق الطلاق، كنت قد اعتدت على اسمي الجديد لدرجة أنني كتبته دون أي تردد على السطر الفارغ. لكن السطور الأخرى هي التي جعلتني أتردد... السطور اللامتناهية التي تتطلب توقيعي لأفسخ عقد زواجنا، والتي أنهيتها بخوف أكبر؛ فأنا لا أريد الطلاق. كنت واثقة أن طلاقي من بول هو الأمر الصواب الذي ينبغي لي القيام به، وأنني حين أفعل ذلك فسأدمر أفضل شيء لدي. لكن زواجي في ذلك الحين كان قد أصبح كالطريق الذي تدرك أنّ فيه ثوراً في كلا الاتجاهين؛ لذا قمت بقفزة مغامرة واندفعت بالاتجاه الذي لم أجربه قط.

وقعت أوراق الطلاق في أبريل مع تساقط الثلوج، حيث جلسنا إلى طاولة مقابل امرأة تدعى فال من معارفنا وتعمل ككاتب عدل، وشاهدنا الثلج من نافذة واسعة في مكتبها في مركز المدينة، حيث ألقينا الدعابات كلما سنحت الفرصة. كنت قد التقيت فال عدة مرات من قبل، وأعرف بعض الأشياء عنها، والتي تدفقت إلى ذهني دفعة واحدة. فقد كانت لطيفة ومتبلدة الإحساس، وشعرها قصير للغاية ومصبوغ باللون الأشقر؛ باستثناء خصلة طويلة منه مصبوغة باللون الوردي ومتدلية كجناح صغير على عينيها. كما كانت تضع قرطين فضيين في أذنيها، وهناك مجموعة من الوشوم متعددة الألوان تغطي ذراعيها.

ومع ذلك، كانت تشغل وظيفة فعلية في مكتب مرموق في مركز المدينة، مع نافذة واسعة ورخصة كاتب عدل، وقد اخترناها لتجري لنا معاملات الطلاق لأننا أردنا أن تسير الأمور بسهولة وسلاسة، ولنصدق أننا ما زلنا فردَين طيبَي القلب ولطيفين في هذا العالم، وأن كل ما قلناه لبعضنا قبل ست سنوات كان صحيحاً... لكن، ما الذي قلناه حينها؟ طرحنا هذا السؤال على بعضنا قبل بضعة أسابيع ونحن شبه ثملين في شقتي؛ حيث اتخذنا قراراً نهائياً بإنهاء الأمر.

- ها هي.

صرخت بعد أن بحثت بين بعض الأوراق ووجدت وعود زواجنا التي كتبناها بنفسينا... ثلاث صفحات باهتة مثبتة ببعضها، وعليها عنوان «يوم تفتح الأقحوان»، وضحكنا معاً على نفسينا، وعلى الإنسانين اللذين كنا عليهما، ثم أعدت أوراق الوعود إلى أعلى الكومة لأجدها في ما بعد؛ لأنني لم أكن قادرة على القراءة حينها.

حين تزوجنا كنا صغيرين للغاية وساذجين، لدرجة أن أهلنا اقترحوا علينا أن نعيش مع بعضنا فحسب. لكن لم يكن بمقدورنا العيش مع بعضنا فحسب،

على الرغم من أنني كنت في التاسعة عشرة وهو في الحادية والعشرين؛ فقد كنا مغرمين إلى أبعد الحدود. لكن حتى ونحن متزوجان لم نستطع التفكير بنفسينا على أننا متزوجان، وإنما كان كل منا على علاقة حميمة مع شخص واحد فقط دون أي نية لدينا بالاستقرار. فقد وضعنا دراجتينا في صندوقين، وسافرنا معهما جواً إلى إيرلنده حيث بلغت العشرين من عمري بعد شهر واحد، ثم استأجرنا شقة في غالوي، ثم غيرنا رأينا وانتقلنا إلى دوبلن حيث شغل كل منا وظيفة في مطعم... هو في مطعم للبيتزا وأنا في مقهى يقدم أطعمة نباتية. وبعد أربعة أشهر، انتقلنا إلى لندن، وجلنا في الشوارع مفلسين لدرجنا أننا كنا نبحث عن القطع النقدية المعدنية على جانب الطريق. وفي النهاية عدنا إلى الوطن، حيث ماتت أمي بعد فترة وجيزة، وقمنا بكل ما فعلناه وأوصلنا إلى هنا... إلى مكتب فال.

كنا أنا وبول ممسكين بيدَي بعضنا تحت الطاولة ونحن نشاهد فال وهي تفحص وثائق الطلاق التي نظّمناها بنفسينا؛ حيث كانت تتفحصها صفحة تلو الأخرى لتتحقق من أن كل شيء على ما يرام. شعرت بنوع من الولاء المتدفق بداخلي تجاه بول لنقف معاً بوجه أي مزاعم أو ادعاءات تقوم بها؛ كما لو أننا كنا نتقدم بطلب لنبقى مع بعضنا باقي حياتينا وليس العكس.

- يبدو كل شيء على الوجه الصحي.

وابتسمت لنا بتحفظ، ثم تصفحت الصفحات مجدداً وهي تضع ختمها الضخم على بعضها، وتعطينا عشرات الصفحات الأخرى لنوقّعها.

قلت باندفاع والدموع تترقرق في عينيّ:

- أحبه... أعني أن الطلاق ليس بسبب انعدام الحب؛ فأنا أحبه وهو يحبني...

ونظرت إلى بول بانتظار أن يتدخل ويوافقني الرأي ويعلن عن حبه لي، لكنه ظل صامتاً فتابعت:

- فقط لتعرفي... لئلا تأخذي فكرة خاطئة.

- أعلم.

ورفعت فال الخصلة وردية اللون جانباً، فرأيت عينيها ترمشان بعصبية وهي تنظر إلى الأوراق.

- والذنب ذنبي، فهو لم يفعل شيئاً وإنما أنا المذنبة... أنا التي حطمت قلبي.

مد بول يده وضغط على ساقي مهدئاً إياي، لكنني لم أستطع النظر إليه؛ لأنني إن نظرت إليه فسأبكي. كنا قد اتفقنا على هذا معاً، لكنني كنت أعلم أنني إن التفت إليه وطلبت منه أن ننسى موضوع الطلاق ونعود معاً مجدداً فسيوافق. إلا أنني لم ألتفت، وإنما أنزلت يدي ووضعتها على يد بول على ساقي.

كنا نتساءل معاً إن كانت الأمور ستسير في مسار مختلف لو أن أحد الأمور لم يحصل... لو أن أمي لم تمت على سبيل المثال فهل كنت سأخونه؟ أو لو أنني لم أخنه فهل كان سيخونني؟ وماذا لو أن شيئاً من ذلك لم يحصل؟ ماذا لو أن أمي لم تمت ولم يقم أحدنا بالخيانة؟ هل كنا سنتطلق بكل الأحوال لأننا بكل بساطة تزوجنا صغيرين؟ لم نستطع معرفة ذلك، لكننا كنا منفتحين لنعرف. وكما كنا مقربين من بعضنا حينما كنا معاً، كذلك كنا مقربين من بعضنا في الكشف عن سرائرنا؛ حيث أخبرنا بعضنا بكل شيء... كلمات بدا لنا أنه ما من إنسانين سيقولانها لبعضهما... كلمات عميقة... قلنا كل شيء جميل وقبيح وصادق.

- والآن، بما أننا انتهينا من كل هذا، ينبغي أن نبقى مع بعضنا.

قلت ذلك بما يشبه المزاح في آخر نقاش دار بيننا؛ حين قررنا أخيراً إن كنا سنتطلق أو لا... كنا نجلس على الأريكة في الظلام في شقتنا، وقد أمضينا المساء كله ونحن نتكلم حتى أنهكنا التعب ولم نعد نقوى حتى على النهوض لإنارة المصباح.

وحين لم يرد قلت:

- أتمنى أن تتمكن من فعل ذلك يوماً ما مع امرأة أخرى.

على الرغم من أن مجرد التفكير في تلك المرأة الأخرى مزّق قلبي.

- وأنا أتمنى لك ذلك أيضاً.

جلست في الظلام بجواره، راغبة بتصديق أنني قادرة على إيجاد ذلك النوع من الحب الذي عشته معه، لكن دون أن أدمره في المرة القادمة. إلا أنني شعرت أن ذلك مستحيل، وفكرت في أمي وكيفية حصول أمور فظيعة كثيرة في آخر أيام حياتها... أشياء فظيعة صغيرة... ثرثرة أمي النزوية

المهتاجة... ونزيف الدم الذي يصبغ خلفية ذراعيها باللون الأسود... والأسلوب الذي كانت تتوسل فيه لتحصل على شيء ما. كنت أظن حينها أن تلك أسوأ الأيام، لكنها حين ماتت كنت مستعدة للتخلي عن كل شيء مقابل عودتها... يوم فظيع صغير تلو الآخر... ربما هذا ما سيحصل مع بول أيضاً؛ فأنا الآن أجلس بجواره في الليل وأقرر الطلاق، لكن ربما ما إن ينتهي كل هذا حتى أرغب بعودة تلك الأيام الفظيعة أيضاً.

- فيم تفكرين؟

لكنني لم أجبه، وإنما انحنيت إلى الأمام وأنرت المصباح.

كان علينا إرسال وثائق الطلاق بالبريد، فمشينا أنا وبول من المبنى إلى الثلج على الرصيف، حتى وجدنا صندوق بريد، ثم اتكأنا على الطوب البارد للمبنى، وقبلنا بعضنا، وبكينا وتمتمنا بعبارات الندم لتمتزج دموعنا على وجهينا.

سألني بول بعد فترة:

- ما الذي نفعله؟

نودع بعضنا.

فكرت في أن أطلب منه أن يعود معي إلى شقتي كما فعلنا عدة مرات خلال فترة انفصالنا لمدة سنة؛ حين كنا نرتمي على السرير معاً لليلة أو أمسية لكنني لم أملك الجرأة.

قال:

- وداعاً.

- وداعاً.

وقفنا بالقرب من بعضنا ووجهانا متقابلان، ويدانا ممسكتان ببعضهما أمام معطفه، فشعرت بوحشية المبنى المجاور لي، والسماء الرمادية، والشوارع البيضاء التي بدت كوحوش ضخمة ونحن نقف فيها... لوحدنا مع بعضنا في نفق، بينما تذوب ندف الثلج على شعره الذي كنت أرغب بلمسه لكنني لم أفعل. وقفنا هناك دون أن ننطق بكلمة، ونظرنا إلى أعين بعضنا وكأن تلك النظرة ستكون الأخيرة.

قال بعد فترة:

- شيريل سترايد.

بدا اسمي غريباً على لسانه فأومأت وتركت معطفه.

7

الفتاة الوحيدة في الغابة

– شيريل ستريد؟

سألت المرأة في متجر كينيدي ميدوز بدون ابتسامة، وحين أومأت بحماسة التفتت واختفت في الخلف دون أن تنبس بكلمة أخرى.

نظرت حولي سعيدة بمرأى الأطعمة والمشروبات المغلفة، وشعور بالترقب يراودني وأنا أنظر إلى الأشياء التي سأتناولها خلال الساعات المقبلة، وأشعر بالراحة لأن حقيبة ظهري لم تعد مثبتة على جسدي وإنما ملقاة على شرفة المتجر.

أنا هنا... لقد وصلت إلى موقفي الأول... بدا الأمر كأعجوبة... كنت أتوقع قليلاً رؤية غريغ ومات وألبرت في المتجر، لكنني لم أرهم. ذكر الكتيب الإرشادي أن أرض التخييم تبعد ثلاثة أميال، لذا افترضت أنني سأجدهم هناك مع دوغ وتوم اللذين بفضل جهودي لم يتمكنا من اللحاق بي، فقد كانت كينيدي ميدوز مساحة كبيرة من غابات الصنوبر والسهول العشبية على ارتفاع 6200 قدم على نهر ساوث فورك كيرن... لم تكن تلك بلدة، وإنما هي مركز حضري يمتد على مساحة بضعة أميال، ويتكون من متجر ومطعم يدعى غرامبيز ومخيم بدائي.

عادت المرأة حاملة صندوقي ووضعته على الطاولة وقالت:

- تفضلي... إنه الوحيد الذي يحمل اسم فتاة عليه... ولهذا عرفته... وهذه أيضاً.

وناولتني بيدها بطاقة بريدية تناولتها وقرأتها:

- أتمنى أن تكوني قد وصلت إلى هذه النقطة... أريد أن أصبح حبيبك يوماً ما... أحبك... جو.

وعلى الجانب الآخر، توجد صورة لفندق سيلفيا بيتش على ساحل أوريغون حيث نزلنا معاً في إحدى المرات. حدقت في الصورة لبضع لحظات بينما تتدفق داخلي سلسلة من المشاعر: الامتنان لكلمة أتلقاها من أحد

عرفته، والحنين لجو، وخيبة الأمل لأن شخصاً واحداً فقط كتب لي... والألم غير المنطقي لأن ذلك الشخص ليس بول.

اشتريت زجاجتَين من عصير الليمون وشطيرة وكيساً من رقائق بطاطا دوريتوس، وخرجت وجلست على الدرج الأمامي لأتناول الأشياء التي اشتريتها. وبعد قليل، لاحظت صندوقاً في زاوية الشرفة مليئاً بأغراض التخييم والأطعمة وقد كُتب عليه بخط اليد:

صندوق مجاني للمتنزهين في طريق جبال المحيط الهادئ!!!

اترك ما لا تحتاج إليه!

خذ ما تحتاج إليه!

كانت هناك عصا تزلج وراء الصندوق مناسبة لأميرة... فهي بيضاء مع شريط معصم وردي اللون... اختبرتها لبضع خطوات ووجدت ارتفاعها مناسباً... ستساعدني ليس على الثلج فحسب، وإنما في الجداول والمنحدرات الصخرية الكثيرة التي تنتظرني.

مشيت بها لمدة ساعة وأنا أشق طريقي في الطريق الموحل والمتعرج حول المخيم باحثة عن غريغ ومات وألبرت. كان مساء الأحد في يونيو، لكن المكان كان فارغاً تماماً. مررت برجل يحضّر عدة صيد السمك، وزوجين يحملان الشراب حتى وصلت إلى مخيم، ووجدت فيه رجلاً رمادي الشعر وعاري الصدر وقد اسمر بطنه بفعل الشمس يجلس إلى طاولة نزهة ويقرأ كتاباً... رفع رأسه إليّ وأنا أقترب.

- لا بد أنك شيريل الشهيرة ذات حقيبة الظهر الضخمة.

ضحكت موافقة.

مشى نحوي ليصافحني:

- أنا إيد... أصدقاؤك هنا، لكنهم توجهوا إلى المتجر قليلاً... لا بد أنكم لم تلتقوا في الطريق، لكنهم طلبوا مني أن أنتظرك... يمكنك نصب خيمتك هناك إن أحببت، فالجميع مخيم هنا... غريغ وألبرت وابنه. كنا نراهن على من سيصل أولاً... أنت أم الصبيان من الشرق القادمان وراءك.

سألته:

- ومن ربح؟

فكر إيد للحظة وقال ضاحكاً:

- لا أحد... لا أحد منا راهن عليك.

وضعت حقيبتي على طاولة النزهة وخلعتها، ثم تركتها هناك كي لا أضطر إذا أردت حملها مجدداً أن أرفعها عن الأرض بصعوبة.

قال إيد وهو يشير إلى شاحنة ذات سقف يمتد من جانبها مع مطبخ تخييم تحته:

- أهلا بك في مسكني... هل أنت جائعة؟

لم يكن هناك دش في المخيم، لذا بينما كان إيد يعدّ لي الغداء، مشيت نحو النهر لأغتسل وأنا لا أزال مرتدية ملابسي. بدا لي منظر النهر صادماً بعد كل تلك الأراضي القاحلة التي عبرتها، كما أنه لم يكن كأي نهر وإنما كان هائجاً وبارداً كالثلج؛ كدليل واضح وقاطع على وجود الثلج الغزير في أعالي الجبال. كما كان التيار سريعاً للغاية، حيث تصعب السباحة فيه، لذا مشيت على ضفته حتى وجدت بركة بالقرب من حافة النهر وغصت فيها، فآلمتني قدماي من الماء البارد وتخدرتا. جثمت وبللت شعري المتسخ، ثم رششت حفنات من الماء تحت ملابسي لأغسل جسمي. وكنت أشعر بالحماسة لخوض النقاشات التي ستتم خلال الأيام القادمة.

وحين انتهيت، مشيت على الضفة وعبرت مرجاً واسعاً ورطباً ومبللاً، حيث استطعت رؤية إيد عن بعد. وبينما كنت أقترب، شاهدته وهو ينتقل من مطبخ المخيم إلى طاولة النزهات حاملاً أطباق الطعام بيديه وعبوات الكاتشب والخردل وعلب المياه الغازية. لم أكن قد تعرفت عليه إلا منذ بضع دقائق، لكن وكما هي الحال مع الرجال الآخرين الذين التقيتهم، بدا مألوفاً بالنسبة لي؛ وشعرت أنه بإمكاني الوثوق به. جلسنا مقابل بعضنا، حيث أخبرني عن نفسه؛ إذ إنه يبلغ الخمسين من العمر... وهو شاعر هاوٍ، ومتشرد في المواسم، ومطلق وليس لديه أطفال. حاولت أن آكل ببطء مثله؛ فأقضم حين يفعل هو ذلك– كما حاولت سابقاً أن أمشي بسرعة غريغ– لكنني لم أستطع القيام بذلك، فقد كنت أتضور جوعاً. التهمتُ قطعتي نقانق وكومة من الفاصولياء وكومة أخرى من رقائق البطاطا في لحظات، ثم جلست جائعة وأنا أتمنى الحصول على المزيد، في حين تناول إيد طعامه ببطء بالغ، وتوقف ليفتح مذكراته ويقرأ بعض القصائد التي كتبها في اليوم السابق. كان يقيم في

سان دييغو معظم السنة، ولكنه في كل صيف يقوم بالتخييم في كينيدي ميدوز ليلتقي المتنزهين على طريق جبال المحيط الهادئ حين يمرون به.

صاح إيد مخاطباً الرجال حين عادوا من المتجر:

- انظروا هنا يا رفاق... لقد خسرنا جميعنا الرهان.

فاعترض غريغ وهو يقترب ليضغط على كتفيّ:

- لم أخسر، فقد راهنت بمالي عليك يا شيريل.

لكن الآخرين اعترضوا على مزاعمه.

جلسنا حول طاولة النزهات، وتكلمنا عن الطريق، ثم تفرقوا جميعهم لأخذ قيلولة... إيد إلى شاحنته، وغريغ وألبرت ومات إلى خيمهم، بينما بقيت أنا جالسة إلى طاولة النزهة وأنا أشعر بإثارة كبيرة تمنعني من النوم. بحثت بين محتويات الصندوق الذي كنت قد ملأته قبل أسابيع، ففاحت منه رائحة عالم بعيد؛ ذلك العالم الذي عشت فيه منذ زمن وفيه أكياس مغلفة من الطعام؛ كما فاحت من القمصان رائحة منظف الخزامى الذي اشتريته من المتجر القريب في مينابوليس بالإضافة إلى كتابين جديدين.

قمت البارحة بإحراق غلاف الكتاب الذي معي والصفحات التي قرأتها منه وأنا أشعر بالألم يعتصرني، لكنني مضطرة لذلك. فلطالما أحببت الكتب في حياتي السابقة لرحلتي على طريق جبال المحيط الهادئ، أما على الطريق فقد أصبح لها معنى أكبر؛ فهي العالم الذي بإمكاني فقدان نفسي فيه حين أصبح العالم الذي أعيش فيه قاسياً ووحيداً ولا يحتمل. وحين خيمت في المساء، سارعت في إنجاز مهمات نصب الخيمة وتنقية المياه وطهي العشاء لأتمكن من الجلوس في ما بعد في خيمتي على كرسيي وبين ركبتيّ وعاء الطعام الساخن. تناولت الطعام بملعقتي بإحدى يديّ، بينما أمسكت بكتاب باليد الأخرى، وقرأت على ضوء المصباح حين هبط الظلام. فخلال الأسبوع الأول من الرحلة، كنت مرهقة غالباً، حيث كنت أقرأ أكثر من صفحة أو اثنتين قبل أن أستغرق في النوم. لكن، حين ازدادت قوتي بدأت أقرأ أكثر لأهرب من ضجر أيامي. وفي كل صباح، كنت أحرق ما قرأته في الليلة السابقة.

وحين أمسكت بمجموعة القصص القصيرة خرج ألبرت من خيمتهوقال:

- يبدو لي أنه بإمكانك التخلي عن بعض الأشياء... أتريدين بعض المساعدة؟

قلت مبتسمة:

- في الواقع، نعم.

- حسناً إذاً... هذا ما أريد منك أن تفعليه... وضبي الأشياء وكأنك ستمشين القسم القادم من الطريق فقط.

ومشى نحو النهر حاملاً فرشاة أسنان كسر عودها ليخفف من الوزن.

بدأت العمل، ودمجت القديم بالجديد بينما سيطر علي شعور بأنني أتجاوز اختباراً سأفشل فيه. وحين أنهيت، عاد ألبرت وأفرغ حقيبتي، ووضع كل غرض في واحدة من كومتين... كومة عادت إلى حقيبتي، وكومة وضعها في صندوق المؤونة الجديد الفارغ الذي يمكنني إرساله بالبريد إلى الوطن أو تركه في الصندوق المجاني المخصص للمتنزهين على طريق جبال المحيط الهادئ الموضوع على عتبة متجر كينيدي ميدوز ليستفيد منه الآخرون. ووضع في الصندوق المنشار القابل للطي والمنظار الصغير وفلاش آلة التصوير التي لم أستخدمها بعد. وبينما كنت أنظر، وضع ألبرت جانباً مزيل رائحة التعرق الذي كنت أظنه سيفيدني، وآلة الحلاقة التي أحضرتها ظناً مني أنني سأحلق ساقيّ وتحت إبطيّ...

سألني ألبرت:

- هل تحتاجين إليها؟

ألبرت رجل الكشافة الأب الذي كسر عود فرشاة أسنانه لكنه يحمل كتاباً مقدساً بحجم الجيب في حقيبته نظر إليّ بوجه جامد كالحجر ممسكاً بآلة الحلاقة.

- لا.

كدت أموت خزياً، لكنني حين حزمت أغراضي بدت لي فكرة إحضارها أمراً منطقياً... وذلك قبل أن تتشكل لدي أية فكرة عما قد يحصل لجسمي من جراء المشي على طريق جبال المحيط الهادئ. فأنا لم أرَ نفسي منذ أن كنت في الفندق في ريدجكريست. لكن، بعد أن ذهب الرجال لأخذ قيلولة استغللت الفرصة ونظرت إلى نفسي في المرآة الجانبية لشاحنة إيد، حيث بدوت

مسمرة وقذرة على الرغم من اغتسالي قبل قليل في النهر، كما أصبحت نحيلة وشعري الأشقر أفتح.

لم أبدُ كامرأة قد تحتاج إلى آلة حلاقة.

لكن ألبرت لم يتوقف ليفكر في مثل هذه الأمور... سواء أكنت جميلة أو لا، وإنما استمر بالبحث في حقيبتي وهو يسألني في كل مرة قبل أن يرمي غرضاً آخر كنت قد ظننته ضرورياً في الكومة التي سأتخلص منها. وكنت في كل مرة يحمل فيها غرضاً أهز رأسي موافقة على التخلص منه، على الرغم من أنني عارضت التخلص من الكتابين ومن دفتر مذكراتي الذي سجلت فيه كل شيء فعلته ذلك الصيف.

سألني ألبرت حين أنهى عمله:

- إذاً، ما الذي جاء بك إلى هنا؟

وجلس على مقعد النزهة وقد شبك ذراعيه أمامه.

- لأمشي على طريق جبال المحيط الهادئ.

أومأ وراقبني وأنا أحشر الأغراض الكثيرة التي اتفقنا على إبقائها في حقيبتي، وقال بسرعة قبل أن أتمكن من سؤاله:

- سأخبرك عن سبب قيامي بهذا. لقد كان هذا حلمي طوال حياتي، فحين سمعت عن الطريق فكرت أنه أمر أرغب بالقيام به قبل أن أموت، لكن ماذا عنك يا فتاة؟ فلدي نظرية مفادها أن معظم الناس لديهم سبب... شيء ما قد دفعهم إلى هنا.

قلت بتردد:

- لا أدري.

إذ لم أكن أرغب بإخبار رجل كشافة من جورجيا في الخمسين من العمر عن السبب الذي جعلني أقرر المشي وحدي في الغابات لثلاثة أشهر؛ مهما بدت عيناه لطيفتين حين يبتسم. فالأمور التي دفعتني للتنزه على هذا الطريق ستبدو سخيفة بالنسبة له، ومليئة بالشكوك بالنسبة لي... أي لن تكشف لكلينا إلا عن مدى ضعف هذه المحاولة برمتها.

قلت:

- السبب الرئيس هو أنني ظننت أن الأمر سيكون مرحاَ.

- أتدعين هذا مرحاً؟

وضحكنا كلانا.

التفتُّ وأتكأت على الوحش، ثم أدخلتُ ذراعيّ تحت الحمالتين وقلت وأنا أحزمها حول خصري:

- لنرَ إن أحدثنا أي فرق.

وحين رفعتها عن الطاولة شعرت بالذهول من خفّة وزنها؛ حتى وهي ممتلئة بالكامل بفأس الجليد ومؤونة جديدة من الطعام تكفي لأحد عشر يوماً. فالتفت إلى ألبرت مبتهجة، وقلت له:

- شكراً.

ضحك وهز رأسه.

مشيت بعيداً بابتهاج وحملت حقيبة ظهري في رحلة تجريبية على الطريق الموحل الملتف حول المخيم. ومع ذلك، كانت حقيبتي لا تزال الكبرى. لكن بالمقارنة مع ضخامتها سابقاً قبل أن يساعدني ألبرت في تخفيف محتوياتها، بدت خفيفة جداً؛ لدرجة أنني أحسست أنه بإمكاني القفز في الهواء وأنا أحملها. لذا، في منتصف الطريق توقفت وقفزت.

لم أرتفع عن الأرض سوى بوصة، لكنني على الأقل استطعت القيام بذلك.

ناداني صوت حينها:

- شيريل؟

فنظرت إلى الأعلى، ورأيت شاباً وسيماً يحمل حقيبة ظهر ويمشي باتجاهي.

- دوغ؟

لوّح بيديه، ومشى نحوي مباشرة، وسحبني إليه وعانقني.

- لقد قرأنا اسمك في السجل، وكنا نحاول الوصول إليك.

تلعثمت متفاجئة من حماسته ومظهره الحسن:

- ها أنذا. جميعنا مخيمون هناك... هناك مجموعة منا... أين صديقك؟

- سيصل حالاً.

وصفر مجدداً بدون سبب ليذكِّرني بجميع الفتيان المميزين الذين عرفتهم في حياتي... إنه وسيم، وواثق من مكانته في القمة، وواثق من أن العالم له، وأنه بأمان فيه دون أن يكون هناك من يعتبره خلاف ذلك. وحين وقفت بجواره، شعرت أنه في أي لحظة سيمسك بيدي لنقفز معاً عن قمةٍ، ونضحك ونحن نسقط إلى الأسفل.

وحين رأينا شخصاً قادماً من بعيد قال دوغ:

- توم!

مشينا معاً نحوه لأرى من بعيد أن توم نقيض دوغ الجسدي والروحي. فهو هزيل وشاحب ويضع نظارة، كما أن الابتسامة المرسومة على وجهه حذرة وعن غير قناعة.

وحين اقتربنا منه قال وهو يمد يده ليصافحني:

- مرحباً.

وخلال بضع دقائق، وصلنا إلى مخيم إيد، حيث تبادلنا معلومات مشتتة حول هوياتنا وأصلنا. فقد كان توم في الرابعة والعشرين ودوغ في الحادية والعشرين، وهما من شرق أوهايو وشمال واشنطن العاصمة. وخلال الأيام القليلة القادمة سأعرف كل شيء عنهما... كيف أن ذويهم جراحون ومحافظون ومديرون ماليون، وكيف أنهما درسا في مدارس داخلية ذات شهرة عظيمة لدرجة أنني أعرف اسمها، وكيف كانا يمضيان عطلاتهما في جزر خاصة في ساحل مين، ويمضيان عطلات الربيع في فيل. لكنني لا أعرف حتى الآن كيف أن حياتيهما بدا من المتعذر فهمها بالنسبة لي، وكيف أن حياتي بدت كذلك بالنسبة لهما. فكل ما أعرفه هو أنهما كانا الأقرب إليّ بطريقة أو بأخرى؛ فهما ليسا خبيرَي رحلات في المشي أو مطلعين على طريق جبال المحيط الهادئ، كما أنهما لم يمشيا كامل الطريق من المكسيك، ولم يخططا للرحلة منذ عشر سنوات، كما أن المسافة التي قطعاها حتى الآن تركتهما محطمين كما تركتني؛ إلا أنهما وبسبب ذهابهما معاً لم يمضيا أياماً دون رؤية إنسان آخر، كما بدت حقيبتاهما بحجم معقول؛ حيث شككت في أن يكونا

يحملان منشاراَ قابلاً للطي. وفي اللحظة التي التقت فيها عيناي عيني دوغ، عرفت أنه على الرغم من كل ثقته وراحته مرّ بشيء ما. وحين تناول توم يدي ليصافحني استطعت أن أقرأ تعبيراً واحداً على وجهه: علي خلع ذلك الحذاء من قدمي.

بعد لحظات، خلع حذاءه وهو جالس على مقعد النزهة بعد وصولنا إلى المخيم، وتجمع الرجال للتعريف عن أنفسهم. شاهدت توم وهو يخلع جوربيه القذرين ليخرج معهما جلده وشيء من لحمه، فبدت قدماه كقدميّ بيضاوين ومغطاتين بجروح دامية، حيث انكشط الجلد وظل متعلقاً بالقدم بشكل مؤلم. خلعت حقيبة ظهري، وفتحت جيباً لإخراج حقيبة الإسعافات الأولية.

سألت توم وأنا أناوله لصاقة ترميم البشرة:

- هل جربت هذه؟ لقد أنقذتني. لا أدري إن كنت سأستطيع الاستمرار بدونها.

نظر إليّ توم بيأس، وأومأ دون توضيح، فوضعت لصاقتين على المقعد بجانبه.

- يمكنك استخدامهما إن أحببت.

قال إيد وهو ينظر إلى ساعة يده:

ظننا أننا سنذهب جميعنا إلى غرامبي في تمام الساعة السادسة. أمامنا ساعتان وسأوصلكم جميعاً بسيارتي. في هذه الأثناء، يسعدني تحضير وجبة خفيفة لكما أيها الفتيان.

جلس الرجلان إلى طاولة النزهات يتناولان رقائق البطاطا والفاصولياء التي أعدها إيد، وتكلما عن سبب اختيارهما حقيبتيهما، وعن مزايا كل واحدة منهما ومساوئها. ثم أخرج أحدهم ورق اللعب وبدأوا باللعب، في حين تصفح غريغ الكتيب الإرشادي في نهاية الطاولة بالقرب مني، فيما جلست بجانب حقيبة ظهري سعيدة بتحولها؛ فالجيوب التي كانت مليئة وتكاد تنفجر أصبحت فيها بعض الفراغات.

وحين رأى ألبرت نظراتي لحقيبة ظهري قال لي ضاحكاً:

- لقد اتبعت تعاليم راي جاردان التي تعنى بشكل خاص بوزن الحقيبة.

أضاف غريغ:

- إنه الشاب الذي كنت أخبرك عنه.

أومأت محاولة إخفاء جهلي وقلت:

- سأستعد للعشاء.

واتجهت إلى طرف المخيم حيث نصبت خيمتي، ثم زحفت للداخل واستلقيت على حقيبة النوم محدقة بسقف النايلون الأخضر، وأنا أنصت لتمتمة حديث الرجال وضحكاتهم. كنت سأذهب إلى مطعم مع ستة رجال وليس لدي ما أرتديه إلا ما أرتديه الآن... أي القميص القطني الذي ارتديته فوق حمالة صدر رياضية وسروال قصير بلا شيء تحته. وفجأة، تذكرت القميص القطني الجديد الذي كان موجوداً في الصندوق، فجلست وارتديته. وعندها وجدت ظهر القميص الذي كنت أرتديه منذ موهافي ملطخاً بكامله باللون الأصفر البني من الحمام المستمر للعرق الذي تعرض له. كومته ككرة وحشرته في زاوية الخيمة لأرميه في المتجر في ما بعد. وباقي الملابس الأخرى التي معي هي تلك التي أحضرتها للطقس البارد. تذكرت القلادة التي كنت أرتديها ثم خلعتها حين اشتد الحر ولم أعد أحتملها فوجدتها في الحقيبة الصغيرة التي وضعت فيها رخصة القيادة والنقود فوضعتها. كانت عبارة عن قرط أذن فضي وفيروزي كان لأمي، وبعد أن فقدت القرط الآخر علقته بسلسلة فضية ناعمة وأحضرته معي لأنه كان لأمي، وبقاؤه معي له معنى خاص. أما الآن فأنا سعيدة لكونه معي؛ ببساطة لأنني شعرت أنني أجمل. مررت أصابعي في شعري، وحاولت تشكيله قليلاً بمساعدة مشطي الصغير؛ لكنني في النهاية استسلمت وأعدته إلى وراء أذنيّ.

كان من الطبيعي أن أبدو بهذا المظهر، وأشعر بهذا الإحساس، وتفوح مني هذه الرائحة؛ فأنا في كل الأحوال– حسب ما أشار إيد– الفتاة الوحيدة في الغابة مع عصابة من الرجال. وبحكم الضرورة هنا على الطريق، شعرت أنه علي التعامل بحيادية مع الرجال الذين التقيتهم؛ بكوني واحدة منهم لأكثر درجة ممكنة.

لم أكن هكذا قط في حياتي... لذا، فالتعامل مع الرجال بعدم مبالاة وعدم اكتراث لم يبدُ أمراً من السهل احتماله وأنا أجلس في خيمتي بينما يلعب الرجال الورق. فأنا فتاة معتادة على نقاط قوتي التي تمنحني إياها أنوثتي، وأعتمد عليها. أما كبت نقاط القوة تلك فلا يمنحني سوى وخز قوي في داخلي؛ إذ إن كوني واحدة من الرجال يعني أنه لا يمكنني أن أظل امرأة وأكتسب خبرة في الاختلاط بالرجال. فهذه نسخة عن نفسي أجربها لأول مرة منذ أن كنت طفلة في الحادية عشرة من العمر. فأنا أشعر بقوة هائلة حين

يلتفت الرجال البالغون وينظرون إلي أو يصفرون أو يقولون لي: «مرحباً أيتها الفتاة الجميلة» بصوت مرتفع لأسمعهم... أنا الفتاة التي عملت على العناية بنفسها طوال المرحلة الثانوية؛ حيث جوّعت نفسي لأصبح نحيلة ومحبوبة ومرغوبة... الفتاة التي اعتنت بمظهرها خلال سنوات شبابها وهي تجرب أزياء مختلفة... الفتاة التي تجد في كل زوج مثير من الأحذية أو تنورة قصيرة مثيرة أو تسريحة شعر بوابة تقود إلى أصغر نسخة حقيقية عني.

أما الآن فهناك نسخة واحدة فقط. فعلى طريق جبال المحيط الهادئ ليس أمامي خيار سوى الاستسلام لها بالكامل، وإظهار وجهي القذر للعالم بكامله الذي يتكون حالياً من ستة رجال فقط.

ناداني صوت دوغ بهدوء من على بعد بضع أقدام:

- شيريييل... هل أنت في الداخل؟

- نعم.

- سنذهب إلى النهر... تعالي معنا.

- حسناً.

ثم زحفت من خيمتي ومشيت نحو النهر.

كان دوغ وتوم وغريغ يمشون في بقعة ضحلة حيث نظفت جسدي قبل بضع ساعات، ووراءهم كان النهر هائجاً. فكرت في الثلج الذي سيعترض طريقي قريباً في حال استمررت مع فأس جليدية لا أعرف بعد كيف أستخدمها وعصا التزلج البيضاء ذات شريط المعصم وردي اللون التي حصلت عليها بالصدفة. ولم أكن قد فكرت في ما سألقاه على الطريق، وإنما أنصتُّ وأومأت حين أخبرني إيد أن معظم المتنزهين على طريق جبال المحيط الهادئ الذين وصلوا إلى كينيدي ميدوز خلال الأسابيع الثلاثة منذ أن قام بالتخييم اختاروا الابتعاد عن الطريق في هذه النقطة بسبب الثلج المتراكم الذي جعل عبور الطريق لحوالي أربعمائة أو خمسمائة ميل أمراً صعباً؛ حيث استقلوا الحافلات ليعودوا إلى طريق جبال المحيط الهادئ بعد مسافة شمالاً في ارتفاع منخفض، وكان بعضهم يخططون للعودة في وقت لاحق من الصيف للتنزه في القسم الذي فاتهم، في حين قرر بعضهم ترك ذلك القسم. كما قال لي إن البعض قد ألغوا رحلتهم بالكامل كما أخبرني غريغ سابقاً بنية التنزه على طريق جبال المحيط الهادئ في سنة أخرى أقل ثلجاً، في حين أن البعض شقوا طريقهم مصممين على الاستمرار عبر الثلوج.

وبفضل حذائي المفتوح رخيص الثمن، قطعت طريقي فوق الصخور المحاذية للنهر نحو الرجال عبر المياه الباردة جداً لدرجة أن عظامي آلمتني.

قال دوغ حين وصلت إليه:

- معي شيء لك.

ومد لي يده وناولني ريشة متألقة بطول قدم.

سلته أألته وأنا أتناولها:

- لماذا؟

- للحظ.

ولمس ذراعي.

وحين أبعد يده، أحسست بحرق مكان لمسته، وأدركت أنني لم أتواصل مع أحد خلال الأيام الأربعة عشر الماضية وكم كنت وحيدة.

قلت وأنا أمسك بالريشة:

- لقد كنت أفكر في الثلج... الناس الذين عبروا، لقد كانوا جميعهم هنا قبلنا بأسبوع أو اثنين، أي أن الكثير من الثلج ذاب منذ ذلك الحين، لذا قد يكون الأمر على ما يرام.

نظرت إلى غريغ ثم إلى الريشة السوداء وأنا أداعبها.

قال غريغ وهو يرمي حجراً في النهر:

- عمق الثلج في هضبة بيغهورن في الأول من يونيو أكثر من ضعف عمقه في اليوم نفسه من السنة السابقة، أي أن أسبوعاً واحداً لن يحدث الكثير من الفرق من هذه الناحية.

أومأت وكأنني أعلم أين تقع هضبة بيغهورن أو ما الذي يعنيه أن يكون عمق الثلج ضعف ما كان عليه في السنة الماضية. شعرت بأنني مزيفة؛ وكأنهم المتنزهون الحقيقيون على طريق جبال المحيط الهادئ وأنا أمر بهم فحسب، أو وكأنه بسبب انعدام خبرتي وعدم قراءتي أي صفحة كتبها راي جاردان وبطئي الشديد واعتقادي أنه من المنطقي أن أحمل منشاراً قابلاً

للطي فإنني لم أمش فعلاً إلى كينيدي ميدوز من ممر تيهاشابي وإنما تم حملي.

لكنني مشيت إلى هنا ولم أكن مستعدة للتخلي عن رؤية سيرا بعد، فقد كانت سيرا في أكثر قسم كنت أتشوق له، فجمالها الأخاذ حاز على تمجيد مؤلف كتاب «طريق جبال المحيط الهادئ. المجلد الأول: كاليفورنيا»، وتخليد محب الطبيعة جون موار في الكتب التي كتبها قبل قرن من الزمن؛ إذ إنها قمم ترتفع حوالي 13000 و14000 قدم، وتحوي بحيرات صافية وباردة، ووديان عميقة؛ مما يجعلها الأهم للتنزه على طريق جبال المحيط الهادئ في كاليفورنيا، كما أن المرور بها سيؤدي إلى فوضى في التخطيط لأنني إن تجاوزت جبال سيرا المرتفعة فسأصل إلى آشلاند قبل شهر من الموعد الذي كنت أخطط له.

قلت وأنا ألوح بالريشة بتباهٍ:

- سأكمل الطريق في حال كان ذلك ممكناً.

لم تعد قدماي تؤلمانني، فقد تخدرتا في المياه المتجمدة.

قال دوغ:

- حسناً... أمامنا حوالي أربعين ميلاً لنعبث بها قبل أن تصبح الرحلة شاقة... من هنا إلى تريل باس حيث يوجد طريق يتقاطع مع طريق جبال المحيط الهادئ ويؤدي إلى مخيم. يمكننا المشي حتى هناك على الأقل لنرى كيف تسير الأمور وكمية الثلج المتراكم، ثم نتوقف هناك في حال رغبنا.

سألت:

ما الذي تفكر فيه يا غريغ؟

إذ كنت أنوي أن أفعل مثله مهما كان ما سيفعله.

أومأ وقال:

- أظن أن تلك خطة جيدة.

- هذا ما سأقوم به. سأكون على ما يرام؛ إذ إن معي فأس الجليد.

نظر إلي غريغ:

- أتعرفين كيف تستخدمينها؟

وفي الصباح التالي، قام بتعليمي، حيث قال وهو يمرر يده على طول الفأس:

- هذه القصبة.

ثم لامس بإصبعه النهاية الحادة وقال:

- وهذا المسمار... وفي الطرف الآخر هناك الرأس.

حاولت ألا أنفجر ضحكاً كطالبة في الصف الثامن، لكنني لم أستطع كبح نفسي.

كان يتكلم بنبرة وكأنه يفترض أنني أعرف كل شيء وهو يقوم بمراجعة النقاط الأساسية فحسب قبل أن نبدأ، واستمررنا في التدريب حيث بدأت العمل ورميت نفسي مراراً وتكراراً على المنحدر الموحل متظاهرة أنني أنزلق على الجليد، وكنت في كل مرة أغرز حافة الفأس في التربة، بينما يراقبني غريغ ويعطيني التعليمات وينتقد التقنيات التي أستخدمها.

كان دوغ وتوم يجلسان بالقرب منا متظاهرين أنهما لا يعيراننا أي انتباه، في حين استلقى ألبرت ومات على مشمع كنا مددناه لهما تحت ظل شجرة بالقرب من شاحنة إيد؛ إذ إنهما مريضان للغاية حيث لا يمكنهما المشي. كانا قد استيقظا في منتصف الليل مريضين، مما جعلنا جميعنا نظن أنه مرض سببه طفيلي موجود في الماء ويتسبب بالإسهال والغثيان، ويحتاج إلى وصفة طبية ليتم علاجه، وغالباً ما يعني التوقف عن الرحلة لأسبوع أو أكثر. كان ذلك هو السبب الذي يدفع المتنزهين على طريق جبال المحيط الهادئ لقضاء الكثير من الوقت في الحديث حول منقيات المياه ومصادر المياه خوفاً من ارتكاب خطأ ما ودفع الثمن باهظاً. لم أكن أعلم من أين التقط ألبرت ومات ما أصيبا به، لكنني كنت أدعو ألا أكون مصابة بالشيء نفسه. وبحلول وقت متأخر في المساء اجتمعنا جميعنا حولهما، حيث كانا مستلقيين شاحبين وواهنين، وبدأنا نقنعهما بأنه من الضروري أن يذهبا إلى المشفى في ريدجكريست. ونظراً إلى ضعفهما الشديد لم يعارضا، وإنما شاهدانا ونحن نوضب أغراضهما ونضعها في مؤخر شاحنة إيد.

وحين بقيت للحظة مع ألبرت وحدنا قلت له:

- شكراَ لك على مساعدتي في التخفيف من ثقل حقيبتي... ما كنت لأتمكن من فعل ذلك وحدي.

ابتسم لي بوهن وأومأ فقلت:

- بالمناسبة... أريد إخبارك بسبب قراري أن أتنزه على طريق جبال المحيط الهادئ... لقد تطلقت... كنت متزوجة وتطلقت قبل فترة وجيزة، كما أن أمي توفيت قبل أربع سنوات وهي في الخامسة والأربعين من عمرها حيث أصيبت بالسرطان وتوفيت فجأة... لقد كانت فترة عصيبة من حياتي وشعرت بالضياع لذا... فكرت أن هذه الرحلة ستساعدني على تحديد مركزي.

لوحت بيديّ وأنا متفاجئة لأنني أفصحت عن الكثير من أموري الخاصة.

أشرق وجهه على الرغم من الغثيان الذي يشعر به وهو ينهض ويمشي ببطء نحو شاحنة إيد ليجلس بجوار ابنه، بينما تسلقت إلى مؤخر الشاحنة بجانب حقيبتيهما وصندوق الأشياء التي لم أعد أحتاج إليها وبقيت معهما حتى وصلت إلى المتجر الذي توقف إيد عنده لبضع لحظات فقفزت مع الصندوق ولوّحت لألبرت ومات متمنية لهما الحظ والتوفيق.

شعرت بتدفق العواطف وأنا أشاهدهم يبتعدون، فإيد سيعود خلال بضع ساعات، لكنني في الغالب لن أرى ألبرت ومات مجدداً؛ حيث سأمشي غداً مع دوغ وتوم، وفي الصباح سأودع إيد وغريغ أيضاً، إذ سيبقى غريغ في كينيدي ميدوز ليوم آخر، وعلى الرغم من أنه بالتأكيد سيلحق بي لكنها ستكون زيارة خاطفة وسيرحل هو أيضاً من حياتي.

مشيت نحو شرفة المتجر ووضعت كل شيء في صندوق المتنزهين على طريق جبال المحيط الهادئ، باستثناء المنشار القابل للطي، وفلاش الكاميرا عالي الدقة، والمنظار الصغير؛ حيث أعدتها إلى صندوق المؤونة القديم وأرسلتها إلى ليزا في بورتلاند. وبينما كنت أغلق الصندوق باللاصق الذي أعارني إياه إيد راودني شعور بأن شيئاً ما ينقصني.

وبينما كنت أمشي في الطريق عائدة إلى المخيم فكّرت في سري: لقد ذهبت كلها.

القسم الثالث

سلسلة النور

نحن الآن في الجبال وهي فينا...

جون موار

أول صيف لي في سيرا

في حال خانتك أعصابك تجاوزها.

إيميلي ديكنسون

8

علم الغربان

تدعى كينيدي ميدوز بوابة سيرا المرتفعة. وفي صباح اليوم التالي، مشيت باكراً عبر تلك البوابة بصحبة دوغ وتوم لربع ميل، لكنني بعدها توقفت وطلبت منهما أن يكملا طريقهما لأنني أريد إخراج شيء من حقيبتي؛ فتعانقنا وتمنينا لبعضنا حظاً طيباً وودعنا بعضنا للأبد لخمس عشرة دقيقة، ثم اتكأت على صخرة ضخمة لأرفع بعضاً من ثقل الوحش عن ظهري وأنا أشاهدهما يبتعدان.

بعد أن غادرا شعرت بالاكتئاب؛ على الرغم من أنني شعرت ببعض الراحة حين تلاشيا بين الأشجار القاتمة. لم أكن أريد الحصول على شيء من حقيبة ظهري، لكنني أردت البقاء وحدي، فالوحدة تشعرني بالراحة دائماً؛ كما لو أنها ليست حالة وإنما هي مكان يمكنني اللجوء إليه لأكون على طبيعتي. لكن هذا الشعور تغير مع وحدتي المتزايدة على طريق جبال المحيط الهادئ، إذ لم تعد الوحدة مكاناً وإنما أصبحت العالم بأسره، وأنا الآن وحيدة في ذلك العالم، حيث أسكنه بطريقة لم أفعلها من قبل. فالحياة على ذلك النمط من دون سقف فوق رأسي جعلتني أشعر أن العالم أكبر وأصغر في الوقت ذاته. وحتى الآن لم أفهم فعلاً حجم العالم، ولم أفهم حتى كم هو الميل إلى أن أقطع كل ميل مشياً على الأقدام. كما كنت أواجه مشكلة معاكسة؛ وهي الألفة الغريبة التي بدأت تنشأ بيني وبين الطريق... كيف بدت لي أشجار الصنوبر والأزهار التي مررت بها في ذلك الصباح والجداول الضحلة التي عبرتها مألوفة ومعروفة؛ على الرغم من أنني لم أمر بها أو أقطعها من قبل.

مشيت في برد الصباح على صوت نقر عصا التزلج البيضاء الجديدة على الطريق، وأنا أشعر بثقل الوحش الذي تناقص وزنها لكنها ما زالت ثقيلة. حين انطلقت في ذلك الصباح ظننت أن رحلتي ستكون مختلفة، وأن المشي سيصبح أكثر سهولة؛ فحقيبتي أصبحت أخف وزناً، ليس بفضل جهود ألبرت وإنما لأنني لم أعد بحاجة إلى حمل أكثر من عبوتي مياه؛ لأنني وصلت إلى منطقة أقل جفافاً. إلا أنني بعد ساعة ونصف الساعة توقفت لأرتاح وأنا أشعر بالآلام المعتادة، وفي الوقت نفسه شعرت أن جسدي قد أصبح أقوى كما وعدني غريغ أنه سيحصل.

كان ذلك هو اليوم الأول من الأسبوع الثالث، وهو الأسبوع الأخير من يونيو؛ أي أنني دخلت فصل الصيف وقد بدأت بصعود براري سيرا الجنوبية. وخلال الأميال الأربعين بين كينيدي ميدوز وتريل باس علي الصعود من ارتفاع 6100 قدم إلى 11000 قدم. وحتى في حرارة ظهر ذلك اليوم على الطريق كنت أشعر ببرودة في الجو ستغلفني في الليل بلا شك. لم يكن هناك مجال للشك في أنني الآن في سيرا... سلسلة النور المحبوبة لدى موار. مشيت تحت أشجار قاتمة وضخمة غطت النباتات الأصغر تحتها بظل تام، وعبرت مروجاً عشبية من الأزهار البرية. كما عبرت فوق جداول من الثلج الذائب بالقفز من صخرة لأخرى بمساعدة عصا التزلج، لكن سيرا نيفادا بدت غير قابلة للتسلق على الأقدام. فكلما انعطفت وألقيت نظرة على القمم البيضاء شككت بقدراتي؛ حيث كنت أتذكر المسافة التي علي قطعها فأفقد إيماني بأنني سأصل إلى هناك.

وبين الحين والآخر، كانت آثار أقدام دوغ وتوم تظهر لي على الطريق الموحل والرملي. وبحلول منتصف النهار، التقيتهما وهما يجلسان بالقرب من جدول، وقد ظهرت المفاجأة على وجهيهما حين مشيت نحوهما، فجلست بجوارهما وشربت الماء ثم ثرثرنا قليلاً.

قال توم قبل أن يكملا طريقهما:

- ينبغي أن تخيمي معنا الليلة في حال لحقت بنا.

- لقد لحقت بكما.

وضحكنا.

في ذلك المساء، مشيت إلى السهل الصغير حيث نصبا خيمتيهما. وبعد العشاء، تشاركا معي زجاجتي الشراب اللتين اشترياهما من كينيدي ميدوز؛ حيث أعطياني رشفات ونحن جالسون في الوحل.

في اليوم التالي، وبينما كنت أمشي وحدي، مررت بشريط عريض من الثلج يقطع الطريق... كان يشبه المنزلق الصخري لكنه مخيف أكثر؛ فهو كنهر من الجليد لا الحجارة، أي أنني في حال انزلقت وأنا أحاول عبوره فسأنزلق على طرف الجبل وأقع على الصخور الضخمة في الأسفل، أو ربما أسقط في الهاوية العميقة. أما إن لم أكن أريد محاولة عبوره فعلي العودة إلى كينيدي ميدوز، ولم تبد تلك فكرة سيئة.

تباً... تباً... أخرجت فأس الجليد، وتفحصت طريقي، فتمكنت من رؤية أن دوغ وتوم قد عبراه مخلفين آثار أقدامهما على الثلج. أمسكت بفأس الجليد كما علمني غريغ، وخطوت إلى أحد آثار الأقدام حاملة الفأس الثقيلة التي بدت لي كعبء لا كمعين. كان الثلج مختلفاً عن الثلج في مينيسوتا؛ ففي بعض الأماكن يشبه الجليد أكثر من الثلج، كما أنه كثيف حيث ذكرني بطبقة الجليد الصلبة في ثلاجة تحتاج إلى التنظيف. وفي أماكن أخرى كان طرياً وهشاً.

لم أنظر إلى الصخور الضخمة في الأسفل حتى وصلت إلى الجانب الآخر من الثلج، ووقفت على الطريق الموحل وأنا أرتجف ولكنني سعيدة. كنت أعلم أن تلك الرحلة الصغيرة مجرد عينة عما ينتظرني، وإن لم أترك الطريق عند تريل باس لتجاوز الثلج فسأصل قريباً إلى فوريستر باس على ارتفاع 13160 قدماً؛ وهي أعلى نقطة على طريق جبال المحيط الهادئ، وإن لم أنزلق عن جانب الجبل وأنا أعبر ذلك الطريق فسأمضي الأسابيع القليلة التالية بين الثلوج التي ستكون أكثر غدراً من قطعة الثلج التي قطعتها للتو، لكن عبورها جعل ما ينتظرني يبدو حقيقياً أكثر بالنسبة لي، حيث عرفت أنه ما من خيار أمامي سوى العبور. لم أكن مستعدة بما فيه الكفاية لأقطع طريق جبال المحيط الهادئ في سنة عادية، فكيف إن كانت سنة تجاوز فيها عمق الثلج ضعفي ما كان عليه في السنة السابقة، حيث لم يمر شتاء مشابه من ناحية الثلج منذ عام 1983، كما لن يكون هناك شتاء آخر لأكثر من عشر سنوات.

كما أن الثلج لم يكن الأمر الوحيد، فهناك أيضاً الأمور المتعلقة بالثلج كالجداول والأنهار الغزيرة التي علي خوضها وحدي، ودرجات الحرارة التي ستعرضني لخطر انخفاض الحرارة، وحقيقة أنه علي الاعتماد بشكل وحيد على خريطتي وبوصلتي لمسافات طويلة حين يكون الطريق مغطى بالثلج؛ وكل هذه الأمور كانت أكثر خطورة لأنني وحدي وليست لدي المعدات اللازمة، كما أنني لا أملك الخبرة والمعرفة. ولأنني كنت وحدي فليس لدي هامش للخطأ، وإن تركت الطريق كمعظم المتنزهين على طريق جبال المحيط الهادئ فسأفقد روعة سيرا العالية، لكنني إن بقيت على الطريق فسأخاطر بحياتي.

قلت لدوغ وتوم ونحن نتناول العشاء:

- سأترك الطريق عند تريل باس. سأتوجه إلى مدينة سيرا وأعود إلى الطريق من هناك.

كنت قد مشيت طوال اليوم وحدي لكنني لحقت بهما مجدداً وهما يخيمان.

قال دوغ:

- قررنا الاستمرار.

أضاف توم:

- تكلمنا عن الموضوع، ونظن أنه عليك الانضمام إلينا.

- أنضم إليكما؟

كنت أرتدي كل الملابس التي معي، فدرجة الحرارة قريبة من درجة التجمد، حيث تحيط بنا المسافات المغطاة بالثلج تحت الأشجار وفي البقع المظللة من الشمس.

قال دوغ:

- من غير الآمن أن تذهبي وحدك.

قال توم:

- لا أحد منا سيذهب وحده.

رددت:

- لكن من غير الآمن لأي منا أن يكمل إلى المناطق المغطاة بالثلوج؛ سواء أكنت وحدي أو معكما.

قال توم:

- نريد تجربة ذلك.

- شكراً... أقدر لكما عرضكما لكنني لا أستطيع.

سألني دوغ:

- لم لا يمكنك؟

- لأن الهدف من رحلتي أن أقوم بها وحدي.

صمتنا لبرهة من الوقت ونحن نتناول عشاءنا، بينما حمل كل واحد منا في يديه المغطاتين بقفازين وعاء دافئاً مليئاً بالأرز أو الفاصولياء. شعرت بالحزن لرفضي، ليس لأنني كنت أعلم أن ذلك يعني أنني سأتجاوز سيرا المرتفعة، وإنما لأنني على الرغم من قولي إنني أريد القيام بهذه الرحلة وحدي فقد ارتحت بصحبتهما؛ فكوني قريبة من دوغ وتوم في الليل أراحني من أن أقول لنفسي «أنا لست خائفة» كلما سمعت طقطقة غصن في الظلام، أو كلما هبت الرياح بقوة، لكنني لست هنا لأمنع نفسي من القول «أنا لست خائفة»، فأنا أتيت لأتغلب على ذلك الخوف ولا يمكنني القيام بذلك وأنا بصحبة الآخرين.

بعد العشاء استلقيت في خيمتي، ووضعت كتاباً على صدري وأنا أشعر بالإرهاق الذي منعني من حمل الكتاب عالياً، فلم أكن أشعر بالبرد والتعب من المشي خلال اليوم، وإنما على هذا الارتفاع أصبح الهواء أكثر خفة، لكنني لم أستطع النوم حيث كنت أفكر في أن تجاوز سيرا المرتفعة سيدمر كل شيء... كل التخطيط الذي قمت به... الطريقة التي خططت بها للصيف بكامله، ولكل صندوق ووجبة، والآن علي القفز فوق 450 ميلاً من الطريق التي كنت أنوي المشي فيها لأصل إلى آشلاند في بداية أغسطس بدلاً من منتصف سبتمبر.

- دوغ؟

ناديت في الظلام، إذ كانت خيمته لا تبعد عن خيمتي سوى ذراع.

- نعم؟

- كنت أفكر أنني إن تجاوزت سيرا يمكنني المشي كل الطريق في أوريغون بدلاً من ذلك.

واستدرت لأواجه خيمته متمنية أن يأتي ويستلقي بجواري في خيمتي هو أو أي أحد آخر... كان ذلك هو الشعور الفارغ النهم نفسه الذي راودني في الفندق في موهافي حين تمنيت أن يكون معي رفيق... ليس أحداً أحبه وإنما أي شخص لألتصق بجسده.

- أتعرف كم طول الطريق في أوريغون؟

- حوالي خمسمائة ميل.

- هذا ممتاز.

وتسارعت نبضات قلبي قبل أن أغمض عينيّ وأغط في نوم عميق.

في المساء التالي، لحق بي غريغ قبل أن أصل إلى طريق تريل باس لأترك طريق جبال المحيط الهادئ.

قلت له بانزعاج:

- سأترك الطريق.

- وأنا أيضاً.

سألته بارتياح وبهجة:

- أنت أيضاً؟

- المكان مغمور بالثلج.

ونزلنا معاً طريق تريل باس لميلين حتى وصلنا إلى مساحة للتنزه ومخيم في هورسشو ميدوز حيث التقينا دوغ وتوم وركبنا سيارة إلى لون باين. لم أكن قد خططت للذهاب إلى هناك، فبعض المتنزهين على طريق جبال المحيط الهادئ يرسلون صناديق المؤونة إلى لون باين، لكنني خططت للاستمرار إلى بلدة إندبندنس التي تبعد خمسين ميلاً نحو الشمال. ومع أنه لا يزال معي طعام يكفي لبضعة أيام لكنني حين وصلت إلى البلدة توجهت مباشرة إلى متجر البقالة لأسد النقص في حقيبتي. كنت بحاجة إلى ما يكفيني للأميال الستة والتسعين التي سأقطعها ما إن أعود إلى الطريق من مدينة سيرا إلى بلدة بيلدن. وبعد ذلك، وجدت هاتفاً مدفوعاً فاتصلت بليزا، وتركت رسالة على آلة الرد الآلية شرحت لها فيها خطتي الجديدة بأسرع ما يمكنني، وطلبت منها إرسال صندوقي إلى بلدة بيلدن مباشرة، وتترك باقي الصناديق حتى أعطيها تفاصيل خط رحلتي الجديد.

حين وضعت سماعة الهاتف شعرت بالاكتئاب والتشرد، ولم أشعر بأي إثارة حول بقائي في البلدة، ومشيت في الشارع الرئيس حتى وجدت الرجال.

قال دوغ وهو ينظر إلى عينيّ:

- سنعود إلى الطريق.

شعرت بانقباض في صدري وأنا أعانقه هو وتوم مودعة إياهما، وقد ملأتني مشاعر الحب لهما، وفوق ذلك كنت قلقة.

سألتهما:

- هل أنتما متأكدان أنكما تريدان الاستمرار في الثلج؟

أجابني توم:

- هل أنت متأكدة من أنك لا تريدين الاستمرار؟

- ألا تزال معك تعويذة الحظ السعيد؟

وأشار دوغ إلى الريشة السوداء التي أعطاني إياها في كينيدي ميدوز وكنت قد وضعتها على طرف الوحش فوق كتفي اليمنى.

فقلت ضاحكة:

- لأتذكرك بها.

وبعد أن غادرا مشيت مع غريغ إلى المتجر الكبير، ومررنا بمتاجر وصالونات الغرب القديم التي تعرض على نوافذ العرض قبعات رعاة البقر ولوحات لرجال يمتطون الخيول الأمريكية.

سألني غريغ:

- هل شاهدت فيلم «هاي سيرا» للممثل هامفري بوغارت؟

هززت رأسي بالنفي.

- لقد تم تصويره هنا بالإضافة إلى الكثير من الأفلام الأخرى.

أومأت بدون استغراب، فالمحيط يبدو هوليودياً، حيث يوجد سهل مرتفع مغطى بالمريمية والصخور وخالٍ من الأشجار مع مناظر تمتد لأميال، كما تلتقي القمم البيضاء لسيرا نيفادا غرباً مع السماء الزرقاء، حيث بدت غير حقيقية بالنسبة لي وإنما لوحة بهية.

قال غريغ مشيراً إلى حافلة سفر في مرأب المتجر:

- هذه حافلتنا.

لكنه كان مخطئاً، إذ لم تكن هناك أي حافلات تقطع الطريق بكامله إلى مدينة سيرا، وإنما علينا ركوب حافلة في ذلك المساء لنسافر سبع ساعات إلى رينو في نيفادا، ثم نستقل حافلة أخرى لساعة إلى تراكي في كاليفورنيا، ومن هناك لن يكون أمامنا خيار سوى مشي الأميال الخمسة والأربعين إلى

مدينة سيرا، فاشترينا تذكرتَي ذهاب فقط ومجموعة من الوجبات الخفيفة، وجلسنا على الرصيف الدافئ في طرف مرأب المتجر بانتظار الحافلة، حيث تناولنا أكياساً كاملة من رقائق البطاطا وعلباً من الصودا ونحن نتكلم، فسألته عن وظيفته وحياته في تاكوما، وأخبرني أنه ليس لديه أي حيوانات أليفة أو أطفال، وإنما حبيبة كان يواعدها منذ أكثر من عام وهي تعشق الرحلات مشياً على الأقدام. ويبدو أن حياته كانت أمراً منظماً ومدروساً، حيث بدت مملة وصاعقة بالنسبة لي، ولم أعلم كيف تبدو حياتي بالنسبة له.

وحين ركبنا الحافلة المتجهة إلى ينو وجدناها شبه فارغة، فتبعت غريغ إلى المنتصف حيث جلسنا على مقعدين متقابلين تماماً.

وما إن وصلت الحافلة إلى الطريق السريع حتى قال لي غريغ:

- سأنام قليلاً.

- وأنا أيضاً.

على الرغم من معرفتي أن ذلك ليس صحيحاً، فحتى حين أكون مرهقة لا يمكنني النوم في السيارات المتحركة، لكنني لست مرهقة الآن وإنما أشعر بالنشاط لعودتي إلى العالم، فكنت أحدق من النافذة في حين نام غريغ. لا أحد يعرفني منذ أكثر من أسبوع لديه أدنى فكرة عن مكاني... أنا في طريقي إلى رينو في نيفادا... لم أكن قد ذهبت إلى رينو قط، حيث بدت لي من أكثر الأماكن المستبعد ذهابي إليها وأنا أرتدي هذه الملابس ومتسخة كالكلاب وشعري أشعث. أخرجت كل المال من جيوبي، وعددته باستخدام المصباح الرأسي، فوجدت أن معي أربعة وأربعين دولاراً وخمسة وسبعين سنتاً، الأمر الذي فاجأني؛ إذ أدركت أنني أنفقت أكثر مما كنت أتخيل، حيث لم أكن أتوقع أن أتوقف في ريدجكريست ولون باين، ولا شراء تذكرة الحافلة إلى تراكي، ولم أكن سأحصل على المزيد من المال إلى أن أصل إلى صندوق المؤونة التالي في بلدة بيلدن، أي بعد أسبوع من الآن، ولن يتجاوز المبلغ عشرين دولاراً. كنت قد اتفقت مع غريغ على استئجار غرفتين في فندق في مدينة سيرا لنرتاح لليلة بعد سفرنا الطويل، لكنني بدأت أشعر بالضيق لأنه علي إيجاد مكان لأخيم فيه بدلاً من ذلك.

لم يكن هناك ما يمكنني فعله حيال ذلك، إذ لم أكن أحمل بطاقة ائتمان، وعلي التعامل مع الأمر وفقاً لإمكانياتي. شتمت نفسي لأنني لم أضع المزيد من المال في الصناديق في الوقت الذي كنت أعلم فيه أنه لا يمكنني ذلك؛ إذ وضعت كل النقود التي أملكها بعد أن ادخرت المال طوال الشتاء

والربيع، وبعت قسماً كبيراً من ممتلكاتي لأشتري بذلك المال كل الطعام الموجود في الصناديق وكل المعدات التي كانت موجودة على ذلك السرير في الفندق في موهافي، وكتبت شيكاً لليزا لتغطية نفقات البريد للصناديق، وشيكاً آخر لتغطية أربعة أشهر من الدفعات لقرض الطالب لأجل الشهادة التي لم أحصل عليها، والتي سأدفع تكاليفها حتى أبلغ الثالثة والأربعين من العمر ليتبقى مبلغ بسيط لأنفقه على طريق جبال المحيط الهادئ.

أعدت المال إلى جيبي وأطفأت المصباح الرأسي وحدقت من النافذة غرباً وأنا أشعر بالضيق والحزن والحنين، لكنني لم أعلم إن كان ذلك الحنين للحياة التي كنت أعيشها أم لطريق جبال المحيط الهادئ، إذ إنني بالكاد كنت أميز الظلال القاتمة لسيرا نيفادا على السماء المقمرة، لتبدو كجدار لا يمكن تجاوزه كما كانت تبدو لي منذ سنوات حين رأيتها لأول مرة وأنا أسافر مع بول؛ لكنها الآن لم تعد تبدو كما لو أنه لا يمكن تجاوزها، وبدأت أتخيل نفسي عليها... على جزء منها. كنت أعرف كيف يبدو التجول فيها، وسأعود إليها عما قريب حين أبدأ رحلتي من مدينة سيرا، حيث سأتجاوز سيرا المرتفعة لأترك منتزهات سيكويا وكينغز كانيون ويوسمايت الوطنية وتولومني ميدوز وبراري جون موار وديزوليشن وغيرها، لكنني سأمشي مائة ميل أخرى في سيرا نيفادا بعد ذلك قبل أن أتوجه إلى سلسلة كاسكيد.

وحين توقفت الحافلة في المحطة في رينو في تمام الساعة الرابعة من بعد منتصف الليل لم أكن قد نمت للحظة، وأمامنا أنا وغريغ ساعة لنمضيها قبل أن تغادر الحافلة التالية إلى تراكي، فتجولنا ونحن في غاية الإرهاق في المناطق المجاورة لمحطة الحافلة وقد وضعنا حقيبتينا على ظهرينا. كنت متعبة لكنني متنبهة وأنا أحتسي شاي ليبتون الساخن، في حين كان غريغ يلعب الورق.

توجهت إلى حمام السيدات، وبينما كنت أنظف أسناني أمام مرآة مضاءة ساطعة فوق صف من المغاسل قالت لي امرأة: «أحببت ريشتك». وأشارت إلى الريشة على حقيبتي.

- شكراً... لقد أعطاني إياها صديقي.

والتقت عيوننا في المرآة. كانت امرأة شاحبة وبنية العينين، مع أنف مفلطح، وشعر مربوط طويل يصل إلى ظهرها، وترتدي قميصاً قطنياً وسروال جينز، وتنتعل حذاء مفتوحاً. لكن بدا لي أنني لم أتكلم مع امرأة منذ سنين.

ثم قلت وأنا أداعبها بإصبعي:

- لا بد أنها ريشة غراب.

فأضافت بنبرة غامضة:

- رمز الفراغ.

سألتها بخيبة:

- الفراغ؟

- إنه شيء جيد... المكان الذي تولد فيه الأشياء وتبدأ. فكري كيف يمتص الثقب الأسود الطاقة ثم يحررها كشيء جديد وحي. لقد كان حبيبي السابق عالم طيور، وهو مختص بعلم الغربان. ولأن معي شهادة ماجستير في اللغة الإنكليزية، فقد اضطررت لقراءة رسالته حوالي عشر مرات. لذا، إنني أعرف عن هذا الموضوع أكثر مما يلزمني. بالمناسبة، هل أنت في طريقك إلى رينبو غاذارينغ؟

- لا. أنا...

- ينبغي أن تأتي... الأمر رائع. سيكون الاجتماع في غابة شاستا ترينيتي هذا العام عند بحيرة تود.

- لقد ذهبت إلى الاجتماع في السنة الماضية حين كان في وايومينغ.

قالت ببطء:

- جيد. أتمنى لك التوفيق في طريقك.

ومدت يدها وعصرت ذراعي مبتهجة وهي تتجه نحو الباب وترفع إصبعها إعجاباً بريشتي.

بحلول الساعة الثامنة وصلت أنا وغريغ إلى تراكي. وعند الساعة الحادية عشرة، كنا لا نزال نقف على الجانب الحار من الطريق محاولين الركوب إلى مدينة سيرا.

صرخت بجنون لحافلة مرت بجوارنا:

- هيه!

لكنّ ما لا يقل عن ست حافلات أو سبع لم تتوقف لنا خلال الساعتين الماضيتين، فقلت لغريغ:

- تباً لهم!

- عليك المشي أمامي والوقوف لوحدك. فلو كنت وحدك لكنت قد ركبت منذ مدة طويلة.

- لا.

لكنني كنت موقنة أنه محق؛ إذ إن امرأة وحيدة أقل خطراً من رجل وامرأة. فالناس يرغبون بمساعدة المرأة الوحيدة، أو يحاولون إغواءها. لكننا الآن مع بعضنا، لذا بقينا مع بعضنا حتى توقفت سيارة بعد ساعة وركبنا فيها لتوصلنا إلى مدينة سيرا التي كانت قرية رائعة تحوي أقل من عشرة مبانٍ خشبية على ارتفاع 4200 قدم، وتقع بين نهر يوبا الشمالي وهضبة سيرا بنية اللون المرتفعة تحت السماء الزرقاء الصافية شمالاً.

أنزلنا السائق قرب المتجر في مركز المدينة، حيث يجلس السياح ويتناولون المثلجات على الشرفة الأمامية المطلية والمزدحمة بحشود من المحتفلين بما قبل الرابع من يوليو.

سألني غريغ وهو يخرج بعض الدولارات:

- أتريدين المثلجات؟

- لا... ربما لاحقاً.

كنت أحاول إخفاء يأسي، فأنا أريد المثلجات بالطبع لكنني لا أجرؤ على شرائها خوفاً من ألا أستطيع دفع أجرة غرفة. وحين دخلنا المتجر الصغير المزدحم، حاولت ألا أنظر إلى الطعام، وإنما وقفت بالقرب من طاولت الحساب وتفحصت المنشورات السياحية، في حين قام غريغ بالتبضع.

حين عاد قلت له:

- لقد انمحت البلدة بكاملها بسبب انهيار ثلجي عام 1852، حيث انجرف الثلج من الهضبة.

هز لي رأسه وكأنه يعرف ذلك مسبقاً، ثم بدأ بلحس المثلجات بالشوكولا فأشحت بنظري؛ إذ إن رؤيتها كانت عذاباً بالنسبة لي.

- في الواقع، أنا بحاجة للعثور على مكان زهيد الأجرة لأقضي فيه الليل.

لكن الحقيقة هي أنني بحاجة للعثور على مكان مجاني، لكنني كنت متعبة للغاية للتفكير في التخييم؛ إذ إن آخر مرة نمت فيها كانت على طريق جبال المحيط الهادئ في سيرا المرتفعة.

قال غريغ مشيراً إلى مبنى خشبي قديم في الطرف المقابل من الشارع :

- ما رأيك بهذا؟

كان الطابق السفلي مطعماً ومقهى، في حين يحوي الطابق العلوي غرفاً للإيجار مع حمامات مشتركة. كانت الساعة 1:30 فقط، لكن المرأة في المقهى سمحت لنا بتسجيل الدخول باكراً. وبعد أن دفعت أجرة غرفتي لم يتبق معي سوى ثلاثين دولاراً.

سألني غريغ حين وصلنا إلى غرفتينا ووقفنا أمام بابيهما:

- أترغبين بتناول العشاء معي في الأسفل الليلة؟

- بالتأكيد.

واحمرت وجنتاي. لم أكن قد انجذبت إليه، لكنني لم أتوقف عن تمني أن يكون قد انجذب إلي؛ وهو الأمر الذي كنت أعلم أنه مستبعد. لكن مجرد تلك الفكرة تسببت برعشة سرت في جسدي.

قال مشيراً إلى آخر الممر حيث يوجد الحمام الذي نتشاركه مع جميع نزلاء ذلك الطابق، لكن كان يبدو أننا الوحيدان في هذا الطابق:

- يمكنك الذهاب أولاً إن شئت.

- شكراً.

وفتحت باب غرفتي ودخلت لأجد خزانة خشبية قديمة، ومرآة مستديرة على جدار، وسريراً مزدوجاً قرب الجدار الآخر مع طاولة صغيرة وكرسي. وكان هناك مصباح كهربائي يتدلى من السقف في وسط الغرفة. وضعت الوحش ثم جلست على السرير الذي أصدر صريراً واهتز تحت ثقلي، لكنني وجدته ممتازاً في كل الأحوال، فجسدي كاد يؤلمني من شدة المتعة لجلوسي على السرير؛ إذ إن كرسي التخييم الذي كنت أستخدمه من قبل لا يؤمن الكثير

من الراحة، وكنت أنام في معظم الليالي على طريق جبال المحيط الهادئ؛ ليس لأنني مرتاحة، وإنما لأنني كنت مرهقة للغاية.

أردت النوم لكن ساقيّ وذراعيّ كانت مغطاة بالأوساخ، كما أن رائحة عرقي واخزة، فبدا النوم في مثل هذه الحالة جنونياً لأنني لم أستحم حماماً جيداً منذ أن كنت في الفندق في ريدجكريست قبل أسبوعين تقريباً. مشيت عبر الممر إلى الحمام، حيث لم أجد دشاً وإنما وجدت حوضاً كبيراً من البورسلان ورفاً مليئاً بالمناشف المطوية. سحبت إحدى المناشف وتنشقت رائحة مسحوق الغسيل، ثم خلعت ملابسي ونظرت إلى نفسي في المرآة الطويلة.

كان منظري صادماً.

إذ لم أبد كامرأة أمضت الأسابيع الثلاثة الماضية تتنزه مشياً على الأقدام في البراري، وإنما بدوت كامرأة كانت ضحية لجريمة عنف خطرة، حيث كانت الكدمات التي تتراوح ألوانها من الأصفر إلى الأسود تغطي ساقيّ وذراعيّ وظهري ومؤخرتي؛ كما لو أنني تلقيت ضرباً مبرحاً بالعصي. أما كتفاي وردفاي فكانت مغطاة بالطفح والتقرحات والكدمات الملتهبة والقروح القاتمة، حيث انفتح الجلد بسبب ثقل حقيبتي، وتحت الجروح والكدمات والقذارة كان بإمكاني رؤية سلسلة جديدة من العضلات.

ملأت حوض الاستحمام بالمياه، وجلست فيه، وبدأت بتنظيف جسدي بالصابون وقطعة قماش. وخلال بضع دقائق، أصبح الماء أسود اللون من الدم والأوساخ التي كانت على جسدي، فاضطررت إلى التخلص من الماء وملء الحوض من جديد.

وبعد أن ملأته، استلقيت مسترخية وأنا أشعر بالامتنان أكثر من أي شيء آخر. وبعد قليل، تفحّصت قدميّ اللتين كانتا متقرحتين، وبعض الأظفار المسودة بالكامل. لمست أحدها ووجدت أنه على وشك السقوط من إصبعي التي كانت تؤلمني ألماً شديداً لأيام وتتورم؛ كما لو أن ظفري سيخرج ببساطة، لكنه الآن لا يؤلمني سوى قليلاً. وحين نقرت على الظفر خرج بيدي دون أي ألم يذكر، ووجدت فوقه طبقة من شيء لم يكن لا جلداً ولا ظفراً وإنما كان شفافاً ولماعاً.

قلت لغريغ على العشاء:

- لقد سقط ظفر من قدمي.

- أتسقط أظفار قدميك؟

- ظفر واحد.

وحينها فقط أدركت أنه من المحتمل أن أفقد المزيد، وأن هذا دليل أكبر على غبائي.

- هذا يعني ربما أن حذاءك صغير للغاية.

وجاءت النادلة تحمل طبقين من السباغيتي وصينية من الخبز بالثوم.

كنت قد خططت أن أطلب بتحفظ؛ وخاصة أنني قد أنفقت خمسين سنتاً أخرى ذلك المساء لغسيل ملابسي والخروج مع غريغ. لكن، ما إن جلست حتى لم أعد أستطيع كبح نفسي من أن أطلب كغريغ تماماً؛ حيث طلبت الكولا مع العشاء، ووافقت على الخبز بالثوم. حاولت ألا أظهر له أنني كنت أحسب الفاتورة في عقلي ونحن نأكل؛ إذ إن غريغ يعرف مسبقاً كم أنني غير مستعدة للتنزه على طريق جبال المحيط الهادئ، وهو ليس بحاجة لمعرفة أن هناك مجالاً آخر كنت فيه حمقاء تماماً.

لكنني كنت حمقاء. فبعد أن دفعت الفاتورة وجدت أن معي خمسة وستين سنتاً.

في غرفتي بعد العشاء فتحت كتاب «طريق جبال المحيط الهادئ المجلد الأول: كاليفورنيا» لأقرأ عن الجزء التالي من الطريق؛ إذ سأتوقف في المرة القادمة في مكان يدعى بلدة بيلدن، حيث ينتظرني صندوق المؤونة الذي يحوي عشرين دولاراً. يمكنني الوصول إلى بيلدن بخمسة وستين سنتاً أليس كذلك؟ فأنا في كل الأحوال سأبقى في البراري، ولن يكون هناك مكان لأنفق فيه نقودي. ومع ذلك، شعرت بالقلق فكتبت لليزا رسالة طلبت منها فيها أن تشتري وترسل لي كتاب دليلي لطريق جبال المحيط الهادئ لقسم أوريغون باستخدام النقود القليلة التي تركتها معها، ثم أن تغير وجهة الصناديق التي سترسلها إليّ إلى باقي أجزاء كاليفورنيا. وفي النهاية، قمت بتدقيق القائمة، حيث تأكدت من أن كل شيء صحيح وأنا أحسب الأميال مع التواريخ والأماكن.

وحين أطفأت النور واستلقيت على السرير المهترئ لأنام سمعت غريغ على الجانب الآخر من الجدار يتقلب على سريره المهترئ أيضاً، ومجرد سماعه هناك جعلني أشعر بالوحدة والرغبة بالصراخ دون أن أعرف السبب؛

فأنا لا أريد شيئاَ منه، لكنني أريد كل شيء. ماذا سيفعل لو طرقت بابه؟ ماذا سأفعل لو أدخلني؟

كنت أعرف ما سأفعله فقد فعلت ذلك مرات عدة.

كنت قد أخبرت معالجاً زرته عدة مرات في السنة الماضية ويدعى فينس وقد تطوع في عيادة خيرية في مركز مدينة مينابوليس، حيث يمكن لأناس مثلي أن يذهبوا ويتحدثوا مع أناس مثله مقابل عشرة دولارات.

- أنا كرجل شاب من الناحية الجنسية.

- وكيف هو الرجل الشاب.

- غير متحيز... أو ربما الكثير من الرجال هكذا... وأنا أيضاً هكذا...

ونظرت إلى فينس الذي كان في العقد الرابع من العمر. لم أكن أشعر بشيء تجاهه، لكنه إن نهض واقترب مني وقبلني فسأبادله قبلته ولما فعلت شيئاً.

لكنه لم ينهض، وإنما أومأ دون أن يقول شيئاً لأشعر أن صمته يحمل الشك والتصديق.

- من هو غير المتحيز معك؟

- لا أدري.

لم أكن أنظر إليه وإنما إلى المنشور المعلق وراءه؛ وهو مربع أسود وعليه دوامة بيضاء تشير إلى درب التبانة، وهناك سهم يشير إلى مركزها، وقد كتبت فوقه الكلمتان «أنت هنا». وقد انتشرت هذه الصورة كثيراً على القمصان القطنية والملصقات؛ مما جعلني أنزعج كلما رأيتها. فأنا لا أفهم إن كان المقصود أهمية حياتنا أم تفاهتها.

ثم قلت:

- لم ينفصل عني أحد إن كان هذا ما تعنيه، وإنما أنا من ينهي العلاقات دائماً.

ثم سألته مصطنعة الضحك ومحاولة الاسترخاء:

- هل هذا هو الجزء الذي ينبغي أن أخبرك فيه عن أبي؟

كانت أمي هي مركز اهتمامي، لكن في تلك الغرفة مع فينس شعرت فجأة بأبي كشوكة في حلقي، حيث كنت أقول دائماً خلال مراهقتي إنني أكرهه، أما الآن فأنا لا أشعر بشيء تجاهه. إذ كان كفيلم يتكرر في رأسي لكنه متقطع ومشوش، وفيه مشاهد درامية ضخمة ولحظات لا يمكن تفسيرها ربما لأن معظم ما أتذكره منه حصل في السنوات الست الأولى من حياتي. كان هناك مشهد تحطيم أبي لأطباق عشائنا المليئة بالطعام على الجدار وهو غاضب، وخنق أبي لأمي وضربه رأسها بالجدار، وسحبه لي ولأختي من السرير في منتصف الليل حين كنت في الخامسة ليسألنا إن كنا سنرحل معه إلى الأبد، في حين وقفت أمي جانباً وهي تنزف وتتشبث بأخي الصغير الرضيع النائم وتتوسل إليه أن يتوقف، وحين بكينا بدلاً من الإجابة انهار على الأرض وضغط بجبهته على الأرض وصرخ بيأس. كنت حينها متأكدة من أننا سنموت جميعنا على الفور.

وفي إحدى المرات، وفي وسط نوبة غضبه، هدد برمي أمي وأطفالها عراة في الشارع؛ وكأننا لم نكن أطفاله أيضاً. كنا حينها نقيم في مينيسوتا، وكان الوقت شتاء حين قام بالتهديد. وفي ذلك الحين، كنت بسن جعلتني أظن أنه سينفذ تهديده، وتخيلت أربعتنا عراة، ونحن نصرخ ونركض تحت الثلج البارد. فقد طردنا أنا وكارن وليف من المنزل عدة مرات حين كنا مقيمين في بنسلفانيا بينما كانت أمي في العمل وكان عليه الاعتناء بنا لكنه كان يريد أن يرتاح، حيث أمرنا بالخروج إلى الباحة الخلفية وأقفل الباب بينما بقيت أنا وأختي ممسكتين بأخينا الذي كان بالكاد يمشي. تجولنا حينها على العشب ونحن نبكي، ثم نسينا حزننا ولعبنا معاً، وبعد قليل شعرنا بالغضب والملل، فاقتربنا من الباب الخلفي وقفزنا وصحنا.

أما الذكريات الجيدة فقليلة للغاية؛ كحبه لجوني كاش والإخوة إيفرلي وألواح الشوكولا التي كان يحضرها إلى المنزل من عمله في متجر للبقالة. وهناك أيضاً جميع الأشخاص المهمين الذين أراد أن يكون مثلهم. كما أتذكره وهو يغني أغنية شارلي ريتش «هيه... هل رأيتم قط أجمل فتاة في العالم؟» وقوله إنها عني وعن أختي وأمي؛ إذ إننا أجمل الفتيات في العالم. لكن، حتى تلك الذكريات مشوهة، فقد كان لا يقول ذلك إلا حين يحاول إرضاء أمي لتعود إليه، حين كان يدعي أن الأمور ستتغير الآن، وحين كان يعدها أنه لن يعيد فعلته مجدداً.

لكنه كان يعيدها مراراً وتكراراً، فقد كان كاذباً وساحراً وقاسياً ومتوحشاً.

وقد أخذتنا أمي وتركته، ثم عادت إليه، ثم تركته ثم عادت إليه. حيث إننا لم نبتعد؛ إذ لم يكن هناك مكان نذهب إليه، لأنه ليست لدينا عائلة قريبة، كما أن كبرياء أمي كانت تمنعها من اللجوء إلى صديقاتها. وأول ملجأ للنساء في الولايات المتحدة لم يفتح حتى عام 1974، أي في السنة التي تركت فيها أمي أبي نهائياً.

حين تركت أمي أبي نهائياً حين كنت في السادسة من العمر– أي بعد سنة من انتقالنا كلنا من بنسلفانيا إلى مينيسوتا– بكيت وتوسلت إليها ألا تفعل ذلك، فقد بدا لي الطلاق حينها أسوأ شيء قد يحصل. وهكذا، بقينا نحن في مينيسوتا في حين عاد هو إلى بنسلفانيا، ولم نعد نتواصل سوى بشكل متقطع، حيث كانت تصلنا رسالة أو رسالتان في السنة موجهتان إلى كارن وليف ولي. كنا نفتح الرسالة ونحن نشعر بالبهجة لنجد خطبة لاذعة عن أمنا وكم هي سافلة وغبية وسارقة، وحيث يعدنا بأن يأخذنا كلنا يوماً ما، وأننا سندفع الثمن.

وفي الجلسة الثانية والأخيرة، قلت لفينس الذي قال لي إنه سيترك عمله في المركز وأعطاني اسم معالج آخر ورقمه:

- لكننا لم ندفع الثمن. فبعد طلاق والديّ أدركت أن غياب والدي عن حياتي كان أمراً جيداً، إذ لم تعد هناك أي مشاهد عنف. أقصد، تخيل حياتي لو أنني تربيت مع أبي.

- بل تخيلي حياتك لو أنه كان لديك أب يحبك كما يحب الأب أبناءه.

حاولت تخيل ذلك الأمر لكنني لم أستطع، فسألني فينس وهو يسترق النظر إلى دفتر على حضنه ويقرأ منه كلمات كتبها بسرعة:

- وماذا عن زوج أمك؟

- إيدي... هو أيضاً غير متحيز. إنها قصة طويلة لكن الوقت قد انتهى.

ونظرت إلى الساعة المعلقة على الحائط، فقال فينس ضاحكاً:

- لقد أنقذك الجرس.

استطعت رؤية هيكل الوحش بفضل ضوء الشارع الخافت المتسرب إلى غرفتي في مدينة سيرا، حيث كانت الريشة التي أعطاني إياها دوغ منتصبة من المكان الذي وضعتها فيه في إطار الحقيبة. فكرت في علم الغربان، وتساءلت إن كانت الريشة حقاً رمزاً أو شيئاً كنت أحمله طوال

الطريق. كنت أصدق فوراً بعض الأشياء، لكنني أيضاً لا أصدق أشياء أخرى؛ فقد كنت باحثة ومتشككة. وحين كانت أمي مستلقية على سريرها في المشفى في آخر أسبوع لها قالت لي:

- أنت باحثة مثلي.

لكنني لم أعرف ما كانت أمي تبحث عنه بالضبط، وكان ذلك هو السؤال الوحيد الذي لم أطرحه عليها. لكن، حتى لو أخبرتني لكنت قد شككت في ما تقوله، ولدفعتها إلى الشرح، ولسألتها عن كيفية تمكنها من إثبات ما تقوله. كما كنت أشك في أمور يمكن التحقق منها.

نهضت من السرير ملفوفة بمنشفة حول جسدي العاري، وخطوت حافية القدمين إلى البهو، ومشيت قرب باب غريغ. وفي الحمام، أغلقت الباب ورائي، وفتحت صنبور حوض الاستحمام وجلست في الحوض. كان الماء الساخن كالسحر، وكذلك صوت هديره الذي ملأ الغرفة؛ حتى أغلقت الصنبور فساد الصمت المطبق. استلقيت على البورسلان وحدقت في الجدار حتى سمعت طرقاً على الباب.

- ماذا؟

لكن لم يأت الرد وإنما سمعت صوت خطوات ترجع في الممر فناديت:

- هناك أحد في الداخل.

على الرغم من أنه كان من الواضح أن هناك أحداً في الداخل وهو أنا... أنا هنا.

تناولت ليفة عن الرف بالقرب من الحوض وفركت بها جسدي. وعلى الرغم من أنني كنت نظيفة، لكنني فركت وجهي ورقبتي وصدري وبطني وظهري وردفيّ وذراعيّ وساقيّ وقدميّ.

كانت أمي تقول لي ولأخويّ:

- أول شيء كنت أفعله حين ولد كل واحد منكم هو تقبيل كل جزء منه. كما كنت أعدّ كل إصبع ورمش وشعرة وأتتبع الخطوط على أيديكم».

استلقيت للخلف، وأغمضت عينيّ، وغمرت رأسي بالماء حتى غطى وجهي بكامله، وشعرت بالإحساس نفسه الذي راودني حين كنت طفلة، حين كنت أفعل هذا الشيء نفسه؛ كما لو أن العالم المعروف للحمام قد اختفى،

وأصبح مكاناً غريباً وغامضاً، لتصمت الأحاسيس والأصوات العادية، وتصبح بعيدة ومجردة، وتنبثق الأحاسيس والأصوات الأخرى غير المسجلة أو المسموعة بشكل طبيعي.

كنت قد بدأت للتو، إذ لم تمر سوى ثلاثة أسابيع على بداية رحلتي، لكنّ كل شيء فيّ تغير. استلقيت في الماء لأطول فترة ممكنة دون أن أتنفس؛ لأبقى وحدي في أرض جديدة وغريبة، في حين كان العالم الفعلي حولي يطن.

9

البوصلة

قمت بالتجاوز لأتجنب الخطر، حيث قفزت فوق الثلج لأقطع باقي كاليفورنيا، ثم لأمر عبر أوريغون إلى واشنطن، لتكون وجهتي الجديدة جسراً فوق نهر كولومبيا يشكل الحدود بين الولايتين... الجسر الذي كان يبعد 1008 أميال. ولم أكن قد قطعت حتى الآن سوى 170 ميلاً، لكن خطواتي بدأت تتسارع.

في الصباح، مشينا أنا وغريغ من مدينة سيرا لميل ونصف على كتف الطريق حتى وصلنا إلى المكان الذي يلتقي طريق جبال المحيط الهادئ. ثم مشينا معاً بضع دقائق على الطريق قبل أن نتوقف لنودع بعضنا، فقلت وأنا أشير إلى الشجيرات الخضراء المنخفضة التي تحف الطريق:

- هذا يدعى جبل البؤس؛ أو هذا على الأقل ما يقوله الكتيب الإرشادي. لكن، لنأمل ألا تكون التسمية حرفية.

- أظن أنه كذلك.

وقد كان محقاً؛ فالطريق سيرتفع حوالي ثلاثة آلاف قدم فوق الأميال الثمانية المقبلة، وكانت الوحش مليئة بطعام يكفي لأسبوع، ثم قال وهو ينظر في عينيّ:

- حظاً موفقاً.

- حظاً موفقاً لك أيضاً.

- أكملي طريقك يا شيريل.

- وأنت أيضاً.

وخلال عشر دقائق اختفى.

شعرت بالإثارة لعودتي إلى الطريق على بعد 450 ميلاً شمالاً، ولم أعد أرى القمم المغطاة بالثلج والمرتفعات الغرانيتية لسيرا المرتفعة. لكن الطريق بدا لي نفسه أيضاً. فبسبب اختفاء البانوراما الصحراوية والجبال

اللامتناهية التي رأيتها، بدا مشهد الطريق الذي يبلغ عرضه قدمين مألوفاَ، كما اعتادته عيناي؛ حيث كنت أبحث عن الجذور والأغصان والأفاعي والصخور. كان الطريق أحياناً رملياً، وأحياناً صخرياً، أو موحلاً، أو مغطى بطبقات من إبر الصنوبر. وقد يكون أسود أو بنياً أو رمادياً أو أشقر، لكنه دائماً طريق جبال المحيط الهادئ.

مشيت تحت غابة من الصنوبر والبلوط والأرز، ثم مررت عبر مجموعة من الأخشاب، بينما أصبح الطريق يتصاعد للأعلى. ولم أرَ أحداً طوال ذلك الصباح المشمس وأنا أصعد؛ على الرغم من أنني كنت أشعر بوجود غريغ غير المرئي. ومع كل ميل، تضاءل ذلك الشعور، حيث كنت أتخيله وهو يبتعد أكثر وأكثر، وهو يمشي بسرعته المعتادة. فقد كان الطريق يتحول من غابة ظليلة إلى مرتفعات جرداء، حيث يمكنني رؤية الوادي الممتد لأميال في الأسفل، والهضاب الصخرية في الأمام. وفي منتصف النهار، صعدت إلى الأعلى فوق سبعة آلاف قدم، حيث أصبح الطريق موحلاً على الرغم من أن المطر لم ينهمر منذ أيام. وفي النهاية، حين انعطفت وجدت نفسي في حقل مغطى بالثلج، أو ما ظننته حقلاً؛ مما يعني أن هناك نهاية له. وقفت في طرفه وبحثت عن آثار أقدام غريغ لكنني لم أجد شيئاً، ولم يكن الثلج على منحدر وإنما على أرض منبسطة وسط غابة خفيفة، وقد كان ذلك أمراً جيداً لأنني لم أعد أحمل فأس الثلج، حيث تركتها ذلك الصباح في صندوق المتنزهين على طريق جبال المحيط الهادئ في مكتب بريد مدينة سيرا بينما كنت أغادر البلدة مع غريغ؛ إذ لم يكن معي المال الكافي لأرسلها عبر البريد إلى ليزا، وقد كان ذلك مدعاة للأسف الشديد نظراً لثمنها الباهظ، لكنني لم أكن مستعدة لحملها أيضاً؛ ظناً مني أنه لم تعد لها أية فائدة من الآن فصاعداً.

غرزت عصا التزلج في الثلج وبدأت أمشي. كنت في بعض الأماكن أسير بسهولة، وفي مناطق أخرى تنغرز قدماي في الثلج؛ حتى إن الثلج بدأ بعد برهة بالوصول إلى أعلى كاحليّ، وبدأت أشعر بحرقة في أسفل ساقيّ؛ كما لو أن اللحم ينكشط بسكين مثلمة.

لم يكن ذلك يقلقني بقدر قلقي لأنني لم أعد أرى الطريق المغطى بالثلج؛ فكنت أطمئن نفسي بأن الطريق واضح بما فيه الكفاية، وأمسك بالكتيب الإرشادي وأنا أمشي، ثم أتوقف وأتفحص كل كلمة مذكورة. وبعد ساعة توقفت فجأة والخوف يملأني... هل أنا على طريق جبال المحيط الهادئ؟ كنت طوال الوقت أبحث عن علامات طريق جبال المحيط الهادئ المعدنية على شكل ماسة مغروزة بين الحين والآخر في الأشجار، لكنني لم أرَ أياً منها، إلا أن هذا ليس بالضرورة سبباً للقلق. فقد تعلمت أنه لا يمكن الاعتماد

على مؤشرات طريق جبال المحيط الهادئ. ففي بعض الأماكن، كانت تظهر كل بضعة أميال، وفي أماكن أخرى كنت أمشي لأيام دون رؤية أي منها.

سحبت الخريطة الطبوغرافية لهذه المنطقة من جيب سروالي القصير، وحين فعلت ذلك خرجت قطعة نقود من جيبي وسقطت على الثلج، فمددت يدي لأتناولها، وانحنيت بدون ثبات تحت ثقل حقيبتي. لكن ما إن لامستها أصابعي حتى غرقت في الأسفل واختفت. حاولت البحث عنها في الثلج لكنها اختفت.

والآن لم أعد أملك سوى ستين سنتاً.

تذكرت السنتات الخمسة التي أنفقتها في فيغاس، وضحكت بصوت مرتفع؛ إذ شعرت أن هذه النقود مرتبطة ببعضها، لكنني لم أستطع تفسير ذلك سوى بأن تلك الفكرة الغبية خطرت ببالي وأنا واقفة هناك في الثلج في ذلك اليوم... ربما كانت إضاعة النقود حظاً جيداً، مثل الريشة السوداء التي ترمز إلى شيء جيد. وربما لا أكون فعلاً في وسط الشيء الذي بذلت قصارى جهدي لتجنبه، وربما عند المنعطف التالي سأجد الثلج قد اختفى.

كنت أرتعش حينها وأنا واقفة في الثلج في سروالي القصير وقميصي القطني المبلل بالعرق، لكنني لم أجرؤ على الاستمرار، ففتحت الكتيب الإرشادي وبدأت أقرأ ما يقوله المؤلف عن هذا القسم من الطريق: «من القمم المجاورة للطريق ستواجه مرتفعاً ثابتاً مليئاً بالشجيرات، ليصبح الطريق بعد قليل سهلاً مفتوحاً ومليئاً بالأشجار».

فالتفت في دائرة بطيئة ونظرت حولي في كل الاتجاهات... هل هذا هو السهل المفتوح المليء بالأشجار؟ قد يبدو أن الجواب ينبغي أن يكون واضحاً، لكنه لم يكن كذلك. فالشيء الوحيد الواضح هو أن كل شيء مغطى بالثلج.

تناولت بوصلتي المعلقة بحبل على جانب حقيبة ظهري بالقرب من أعلى صفارة في العالم. لم أكن قد استخدمتها منذ أول يوم مشيت فيه على هذا الطريق، فتفحصتها هي والخريطة وقمت بتخمين مكاني وأكملت المسير، حيث تقدمت للأمام ببطء. وبعد ساعة، رأيت لافتة معدنية على شكل ماسة تقول «طريق جبال المحيط الهادئ» مغروزة بشجرة مغطاة بالثلج، فشعرت بالراحة. لم أكن أعلم بعد أين أنا، لكنني على الأقل أعلم أنني كنت على طريق جبال المحيط الهادئ.

وبحلول المساء وصلت إلى مرتفع يمكنني منه رؤية وادٍ عميق مليء بالثلج.

صرخت:

- غريغ!

كنت أختبر إن كان قريباً مني، فأنا لم أرَ أي إشارة تدل على وجوده طوال اليوم، لكنني بقيت أتوقع ظهوره على أمل أن يبطئه الثلج بما يكفي لألحق به ونكمل طريقنا في الثلج معاً. سمعت صرخات بعيدة، ورأيت ثلاثة متزلجين على قمة مجاورة في الجانب الآخر من الوادي المغطى بالثلج. كانوا قريبين بما يكفي ليسمعوا، لكن من المستحيل الوصول إليهم، حيث لوحوا بأذرعهم بقوة فلوحت لهم، وكانوا يرتدون كامل معدات التزلج، فلم أتبين إن كانوا رجالاً أم نساء.

- أين نحن؟

- ماذا؟

ردّدت الكلمات مراراً وتكراراً حتى جفت حنجرتي. كنت أعرف مكاني تقريباً، لكنني أردت سماع ما سيقولونه لأتأكد، فسألت عدة مرات ولكن دون فائدة، ثم حاولت للمرة الأخيرة باستخدام كامل قوتي: «أين نحن؟».

بعد ذلك، تلت فترة صمت دلت على أنهم سمعوا سؤالي، ثم صرخوا معاً: «كاليفورنيا!».

وعرفت من الطريقة التي وقعوا فيها على بعضهم أنهم كانوا يضحكون.

ناديت بسخرية:

- شكراً.

ردوا عليّ بكلام لم أفهمه، وأعادوه عدة مرات، لكنه تشوش كل مرة؛ حتى صرخوا الكلمات واحدة تلو الأخرى وسمعتهم.

- هل أنت ضائعة؟

فكرت في الأمر للحظة. إن قلت نعم فسينقذونني وسأنتهي من هذا الطريق اللعين، فصرخت:

- لا.

لقد انتهى أمري.

نظرت حولي إلى الأشجار والنور المنبعث من بينها. سيحل المساء عما قريب، وعلي العثور على مكان للتخييم؛ حيث سأنصب خيمتي في الثلج، وأستيقظ في الثلج، وأكمل دربي في الثلج على الرغم من كل شيء فعلته لتجنبه.

أكملت المشي حتى وجدت في النهاية بقعة دافئة لأنصب فيها خيمتي؛ إذ لم يكن أمامي خيار سوى أن أعتبر الثلج المتجمد تحت شجرة دافئاً. وحين زحفت إلى كيس النوم وأنا مرتدية ملابسي المطرية فوق ملابسي شعرت بالبرد الخفيف، كما تركت عبوات المياه بالقرب مني لئلا تتجمد.

في الصباح، كانت جدران خيمتي مغطاة بالصقيع بسبب كثافة أنفاسي التي تجمدت في الليل. استلقيت بصمت لبرهة، إذ لم أكن مستعدة بعد لمواجهة الثلج، وأنصت لزقزقة العصافير التي أصبح صوتها مألوفاً بالنسبة لي. وحين جلست وفتحت الباب ونظرت للخارج شاهدت العصافير ترفرف من شجرة لأخرى دون أن تكترث لي.

وضعت إبريق الماء، وسكبت الماء وبديل الحليب ثم حركتهما، وبعد ذلك أضفت الحبوب وجلست أتناول طعامي بالقرب من باب خيمتي المفتوح وكلي أمل أنني لا أزال على طريق جبال المحيط الهادئ. وقفت وغسلت الإبريق بحفنة من الثلج، ثم تفحصت المحيط؛ إذ كنت محاطة بالصخور والأشجار المنبثقة من تحت الثلج، وشعرت بعدم الارتياح لوضعي، وبالذهول لهذا الجمال الأخّاذ الواسع. هل علي الاستمرار أم العودة؟ لكنني كنت أعرف الجواب، بل كنت أشعر به في أحشائي... بالطبع سأستمر. لقد عملت بجد للوصول إلى هنا، لكن عودتي لها تبريرات منطقية؛ إذ يمكنني تتبع خطواتي إلى مدينة سيرا وركوب حافلة أخرى شمالاً لأبتعد عن الثلج وأصبح بأمان... هذا أمر منطقي... وربما يكون الأمر الصائب الذي علي فعله... لكنني لن أفعله.

مشيت طوال النهار بمشقة شديدة وأنا أتكئ على عصا التزلج، لدرجة أن يدي تقرحت، فنقلت العصا إلى اليد الأخرى فتقرحت أيضاً. وكنت عند كل منعطف وفوق كل مرتفع وعلى الجانب الآخر من كل مرج آمل أن أجد الثلج قد اختفى، لكن الثلج كان يتزايد. وكنت كلما رأيت مسحة من الأرض غير مغطاة بالثلج أتساءل: «هل هذا طريق جبال المحيط الهادئ؟»، لكنني لم أكن متأكدة، ولا يمكن سوى للوقت أن يثبت ذلك.

بدأت أتعرق وأنا أمشي، فابتل كل ظهري حيث تغطي حقيبتي جسدي؛ على الرغم من درجة الحرارة المنخفضة وملابسي الخفيفة. وحين توقفت، بدأت أرتعش خلال دقائق، حيث أصبحت ملابسي المبللة باردة كالثلج. وعلى

الرغم من أن عضلاتي بدأت أخيراً بالتكيف مع مطالب المشي لمسافات طويلة لكن ظهرت أمامها مطالب جديدة. تذكرت كيف علمني غريغ استخدام فأس الجليد، وتمنيت بشدة لو كانت معي، وتخيلتها ملقاة بلا فائدة في الصندوق المجاني للمتنزهين على طريق جبال المحيط الهادئ في مدينة سيرا. ومع كل هذا المشي تقرحت قدماي في أماكن جديدة إلى جانب الأماكن القديمة التي تقرحت في أول أيام رحلتي، كما ظل جسدي عند كتفيّ وردفيّ مكشوطاً بسبب حمالتَي الوحش.

أكملت المسير ببطء شديد. كنت عادة أقطع ميلين في الساعة وأنا أمشي في أغلب الأيام، لكن كل شيء اختلف في الثلج؛ حيث أصبحت أكثر بطئاً وأقل ثقة. فكرت أن الأمر سيستغرق معي ستة أيام لأصل إلى بيلدن، لكنني حين حزمت حقيبتي ووضعت فيها طعامي لم تكن لدي أدنى فكرة عما سيحصل معي. فإمضائي ستة أيام في هذه الظروف أمر مستحيل؛ ليس من الناحية الجسدية فحسب، وإنما أيضاً كانت كل خطوة أخطوها تحتاج لجهد ضروري لأبقى تقريباً على طريق جبال المحيط الهادئ. وباستعمال خريطتي وبوصلتي حاولت تذكر كل ما يمكنني تذكره من الكتيب الإرشادي الذي أحرقته منذ زمن، فالكثير من التقنيات كانت تربكني؛ حتى وأنا أحمل الكتاب بيدي، لكن الآن أصبح من المستحيل القيام بها بثقة فأنا لست بارعة في الرياضيات، ولا يمكنني تذكر الأرقام والعمليات لأنني لم أهتم بها قط. فبرأيي، العالم ليس مخططاً أو عملية أو معادلة، وإنما قصة. لذا، كنت أعتمد غالباً على الوصف في الكتيب الإرشادي وأقرأه مرة تلو الأخرى وأربط بينه وبين خرائطي محاولة الكشف عن أسرار كل كلمة وعبارة، والتي كانت كسؤال ضخم في اختبار معياري:

«في حال تسلقت شيريل شمالاً على حافة لمدة ساعة بسرعة 1.5 ميل في الساعة، ثم اتجهت غرباً إلى منطقة يمكنها منها رؤية بحيرتين مستطيلتين تمتدان إلى الشرق فهل هي تقف على السهل الجنوبي للقمة رقم 7503؟».

خمنت وخمنت، وقست وقرأت، وتوقفت وحسبت وعددت قبل أن أعتمد على ما كنت أظنه صحيحاً. ولحسن الحظ، كانت في هذه المساحة من الأرض الكثير من الدلائل؛ حيث إنها محاطة بالقمم والمرتفعات والبحيرات والبرك المرئية من علي الطريق. كان لا يزال لدي الشعور نفسه المسيطر علي منذ البداية حين بدأت المشي في سيرا نيفادا من بدايتها الجنوبية؛ كما لو أنني معلقة فوق العالم بأسره، وأشرف عليه من الأعلى. تقدمت من قمة إلى أخرى، وشعرت بالراحة حين رأيت أرضاً جرداء حيث ذاب الثلج. وكنت أرتعش

فرحاَ حين أجد حوض مياه أو صخرة بشكل محدد تتطابق مع ما تذكره الخريطة أو الكتيب الإرشادي. في تلك اللحظات شعرت بالقوة والهدوء، ثم بعد لحظات وحين توقفت مجدداً أصبحت متأكدة من أنني اتخذت قراراً غبياً للغاية حين قررت الاستمرار؛ حيث مررت بأشجار بدت مألوفة لي تماماً، كما لو أنني مررت بها قبل ساعة، وحدقت في مساحات واسعة من الجبال التي لم تكن تختلف بشيء عن المساحات الجبلية التي رأيتها من قبل، وتفحصت الأرض بحثاً عن آثار أقدام على أمل أن أطمئن لأقل علامة على وجود إنسان آخر، لكنني لم أر شيئاً سوى آثار الحيوانات كالظربان والأرانب، وساد في الجو صوت الرياح التي تضرب الأشجار أحياناً، وتهدأ في أحيان أخرى ليبدو لي كل شيء واثقاً من نفسه.

كنت أصرخ بين الحين والآخر:

- مرحباً!

مع أنني كنت أعرف في كل مرة أن أحداً لن يجيب، لكنني كنت بحاجة لسماع صوت ما؛ حتى لو كان صوتي أنا. فصوتي سيحميني من احتمال الضياع في هذه البراري المغطاة بالثلوج إلى الأبد.

وبينما كنت أتنزه، قفزت أجزاء من أغانٍ إلى محطة الإذاعة في رأسي، ليقاطعها أحياناً صوت جو وهو يخبرني بمدى حماقتي بالمشي في الثلج هكذا وحدي؛ فهو من سيقوم بكل ما يلزم في حال لم أعد. فعلى الرغم من طلاقنا، لا يزال أكثر شخص مقرب مني، أو على الأقل المنظم بما يكفي لحمل مثل هذه المسؤولية. تذكرته وهو يوبخني ونحن نسافر من بورتلاند إلى مينابوليس حين اقتلعني من قبضة الهيروين وجو في الخريف الماضي، حيث قال بقرف:

- أتعلمين أنه كان من المحتمل أن تموتي؟

كما لو أنه كان يتمنى ذلك ليثبت وجهة نظره.

- في كل مرة تتعاطين فيها الهيروين يكون الأمر وكأنك تلعبين الروليت الروسية، حيث توجهين مسدساً إلى رأسك وتضغطين على الزناد لكنك لا تعرفين متى ستكون الرصاصة في المخزن.

لم أستطع قول شيء لأدافع عن نفسي فقد كان محقاً؛ على الرغم من أنني لم أعترف بذلك حينها.

لكن المشي على طريق رسمته بنفسي– وأنا آمل أن يكون طريق جبال المحيط الهادئ– عكسُ استخدام الهيرويين. فالزناد الذي ضغطت عليه حين مشيت على الثلج جعلني أكثر حيوية واطلاعاً على حواسي مما كنت عليه من قبل. فمع أنني كنت غير واثقة وأنا أندفع إلى الأمام لكنني شعرت أنني محققة في تقدمي؛ كما لو أن جهدي يعني شيئاً، وأن كوني وسط الجمال غير المدنس للبراري يعني أنني أنا أيضاً غير مدنسة؛ بغض النظر عما خسرته، وبغض النظر عن الأمور المخزية التي فعلتها بنفسي وبالآخرين... لقد كنت متشككة من أمور كثيرة؛ باستثناء أن للبراري نقاء يضمني.

مشيت في الهواء البارد بابتهاج، بينما تتلألأ أشعة الشمس عبر الأشجار وتنعكس على الثلج. كنت أحياناً أمر بأماكن أسمع فيها خريراً، كما لو أن هناك جدولاً يمر تحت الثلج وتستحيل رؤيته. وفي أحيان أخرى، كان الثلج قد سقط بكومة كبيرة عن أغصان الأشجار.

في اليوم الثالث بعد خروجي من مدينة سيرا، جلست بالقرب من باب خيمتي المفتوح وأنا أعتني بقدمي المتقرحة، لأدرك أن اليوم السابق كان الرابع من يوليو، فتخيلت ما كان أصدقائي وعدد كبير من مواطني الولايات المتحدة يفعلونه؛ مما جعلني أشعر بالوحدة... لا بد أنهم أقاموا الحفلات والمهرجانات وأصيبوا بحروق شمسية وأشعلوا الألعاب النارية، في حين بقيت هنا لوحدي في البرد.

في الصباح التالي، مشيت عبر الثلج لساعات حتى وصلت إلى سهل حيث توجد شجرة كبيرة قد سقطت وجذعها أجرد من الثلج والأغصان، فأنزلت حقيبة ظهري، ثم تسلقت الشجرة وأخرجت لحم البقر المقدد من الحقيبة، وجلست أتناوله وأحتسي الماء. وبعد لحظات، رأيت شيئاً أحمر إلى يميني... كان هناك ثعلب يتجه نحوي وهو يغرز مخالبه في الثلج دون أن ينظر إليّ أو حتى يعرف أنني كنت هناك؛ على الرغم من أن ذلك بدا مستحيلاً. وحين وقف الثعلب أمامي مباشرة على بعد عشر أقدام ربما، توقف وأدار رأسه ونظر باتجاهي في سلام، وقد كانت ملامح وجهه حادة وجسده متحفزاً.

تسارعت دقات قلبي، لكنني جلست بهدوء وأنا أقاوم الرغبة بالقفز على قدميّ والاختباء وراء الشجرة. لم أكن أعلم ما الذي سيفعله الثعلب، لكنني لم أظنه سيؤذيني، غير أنني لم أستطع إلا أن أخاف من ذلك الاحتمال. كان بارتفاع ركبتي، لكن قوته لا تقهر وجماله أخاذ وتفوقه علي واضح؛ إذ يمكنه الهجوم علي بلمح البصر، فهذا عالمه.

همست بصوت لطيف قدر الإمكان:

- ثعلب!

كما لو أنني حين أقول اسمه يمكنني الدفاع عن نفسي منه وجذبه إلي. رفع رأسه الأحمر ذا العظام البارزة، لكنه ظل واقفاً كما كان، وتفحصني لبضع ثوانٍ قبل أن يلتفت ويمشي باتجاه الأشجار.

ناديته بهدوء:

- عد.

ثم صرخت فجأة:

- ماما! ماما! ماما! ماما!

ثم صمت فجأة كما صرخت فجأة.

في الصباح التالي وصلت إلى طريق. وكنت قد مررت بطرق أصغر وأكثر وعورة خلال الأيام السابقة، لكن أياً منها لم يكن عريضاً وواضحاً كهذا، فكدت أسقط على ركبتيّ عند رؤيته؛ لأنه على الرغم من أن جمال الجبال المغطاة بالثلج لا مثيل له، لكن الطريق يعني انتصاري؛ فهو يعني أنني تتبعت طريق جبال المحيط الهادئ، كما يعني أن هناك مدينة على بعد أميال في كلا الاتجاهين ويمكنني الانعطاف يميناً أو يساراً. خلعت حقيبة ظهري وجلست على كومة من الثلج وفكرت في ما سأفعله بها. إن كنت حيث أظن نفسي فهذا يعني أنني قطعت ثلاثة وأربعين ميلاً من طريق جبال المحيط الهادئ خلال الأيام الأربعة، أي منذ أن غادرت مدينة سيرا، على الرغم من أنني ربما مشيت أكثر من ذلك بسبب قدراتي الضعيفة في التعامل مع الخريطة والبوصلة. لكن الأمر لم يكن يستحق التفكير. لم يكن معي طعام يكفي سوى لبضعة أيام، وسينفد مني في حال حاولت الاستمرار. بدأت المشي على الطريق باتجاه بلدة تدعى كوينسي.

كان الطريق كالبراري التي كنت أمشي فيها خلال الأيام القليلة الماضية... فهو هادئ ومغطى بالثلج، لكنني الآن لست مضطرة للتوقف كل بضع دقائق لأعرف أين أنا، وإنما كنت أمشي ببساطة ليتحول الثلج إلى وحل. لم يذكر الكتيب الإرشادي كم تبعد كوينسي، وإنما ذكر أنها تبعد مسيرة يوم، فسارعت خطاي على أمل الوصول إليها بحلول المساء؛ على الرغم من أنه لا يمكنني فعل شيء فيها بستين سنتاً.

بحلول الساعة الحادية عشرة، درت عند منعطف، ورأيت سيارة كبيرة خضراء مركونة على جانب الطريق.

فصرخت بحذر:

- مرحباً!

لكن أحداً لم يرد. اقتربت من السيارة ونظرت داخلها، فوجدت كنزة ذات قبعة مرمية على المقعد الأمامي، وكوب قهوة من الورق المقوى، بالإضافة إلى أشياء مبعثرة ذكرتني بحياتي السابقة. أكملت المسير في الطريق لنصف ساعة حتى سمعت سيارة تقترب مني من الخلف فالتفت.

كانت السيارة الكبيرة الخضراء، وبعد بضع لحظات توقفت أمامي، حيث كان فيها رجل وراء المقود وامرأة على المقعد المجاور. قالت المرأة بعد أن أنزلت زجاج النافذة:

- نحن متجهان إلى باكر ليك لودج إن كنت ترغبين في أن نوصلك.

فشكرتها وركبت على المقعد الخلفي. كنت قد قرأت عن باكر ليك لودج في الكتيب الإرشادي قبل أيام، حيث كان بإمكاني المشي في طريق جانبي ليوم واحد من مدينة سيرا، لكنني قررت تجاوزه لرغبتي بالبقاء على طريق جبال المحيط الهادئ. وبينما مشت السيارة، شعرت بتقدمي نحو الشمال يذهب سدى إذ إن جميع الأميال التي تعبت في قطعها راحت سدى في أقل من ساعة. لكن الركوب في تلك السيارة كان أشبه بالنعيم، حيث جلست أشاهد الأشجار التي أمر بها بسرعة. فعلى الرغم من أن سرعتنا كانت حوالي عشرين ميلاً في الساعة ونحن ننعطف حول الطريق، لكنني شعرت أننا نتحرك بسرعة فائقة.

فكرت في الثعلب، وتساءلت إن كان قد عاد إلى الشجرة التي سقطت وتساءل عني. ثم تذكرت اللحظة التي اختفى فيها في الغابات، حين ناديت أمي؛ حيث كان ذلك نوعاً من الصمت الفعال الذي بدا أنه يحتوي على كل شيء... تغريد الطيور، وحفيف الأشجار، وذوبان الثلج، وخرير المياه غير المرئية، وتلألؤ الشمس، والمسدس الذي لا توجد رصاصة في مخزنه والأم... دائماً الأم... الأم التي لن تأتي إليّ أبداً.

10

سلسلة النور

كان مجرد النظر إلى باكر ليك لودج ضربة موجعة؛ فقد كان مطعماً يقدم الطعام، في حين كنت أنا كراعٍ ألماني، حيث بإمكاني شم رائحة الطعام بمجرد نزولي من السيارة. شكرتُ الزوجين اللذين أوصلاني ومشيت نحو المبنى الصغير تاركة الوحش على الشرفة قبل أن أدخل. كان المكان مزدحماً بالسياح، ومعظمهم قد استأجروا الأكواخ الريفية المحيطة بالمطعم، وبدا عليهم أنهم غير منتبهين للطريقة التي كنت أحدق فيها بأطباقهم وأنا أشق طريقي نحو الموظف... كومة من البان كيك واللحم المقدد والبيض مكومة فوق بعضها، أو ربما البرغر بالجبن المغطى بأصابع البطاطا المقلية، وشعرت بالانهيار لرؤية تلك الأطعمة.

سألت المرأة التي تجلس وراء طاولة الحساب:

- هل سمعت شيئاً عن مستويات الثلج في الشمال؟

كان يبدو عليها أنها مديرة المكان، وذلك نظراً إلى الطريقة التي كانت تراقب فيها النادلة وهي تتنقل في أرجاء الغرفة حاملة إبريق القهوة. لم أكن قد التقيت هذه المرأة من قبل، لكنني عملت عند مثيلاتها آلاف المرات، وخطر ببالي أن أطلب منها تسليمي وظيفة خلال الصيف، وأن أترك طريق جبال المحيط الهادئ.

- إنه مغطى بالثلج الكثيف، وجميع المتنزهين تركوا الطريق هذا العام، ويمشون جميعاً على طريق غولد ليك السريع بدلاً من ذلك.

سألتها بارتباك:

- طريق غولد ليك السريع؟! هل مر من هنا رجل يدعى غريغ في العقد الرابع من عمره، بشعر ولحية بنيي اللون خلال الأيام القليلة الماضية؟

هزت رأسها بالنفي، لكن النادلة قالت إنها تكلمت مع متنزه على طريق جبال المحيط الهادئ تنطبق عليه المواصفات على الرغم من أنها لا تعرف اسمه.

- يمكنك الجلوس إلى طاولة إن كنت تريدين تناول الطعام.

كانت هناك قائمة طعام على المنضدة، فسحبتها لأرى ثم سألت بنبرة مازحة:

- ألديكم شيء يكلف ستين سنتاً أو أقل؟

- يمكنك بخمسة وسبعين سنتاً شراء كوب من القهوة، ويمكن إعادة ملئه مجاناً.

- معي غدائي في حقيبتي.

ومشيت نحو الباب وأنا أمر بأطباق مكومة فيها مخلفات طعام لا أحد سيقبل بتناولها سواي أنا والدببة والظربانات، ثم أكملت طريقي إلى الشرفة، وجلست بجوار الوحش، وأخرجت الستين سنتاً من جيبي وحدقت في العملات المعدنية الفضية في راحة يدي كما لو أنها ستتضاعف إن حدقت فيها بقوة. فكرت بالصندوق الذي ينتظرني في بلدة بيلدن، والذي يحتوي على عشرين دولاراً؛ فقد كنت أتضور جوعاً وعلى الرغم من أن معي غدائي في حقيبة ظهري لكنني لم أكن أرغب بتناوله، لذا جلست أقلب صفحات الكتيب الإرشادي محاولة وضع خطة جديدة.

- سمعتك في الداخل تتكلمين عن طريق جبال المحيط الهادئ.

التفت فرأيت امرأة نحيلة في منتصف العمر وقد قصت شعرها الأشقر بتسريحة أنيقة، وتضع في كل أذن قرطاً ماسياً.

- سأمشي فيه لبضعة أشهر.

- أظن أن ذلك رائع. لطالما تساءلت عن الناس الذين يقومون بذلك، فأنا أعرف أن الطريق هناك، لكنني لم أذهب إليه قط. أنت لست وحدك... أليس كذلك؟

وحين هززت رأسي ضحكت، ووضعت يدها على صدرها وقالت:

- وما رأي أمك في هذا؟

- إنها ميتة.

- يا إلهي... هذا رهيب.

كانت نظارتها الشمسية متدلية من حبل من الخرز المتلألئ، فتناولتها ووضعتها على عينيها، وأخبرتني أن اسمها كريستين وأنها تقيم مع زوجها وابنتيها المراهقتين في كوخ قريب.

- أترغبين بالذهاب معي والاستحمام؟

قام زوج كريستين جيف بإعداد شطيرة لي بينما استحممت، وحين خرجت من الحمام وجدتها في طبق مقطعة بشكل مائل ومحاطة برقائق الذرة والمخلل.

- يمكنك إضافة الكمية التي ترغبين بها من اللحم.

ووضع أمامي جيف طبقاً من اللحم البارد وهو يجلس مقابلي إلى الطاولة. كان وسيماً وممتلئ الجسم. وشعره مموج وداكن اللون مع بعض الشيب عند الصدغين. خلال مشينا من المطعم إلى الكوخ، أخبرتني كريستين أنه يعمل محامياً، وأنهما يقيمان في سان فرانسيسكو لكنهما يمضيان الأسبوع الأول من يوليو كل عام هنا.

- سآخذ بعض القطع.

ومددت يدي إلى اللحم متصنعة عدم الاكتراث.

قالت كريستين:

- إنه عضوي في حال كنت تهتمين بذلك، كما تمت تربيته بأسلوب إنساني. نحن نهتم بهذه الأمور قدر المستطاع. أترغبين بالجبن يا شيريل؟

- لا، شكراً.

لكنها قطعت بعض القطع وأحضرتها لي، فتناولتها بسرعة كبيرة، فعادت وقطعت المزيد دون أن تقول شيئاً، ثم أحضرت كيس رقائق البطاطا ووضعت حفنة أخرى في طبقي، ثم فتحت علبة من الشراب ووضعتها أمامي. ولو أنها أفرغت كل محتويات الثلاجة لتناولتها كلها، وكنت كلما وضعت شيئاً على الطاولة أقول لها:

- شكراً.

وراء المطبخ، استطعت رؤية ابنتي كريستين من خلال الباب الزجاجي المنزلق، حيث كانتا جالستين على المنصة على كرسيين متشابهين وهما

تتصفحان المجلات وتضعان سماعات الهاتف على آذانهما.

- كم عمرهما؟

- ستة عشر عاماً وثمانية عشر عاماً.

أحستا أننا ننظر إليهما فرفعتا بصرهما، فلوحت لهما وردتا علي بالتلويح بخجل، ثم عاودتا النظر إلى مجلتيهما.

- كنت سأحب لو أنهما قامتا بشيء مماثل لما تفعلينه وكانتا شجاعتين وقويتين مثلك، لكنهما ليستا بتلك الشجاعة. لكنني أظن أن بقاء إحداهما في الخارج مثلك سيخيفني... ألست خائفة من بقائك وحدك؟

- أحياناً، لكن ليس كثيراً.

كان شعري المبتل يقطر على قميصي القذر، وكنت مدركة أن ثيابي تفوح منها رائحة كريهة على الرغم من أنني شعرت تحتها بنظافة عجيبة. فقد كان الحمام تجربة رائعة بعد أيام من التعرق في البرد تحت ملابسي، ليأتي الماء الساخن والصابون وينظفا كل شيء. لاحظت بضعة كتب مبعثرة على الجانب الآخر من الطاولة، وكانت كتباً قرأتها وأحببتها، وأغلفتها مألوفة بالنسبة لي. ربما يسمح لي جيف وكريستين بالبقاء هنا معهم لأكون كابنتيهما وأقرأ المجلات وأنا مسترخية في الشمس على الشرفة... إن عرضا علي ذلك فسأقبل.

سألتني كريستين:

- أتحبين القراءة؟ هذا ما نفعله حين نأتي إلى هنا فهذه فكرتنا عن الاسترخاء.

- القراءة هي مكافأتي لنفسي في نهاية النهار. الكتاب الذي معي هو القصص الكاملة لفلانري أوكونور، ولا يزال معي الكتاب بكامله في حقيبتي؛ إذ لم أحرقه صفحة تلو الأخرى وأنا أقرأه لأنني لا أعرف الوقت الذي سأستغرقه لاجتياز المسافة في الثلج، وتغيرات خط السير قبل أن أصل إلى صندوق المؤونة التالي. لقد قرأت الكتاب بكامله، ثم بدأت من الصفحة الأولى مجدداً في الليلة الماضية.

نهض جيف وتناول أحد الكتب وقال:

- حسناَ، يمكنك أخذ هذه الكتب فقد أنهينا قراءتها، أو إن لم يكن هذا ذوقك فيمكنك أخذ هذا الكتاب.

واختفى في غرفة النوم وعاد بعد لحظة مع كتاب ثخين لجيمس ميشينر ووضعه بالقرب من طبقي الفارغ.

نظرت إلى الكتاب الذي يدعى «ذا نوفل» والذي لم أكن قد سمعت عنه أو قرأته من قبل؛ على الرغم من أن جيمس ميشينر هو الكاتب المفضل لدى أمي. فبعد أن ذهبت إلى الجامعة، عرفت أن هناك خطباً في قراءة كتبه، فقد قال لي أحد أساتذتي إنه يخاطب العامة، ونصحني ألا أقرأ له إن كنت أريد حقاً أن أصبح كاتبة. شعرت أنني حمقاء، فطوال سني مراهقتي كنت أظن نفسي مثقفة لاطلاعي على كتبه، وخلال أول شهر لي في الجامعة عرفت بسرعة أنني لا أعلم شيئاً عن الكتّاب المهمين والكتاب السخفاء.

وفي إحدى المناسبات، قدّم أحدهم كتاباً لميشينر هدية لأمي، فقلت لها باستهزاء:

- أتعرفين أن هذا ليس كتاباً حقيقياً؟

- حقيقياً!

ونظرت إليّ أمي بدهشة واستغراب.

- أعني، ليس جاداً كالأدب الفعلي الذي يستحق وقتك.

- لكن وقتي ليس بالشيء الثمين للغاية بما أنني أتقاضى غالباً أجراً ضئيلاً، كما أنني غالباً ما أعمل مجاناً.

وحين توفيت أمي وتزوج إيدي مجدداً، أخذت كل الكتب التي أردتها من رف أمي، حيث اشتريت الكتب التي اشترتها في بداية الثمانينيات عندما انتقلنا إلى أرضنا، وأخذت الكتب التي قرأتها لي صفحة صفحة قبل أن أتعلم القراءة، كما أخذت كتبها التي اشترتها أثناء دراستها الجامعية في السنوات السابقة لوفاتها، لكنني لم آخذ كتب جيمس ميشينر التي أحبتها أمي أكثر من سواها.

قلت لجيف وأنا أمسك كتاب «ذا نوفل»:

- شكراً... سأقايضكم هذا الكتاب بكتابي إن أحببتما... إنه كتاب رائع.

وصمتّ دون أن أذكر لهما أنه عليّ إحراقه في الغابة تلك الليلة في حال رفضا.

أجابني ضاحكاً:

- بالطبع، لكنني أظن أنني المستفيد الأكبر.

بعد الغداء، أوصلتني كريستين بالسيارة إلى محطة حراس الغابة في كوينسي. لكنني حين وصلت إلى هناك بدا حارس الغابة الذي تكلمت معه غير مطلع تماماً على حالة طريق جبال المحيط الهادئ، إذ لم يذهب إليه هذا العام لأنه لا يزال مغطى بالثلوج، وقد استغرب حين علم أنني كنت على الطريق، فعدت إلى سيارة كريستين وتفحصت الكتيب الإرشادي، ووجدت أن المكان المنطقي الوحيد الذي يمكنني فيه العودة إلى طريق جبال المحيط الهادئ هو حيث يتقاطع مع طريق على بعد أربعة عشر ميلاً غرب موقعي الحالي.

- تبدو هاتان المرأتان وكأنهما تعرفان شيئاً.

وأشارت كريستين عبر المرأب إلى محطة وقود حيث تقف امرأتان بجوار سيارة مغلقة ومكتوب على جانبها اسم مخيم.

قمت بالتعريف عن نفسي، وبعد بضع دقائق ودعت كريستين وركبت في مؤخر سيارتهما. كانت المرأتان طالبتين جامعيتين تعملان في مخيم صيفي، وستمران بالموقع الذي يلتقي فيه طريق جبال المحيط الهادئ بالطريق، وقد قالتا إنه يسعدهما أن توصلاني في حال كنت مستعدة للانتظار ريثما تنجزان أعمالهما. جلست في ظل سيارتهما أقرأ «ذا نوفل» في مرأب متجر بقالة وهما تتبضعان في جو حار ورطب مختلف عن الجو في الثلج هذا الصباح. وبينما كنت أقرأ، شعرت بحضور أمي بقوة وغيابها بعمق، حيث كان من الصعب عليّ التركيز على الكلمات... لماذا سخرت من حبها لميشينر؟ لقد كنت أنا أيضاً أحب ميشينر. فحين كنت في الخامسة عشرة من العمر قرأت أحد كتبه أربع مرات. ومن أسوأ الأمور المتعلقة بفقداني لأمي في هذه السن هو أن هناك الكثير لأفقده... أشياء صغيرة تؤلمني الآن... كل المرات التي سخرت فيها من لطفها بتدوير عينيّ، أو الانسحاب الجسدي كرد على لمستها... وحين قلت لها: «ألست مندهشة بمدى تفوقي في سن الحادية والعشرين عليك حين كنت في مثل عمري؟». كان مجرد التفكير بمدى عدم مبالاتي يجعلني أشعر بالغثيان؛ فقد كنت حمقاء متغطرسة، وقد ماتت أمي في خضم كل ذلك... نعم... لقد كنت ابنة محبة، وبقيت أمامها حين احتاجت

إليّ، لكن كان بإمكاني أن أكون أفضل... كان بإمكاني أن أكون ما توسلت إليها أن تقول عني... أفضل ابنة في العالم.

أغلقت الكتاب وجلست شبه مشلولة من الندم حتى عادت المرأتان وهما تدفعان عربة. فقمنا معاً بإفراغ الأكياس في الشاحنة. كانت المرأتان أصغر مني بأربع سنوات أو خمس، وشعرهما نظيف وكذلك وجهاهما اللذان بدوَا مشرقين. وكانتا كلتاهما ترتديان ملابس رياضية.

قالت إحداهما بعد أن أنهينا نقل الأكياس:

- لقد كنا نتكلم... من الصعب عليك التنزه وحدك.

- ما رأي والديك في ما تفعلينه؟

- ليس لديهما رأي... أقصد أنه ليس لدي والدان. فأمي ماتت، وليس لدي أب، أو لدي ولكنه غير موجود في حياتي.

صعدت السيارة ووضعت الكتاب في الوحش لئلا أرى الانزعاج على وجهيهما.

قالت إحداهما:

- واو!

- ياي!

- الجانب الإيجابي هو أنني حرة ويمكنني فعل ما يحلو لي.

- ياي!

- واو!

ركبتا في المقعد الأمامي وانطلقنا بالسيارة، حيث نظرت من النافذة إلى الأشجار الشاهقة التي نمر بها وأنا أفكر في إيدي، فشعرت بالذنب لأنني لم أذكره حين سألتني المرأتان عن والدي؛ فقد أصبح كشخص كنت أعرفه، وأحببته منذ أول ليلة التقيته فيها حين كنت في العاشرة من العمر وسأظل أحبه؛ إذ لم يكن كأي من الرجال الذين واعدتهم أمي في السنوات التي تلت طلاقها من أبي. فمعظم أولئك الرجال لم يستمروا على علاقة معها لأكثر من بضعة أسابيع، حيث كانوا يخافون من أنهم إذا ارتبطوا بها فذلك يعني ارتباطهم

بي وبكارن وليف، لكن إيدي أحبنا كلنا منذ البداية. كان يعمل حينها في مصنع لقطع السيارات على الرغم من كونه نجاراً محترفاً، ولديه عينان زرقاوان ناعمتان وأنف ألماني حاد وشعر بني يربطه على شكل ذيل حصان يصل إلى منتصف ظهره.

في أول ليلة التقينا فيها جاء لتناول العشاء في مجمع الشقق الذي كنا نعيش فيه والذي يدعى تري لوفت، حيث كان ذلك ثالث مجمع شقق نقطن فيه منذ طلاق والديّ، وكانت جميع مباني الشقق تقع ضمن محيط نصف ميل بعيداً عن بعضها في تشاسكا، وهي بلدة تبعد ساعة من مينابوليس؛ إذ كنا ننتقل إلى حيث يمكن لأمي إيجاد مكان رخيص الإيجار. وحين وصل إيدي كانت أمي تعد العشاء، لذا لعب مع كارن وليف ومعي في الخارج على المساحة العشبية الصغيرة أمام مبنانا، حيث لاحقنا وأمسكنا وقلبنا رأساً على عقب وهزنا ليرى إن كانت ستسقط أية نقود من جيوبنا. وحين كان شيء ما يسقط كان يتناوله عن الأرض ويركض لنركض نحن وراءه ونصرخ بفرح كنا محرومين منه طوال حياتنا لأننا لم نتلقَّ الحب الحقيقي من رجل قطّ. كان يدغدغنا ويشاهدنا ونحن نرقص ونقفز، ويعلمنا أغاني غريبة وخدعاً يدوية معقدة، كما كان يسرق أنوفنا وآذاننا ثم يرينا إياها حين يحشر إصبعه الإبهام بين إصبعيه ثم يعيدها إلينا ونحن نضحك. وحين نادتنا أمي لتناول العشاء كنت مسلوبة العقل به لدرجة أنني فقدت شهيتي.

لم تكن لدينا غرفة طعام في شقتنا، وإنما غرفتا نوم وحمام وغرفة جلوس مع ركن فيه منضدة وموقد وثلاجة وبعض الخزائن. وفي وسط الغرفة توجد طاولة خشبية دائرية كبيرة قوائمها مقطوعة كانت أمي قد اشترتها بعشرة دولارات من الأشخاص الذين كانوا يقطنون في شقتنا قبلنا. جلسنا على الأرض حول هذه الطاولة لتناول الطعام، وقلنا إننا صينيون دون أن نعرف أن اليابانيين هم الذين يتناولون وجباتهم وهم جالسون على الأرض أمام طاولات منخفضة. وعلى الرغم من أنه كان من غير المسموح إبقاء الحيوانات الأليفة في تري لوفت لكننا كنا نفعل ذلك؛ حيث كان لدينا كلب يدعى كيزي وطائر كنار يدعى كناري يطير بحرية في أرجاء الشقة.

كان عصفوراً مهذباً يتغوط على صحيفة في مقلاة في الزاوية، ولا أدري إن كانت أمي هي التي دربته على ذلك، أم أنه يفعل ذلك بملء إرادته. وبعد بضع دقائق من جلوسنا كلنا على الأرض حول الطاولة، حط كناري على رأس إيدي. كان في العادة حين يحط علينا يتوقف للحظة فقط ثم يطير بعيداً، لكنه ظل واقفاً على رأس إيدي، وحين ضحكنا التفت إلينا وسألنا بتجاهل زائف عما يضحكنا.

- هناك عصفور على رأسك.

- ماذا؟

ونظر في أرجاء الغرفة بدهشة مصطنعة.

- هناك عصفور على رأسك.

- أين؟

فصرخنا بهيستيريا فرحة:

- هناك عصفور على رأسك.

كان هناك عصفور على رأسه، وقد ظل العصفور هناك على غير العادة طوال العشاء، وفي ما بعد حيث غط في النوم... وكذلك فعل إيدي.

على الأقل فعل ذلك حتى ماتت أمي، حيث قربنا مرضها من بعضنا أكثر من ذي قبل، فأصبحنا رفيقين في أسابيع مرضها؛ حيث كنا نستشير بعضنا في القرارات الطبية، ونبكي معاً حين نعرف أن النهاية قد اقتربت. وقد التقينا معاً مدير قسم الجنائز بعد وفاتها، ولكن بعد ذلك مباشرة ابتعد إيدي عني وعن أخويّ، وبدأ يعاملنا وكأنه صديقنا وليس أبانا، وسرعان ما وقع في غرام امرأة أخرى انتقلت إلى منزلنا مع أطفالها. وبحلول الذكرى السنوية الأولى لوفاة أمي، كنا أنا وكارين وليف قد استقللنا، ووضبت معظم أغراض أمي في صناديق وخزنتها. كان إيدي يقول إنه يحبنا لكن الحياة يجب أن تستمر، كما كان يدعي أنه لا يزال أبانا ولكنه لم يفعل شيئاً ليثبت ذلك، وكان الأمر يزعجني ولكن في النهاية لم يعد أمامي خيار سوى قبول ما أصبحت عليه عائلتي... لم تعد عائلة على الإطلاق.

حين ركنت المرأتان الشابتان السيارة على جانب الطريق السريع الضيق كانت الأشجار العالية المصفوفة على جانبي الطريق تتألق تحت شمس الغروب، فشكرتهما على توصيلي، ونظرت حولي وهما تنطلقان بعيداً. كنت واقفة إلى جانب لوحة خدمة غابات مكتوب عليها «مخيم وايتهورس»، وكانت المرأتان قد أخبرتاني أن طريق جبال المحيط الهادئ يقع وراء المخيم مباشرة، ولم أكن قد نظرت إلى الخريطة ولو مرة ونحن في السيارة. فبعد أيام من التيقظ والحذر المستمرين، كنت قد تعبت من التحقق من الكتيب الإرشادي والتحقق مجدداً، لذا كنت أستمتع بالرحلة ببساطة وأنا مسلمة للمرأتين بثقة في أنهما تعلمان أين تذهبان. قالتا إنه يمكنني المشي من

المخيم في طريق قصير سيقودني إلى طريق جبال المحيط الهادئ. قرأت الصفحات التي مزقتها من الكتيب الإرشادي وأنا أسير في المنعطفات المعبدة للمخيم محاولة رؤية الكلام في النور الباهت، وقفز قلبي فرحاً وارتياحاً حين وجدت عبارة «مخيم وايت هورس»، ثم أصبت بخيبة شديدة حين أكملت قراءتي وأدركت أنني أبعد ميلين عن طريق جبال المحيط الهادئ، فعبارة «وراءه مباشرة» كانت تعني للمرأتين في السيارة شيئاً مختلفاً عما تعنيه لي.

نظرت حولي إلى صنابير المياه والمنازل البنية واللافتة الكبيرة التي تشرح كيف ينبغي للمرء أن يدفع مقابل إقامته لليلة من خلال ترك النقود في مغلف ووضعه في صندوق خشبي. وباستثناء بعض الخيام، كان المخيم فارغاً، فمشيت حتى وصلت إلى منعطف آخر وأنا أفكر في ما علي فعله؛ إذ إنني لا أحمل المال لأدفع للمخيم، لكن الظلام حالك ولا يمكنني المشي إلى الغابات. وصلت إلى ساحة تخييم في طرف المخيم بعيدة للغاية عن اللافتة التي توجد فيها تفاصيل كيفية الدفع... من سيراني؟

نصبت خيمتي وطهوت وتناولت عشائي برفاهية على طاولة النزهة على ضوء مصباحي الرأسي، وتبولت براحة في المرحاض، ثم دخلت خيمتي وفتحت كتاب «ذا نوفل»، ولم أكن قد قرأت سوى ثلاث صفحات حين غمر النور خيمتي، ففتحت الباب وخرجت لأحيي الزوجين المسنين اللذين كانا يقفان أمام أنوار شاحنتهما.

- أهلاً.

ردت المرأة:

- عليك أن تدفعي مقابل بقاءك في هذا المكان.

أجبتها باستغراب وببراءة زائفة:

- علي أن أدفع؟! ظننت أن الناس الذين لديهم سيارات هم الذين يدفعون الرسوم فقط، أما أنا فأتنزه سيراً على الأقدام، ولا توجد معي سوى حقيبة ظهري، وسأغادر في الصباح الباكر قبل الساعة السادسة.

ردت المرأة:

- إن كنت ستبقين هنا فعليك أن تدفعي.

أضاف الرجل:

- عشرون دولاراً لليلة.

- المشكلة هي أنني لا أحمل معي نقوداً، فأنا في رحلة كبيرة، حيث أمشي على طريق جبال المحيط الهادئ، لكن بسبب كل تلك الثلوج في الجبال ابتعدت عن الطريق ولم أكن أخطط للقدوم إلى هنا، لكن المرأتين اللتين ركبت معهما أنزلتاني في المكان الخطأ وكان...

قاطعني الرجل بقوة مفاجئة:

- لا شيء من هذا يغير حقيقة أنه عليك أن تدفعي أيتها الشابة.

- إن كنت لا تستطيعين الدفع فعليك حزم أغراضك والمغادرة.

كانت ترتدي كنزة عليها زوج من الظربان ينظران من ثقب في شجرة على صدرها.

- لا يوجد أحد هنا ونحن في منتصف الليل! ما الضرر لو...

قال الرجل:

- هذا هو القانون.

ثم استدار وركب شاحنته.

- نحن آسفان يا آنسة، لكننا المشرفان على المخيم، ومهمتنا الحرص على تقيد الجميع بالقوانين. نحن لا نرغب بالاتصال بالشرطة.

أخفضت نظري وخاطبت الظربان:

- لكن... لا أظن أنني أتسبب بأي ضرر. أعني أن أحداً لن يستخدم هذا الموقع لو لم أكن هنا.

فصرخت وكأنها توبخ كلباً:

- نحن لا نقول إن عليك المغادرة وإنما نقول إن عليك الدفع.

- لا أستطيع.

- هناك طريق يؤدي إلى طريق جبال المحيط الهادئ ويبدأ من وراء الحمامات مباشرة، أو يمكنك المشي على جانب الطريق لميل أو أكثر وهو

أكثر وضوحاً. سنترك الأنوار مضاءة بينما تحزمين أغراضك.

ثم ركبت الشاحنة بجانب زوجها ولم أستطع رؤية وجهيهما وراء الضوء.

التفت إلى خيمتي مذهولة، ووضعت المصباح الرأسي بيدين مرتعشتين، ووضعت كل شيء في حقيبتي بدون العناية والترتيب المعتادين. ولم أكن أدري ما علي فعله، فقد كان الظلام مخيماً وعلي المشي في طريق مجهول في الظلام. حملت الوحش ولوحت للزوجين في الشاحنة دون أن أتمكن من رؤية إن كانا قد لوحا لي أو لا.

مشيت حاملة المصباح الرأسي بيدي والذي كان بالكاد يضيء الطريق لكل خطوة، إذ إن البطاريات قد فرغت. توجهت إلى الحمامات، ورأيت الطريق الذي ذكرته لي المرأة، وقمت ببضع خطوات نحوه. كنت قد اعتدت على الشعور بالأمان في الغابات حتى لو كان الوقت ليلاً، لكن المشي في الغابات في الظلام بدا أمراً مختلفاً؛ لأنني لم أعد أستطيع الرؤية، وأصبح من الممكن أن أمر بحيوان ليلي أو أفوّت منعطفاً وأكمل إلى مكان مجهول. لذا، مشيت ببطء وتوتر كما فعلت في أول يوم من نزهتي حين وجدت أفعى في طريقي.

بعد قليل، توضّحت ملامح المحيط لي، فقد كنت في غابة من أشجار الصنوبر والبلوط العالية، حيث ارتفعت جذوعها المستقيمة فوقي، كما سمعت خرير جدول إلى يساري، وشعرت ببساط من إبر الصنوبر اليابسة تحت قدمي. مشيت بنوع من التركيز لم أشهده من قبل، لكنني بسببه استطعت الشعور بالطريق وبجسدي بدقة أكبر، كما لو أنني كنت أمشي حافية القدمين وعارية؛ مما ذكرني بطفولتي حين كنت أتعلم امتطاء الخيل، حيث علمتني أمي على حصانها وأجلستني على السرج بينما وقفت ممسكة بحبل موصول بلجام الفرس، في حين تشبثت أنا بالفرس بيدي من الخوف، ولكنني استرخيت في ما بعد. وطلبت مني أمي أن أغمض عينيّ لأشعر بحركة الحصان تحتي وحركة جسمي مع الحصان.

شققت طريقي على الطريق لعشرين دقيقة حتى وصلت إلى مكان مفتوح، فخلعت حقيبة ظهري وانحنيت على يديّ وركبتيّ لأستكشف مكاناً يبدو مناسباً للنوم، ثم نصبت خيمتي وزحفت داخلها وأغلقت الباب مع أنني لم أكن متعبة، فقد تنشطت بسبب نزهتي في وقت متأخر من الليل.

فتحت «ذا نوفل»، لكن ضوء المصباح الرأسي كان يرتجف ويبهت، لذا أطفأته واستلقيت في الظلام وربتّ بيدي على ذراعي معانقة نفسي، حيث

شعرت بالوشم تحت أصابع يدي اليمنى، وتتبعت خطوط الحصان. كانت المرأة التي رسمت لي الوشم قد قالت إنه سيبقى بارزاً عن الجلد لبضعة أسابيع، لكنه بقي كذلك حتى بعد مضي أشهر... ولم يكن الوشم لأي حصان وإنما لليدي؛ وهي فرس أمي التي سألت الطبيب في عيادة مايو إن كان بإمكانها امتطاؤها حين أخبرها أنها ستموت. وكانت أمي قد تمكنت وبدون أي سبب منطقي من شراء ليدي في الشتاء الفظيع حين انفصلت عن أبي نهائياً، حيث التقت زوجين في المطعم الذي تعمل فيه كنادلة وكانا يريدان بيع فرسهما ذات الاثني عشر عاماً بثمن زهيد. وعلى الرغم من أنه لم يكن بإمكان أمي دفع ذلك المبلغ لكنها ذهبت ورأت الفرس ثم عقدت صفقة مع الزوجين بأن تدفع لهما ثلاثمائة دولار على مدى ستة أشهر، ثم عقدت صفقة أخرى مع زوجين آخرين كانا يمتلكان إسطبلاً قريباً، حيث كانت تعمل لديهما مقابل إيواء ليدي.

وكانت أمي تقول إن ليدي أخاذة، وقد كانت كذلك بالفعل، حيث يتجاوز ارتفاعها ستة عشر شِبراً، وهي نحيلة وطويلة وعالية القفزة وأنيقة كالملكة، ولديها نجمة بيضاء على جبهتها، لكن باقي جلدها لونه كستنائي أحمر بلون الثعلب الذي رأيته في الثلج.

كنت في السادسة من عمري حين اشترتها أمي، وكنا نقيم في قبو مجمع شقق يدعى بارباري نول بعد أن تركت أمي أبي للمرة الأخيرة، ولم يكن معنا مال كافٍ لنعتاش عليه، لكن أمي أصرت على اقتناء تلك الفرس. وكنت أعلم بحدسي– حتى وأنا طفلة– أن ليدي هي التي أنقذت حياة أمي وجعلت من الممكن بالنسبة لها أن تبتعد عن أبي وتستمر في حياتها، فقد كانت الخيول عشق أمي؛ إذ كانت ترغب بالبقاء معها كل يوم أحد. وكانت القصص التي روتها لي عن الخيول مختلفة عن القصص الأخرى التي روتها لي عن تربيتها الكاثوليكية، فقد كانت تفعل كل ما يمكنها فعله لتمتطيها؛ كتنظيف الإسطبلات وتهيئة مضمار السباق وحمل القش وأية وظيفة غريبة أخرى تظهر لها؛ وكل ذلك لتتمكن من دخول أقرب إسطبل وامتطاء خيول الآخرين.

وكانت صورها من حياتها السابقة كراعية أبقار تخطر ببالي بين الفينة والأخرى؛ كرحلات ركوب الخيل في الليل التي قامت بها مع أبيها في نيومكسيكو، واستعراضات الخيول التي قامت بها مع صديقاتها الفتيات. وفي سن السادسة عشرة حصلت على حصانها الذي كان يدعى بال والذي ركبته في عروض الخيول في كولورادو، وكانت تحتفظ بالأوسمة التي فازت بها حتى وفاتها. وقد وضبتها في صندوق خبأته في قبو ليزا في بورتلاند.

في أول إسطبل بقيت فيه ليدي بعد أن اشتريناها، قامت أمي بالأعمال نفسها التي كانت تقوم بها في طفولتها؛ كتنظيف الإسطبلات ونشر القش ونقل الأشياء في عربة، وغالباً ما كانت تأخذنا معها أنا وكارين وليف لنلعب في الحظيرة بينما تقوم هي بواجباتها، ثم نشاهدها وهي تمتطي ليدي حول الحلبة، ثم نركب واحداً تلو الآخر. وحين انتقلنا إلى أرضنا في شمال مينيسوتا اشترينا حصاناً آخر يدعى روجر، اشترته أمي لأنني أحببته وكان صاحبه مستعداً للتخلي عنه مقابل سعر زهيد، وخصصنا لهما مساحة تبلغ ربع أرضنا.

وحين ذهبت إلى المنزل في إحدى المرات لزيارة إيدي في بداية ديسمبر، أي بعد ثلاث سنوات تقريباً من وفاة أمي صدمت بنحول ليدي وضعفها. وكانت في الحادية والثلاثين من عمرها، أي أنها عجوز. لكن حتى لو كان تحسين صحتها أمراً ممكناً، لم يكن هناك أحد ليعتني بها، فقد بدأ إيدي وحبيبته بتقسيم أوقاتهما بين المنزل الذي ترعرعت فيه ومتجر في بلدة صغيرة خارج المدينتين التوأم. وكان يعهد بالعناية بروجر وليدي لجار يقوم بذلك على عجل.

حين زرت إيدي في ذلك الحين تكلمت معه حول حالة ليدي، فكان رده عدائياً في البداية، وأخبرني أنه لا يدري لماذا عليه أن يهتم بالخيول. لم أشأ أن أناقشه حول السبب، وأن أقول له إنه أرمل أمي ولذا فهو المسؤول عن حصانيها، وإنما تكلمت عن ليدي فقط، وأصررت على وضع خطة، واتفقنا على قتل ليدي؛ فهي كبيرة ومريضة وقد خسرت وزناً كبيراً، كما أن النور في عينيها قد بهت، وكنت قد تكلمت مع طبيب بيطري يمكنه قتلها بحقنة أو يمكننا إطلاق النار عليها بأنفسنا.

رأى إيدي أن الخيار الثاني هو الأفضل، فكلانا مفلسان، ومنذ سنين والخيول تقتل هكذا. كما بدا لنا أن التصرف الأكثر إنسانية هو أن تموت على يدي شخص تعرفه وتثق به وليس على يدي شخص غريب. وأخبرني إيدي أنه سيقوم بذلك قبل أن أعود أنا وبول في الكريسمس بعد بضعة أسابيع. ولم نكن سنلتقي في حفلة عائلية، وإنما سأبقى مع بول في المنزل وحدنا، حيث خطط إيدي لقضاء الكريسمس في منزل حبيبته مع أطفالها، أما كارين وليف فلديهما مخططات لوحدهما؛ إذ سيبقى ليف في سانت بول مع صديقته وعائلتها، وكارين مع زوجها الذي التقته وتزوجته خلال بضعة أسابيع في تلك السنة.

شعرت بعدم الارتياح وأنا أركن السيارة في الممر بعد بضعة أسابيع في أمسية الكريسمس، حيث كنت أتخيل كيف سأنظر إلى المرعى ولا أرى سوى روجر، لكنني حين نزلت من السيارة وجدت ليدي هناك ترتجف في إسطبلها

وقد تدلى جلدها من جسدها ذي العظام البارزة. وقد آلمني ذلك، فقد كان الطقس بارداً جداً، حيث وصلت درجة الحرارة إلى 25 تحت الصفر.

لم أتصل بإيدي لأسأله عن سبب عدم قيامه بما اتفقنا عليه، وإنما اتصلت بوالد أمي في ألاباما– إذ كان خيالاً طيلة حياته– وتكلمت معه لساعة حول ليدي، حيث كان يسألني السؤال تلو الآخر، وفي نهاية حديثنا قال إنه من اللازم قتلها فأخبرته أنني سأنتظر. وفي الصباح التالي، رن الهاتف بعد الفجر بوقت قصير.

لم يكن جدي يتصل ليتمنى لي السعادة، وإنما كان يتصل ليتوسل إلي لأنهي الأمر الآن وأقتل ليدي؛ فإذا تركها تموت لوحدها فالأمر قاسٍ ووحشي. كنت أعلم أنه محق، لكن لم يكن معي المال الكافي لأحضر طبيباً بيطرياً ليعطيها الحقنة، وحتى لو كان معي المال فقد كنا في الكريسمس وأشك في أنه سيأتي. عندها، وصف لي جدي بالتفصيل كيف أطلق النار عليها، وحين عبرت عن خوفي أكد لي أن هذه هي الطريقة المتبعة منذ سنين، كما كنت قلقة حول ما يجدر بي فعله بجيفة ليدي؛ فالأرض متجمدة ويستحيل دفنها.

- اتركيها. ستسحبها الذئاب بعيداً.

أغلقت سماعة الهاتف وبكيت أمام بول:

- ماذا علي أن أفعل؟

لم نكن نعلم ذلك بعد، لكن ذلك كان آخر كريسمس نمضيه معاً، فبعد بضعة أشهر أخبرته عن علاقاتي الأخرى فغادر المنزل، وبحلول الكريسمس التالي كنا نناقش أمور الطلاق.

- افعلي ما ترينه الصواب.

- لا أعرف ما الصواب.

لكنني كنت أعلم... كنت أعلم ما عليّ فعله... إنه الشيء نفسه الذي كنت قد فعلته مرات عديدة... أي اختيار أحلى الأمرّين. لكن، لا يمكنني القيام به بدون أخي، فأنا وبول قد أطلقنا الرصاص من مسدس من قبل، حيث علمنا ليف في الشتاء السابق؛ لكن أحداً منا لا يستطيع القيام بذلك بثقة، أما ليف فكان يقوم بذلك بين الفينة والأخرى لدرجة أنه يعرف ما عليه فعله. وحين اتصلت به، وافق على القدوم إلى المنزل في ذلك المساء.

في الصباح، ناقشنا تفاصيل ما علينا فعله، وأخبرته بكل ما قاله لي جدي.

- حسناً... جهّزيها.

في الخارج، كانت الشمس مشرقة والسماء زرقاء، وبحلول الحادية عشرة ارتفعت الحرارة إلى 17 تحت الصفر، فلبسنا طبقات من الملابس وخرجنا إلى البرد القارس.

همست في أذن ليدي وأنا أضع لها رسنها، وأخبرتها كم كنت أحبها، في حين قام بول بإغلاق البوابة وراءنا تاركاً روجر في الداخل لئلا يلحق بنا. قدتها عبر الثلج وأنا أنظر إليها وأشاهدها تمشي للمرة الأخيرة، حيث كانت لا تزال تمشي بأناقة وقوة. أخذتها إلى شجرة اخترتها أنا وبول في المساء السابق وربطتها إليها. كانت الشجرة في طرف المرعى، ووراءها تبدأ الغابة الكثيفة بعيداً عن المنزل. فعلنا ذلك أملاً في أن تقترب الذئاب وتأخذ جيفتها تلك الليلة. تكلمت معها، ومررت يدي على شعرها الكستنائي، وتمتمت بكلمات الحب والأسف، وتوسلت إليها أن تكون متفهمة ومتسامحة.

وحين نظرت إلى الأعلى كان أخي يقف هناك حاملاً بندقيته.

أمسك بول بذراعي وتعثرنا معاً على الثلج حتى وقفنا وراء ليف على بعد ست أقدام من ليدي.

قلت لليف مرددة كلمات جدي:

- تماماً بين عينيها.

فقد وعدَنا أننا إن فعلنا ذلك فسنقتلها بطلقة واحدة.

جثم ليف على ركبة واحدة، بينما ضربت ليدي الجليد بحوافرها، ثم أخفضت رأسها ونظرت إلينا في حين أطلق ليف الرصاصة لتصيب ليدي بين عينيها مباشرة؛ في منتصف نجمتها البيضاء تماماً، أي حيث أردنا، فقفزت بقوة ثم وقفت بلا حراك تنظر إلينا بذهول.

صرخت:

- أطلق رصاصة أخرى.

ومباشرة قام ليف بذلك، حيث أطلق ثلاث رصاصات على رأسها بتتابع سريع، فتعثرت وارتعشت لكنها لم تقع أو تركض على الرغم من أنها لم تعد مربوطة بالشجرة، وإنما كانت تنظر إلينا بعينين واسعتين، وكأنها مصدومة بفعلتنا، وقد امتلأ وجهها بثقوب يسيل منها الدم. وخلال لحظة، عرفت أننا ارتكبنا خطأ؛ ليس في قتلها ولكن في قيامنا بذلك بأنفسنا. كان ينبغي أن أصر على إيدي كي يقوم بذلك أو يدفع للطبيب البيطري. لقد كانت لدي فكرة خاطئة حول قتل حيوان، إذ ليس هناك شيء يدعى رصاصة واحدة.

صرخت:

- أطلق النار! أطلق النار!

صرخ ليف:

- لقد نفد الرصاص.

صرخت:

- ليدي! فأمسك بول بكتفي وسحبني إليه، لكنني ضربته وأنا ألهث وأبكي، وكأن أحداً يضربني حتى الموت.

قامت ليدي بخطوة مترنحة ثم سقطت على قائمتيها الأماميتين، ومال جسدها كما لو أنها سفينة كبيرة تغرق ببطء في البحر، وانحنى رأسها وهي تئن أنيناً عميقاً، في حين اندفع الدم من فتحتي أنفها وسال على الثلج، ثم سعلت وسعلت لتخرج كميات كبيرة من الدم من فمها في كل مرة. وفي النهاية، سقطت على جانبها، حيث بدأت تضرب بقوائمها وثنت رقبتها وصارعت لتنهض مجدداً.

- ليدي! ليدي!

أمسك بي ليف وصرخ:

- انظري بعيداًّ.

ثم صرخ في بول:

- انظر بعيداً!

وحين التفتنا إليها مجدداً، وجدنا ليدي قد أخفضت رأسها ووضعته على الأرض أخيراً، على الرغم من أن قوائمها لا تزال ترتعش. فترنحنا ثلاثتنا ونحن نتجه نحوها، وشاهدناها وهي تتنفس ببطء شديد، ثم تنهدت في النهاية وسكن جسدها.

فرس أمنا... ليدي... ماتت.

لا أدري إن كان الأمر قد استغرق خمس دقائق أو ساعة، فقد سقطت حقيبتي وقفازاي، لكنني لم أستطع إعادتها؛ إذ تجمدت الدموع على أهدابي، كما أن خصل الشعر التي ابتلت بدموعي تجمدت وتصلبت، فأرجعتها للوراء وركعت أمام بطن ليدي، ومررت يديّ على جسدها الملطخ بالدم للمرة الأخيرة. كانت لا تزال دافئة كما كانت أمي حين دخلت الغرفة في المشفى ورأيتها وقد ماتت بدوني. نظرت إلى ليف وتساءلت إن كان يتذكر الأمر ذاته، ثم زحفت إلى رأسها ولمست أذنيها الباردتين والناعمتين كالمخمل، ووضعت يديّ على ثقوب الرصاص في نجمتها البيضاء حيث كانت أخاديد الدم التي شقت طريقها في الثلج حولها قد بدأت تتجمد.

شاهدنا أنا وبول ليف وهو يخرج سكينه ويقطع خصلاً من الشعر الأشقر من ذيل ليدي وعرفها ويناولني إياها.

في تلك الليلة، نمت في الغابة في مكان خارج مخيم وايت هورس وحلمت بالثلج... ليس بالثلج الذي قمت أنا وأخي بقتل ليدي فيه، وإنما بالثلج الذي عبرته في الجبال والذي كانت ذكراه مخيفة أكثر من التجربة نفسها. حيث بقيت طوال الليل أحلم بالأمور التي كان من الممكن حصولها لكنها لم تحصل، كالانزلاق من على منحدر شاهق، أو الاصطدام بالصخور في الأسفل، أو المشي وعدم العثور على الطريق والضياع والتضور جوعاً.

تفحصت الكتيب الإرشادي وأنا أتناول فطوري في الصباح التالي. إن مشيت إلى طريق جبال المحيط الهادئ كما خططت فسأمشي في المزيد من الثلج، ولكن يمكنني العودة إلى مخيم وايت هورس والتوجه غرباً إلى بحيرة باكس، حيث يمكنني من هناك المشي في طريق متجه شمالاً، والصعود إلى طريق جبال المحيط الهادئ في مكان يدعى ثري ليكس، وكان الطريق البديل يبعد المسافة نفسها عن طريق جبال المحيط الهادئ، أي يبلغ طوله خمسة عشر ميلاً تقريباً، ولكنه كان على ارتفاع منخفض، أي أنه على الأرجح خالٍ من الثلج. حزمت أغراضي وعدت من الطريق الذي جئت منه في الليلة السابقة، ومشيت بتحدٍّ عبر مخيم وايت هورس.

طوال الصباح وأنا أمشي غرباً إلى بحيرة باكس، ثم شمالاً وغرباً مجدداً على ضفتها قبل الوصول إلى الطريق الوعر الذي سيعيدني إلى طريق جبال المحيط الهادئ، كنت أفكر في صندوق المؤونة الذي ينتظرني في بلدة بيلدن، إلا أنني لم أكن مهتمة بالصندوق بقدر اهتمامي بالعشرين دولاراً التي بداخله، كما لم أكن مهتمة بالعشرين دولاراً بقدر اهتمامي بما سأشتريه بها من طعام وشراب. وأمضيت ساعات في نشوة وعذاب وأنا أتخيل الكعك والسندويش والشوكولا والموز والتفاح والسلطة وعصير الليمون الذي بدأ يصبح هاجسي؛ إذ لا يمر يوم دون أن تخيل كوباً من عصير الليمون بكل تفاصيله، وكيف سأمسكه بيدي وأرفعه إلى فمي. وفي بعض الأيام، كنت أمنع نفسي من التفكير فيه لئلا أفقد صوابي بالكامل.

كان بإمكاني رؤية أن الطريق إلى ثري ليكس لم يخلُ من الثلج إلا قبل مدة قصيرة، فمشيت فيه تحت مظلة كثيفة من الأشجار دون أن أرى أحداً. وفي منتصف فترة بعد الظهيرة، شعرت بتشنج مألوف داخلي، فأدركت أن دورتي الشهرية قد حان وقتها... أول دورة شهرية لي على الطريق. وكنت قد نسيت تقريباً أنها ستأتي، إذ أصبحت أدرك جسدي بطريقة طغت على الطريقة القديمة، فأنا لم أعد أهتم بالتعقيدات الدقيقة حول ما إذا كنت أبدو أكثر سمنة أو أكثر نحولاً من اليوم السابق، كما لم يعد هناك شيء يدعى شعراً سيئاً؛ حيث تلاشت الانعكاسات الداخلية الصغيرة ليظهر بدلاً منها الألم الصريح الذي كنت أشعر به دائماً في قدمي أو عضلات كتفي وأعلى ظهري، والذي كان يحرقني بشدة لدرجة أنني كنت أتوقف عدة مرات في الساعة لأقوم بسلسلة من الحركات التي قد تمنحني لحظات من الراحة. خلعت حقيبتي وبحثت في حقيبة الإسعافات الأولية عن الإسفنجة الطبيعية التي وضعتها في كيس قابل للإغلاق قبل بداية رحلتي. وكنت قد استخدمتها بضع مرات فقط للتجربة قبل أن آخذها معي إلى طريق جبال المحيط الهادئ. ففي مينابوليس بدت الإسفنجة طريقة عقلانية للتعامل مع دورتي الشهرية بالنظر إلى الظروف على الطريق، لكنني الآن أصبحت أقل ثقة. حاولت غسل يدي بالماء من العبوة، ثم غسلت الإسفنجة وعصرتها وأنزلت سروالي القصير وقرفصت على الطريق ووضعت الإسفنجة.

وبعد أن رفعت سروالي القصير سمعت صوت محرك يقترب. وبعد لحظة، انعطفت شاحنة حمراء صغيرة ذات إطارات كبيرة الحجم، وضغط السائق على المكابح حين رآني وقد أفزعته رؤيتي، كما فزعت أنا أيضاً لكنني حمدت الله لأنني لم أكن جالسة القرفصاء وأنا شبه عارية. لوّحت بعصبية، فتوقفت الشاحنة بجانبي.

قال رجل وهو يمد لي يده من النافذة المفتوحة:

- كيف حالك؟

فصافحته وأنا مدركة أين كانت يدي قبل لحظات.

كان في السيارة رجلان، واحد يجلس في المقدمة والآخر على المقعد الخلفي مع صبيين. بدا الرجال في العقد الثالث من العمر، في حين بدا الصبيان في حوالي الثامنة من العمر.

- أمتجهة إلى ثري ليكس؟

- نعم.

كان وسيماً ونظيفاً وأبيض البشرة كالرجل الذي بجانبه والصبيين. أما الرجل الآخر فكان من أصول لاتينية، وشعره طويل، ولديه بطن كبير.

- نحن متجهون إلى هناك لصيد السمك. كنا سنرغب بإيصالك لكن لا يوجد مكان.

وأشار إلى مؤخر الشاحنة التي كانت مغطاة بخيمة.

- لا بأس... أنا أحب المشي.

- حسناً. سنتناول هناك عصير الليمون لذا مري بنا.

- شكراً.

أكملت الأمسية وأنا أمشي وأفكر بعصير الليمون. وحين وصلت إلى أعلى الطريق رأيت الشاحنة الحمراء ومخيم الرجال فوق أقصى غرب ثري ليكس حيث يقع طريق جبال المحيط الهادئ وراءهم تماماً. مشيت في طريق ضيق شرقاً على طول شاطئ البحيرة، ووجدت بقعة معزولة بين صخور ضخمة مبعثرة حول البحيرة، ونصبت خيمتي ودخلت الغابة لأعصر الإسفنجة وأعيدها، ثم مشيت إلى البحيرة لأنقي المياه وأغسل يدي ووجهي. فكرت في السباحة، لكن الماء كان بارداً كالثلج، كما كنت أشعر بالبرد من هواء الجبال. قبل قدومي إلى طريق جبال المحيط الهادئ تخيلت نفسي وأنا أستحم كثيراً في البحيرات والأنهار والجداول، لكنني في الواقع لم أسبح إلا نادراً. ففي نهاية النهار، كنت أصاب بالإرهاق وأرتعش مما يبدو كحمى، لكن ذلك مجرد نتيجة للإرهاق والعرق الجاف. وكان أفضل ما يمكنني فعله في معظم الأيام هو

غسل وجهي وخلع قميصي المبلل بالعرق قبل أن ألف نفسي بسترتي الصوفية خلال الليل.

خلعت حذائي، وسحبت الشريط والضمادة عن قدميّ، ونقعتهما في الماء المتجمد. وحين فركتهما خرج ظفر أسود آخر بيدي. كانت البحيرة هادئة وصافية ومحاطة بالأشجار العالية والشجيرات الوارفة بين الصخور الضخمة. رأيت سحلية خضراء في الوحل تجمدت في مكانها للحظة ثم انطلقت بعيداً بسرعة البرق. لم يكن مخيم الرجال بعيداً عني على طول ضفة البحيرة، لكنهم لم يكتشفوا وجودي بعد. وقبل أن أذهب لرؤيتهم نظفت أسناني ووضعت مطري الشفاه وسرحت شعري.

وحين اقتربت بتمهل صرخ الرجل الذي كان جالساً جانب السائق:

- ها هي... وقد أتت في الوقت المناسب.

وناولني كوباً بلاستيكياً أحمر مليئاً بسائل أصفر افترضت أنه عصير الليمون مع مكعبات الثلج. غير أنه كان يحتوي على عصير الأناناس. وحين رشفت منه ظننت أنه سيغمى علي بسبب روعة الشراب.

كان الرجلان الأبيضان رجلي إطفاء، في حين كان اللاتيني يرسم كهواية، ويعمل نجاراً واسمه فرانسيسكو لكن الجميع كانوا ينادونه باكو، وهو أحد أبناء عموم الرجلين الأبيضين، وقد جاء في زيارة إلى مدينة مكسيكو على الرغم من أن ثلاثتهم ترعرعوا معاً في المبنى نفسه في ساكرامينتو حيث لا يزال رجلا الإطفاء يقطنان. كان باكو قد ذهب لزيارة جدته في المكسيك قبل عشر سنوات ووقع في حب امرأة مكسيكية هناك وبقي هناك. كان ابنا رجلي الإطفاء يركضان أمامنا ويلعبان ونحن جالسون حول حلقة نارية مليئة بالحطب الذي يشعله الرجال، وكان الولدان يصدران أصوات انفجار وشهقات وصرخات وهما يضربان بعضهما بمسدسات بلاستيكية من وراء الصخور الضخمة.

- لا بد أنك تمزحين! لا بد أنك تمزحين!

كان رجلا الإطفاء مستغربين حين شرحت لهم ما كنت أفعله، وأريتهم قدميّ المتقرحتين بالأظافر الثمانية المتبقية. بدأ الرجال يطرحون عليّ السؤال تلو الآخر وهم متعجبون ويهزون رؤوسهم ويدعونني لتناول كوب آخر من العصير مع رقائق التورتيلا، ثم قال الرجل اللاتيني:

- النساء هن الشجاعات. نحن الرجال نظن أنفسنا كذلك لكننا مخطئون.

كان شعره متدلياً على ظهره كالأفعى، حيث ربطه بالمطاط بتسريحة ذيل حصان. وبعد أن أشعلوا النار وتناولنا السمكة المرقطة التي اصطادها أحدهم من البحيرة والحساء المصنوع من لحم غزال اصطاده أحدهم في الشتاء الماضي، بقيت أنا وباكو جالسين إلى جانب النار، في حين ذهب الرجلان الآخران ليقرآ لابنيهما في الخيمة.

أخرج باكو من جيب قميصه سيجارة حشيش وأشعلها وأخذ نفساً منها، ثم ناولني إياها:

- أتدخنين معي الحشيش؟ أهذه سيرا؟ لقد ترعرعت كل ذلك الوقت هنا لكنني لم أذهب إلى هناك من قبل.

أجبته وأنا أناوله السيجارة:

- إنها سلسلة النور... هذا ما يدعوها به جون موار، والسبب هو أنني لم أرَ ضوءاً قط كما رأيته هنا... كل شروق وغروب للشمس ينعكس على الجبال.

قال باكو وهو يحدق في النار:

- أنت في رحلة روحية أليس كذلك؟

- لا أدري. ربما يمكنك تسميتها كذلك.

- إنها كذلك. لدي شيء أريد إعطاءك إياه.

وذهب إلى مؤخر الشاحنة وعاد حاملاً قميصاً ناولني إياه. رفعته ووجدت على مقدمته صورة ضخمة لبوب مارلي محاطاً بالغيتار الكهربائي والتماثيل في العصر ما قبل الكولومبي، وعلى ظهره صورة هيل سيلاسي وهو محاط بدوامة حمراء وخضراء وذهبية.

- إنه قميص مميز. لذا، أريد منك أن تأخذيه لأنني أرى أنك تمشين مع الحيوانات والأرض والسماء.

أومأت بصمت وقد ملأتني العواطف والثقة الكاملة بأن القميص مهم بالنسبة إليه بالطبع، وقلت:

- شكراً.

حين عدت إلى مخيمي، وقفت محدقة في النجوم وأنا أحمل القميص بيدي قبل أن أزحف إلى خيمتي وأفكر في ما قاله... ما الذي عناه ذلك؟ ثم بدأت أفكر في أمي وليدي اللتين كانتا تزورانني بشكل متكرر في أحلامي. كانت أحلامي حول ليدي مختلفة عن أحلامي عن أمي التي كانت تأمرني فيها أن أقتلها مرة تلو الأخرة. إذ كانت أحلامي عن ليدي محصورة بأن أتناول منها باقة ورود ملونة تحملها إليّ بفمها الناعم، ثم تنكزني بأنفها حتى أتناولها، وكنت أفهم من ذلك أنها سامحتني. لكن، هل سامحتني حقاً؟ هل كانت تلك الأحلام بسبب عقلي الباطن؟

ارتديت القميص الذي أعطاني إياه باكو في الصباح التالي، ومشيت عائدة إلى طريق جبال المحيط الهادئ، ثم توجهت إلى بلدة بيلدن وأنا أمر بقمم بدت لعينيّ كمجموعة من الأراجيح التي كنت ألعب عليها حين كنت طفلة. وفي كل مرة أصل فيها إلى إحداها، كنت أرى القمة التالية في الأفق؛ من قمة لاسن إلى جبل شاستا فجبل مكلوغلين فجبل تيلسن ثم ثري سيسترز في الجنوب والوسط والشمال ثم جبل واشنطن فجبل جيفرسون، وفي النهاية جبل هود الذي سأجتازه قبل خمسين ميلاً من وصولي إلى الجسر. كانت كلها جبالاً بركانية يتراوح ارتفاعها من أقل من 8000 حتى 14000 قدم، وتشكل جزءاً صغيراً من باسيفيك رينغ أوف فاير وهي سلسلة من الجبال البركانية والخنادق بطول 25000 ميل تحيط بالمحيط الهادئ على شكل حدوة حصان؛ من تشيلي وعلى طول الحافة الغربية لأمريكا الشمالية والوسطى مروراً بروسيا واليابان وحتى إندونيسيا ونيوزيلنده، قبل أن تلتقي في القطب الجنوبي.

مشيت في الطريق في آخر يوم تنزهت فيه في سيرا نيفادا، حيث كانت بلدة بيلدن تبعد سبعة أميال فقط عن ثري ليكس، لكن الطريق انخفض بشكل قاسٍ 4000 قدم في خمسة أميال. وحين وصلت إلى بيلدن، كانت قدماي قد تأذّتا بطريقة جديدة، حيث تقرحت رؤوس أصابعي، وبدأ الجلد ينكشط مع كل خطوة. كان من المفترض أن يكون هذا يوماً سهلاً، لكنني جررت نفسي إلى بلدة بيلدن وأنا أعرج وأشعر بألم شديد، لأتفاجأ أنها لم تكن بلدة بالمعنى الصحيح، وإنما هي مبنى بالقرب من طريق السكة الحديدية يحتوي على مقهى ومتجر صغير ومكتب بريد وغسالة كهربائية وحماماً. خلعت حذائي عند شرفة المتجر، وانتعلت الحذاء المفتوح، ثم دخلت لأستلم صندوقي، وسرعان ما وجدت المغلف الذي يحتوي على العشرين دولاراً؛ مما أشعرني براحة كبيرة، لدرجة أنني نسيت ألم قدميّ لبضع دقائق. اشتريت زجاجتين من عصير الليمون الفوار وعدت إلى الشرفة لأشربهما واحدة تلو الأخرى.

- إنه قميص جميل.

التفت فوجدت امرأة شعرها رمادي قصير ومتجعد ومعها كلب أبيض كبير، وكانت تنظر إلي بفضول من وراء نظارة ذات عدستين دائريتين صغيرتين:

- هذا كلبي أودين. هل تتنزهين على طريق جبال المحيط الهادئ؟

كان اسمها ترينا، وهي مدرسة لغة إنكليزية في مدرسة ثانوية في كولورادو، كما أنها في الخمسين من عمرها، وقد بدأت رحلتها قبل يومين فقط، حيث غادرت من بلدة بيلدن ومشت شمالاً لتجد ثلجاً كثيفاً على الطريق وتعود. وحينما أخبرتني بذلك أصابني الاكتئاب... كيف لي الهروب من الثلج؟! وبينما كنا نتكلم، مرت بنا امرأة أخرى تدعى ستاسي كانت قد بدأت رحلتها أيضاً قبل يوم، ومرت بالطريق نفسه الذي مررت به للوصول إلى ثري ليكس.

وأخيراً التقيت بعض النساء على الطريق! غمرني شعور بالارتياح ونحن نتبادل التفاصيل السريعة لحيواتنا؛ إذ كانت ترينا من محبي الرحلات، أما ستاسي فهي رحالة قامت في السنة الماضية بقطع طريق جبال المحيط الهادئ مع صديقتها من المكسيك إلى بلدة بيلدن في الصيف الماضي. تكلمنا أنا وستاسي عن الأماكن التي زرناها على الطريق، وعن إيد في كينيدي ميدوز الذي التقته في الصيف الماضي، وعن حياتها في بلدة صحراوية في جنوب كاليفورنيا حيث كانت تعمل كأمينة مكتبة في شركة أبيها وتمضي الصيف في الرحلات. وهي في الثلاثين من عمرها، وتنحدر من عائلة إيرلندية كبيرة، كما كانت شاحبة اللون وجميلة وشعرها أسود.

قالت ترينا:

- فلنخيم معاً هذه الليلة لنضع خطة. هناك مكان في ذلك المرج.

وأشارت إلى مكان استطعنا رؤيته بوضوح من المتجر، فمشينا إلى هناك ونصبنا خيمنا، ثم بدأت أفتح صندوقي وأخرج الأغراض منه، بينما جلست ترينا وستاسي على العشب تتكلمان. كنت كلما أخرجت شيئاً من الصندوق تنتابني نوبة من السعادة والنشوة، فأرفعه إلى أنفي وأشمه... أكياس المعكرونة من ليبتون والفاصولياء المجففة والأرز والفواكه المجففة والمكسرات. كنت قد مللت للغاية من هذه الأطعمة، لكن مجرد رؤيتها من جديد أعادت لي محبتها، كما وجدت القميص الجديد الذي لا أحتاج إليه لأن معي قميص بوب مارلي وزوجين من الجوارب الصوفية ونسخة من كتاب «سمر بيرد كيج» للكاتبة مارغريت درابلز التي لم أكن مستعدة لها بعد؛ إذ إنني

لم أصل إلى نصف كتاب «ذا نوفل»، حيث أحرقت الصفحات التي انتهيت منها في نار باكو، والأهم من كل ذلك كانت معي مجموعة جديدة من الضمادات الطبية.

خلعت حذائي وجلست لأطبب قدميّ المصابتين. وحين بدأ كلب ترينا بالنباح نظرت للأعلى ورأيت رجلاً شاباً أشقر الشعر وأزرق العينين وطويلاً وهزيلاً، وعرفت على الفور أنه يتنزه على طريق جبال المحيط الهادئ. كان اسمه برينت. وما إن عرّف عن نفسه حتى رحبت به كصديق قديم على الرغم من أنني لم ألتقه من قبل قط، إلا أنني سمعت قصصاً عنه في كينيدي ميدوز، حيث أخبرني غريغ وألبرت ومات أنه ترعرع في بلدة في مونتانا وقد ذهب مرة إلى مطعم في بلدة قريبة من الطريق في جنوب كاليفورنيا وطلب شطيرة فيها باوندان من لحم البقر المشوي وأكلها بست لقم. وحين ذكّرته بالقصة ضحك وخلع حقيبته وجلس القرفصاء ليلقي نظرة على قدميّ عن قرب.

قال مكرراً ما أخبرني به غريغ حين كنا في مدينة سيرا:

- حذاؤك صغير للغاية.

فنظرت إليه باستغراب، إذ لا يمكن أن يكون حذائي صغيراً للغاية لأنه الحذاء الوحيد لدي، وقلت:

- أظن أن السبب هو نزولي من ثري ليكس.

- وهنا الفكرة. فمع المقاس الصحيح للحذاء ستتمكنين من النزول بدون إزعاج قدميك؛ فالأحذية مصممة لهذا الغرض.

فكرت بالموظفين الجيدين في ري، وتذكرت الرجل الذي جعلني أمشي على مطب خشبي صغير في المتجر لهذا السبب بالضبط... ليتأكد من أن أصابع قدميّ لا تصطدم بطرفَي حذائي حين أنزل، وأن كعبَي قدميّ لا يحتكان بمؤخر الحذاء حين أصعد. وفي المتجر، لم تظهر لدي أية مشكلة، لكن من الواضح أنني كنت مخطئة أو أن قدميّ كبرتا، وأصبح من المؤكد أنني طالما أنتعل هذا الحذاء فسأظل أعاني من الويلات.

لكن لم يكن هناك ما يمكنني فعله، إذ لم أكن أملك المال الكافي لشراء زوج جديد من الأحذية. وحتى لو كان معي فلا يوجد مكان قريب يبيع الأحذية. انتعلت حذائي المفتوح وعدت إلى المتجر، حيث دفعت دولاراً لأستحم وارتديت ملابسي المطرية بينما تم غسيل ملابسي وتجفيفها في الغسالة

الكهربائية. ثم اتصلت بليزا، وشعرت بالابتهاج حين أجابت على الهاتف وتكلمنا عن حياتها، كما أخبرتها بما يمكنني إخبارها به عن حياتي، ثم راجعنا معاً خطة رحلتي. وبعد أن أنهيت المكالمة وقّعت على سجل المتنزهين على طريق جبال المحيط الهادئ، وتفحصته لأرى متى مرّ غريغ، لكن اسمه لم يكن موجوداً مع أنه من المستحيل أن أكون قد سبقته.

وحين عدت مرتدية ملابسي النظيفة سألت برينت:

- هل سمعت شيئاً عن غريغ؟

- لقد قطع رحلته بسبب الثلج.

- أمتأكد؟

- هذا ما أخبرني به الأستراليان. هل التقيتهما؟

هززت رأسي بالنفي.

- إنهما زوجان في شهر عسلهما، وقد قررا ترك الطريق أيضاً ليمشيا على طريق أبالاشيا.

لم أكن قد سمعت عن طريق أبالاشيا إلا حين قررت التنزه على طريق جبال المحيط الهادئ، وهو ابن عم طريق جبال المحيط الهادئ الأكثر شهرة وتطوراً، وكلاهما طريقان وطنيان مليئان بالمشاهد الطبيعية تم افتتاحهما عام 1968، ويبلغ طول طريق أبالاشيا 2175 ميلاً، أي أنه أقصر بما يقارب 500 ميل من طريق جبال المحيط الهادئ ويمتد من جورجيا إلى مين.

سألت:

- وهل ذهب غريغ إلى طريق أبالاشيا؟

- لا... لا يريد أن يظل يفوّت أجزاء من الطريق وهو يسلك طرقاً بديلة، لذا سيعود في السنة القادمة. هذا ما أخبرني به الأستراليان.

- واو.

شعرت بالضيق من الخبر، فغريغ كان مثلي الأعلى منذ أول يوم التقيته فيه، حين كنت قد قررت قطع رحلتي، وكان يظن أنه إن كان بإمكانه القيام بذلك فبإمكاني القيام بذلك أيضاً، لكنه قد رحل الآن، وكذلك الأستراليان

اللذان لم ألتقهما غير أن صورتهما ارتسمت في مخيلتي على الفور، إذ كنت أعلم أنهما مناسبان لشقاء الحياة في العراء بفضل دمهما الأسترالي، ثم سألته:

- لماذا لا تتنزه على طريق أبالاشيا أيضاً؟

فكر في الأمر للحظة، ثم قال وهو ينظر إلى صورة بوب مارلي الكبيرة على صدري:

- هناك الكثير من الازدحام. إنه قميص رائع.

لم تكن قدماي قد وطأتا طريق أبالاشيا، لكنني سمعت الكثير حوله من الشباب في كينيدي ميدوز؛ إذ إنه الأقرب إلى طريق جبال المحيط الهادئ، كما أنه في الوقت نفسه مختلف عنه بالكامل. فالمتنزهون على طريق أبالاشيا يمضون معظم لياليهم وهم يخيمون في ملاجئ جماعية على طول الطريق أو بالقرب منها، كما أن مواقف إعادة التموين أقرب إلى بعضها، ومعظمها موجودة في بلدات حقيقية؛ بعكس تلك على طريق جبال المحيط الهادئ والتي لا تتكون من شيء سوى مكتب بريد ومقهى أو متجر صغير. تخيلت العروسين الأستراليين على طريق أبالاشيا وهما يتناولان الوجبات السريعة في مقهى على بعد بضعة أميال من الطريق وينامان في الليل تحت سقف خشبي.

تناولنا أنا وترينا وستاسي وبرينت العشاء في مقهى محاذٍ لمتجر بيلدن ذلك المساء. وبعد الدفع لقاء الاستحمام والغسيل والشراب وبعض الأغراض والوجبات الخفيفة بقيت معي أربعة عشر دولاراً، لذا طلبت سلطة خضروات وطبقاً من البطاطا المقلية لأنهما كانا أرخص طبقين كما أنهما لذيذان، وقد كلفني كلاهما خمسة دولارات، أي لم يبق معي سوى تسعة دولارات للوصول إلى الصندوق التالي على بعد 134 ميلاً في منتزه ماكآرثر بيرني فولز ميموريال الذي يضم متجراً يسمح للمتنزهين على طريق جبال المحيط الهادئ باستخدامه كنقطة توقف لإعادة التزود بالمؤونة. وبينما تناولنا طعامنا، ناقشنا الجزء المقبل من الطريق. فوفقاً لجميع التقارير، كان مغطى بالثلج بالكامل لمسافات طويلة. وحين سمعنا موظف المقهى الوسيم نتكلم، اقترب منا وأخبرنا أن هناك شائعات تقول إن منتزه لاسن البركاني لا يزال مغطى بسبع عشرة قدم من الثلج، وإنهم يحاولون فتح الطريق لموسم سياحي قصير هذا العام.

سألني وهو ينظر في عينيّ:

- أتريدين شراباَ؟ على حساب المقهى.

أحضر لي كأساً من الشراب، وعندما ارتشفت منها شعرت بدوار فوري، كما حصل معي حين شربت العصير في الليلة السابقة. وحين دفعنا فاتورتنا، قررنا أننا حين نبدأ رحلتنا بعيداً عن بيلدن في الصباح سنتبع مجموعة من الطرق الوعرة المنخفضة وطريق جبال المحيط الهادئ لما يقارب خمسين ميلاً قبل أن نبتعد عن الطريق لنتجاوز قسماً مغطى بالثلج في منتزه لاسن البركاني، ثم نعود إلى طريق جبال المحيط الهادئ عند مكان يدعى أولد ستيشن.

بعد عودتنا إلى مخيمنا، جلست على كرسيي، وكتبت رسالة لجو على قطعة ورق مزقتها من مفكرتي؛ إذ إن ذكرى ميلاده قد اقتربت، وقد جعلني الشراب أحنّ إليه، حيث تذكرت كيف مشيت معه في إحدى الليالي قبل عام وأنا أرتدي تنورة قصيرة، كما تذكرت تدفق المشاعر التي كنت أشعر بها في كل مرة كنا نتعاطى فيها الهرويين، وكيف أن صباغ شعره لوث غطاء وسادتي باللون الأزرق. لكنني لم أسمح لنفسي بكتابة هذه الأمور في الرسالة، وإنما جلست ممسكة بقلمي وأنا أفكر بالأشياء التي يمكنني إخباره بها حول رحلتي على طريق جبال المحيط الهادئ، إلا أنه بدا لي من المستحيل جعله يفهم كل ما حصل في هذا الشهر منذ آخر مرة رأيته فيها في بورتلاند؛ فقد بدت ذكرياتي عن الصيف الماضي غريبة عني، كما سيبدو وصفي لهذا الصيف غريباً عنه، لذا طرحت عليه قائمة مطولة من الأسئلة، وتساءلت عن أحواله وعما يفعله وعمّن يمضي وقته معه وإن كان قد قام بما ألمح إليه في بطاقته البريدية التي أرسلها إلي في كينيدي ميدوز وأقلع عن المخدرات. وكنت أتمنى أن يكون قد أقلع عنها، ليس من أجلي وإنما من أجله. طويت الرسالة ووضعتها في مغلف أعطتني إياه ترينا، ثم قطفت بعض الأزهار البرية من المرج ووضعتها داخله قبل أن أحكم إغلاقه.

- أنا ذاهبة لإرسال هذه.

وتبعت نور مصباحي الرأسي على العشب وعلى طول الطريق الموحل إلى صندوق البريد خارج المتجر المغلق.

- مرحباً يا حلوة.

كان صوت رجل قد صدر بعد أن وضعت الرسالة في الصندوق، ولم أكن قد رأيت سوى الطرف المحترق لسيجارة على الشرفة المظلمة، فأجبت بتردد:

- أهلاً.

قال الرجل وهو يخطو إلى الأمام، إلى الضوء الخافت لأتمكن من رؤية وجهه:

- هذا أنا... موظف المقهى. هل أحببت الشراب؟

- أوه... أهلاً... نعم... لقد كان ذلك لطفاً منك. شكراً.

- ما زلت أعمل لكنني سأخرج بعد قليل. مقطورتي موجودة في الطرف المقابل من الطريق إن كنت ترغبين بالمجيء والاحتفال معي، إذ يمكنني إحضار زجاجة كاملة من ذلك الشراب الذي أحببته.

- شكراً، لكن عليّ الاستيقاظ باكراً والتنزه في الصباح.

أخذ نفساً آخر من سيجارته ونظر إليّ. كان في العقد الثالث من عمره، ويبدو وسيماً في سرواله الجينز... لِمَ لا أذهب معه؟

- حسناً... لديك الوقت الكافي لتفكري في الأمر في حال غيرت رأيك.

- عليّ أن أمشي تسعة عشر ميلاً في الغد.

- يمكنك النوم عندي. سأعطيكِ سريري وسأنام على الأريكة إن أردت. أنا متأكد من أن السرير سيكون مريحاً بعد نومك لمدة طويلة على الأرض.

- لقد وضبت أغراضي هناك.

ثم مشيت عائدة إلى المخيم وشعور غريب يسيطر علي؛ إذ أحسست بالارتباك والإطراء بسبب اهتمامه. وحين وصلت، كانت المرأتان قد دخلتا خيمتيهما للنوم، لكن برينت لا يزال مستيقظاً ويقف في الظلام محدقاً بالنجوم.

همست:

- أليست جميلة.

ووقفت أحدق بها معه، وفجأة خطر ببالي أنني لم أبكِ لمرة واحدة منذ أن وطأت قدماي الطريق... كيف حصل ذلك؟ بعد كل البكاء الذي كنت أبكيه بدا ذلك مستحيلاً، لكنه لم يكن كذلك، وحين أدركت ذلك كدت أنفجر باكية، لكنني ضحكت بدلاً من ذلك.

سألني برينت:

- ما المضحك؟

- لا شيء. ينبغي أن أكون مستغرقة في النوم في مثل هذا الوقت.

كانت الساعة 10:15.

- وأنا أيضاً.

- لكنني لا أشعر بالنعاس على الإطلاق.

- لأننا متحمسان للوصول إلى البلدة.

وضحكنا كلانا. كنت قد استمتعت بصحبة المرأتين طوال النهار، وشعرت بالامتنان لنوع المحادثة التي لم أشارك بمثلها منذ أن بدأت رحلتي على طريق جبال المحيط الهادئ، لكنني شعرت أن برينت قريب مني، إذ بدا مألوفاً. وبينما وقفت إلى جانبه، أدركت أنه يذكرني بأخي الذي على الرغم من بعدنا ما زلت أحبه أكثر من أي أحد آخر.

قلت لبرينت:

- ينبغي أن نتمنى أمنية.

- ألا ينبغي أن ننتظر حتى نرى شهاباً؟

- عادة نعم، لكن يمكننا تعديل القاعدة وأن نتمنى شيئاً؛ مثل أنني أريد حذاء لا يؤلم قدميّ.

- لا يفترض بك أن تتمني بصوت مرتفع، فالأمر مماثل لما يحصل حين تطفئين الشموع في ذكرى ميلادك؛ حيث لا ينبغي عليك إخبار أحد بأمنيتك. والآن، لن تتحقق أمنيتك وستضرر قدماك.

- ليس بالضرورة.

- حسناً... لقد تمنيت والآن دورك.

حدقت بنجمة، لكن ذهني بدأ يقفز من فكرة لأخرى فسألته:

- في أي ساعة ستنطلق غداً؟

- عند بزوغ الفجر.

- وأنا أيضاً.

لم أكن أريد توديعه في الصباح التالي، فقد قررنا أنا وترينا وستاسي المشي والتخييم معاً في اليومين التاليين، لكن برينت كان يمشي أسرع منا، مما يعني أنه سيمضي وحده.

- إذاً، هل تمنيت شيئاً؟

- ما زلت أفكر.

- إنه أفضل وقت لتتمني؛ فهذه آخر ليلة لنا في سيرا نيفادا.

فقلت وأنا أنظر إلى السماء:

- وداعاً يا سلسلة النور.

- يمكنك أن تتمني الحصول على حصان، وهكذا لن تقلقي بشأن قدميك.

نظرت إليه في الظلام، فقد كان محقاً؛ إذ إن طريق جبال المحيط الهادئ مفتوح للمتنزهين مشياً على الأقدام أو على ظهور الحيوانات على الرغم من أنني لم ألتقِ أي راكب على ظهر حصان. لذا، قلت وأنا أنظر إلى السماء:

- كان لدي حصان... كان لدي حصانان.

- إذاً، أنت محظوظة، فقلة من يكون لديهم حصان.

بقينا صامتين لبضع لحظات.

ثم تمنيت أمنية.

القسم الرابع

في البراري

حين لم يكن لدي سقف جعلت من الجرأة سقفاً لي.

روبيرت بينسكي

ساموراي سونغ

لا تستسلم أبداً أبداً أبداً.

وينستون تشرشل

11

لو من لو

كنت واقفة إلى جانب الطريق السريع خارج بلدة تشيستر محاولة ركوب سيارة حين توقف أمامي رجل يقود سيارة كريسلر فضية وترجل منها. كنت خلال الساعات الخمسين الماضية قد قطعت خمسين ميلاً مع ستاسي وترينا والكلب من بلدة بيلدن إلى مكان يدعى مخيم ستوفر، لكننا افترقنا قبل عشر دقائق حين توقف زوجان في سيارة هوندا سيفيك وأعلنا أن لديهما مكاناً لشخصين فقط، فقالت كل واحدة منا للأخريين: «اذهبا أنتما»، لترد الأخرى «لا... اذهبي أنت» حتى أصررت أنا، وركبت ستاسي وترينا السيارة، وجلس أودين حيث أمكنه، في حين طمأنتهما إلى أنني سأكون بخير.

فكرت في أنني سأكون بخير بينما كان الرجل يتجه نحوي على كتف الطريق الحصوي؛ على الرغم من أنني شعرت بشعور غريب بداخلي وأنا أحاول خلال لحظة أن أتوقع نواياه. فقد بدا رجلاً لطيفاً أكبر مني ببضع سنوات. وحين نظرت إلى مصد السيارة أيقنت أنه رجل لطيف، إذ كانت عليه لصاقة خضراء مكتوب عليها «تخيل البازلاء الدوارة».

هل هناك قاتل متسلسل يتخيل البازلاء الدوارة؟

سلّمت عليه بودّ:

- مرحباً.

كنت أحمل صفارتي العالية، حيث أمسكتها بيدي بلا وعي من فوق الوحش. لم أكن قد استخدمت الصفارة منذ رأيت أول دب على الطريق، لكن منذ ذلك الحين وأنا مدركة لمكانها باستمرار؛ كما لو أنها لم تكن موصولة بحقيبة ظهري بحبل فحسب، وإنما هناك أيضاً حبل آخر خفي يصلها بي.

قال لي الرجل ماداً يده ليصافحني وقد تدلى شعره البني فوق عينيه:

- صباح الخير.

ثم أخبرني أن اسمه جيمي كارتر، لكن ليست هناك أية صلة قربى، وأنه لا يستطيع السماح لي بالركوب لأنه لا يوجد مكان في سيارته، فنظرت

إليها ورأيت أن ذلك صحيح؛ فكل بوصة في السيارة باستثناء مقعد السائق مكتظة بالصحف والكتب والملابس وعلب الشراب ومجموعة من الأشياء الأخرى. ثم سألني إن كان بإمكانه الحديث معي، فهو مراسل صحيفة تدعى هوبو تايمز، وهو يقود سيارته عبر البلاد ويتكلم مع أشخاص يعيشون حياة التجوال.

فقلت بمتعة:

- أنا لست متجولة وإنما متنزهة لمسافات طويلة. إنني أتنزه على طريق جبال المحيط الهادئ.

وتركت الصفارة، ومددت يدي مشيرة إلى سيارة مغلقة مرت بنا، ثم نظرت إليه متمنية أن يركب سيارته ويقودها بعيداً؛ إذ إنني بحاجة لمن يسمح لي بالركوب معه، وهو لا يساعد في ذلك. فعلى الرغم من كوني قذرة وملابسي متسخة أكثر لكنني ما زلت امرأة، إلا أن وجود جيمي كارتر يعقد الأمور، وتذكرت المدة الطويلة التي اضطررت فيها إلى الوقوف حين كنت أحاول الوصول إلى مدينة سيرا مع غريغ. وهكذا، بوجود جيمي كارتر لن يتوقف أحد لي.

أخرج قلماً ودفتر مذكرات صغيراً من الجيب الخلفي لسرواله وسألني:

- منذ متى وأنت على الطريق؟

كان شعره أشعث وغير مغسول، وغرته تخفي عينيه السوداوين حتى رفعتها الريح. فاجأني، إذ بدا كشخص معه شهادة الدكتوراه في شيء متصنع ولا يمكن وصفه؛ كتاريخ الوعي أو ربما الدراسات المقارنة في علم الخطاب والمجتمع.

قلت له ضاحكة:

- قلت لك إنني لست متجولة وإنما أتنزه على طريق جبال المحيط الهادئ.

وأومأت إلى الغابات المجاورة للطريق على الرغم من أن طريق جبال المحيط الهادئ يبعد حوالي تسعة أميال غرباً عن المكان الذي أقف فيه.

حدق إليّ بغباء وكأنه لا يفهم. كنا في وقت متأخر من الصباح، والجو حار؛ مما يشير إلى أن الحرارة ستكون مرتفعة في الظهيرة. وتساءلت إن كان بإمكانه أن يشم رائحتي؛ إذ إنني لم أعد أنتبه لرائحة جسمي. خطوت

خطوة للخلف وأنزلت ذراعي الممدودة باستسلام؛ لأنني لن أجد من يسمح لي بالركوب معه حتى يغادر.

قلت له:

- إنه طريق وطني مليء بالمناظر الخلابة.

وظلّ ينظر إليّ بتعابير ملؤها الصبر وهو ممسك بدفتر مذكراته. وبينما كنت أشرح له ما هو طريق جبال المحيط الهادئ وما أفعله عليه، أدركت أن جيمي كارتر ليس قبيحاً، وتساءلت إن كان معه طعام في سيارته.

سألني:

- إذاً، إن كنت تتنزهين على طريق في البراري، فما الذي تفعلينه هنا؟

أخبرته أنني أتجاوز الثلج السميك في منتزه لاسن البركاني.

- منذ متى وأنت على الطريق؟

- منذ شهر تقريباً.

شاهدته وهو يكتب ذلك، ثم خطر بالي أنني قد أكون متجولة بالنظر إلى كل الوقت الذي أمضيته وأنا أتجاوز مسافات من الطريق، لكنني لم أظن أنه من الحكمة ذكر ذلك.

- كم ليلة نمت تحت سقف خلال ذلك الشهر؟

- ثلاث مرات.

كانت مرة لدى فرانك وآنيت، ومرتين في فندقين في ريدجكريست ومدينة سيرا.

- أهذا كل ما لديك؟

وأومأ إلى حقيبة ظهري وعصا التزلج.

- نعم... أعني أن لدي بعض الأشياء التي خزنتها، لكن في الوقت الحالي هذا كل شيء.

ووضعت يدي على الوحش التي كنت أشعر بها كصديقتي، لكن هذا الشعور بدا أقوى بصحبة جيمي كارتر.

- إذاً، أنت متجولة!

قال ذلك بسعادة، ثم سألني عن اسمي واسم عائلتي فأجبته، ثم تمنيت لو أنني لم أفعل.

- هذا مستحيل! أهذا اسمك حقاً؟

- نعم.

والتفتُّ بعيداً وكأنني أبحث عن سيارة لئلا يرى التردد على وجهي، فوجدت شاحنة قادمة من وراء المنعطف. وبعد أن مرت الشاحنة قال جيمي كارتر:

- إذاً، يمكننا القول إنك متجولة بالفعل.

تلعثمت:

- لا... فالتجول والتنزه أمران مختلفان بالكامل. وأنا لست متنزهة من النوع الذي تظنه، وإنما متنزهة ذات خبرة؛ إذ إنني أتنزه لخمسة عشر إلى عشرين ميلاً في اليوم، يوماً تلو الآخر، وأصعد وأنزل الجبال بعيداً عن الطرق أو الناس أو أي شيء، وغالباً ما أمضي عدة أيام دون أن أرى أي شخص. ربما ينبغي عليك كتابة قصة عن ذلك.

نظر إليّ بينما كان شعره يتطاير على وجهه الشاحب، وقد بدا كالكثيرين من الناس الذين كنت أعرفهم، وتساءلت إن كنت أبدو كذلك بالنسبة له.

همس لي وكأنه يأتمنني على سر:

- لم ألتقِ قط أية امرأة متجولة... هذا رائع.

- لست متجولة!

- من الصعب العثور على النساء المتجولات.

أخبرته أن سبب ذلك أن النساء مضطهدات ولا يمكنهن التجوال، ومن المرجح أن معظم النساء اللاتي يرغبن بالتجوال حبيسات منازلهن ويربين

أطفالهن الذين لديهم آباء متجولون يجولون الطرق.

- آه فهمت... إذاً، أنت من مناصري الحركات النسائية.

- نعم.

وبدا لي من الجيد أن نتفق على شيء ما.

- المفضلة لدي.

وكتب على دفتر مذكراته دون أن يقول ما هي المفضلة لديه.

- لكن كل ذلك لا يهم، لأنني لست متجولة وإنما متنزهة. وأنا لست الوحيدة التي تتنزه على طريق جبال المحيط الهادئ، فالكثير من الناس يقومون بذلك.

- هل سمعت يوماً بطريق أبالاشيا؟ إنه مثله نحو الغرب.

ونظرت إليه وهو يكتب ما بدا لي كلمات أكثر من الكلمات التي قلتها، ثم قال جيمي كارتر وهو يتناول آلة تصوير من سيارته:

- أرغب بالتقاط صورة لك... بالمناسبة هذا قميص جميل... أحب بوب مارلي، كما أحببت سوارك. ابتسمي.

والتقط صورة لي، ثم أخبرني أن أبحث عن مقالته حولي في إصدار الخريف لصحيفة هوبو تايمز؛ كما لو أنني قارئة منتظمة لها، وأضاف:

- يتم اقتباس المقالات في هاربرس.

- هاربرس؟

- نعم، إنها تلك المجلة التي...

قاطعته بحدة:

- أعرف ما هي هاربرس ولا أريد الظهور فيها، أو أريد الظهور فيها ولكن ليس لأنني متجولة.

- ظننت أنك لست متجولة.

- نعم... لست كذلك، وستكون فكرة سيئة أن أظهر في هاربرس؛ مما يعني أنه ينبغي عليك ألا تكتب المقال لأن...

قال وهو يلتفت ليعطيني علبة من الشراب البارد، وحقيبة بقالة بلاستيكية فيها مجموعة من المواد:

- مجموعة مساعدات المتجولين.

- لكنني لست متجولة.

لكنني هذه المرة قلت تلك العبارة بحماسة أقل من ذي قبل؛ خوفاً من أن يصدقني ويأخذ مجموعة مساعدات المتجولين.

- شكراً لك على المقابلة... انتبهي لنفسك.

- نعم... وأنت أيضاً.

- أفترض أن معك مسدساً أو آمل ذلك.

هززت كتفيّ دون أن أعطيه جواباً شافياً.

- لأنك كنت في الجنوب والآن تتجهين شمالاً؛ مما يعني أنك ستدخلين عما قريب أرض أصحاب الأقدام الكبيرة.

- أصحاب الأقدام الكبيرة؟

- نعم... طوال الطريق من هنا إلى أوريغون ستظلين في المنطقة التي تم فيها الإبلاغ عن معظم قصص اللقاء بأصحاب الأقدام الكبيرة. فالكثير من الناس يصدقون وجودهم، وفي الكثير من الأحيان أسمع قصصاً عن أصحاب الأقدام الكبيرة.

- أظن أنني بخير... على الأقل حتى الآن.

وضحكت على الرغم من شعوري بتشنج في بطني. فخلال الأسابيع التي سبقت رحلتي على طريق جبال المحيط الهادئ، وحين قررت ألا أخاف من أي شيء، كنت أفكر في الدببة والأفاعي وأسود الجبال والناس الغرباء الذين قد التقيتهم على الطريق، لكنني لم أفكر بوحوش شبيهة بالبشر تمشي على قدمين ومغطاة بالشعر.

- لكنك ستكونين بخير على الأغلب، فهم سيتركونك وشأنك على الأرجح؛ وخاصة إن كان معك مسدس.

- صحيح.

- حظاً طيباً في رحلتك.

- وحظاً طيباً لك أيضاً في العثور على متجولين.

ووقفت هناك لبرهة، وتركت السيارات تمر دون أن أحاول إيقافها؛ إذ كنت أشعر بالوحدة أكثر من أي أحد آخر في العالم أجمع، وكانت السماء تنشر أشعتها الحارة عليّ على الرغم من قبعتي، وتساءلت عن مكان ستاسي وترينا. فقد كان الرجل الذي ركبتا معه سينقلهما فقط مسافة اثني عشر ميلاً شرقاً؛ أي إلى تقاطع الطريق السريع التالي الذي سنركب منه، والذي سيأخذنا شمالاً ثم يعيدنا غرباً إلى أولد ستيشن، حيث سنعود مجدداً إلى طريق جبال المحيط الهادئ. وكنا قد اتفقنا على اللقاء عند ذلك التقاطع، لكنني كنت أشعر بالندم على تشجيعهما على تركي هنا. أشرت بإصبعي إلى سيارة أخرى، وأدركت بعد أن غادرت أنه من غير الجيد أن أحمل علبة الشراب، فضغطت بالعلبة الباردة على جبهتي الحارة وأنا أقاوم الرغبة الجامحة في أن أشربها... لم لا أشربها؟ فهي ستسخن في حقيبة ظهري.

رفعت الوحش على ظهري، وشققت طريقي فوق الأعشاب عبر الخندق حتى وصلت إلى الغابة التي كنت أشعر فيها وكأنني في منزلي، وكأنها أصبحت عالمي في حين لم تعد الطرق والمدن والسيارات تعني لي شيئاً. مشيت حتى وجدت بقعة جيدة في الظل، وجلست في الوحل، وفتحت العلبة. وعلى الرغم من أنني لا أحب هذا النوع من الشراب، إلا أن مذاقه كان لذيذاً في هذا الحر؛ إذ كانت باردة.

وبينما كنت أشرب، استكشفت محتويات كيس البقالة؛ حيث أخرجت كل شيء، ووضعت الأغراض كلها أمامي على الأرض... علبة علكة بنكهة النعناع، وثلاثة مناديل معطرة، وحبتا أسبيرين، وست سكاكر بالزبدة في غلاف ذهبي شفاف، وعلبة من أعواد الثقاب، وقطعة نقانق مغلفة بغلاف مفرغ من الهواء، وسيجارة في علبة زجاجية أسطوانية، وآلة حلاقة، وعلبة قصيرة وثخينة من الفاصولياء المطهوة.

تناولت النقانق أولاً بعد أن غسلتها بما تبقى من الشراب، ثم السكاكر الست واحدة تلو الأخرى، لكنني بقيت جائعة فالتفت إلى علبة الفاصولياء

المطهوة، وفتحتها بمفتاح العلب في سكيني السويسرية، ثم بدأت أتناولها بسكيني لئلا أبحث عن ملعقتي في الحقيبة.

عدت إلى الطريق وأنا أشعر بدوار خفيف وأعلك قطعتي علكة بنكهة النعناع، ورحت أمد إصبعي إلى كل سيارة تمر. وبعد بضع دقائق، توقفت سيارة مافيريك بيضاء قديمة تقودها امرأة إلى جانبها رجل، ويوجد رجل آخر وكلب على المقعد الخلفي.

سألتني:

- إلى أين أنت ذاهبة؟

- أولد ستيشن، أو على الأقل تقاطع الطريقين 36 و44.

- إنه على طريقنا.

ونزلت من السيارة واتجهت إلى الخلف وفتحت الصندوق. كانت تبدو في العقد الرابع من عمرها تقريباً، وشعرها متجعد ومصبوغ باللون الأشقر، ووجهها سمين ومليء بندبات من الحبوب القديمة، وكانت تضع قرطَي أذنين على شكل فراشة، وقالت ضاحكة:

- يا لها من حقيبة يا طفلتي!

- شكراً لك.

ومسحت العرق عن وجهي ونحن نعمل معاً على حشر الوحش في صندوق السيارة، ثم ركبت على المقعد الخلفي مع الكلب والرجل. كان الكلب نحيلاً ذا عينين زرقاوين، ويقف على الأرض أمام المقعد، في حين كان الرجل نحيلاً وفي عمر المرأة نفسه، وشعره الداكن مجدول، ويرتدي كنزة جلدية سوداء دون قميص تحتها، وهناك منديل أحمر كبير مربوط على طراز راكبي الدراجات على رأسه.

تمتمت باتجاهه وأنا أبحث بلا جدوى عن حزام الأمان المحشور في طية المقعد:

- مرحباً.

وتفحصت بعينيّ الوشوم على جسده. فعلى إحدى ذراعيه، كان هناك رسم لكرة حديدية برؤوس ومربوطة بسلسلة، بالإضافة إلى النصف العلوي

لامرأة، وكذلك الأمر على الذراع الأخرى. كما توجد كلمة لاتينية لم أفهم معناها على صدره الأسمر. وحين توقفت عن البحث عن الحزام، اقترب مني الكلب ولعق ركبتي بلسانه الناعم والبارد.

قال الرجل:

- لدى هذا الكلب ذوق جيد في اختيار النساء. اسمه ستيفي راي، وأنا سبايدر، وهذه لويس ونناديها لو.

قالت لو وهي تنظر إلى عينيّ للحظة من خلال مرآة الرؤية الخلفية:

- أهلاً!

- وهذا أخي ديف.

فقلت:

- أهلاً.

التفت إليّ ديف وسألني:

- وماذا عنك؟ أليس لديك اسم؟

- أوه آسفة... أنا شيريل.

وابتسمت على الرغم من الشكوك التي راودتني لركوبي مع هؤلاء الأشخاص. لكن، لم يكن هناك ما يمكنني فعله، فنحن في طريقنا، والريح الحارة تعصف بشعري. ربتُّ على ستيفي راي وأنا أحاول تقييم وضع سبايدر بطرف عيني، ثم قلت لأخفي عدم ارتياحي:

- شكراً لكم لسماحكم لي بالركوب.

فردّ سبايدر:

- لا تقلقي يا أختاه، فجميعنا كنا نتجول، ونحن نعرف كيف يكون الأمر. ولولا أن أحداً ما أركبني مرة لقضي عليّ. لهذا حين رأيتك طلبت من لو أن تتوقف.

سألتني لو من الأمام:

- ماذا تفعلين على الطريق بكل الأحوال؟

وبدأت أشرح لهم عن طريق جبال المحيط الهادئ، والثلج المتراكم، والطريقة المعقدة التي اضطررت بها إلى تجاوز الطريق للوصول إلى أولد ستيشن، وأنصتوا لي باحترام وفضول وهم يشعلون السجائر.

وبعد أن أنهيت كلامي قال سبايدر:

- لدي قصة لك يا شيريل. كنت أقرأ عن الحيوانات في ما سبق، وكان هناك عالم في فرنسا في الثلاثينيات أو الأربعينيات من القرن العشرين يحاول جعل القردة ترسم صوراً لإنتاج صور فنية كتلك اللوحات التي ترينها في المتاحف، فكان ذلك العالم يري القردة تلك الرسوم، ويعطيها أقلام فحم لترسم بها. وفي أحد الأيام، رسم أحد القردة شيئاً لكنه لم يرسم الصور الفنية وإنما قضبان قفصه اللعين. وهذه هي الحقيقية، وهذه القصة تنطبق عليك، أليس كذلك يا أختاه؟

- نعم.

قال ديف:

- كلنا نشبه ذلك الرجل.

سألني سبايدر:

- أتعرفين شيئاً عن هذا الكلب؟ لقد حصلت عليه يوم وفاة ستيفي راي فوغهان، ومن هنا جاء اسمه.

قلت:

- أحب ستيفي راي.

سألني ديف:

- أتحبين تكساس فلود؟

- نعم.

- إنها معي هنا.

وسحب قرصاً مضغوطاً ووضعه في مشغل الموسيقى بينه وبين لو ليمتلئ الجو بموسيقى الغيتار الكهربائي. بدت لي الموسيقى كالغذاء والطعام وجميع المسلمات الأخرى التي كانت لدي سابقاً والتي أصبحت مصدراً للسعادة نظراً إلى حرماني منها منذ زمن. شاهدت الأشجار تمر بي وأنا أستمع إلى الموسيقى.

وحين انتهت قالت لو:

- إننا واقعان في الحب أيضاً... أنا وديف، وسنتزوج في الأسبوع التالي.

- تهانينا.

سألني سبايدر وهو يتلمس فخذي العارية بظاهر كفه:

- أتريدين الزواج بي يا حلوتي؟

قالت لو:

- تجاهليه فحسب. إنه مجرد نذل كبير.

وضحكت وهي تنظر في عينيّ في مرآة الرؤية الخلفية.

كنت أنا أيضاً نذلة كبيرة، وبدأت البقعة التي لامسها سبايدر على ساقي تنبض، فتمنيت أن يفعل ذلك مجدداً؛ على الرغم من أنني كنت أعلم أن ذلك سخيف. كانت هناك سلسلة تتدلى من المرآة الخلفية، إلى جانب معطر جو على شكل شجرة، وحين تحركت رأيت على الطرف الآخر صورة صبي صغير.

سألت لو حين انتهت الأغنية وأنا أشير إلى المرآة:

- أهذا ابنك؟

- هذا ابني لوك الصغير.

- هل سيحضر الزفاف؟

لم ترد وإنما أخفضت صوت الموسيقى، فعرفت على الفور أنني قلت شيئاً خاطئاً، ثم قالت لو بعد بضع لحظات:

- لقد توفي قبل خمس سنوات حين كان في الثامنة من عمره.

- آسفة.

وانحنيت للأمام وربتّ على كتفها.

- كان يقود دراجته فضربته شاحنة، لكنه لم يمت مباشرة وإنما صمد لأسبوع في المشفى؛ مع أن أحداً من الأطباء لم يصدق أنه لم يمت مباشرة.

قال سبايدر:

- لقد كان قوياً وصلباً.

ردت لو:

- بالتأكيد.

أضاف ديف وهو يمسك بركبة لو:

- كأمه تماماً.

قلت مرة ثانية:

- أنا آسفة.

فردت لو:

- أعلم ذلك.

ورفعت صوت الموسيقى من جديد لتنطلق السيارة دون أن يتكلم أحد منا، وإنما بقينا جميعنا ننصت لموسيقى الغيتار الكهربائي.

بعد بضع لحظات صرخت لو:

- هذا هو التقاطع الذي تريدينه.

وأوقفت سيارتها، ثم أطفأت المحرك ونظرت إلى ديف وقالت:

- لم لا تقومان أيها الشابان بأخذ ستيفي راي في نزهة.

ونزلوا جميعهم معي، ووقفوا يشعلون السجائر بينما سحبت حقيبتي من صندوق السيارة، في حين قام ديف وسبايدر بأخذ ستيفي راي إلى الأشجار إلى جانب الطريق. وقفت أنا ولو في مكان ظليل بالقرب من

السيارة وأنا أضع الوحش على ظهري، فسألتني إن كان لدي أطفال، وكم أبلغ من العمر وإن كنت متزوجة أو تزوجت من قبل.

وحين أجبتها عن أسئلتها قالت:

- أنت جميلة، لذا ستكونين بخير مهما فعلت. أما أنا فالناس يعجبون بي بسبب طيبة قلبي؛ فأنا لست جميلة.

- هذا ليس صحيحاً، فأنا أراك جميلة.

- حقاً؟

- نعم.

- حقاً؟ شكراً... من اللطيف سماع هذا، فعادة ديف هو الوحيد الذي يظن ذلك.

ونظرت إلى ساقيّ وقالت ضاحكة:

- أنت بحاجة للحلاقة يا فتاة! أوه... أنا أثرثر فقط... أظن أنه من الرائع أن تفعلي ما تريدينه؛ فقلة من الفتيات الشقراوات يفعلن ذلك... إن كنت تريدين نصيحتي، لا تأبهي للمجتمع ولا لتوقعاته، فلو أن المزيد من النساء فعلن ذلك لكنا في أفضل حال.

وسحبت نفساً من سيجارتها ونفثت الدخان وأكملت:

- أياً يكن الأمر بالنسبة لوفاة ابني، لقد متُّ أنا أيضاً من الداخل. فعلى الرغم من أنني أبدو كما أنا لكنني تغيرت من الداخل. أعني أن الحياة تستمر، فقد أخذت لو من لو ولن أستطيع استعادته. أتفهمين قصدي؟

- نعم.

- هذا ما ظننته، فقد شعرت بذلك حين رأيتك.

ودعتهم وعبرت التقاطع، ثم مشيت إلى الطريق المؤدي إلى أولد ستيشن. كان الحر شديداً، وحين وصلت إلى الطريق رأيتهما مع الكلب تتحركان بعيداً، فصرخت:

- ستاسي! ترينا!

رأتاني ولوّحتا بذراعيهما، في حين نبح أودين مرحباً بي.

ركبنا معاً إلى أولد ستيشن، وهي قرية صغيرة أخرى تتكون من تجمع للأبنية. مشت ترينا إلى مكتب البريد لترسل بعض الأشياء إلى المنزل، في حين انتظرناها أنا وستاسي في المقهى حيث يوجد تكييف هواء، واحتسينا الشراب، وناقشنا القسم التالي من الطريق الذي كان قطعة من هضبة مودوك تدعى هات كريك ريم مهجورة ومشهورة بانعدام الظل والماء فيها؛ أي أنها جافة وحارة، وقد انتشر فيها حريق عام 1987. وقد ذكر كتاب «طريق جبال المحيط الهادئ المجلد الأول: كاليفورنيا» أنه على الرغم من عدم وجود مصدر موثوق للمياه من أولد ستيشن إلى روك سبرينغز كريك على بعد ثلاثين ميلاً، إلا أنه حين تمت طباعة الكتاب عام 1989 كانت خدمة الغابات على وشك إنشاء خزان مياه بالقرب من آثار برج استطلاع قديم على بعد خمسة عشر ميلاً. وقد حذّر الكتاب من أنه ينبغي التحقق من هذه المعلومات، وأنّه حتى لو تم إنشاؤه فلا يمكن الاعتماد على مثل هذا الخزان لأنه ربما تم تخريبه بالرصاص الذي ربما أحدث ثقوباً فيه.

مصصت الجليد في الكوب وأنا أفكر في تلك المعلومات؛ إذ كنت قد تخلصت من حقيبة المياه في كينيدي ميدوز لأن معظم أجزاء الطريق في الشمال تحتوي على كميات كافية من المياه. وكاستعداد لهات كريك ريم الجاف خططت لشراء حافظة مياه كبيرة وربطها بالوحش؛ مع أنني كنت أتمنى ألا يلزمني ذلك لأسباب مادية وجسدية. فقد كنت آمل أن أنفق نقودي على الطعام في ذلك المقهى لا على حافظة ماء، علاوة على حملها ثلاثين ميلاً. لذا، كدت أسقط عن كرسيي فرحاً وراحة حين عادت ترينا من مكتب البريد حاملة معها خبراً مفاده أن المتنزهين كتبوا في سجل الطريق أن الخزان المذكور في الدليل موجود وفيه ماء.

مشينا إلى مخيم على بعد ميل، ونصبنا خيمنا إلى جانب بعضها لآخر ليلة لنا معاً. فقد كانت ترينا وستاسي ستتنزهان في اليوم التالي، أما أنا فقررت البقاء لأتنزه وحدي مجدداً بعد أن أريح قدميّ اللتين كانتا لا تزالان تتعافيان من القروح التي أصابتني في ثري ليكس.

حين استيقظت في الصباح التالي وجدت نفسي وحيدة في المخيم، فجلست إلى طاولة النزهات، وشربت الشاي من قدر الطهو وأنا أحرق آخر صفحات «ذا نوفل». وقد كان الأستاذ الذي سخر من ميشينر محقاً نوعاً ما، فهو لم يكن كويليام فولكنر أو فلانري أوكونر، لكنني استمتعت بكتابه، كما أن الموضوع كان يضرب على الوتر الحساس؛ إذ كان يحكي عن الكثير من الأشياء، لكنه مرتكز حول رواية، ويرويها من وجهة نظر المؤلف والمحرر

والنقاد والقراء. ومن بين كل الأمور التي فعلتها في حياتي وكل النسخ التي عشتها عن نفسي كان هناك أمر واحد لا يتغير؛ فقد كنت كاتبة، وكنت أخطط لأن أكتب يوماً ما رواية خاصة لي، وكنت أشعر بالخزي لأنني لم أكتبها بعد. فحين كنت أتخيل نفسي قبل عشر سنوات كنت متأكدة من أنني سأنشر أول كتاب لي قبل الآن، وقد كتبت العديد من القصص القصيرة، كما عملت بجد على رواية، لكنني لم أقترب من إنجاز كتاب. وخلال اضطرابات السنة الماضية، بدا لي أن الكتابة قد هجرتني للأبد، إلا أنني وأنا أتنزه على هذا الطريق بدأت أشعر بتلك الرواية تعود إلي وتفرض صوتها بين أجزاء الأغنيات والإعلانات في ذهني. في ذلك الصباح في أولد ستيشن، وبينما كنت أمزق كتاب ميشينر إلى أجزاء من خمس وعشر صفحات لأحرقها، قررت البدء مجدداً؛ إذ كان لدي يوم حار وطويل أمضيه لوحدي، لذا جلست إلى طاولة النزهات وكتبت حتى وقت متأخر من فترة بعد الظهيرة.

وحين رفعت عينيّ، رأيت سنجاباً يمضغ ثقباً في باب خيمتي محاولاً الوصول إلى حقيبة الطعام في الداخل، فطاردته وشتمته بينما وقف فوق غصن شجرة. في ذلك الحين، كان المخيم حولي قد امتلأ بالمتنزهين، ومعظم الطاولات مغطاة ببرادات المياه والمواقد، كما توقفت العديد من الشاحنات في الممر. حملت حقيبة الطعام من الخيمة، وسرت وأنا أحملها مسافة ميل؛ حيث عدت إلى المقهى الذي جلست فيه مع ترينا وستاسي في ظهيرة اليوم السابق وطلبت شطيرة برغر دون أن أكترث لكوني سأنفق كل ما أحمله من نقود، فصندوق المؤونة التالي موجود في منتزه شلالات بيرني على بعد اثنين وأربعين ميلاً، لكن يمكنني الوصول إلى هناك خلال يومين إذا أصبحت أسرع في المشي.

غادرت المطعم ولا أحمل في جيبي سوى بعض الفكة، ومشيت أمام هاتف مدفوع الأجر، ثم عدت إليه ورفعت السماعة وأنا أرتعش وأشعر بداخلي بمزيج من الخوف والإثارة. وحين أجابني عامل المقسم أعطيته رقم بول.

رد عليّ عند الرنة الثالثة، فتوترت للغاية حين سمعت صوته وبالكاد قلت «ألو».

- شيريل!

- بول!

ثم أخبرته بمكاني وبما حصل معي منذ آخر مرة رأيته فيها، وتكلمنا لما يقارب الساعة بأحاديث محببة وبهيجة وداعمة ولطيفة. ولم يكن يبدو أنه

زوجي السابق، وإنما صديقي المفضل. وحين أنهيت الاتصال نظرت إلى حقيبة الطعام على الأرض. كانت فارغة تقريباً، ولكنني رفعتها وضممتها إليّ وأغمضت عينيّ.

مشيت عائدة إلى المخيم، وجلست لوقت طويل إلى طاولة النزهة مع كتاب، لكنّ الكثير من المشاعر كانت تسيطر علي فلم أستطع القراءة، فجلست أراقب الناس وهم يعدون عشاءهم حولي، ثم شاهدت الشمس الصفراء وهي تتحول إلى اللون الوردي والبرتقالي والبنفسجي في السماء. كنت مشتاقة لبول ولحياتي، لكنني لا أريد العودة؛ إذ بقيت أتذكر تلك اللحظة الرهيبة حين سقطت أنا وبول على الأرض بعد أن أخبرته عن علاقاتي، وأدركت أن ما بدأته حين تفوّهت بتلك الكلمات لم يؤدِّ إلى طلاقي فحسب وإنما إلى هذا... إلى جلوسي وحيدة في أولد ستيشن في كاليفورنيا إلى طاولة نزهات تحت السماء الرائعة. ولم أشعر بالسعادة أو الحزن أو الخزي أو الفخر، وإنما شعرت أنه على الرغم من الأخطاء التي ارتكبتها حتى وصلت إلى هنا إلا أنني فعلت الأمر الصواب.

توجهت إلى الوحش وأخرجت السيجارة التي أعطاني إياها جيمي كارتر. لم أكن ممن يدخنون، لكنني بكل الأحوال فتحت العلبة وجلست إلى الطاولة وأشعلت السيجارة. كنت على طريق جبال المحيط الهادئ منذ أكثر من شهر، وقد بدت لي تلك الفترة طويلة، كما بدا لي وكأن رحلتي قد بدأت للتو؛ كما لو أنني المرأة التي لديها ثقب في قلبها لكن الثقب أصبح أصغر بكثير.

سحبت نفساً عميقاً ونفثت الدخان من فمي وأنا أتذكر كيف شعرت بالوحدة أكثر من أي أحد في العالم بأسره في ذلك الصباح بعد أن تركني جيمي كارتر... ربما كنت وحيدة أكثر من أي أحد في العالم بأسره.

وربما كان ذلك أمراً جيداً.

12

هذا البعد

استيقظت عند بزوغ أول نور الفجر، وتحركت بأسلوب مضبوط؛ إذ كان عليّ توضيب أغراضي خلال خمس دقائق الآن، فكل غرض كان موجوداً في تلك الكومة المختلطة على السرير في الفندق في موهافي لم يتم حرقه أو التخلص منه أخذ مكانه في حقيبتي، وكنت أعرف ذلك المكان بالضبط، حيث كانت يداي تتجهان إليه على نحو تلقائي؛ فالوحش أصبح عالمي، والعضو الإضافي غير الحي في جسدي. وعلى الرغم من أن وزن الوحش وحجمها لا يزالان يثقلانني، لكنني تقبلت ذلك على أنه عبء عليّ تحمله، ولم أعد أشعر بالتنافر الذي كان بيننا قبل شهر؛ أي أن الأمر لم يعد بيني وبينها، فقد أصبحنا شيئاً واحداً.

وكان حمل ثقل الوحش قد غيّرني من الداخل أيضاً، إذ أصبحت ساقاي قويتين كالجلمود، وعضلاتي قادرة على القيام بأي شيء، حيث كانت منتفخة تحت اللحم الهزيل بطريقة لم أعتدها، كما أن البقع على ردفيّ وكتفي التي لطالما نزفت من جراء الاحتكاك بالوحش استسلمت في النهاية وأصبحت قوية ومليئة بالبثور، وتخدر اللحم.

وقدماي: كانتا بحالة مأساوية بالكامل.

إذ إن إبهامَي قدميّ لم يتعافيا قط من الضرب الذي تلقياه في ذلك النزول عديم الرحمة من ثري ليكس إلى بلدة بيلدن، كما بدت الأظفار شبه ميتة؛ مما جعلني أفكر إن كانت ستسقط. وكانت الضمادات التي بدت دائمة تغطي كعب قدميّ حتى كاحليّ، لكنني رفضت التفكير بقدميّ في ذلك الصباح في أولد ستيشن؛ إذ إن قدرتي على التنزه على طريق جبال المحيط الهادئ تعتمد على السيطرة على الدماغ، أي القرار الجريء للمضي قدماً بغض النظر عن كل شيء. غطيت جروحي بشريط لاصق وضمادات، ثم ارتديت جوربيّ وانتعلت حذائي ومشيت إلى صنبور المخيم لأملأ عبوتَي الماء بأربع وستين أونصة من الماء ينبغي أن تظل معي لخمسة عشر ميلاً عبر هات كريك ريم.

كان الوقت مبكراً لكن الحر شديد، وكنت أمشي على الطريق إلى المكان الذي يتقاطع مع طريق جبال المحيط الهادئ، حيث كنت أشعر بالراحة والقوة والاستعداد لليوم؛ فقد أمضيت الصباح وأنا أشق طريقي عبر أحواض

مستنقعات جافة وأخاديد واسعة وأتوقف لأرتشف الماء بأقل كميات ممكنة. وفي وقت متأخر من الصباح، مررت بجرف بعرض أميال وحقل مرتفع من البذور والأزهار البرية خالٍ من أي ظل، إذ كانت الأشجار القليلة فيه ميتة، والسماء الزرقاء محيطة بي من الأعلى، والشمس مشرقة وقوية لتحرقني رغم اعتماري قبعتي والواقي الشمسي الذي دهنت به وجهي وذراعيّ المغطاتين بالعرق. وكان بإمكاني أن أرى من على بعد أميال قمة لاسن المكسوة بالثلوج جنوباً، وجبل شاستا الأعلى والمغطى بالثلج أيضاً شمالاً. وعندما رأيت جبل شاستا غمرتني راحة كبيرة؛ لأنني متجهة إليه وسأمشي فيه وأتجاوزه وصولاً إلى نهر كولومبيا. وبما أنني تجاوزت الثلج فلن يتمكن شيء من إبعادي عن الطريق. وتشكلت في ذهني صورة لي وأنا أتنزه براحة ونشاط لباقي الأميال، على الرغم من أن الحر اللاهب محاها فوراً وذكّرني بالواقع؛ ففي حال وصلت إلى حدود أوريغون وواشنطن فلن يتحقق ذلك إلا بمشقة وجهد، لأنني سأمشي على قدميّ تحت ثقل الوحش.

والمشي على الأقدام طريقة مختلفة بالكامل عن التنقل عبر العالم بوسائل السفر الاعتيادية. فالأميال ليست أشياء تمر بسرعة، وإنما هي تيه حميمي طويل بين الأعشاب والوحل والأزهار المنحنية مع الريح والأشجار المتمايلة، وهي صوت أنفاسي المتقطعة وصوت قدميّ وهما تضربان الطريق خطوة تلو الأخرى. فقد علمني طريق جبال المحيط الهادئ ما هو الميل، وقد كنت أتواضع قبل كل ميل. في ذلك اليوم في هات كريك ريم، ومع ارتفاع درجة الحرارة، سمعت صوتاً أكثر وضوحاً من أصوات الريح، وأدركت أنه صوت أفعى، فتراجعت إلى الخلف، ورأيت الأفعى أمامي على بعد بضع خطوات وقد رفعت رأسها كإصبع فوق جسدها الملتف، في حين أن وجهها المسطح يندفع نحوي. ولو أنني قمت ببضع خطوات أخرى لكنت قد دست عليها. كانت هذه ثالث أفعى ألتقيها على الطريق، لذا قمت بالالتفاف حولها على شكل قوس كبير، ثم أكملت طريقي.

في منتصف النهار وجدت بقعة ضيقة من الظل فجلست فيها لتناول طعامي، وخلعتُ جوربيّ وحذائي واسترخيت في الطين، ورفعت قدميّ المتورمتين على حقيبتي كما كنت أفعل غالباً في استراحات الغداء. حدقت في السماء، وشاهدت النسور والصقور التي تحلق بدوائر فوقي. لكنني لم أستطع أن أسترخي؛ ليس بسبب الأفعى فحسب؛ فقد كانت الطبيعة حولي جرداء بما يكفي لأرى كل شيء عن بعد، على الرغم من أنه كان يسيطر علي شعور غامض بأن هناك شيئاً مختبئاً عن قرب يراقبني ويتهيأ للوثب، فجلست وتفحصت الأرض بحثاً عن آثار أسود الجبال، ثم استلقيت مجدداً وأنا أقول

لنفسي إنه ليس هناك ما أخشاه، قبل أن أجلس مجدداً بسرعة لدى سماعي صوتاً ما ظننت أنه تكسر غصن.

ثم أقنعت نفسي أنه ليس هناك شيء، وأنني لست خائفة، وتناولت عبوة الماء وشربت جرعة كبيرة حتى أفرغت العبوة، ثم فتحت العبوة الأخرى وشربت منها دون أن أتمكن من إيقاف نفسي. وكان مقياس الحرارة المتدلي من سحاب حقيبتي يشير إلى أن الحرارة تبلغ 100 درجة فهرنهايت في هذه البقعة الظليلة.

غنيت أغاني هادئة وأنا أمشي، بينما كانت الشمس تلسعني كما لو أن لها قوة فيزيائية أكثر من الحرارة، وتجمع العرق حول نظارتي الشمسية، ثم سال على عينيّ وأحرقهما، فاضطررت للتوقف ومسح وجهي بين الفينة والأخرى. وبدا لي أمراً مستحيلاً أنني كنت في الجبال المغطاة بالثلوج وأرتدي كل ثيابي قبل أسبوع فقط، وأنني كنت أستيقظ لأجد طبقة سميكة من الجليد على جدران خيمتي كل صباح، لكن تلك الأيام البيضاء بدت كالحلم؛ كما لو أنني كنت كل ذلك الوقت أترنح شمالاً في الحرارة للوصول إلى هنا في الأسبوع الخامس لي على الطريق، عبر الحرارة نفسها التي أبعدتني عن الطريق في الأسبوع الثاني. توقفت وشربت مجدداً، لكن الماء كان ساخناً لدرجة أنه أحرق فمي.

كانت أعشاب المريمية وبساط من الأزهار البرية تغطي السهل الواسع، وبينما كنت أمشي لم أستطع رؤية ساقي، وكنت أسمع تلك الأزهار كما لو أنها تتكلم معي وتعرّف عن نفسها بصوت أمي... أسماء لم أدرك أنني كنت أعرفها حتى ظهرت بوضوح في دماغي... أسماء الأزهار التي تنمو في مينيسوتا بالألوان الأبيض والبرتقالي والأرجواني، والتي كنا حين نمر بها بالسيارة توقف أمي السيارة أحياناً وتقطف بعضاً منها.

توقفت عن المشي ونظرت إلى السماء في الأعلى، حيث كانت الطيور الجارحة تدور وترفرف بأجنحتها، ثم تابعت مسيري ودماغي متوقف عن التفكير بأي شيء سوى الجهد الذي أبذله لأشق طريقي برتابة؛ إذ لم يكن يوم يمر دون أن تسوده الرتابة، حين كان الشيء الوحيد الذي ينبغي لي التفكير به هو المشقة الجسدية والتي كانت كنوع من العلاج المؤلم. عددت خطواتي حتى وصلت إلى المائة، ثم بدأت مجدداً من الواحد. وفي كل مرة كنت أنهي فيها مائة خطوة كان يبدو لي وكأنني قد حققت إنجازاً صغيراً، ثم أصبح العدد مائة صعباً للغاية، فاكتفيت بخمسين ثم خمسة وعشرين ثم عشرة.

واحد اثنان ثلاثة أربعة خمسة ستة سبعة ثمانية تسعة عشرة.

توقفت وانحنيت وأنا أضغط بيديّ على ركبتيّ لأريح ظهري للحظة، فسال العرق من وجهي إلى الوحل كالدموع.

كانت هضبة مودوك مختلفة عن صحراء موهافي، لكنها لم تبدُ كذلك؛ فكلتاهما فيهما نباتات صحراوية مثلمة، كما أنهما غير مأهولتين من البشر، وكانت السحليات البنية والرمادية الصغيرة تفر من الطريق أو تتجمد مكانها حين أقترب منها... من أين تحصل على الماء؟ تساءلت محاولة إيقاف نفسي عن التفكير في مدى الحر والعطش اللذين أشعر بهما... من أين سأحصل أنا على الماء؟ كنت أبعد ثلاثة أميال عن خزان الماء، ومعي ثماني أونصات من الماء ثم ست ثم أربع.

منعت نفسي من شرب آخر جرعة إلى أن أصبح خزان الماء على مرأى مني. وعند الساعة 4:30 لاح لي من بعيد بالقرب من برج المراقبة العالي، حيث كان الخزان المعدني مرفوعاً على عمود. ما إن رأيته حتى أخرجت عبوة الماء وشربت ما فيها حتى آخر قطرة وأنا سعيدة لأنني خلال دقائق سأشرب كفايتي من الحوض. وبينما كنت أقترب، رأيت العمود الخشبي إلى جانب الحوض مغطى بشيء يتحرك مع الريح، وبدا كعدد من الأشرطة الممزقة، ثم بدا وكأنه قطعة قماش ممزقة. وحين اقتربت، اتضح لي أنها قصاصات ورقية صغيرة عليها ملاحظات وملصقة بالعمود. اقتربت للأمام لأقرأها مع أنني كنت أعرف محتواها، فقد كانوا يقولون ما يريدونه بطرائق مختلفة، لكنها كلها تحمل الرسالة ذاتها... لا ماء.

وقفت بلا حراك للحظة وقد تيبست من الهلع، وحدقت بالخزان لأتأكد مما كان مؤكداً... لا يوجد ماء... ليس معي ماء... ولا حتى رشفة.

لا ماء لا ماء لا ماء لا ماء لا ماء لا ماء.

ركلت الطين وأمسكت بحفنة من نبات المريمية ورميتها جانباً وأنا أشعر بالحنق على نفسي لقيامي بالأمر الخطأ، ولأنني الحمقاء نفسها التي كنتها حين وطأت قدمي الطريق... الحمقاء نفسها التي اشترت الحذاء بالمقاس الخطأ، والتي أخطأت في تقدير مبلغ المال الذي ستحتاج إليه للصيف، وحتى الحمقاء نفسها التي كانت تظن أنه بإمكانها قطع هذا الطريق مشياً على الأقدام.

سحبت صفحات كتيب الدليل من جيب سروالي القصير وقرأتها مجدداً، لكنني لم أكن خائفة كما كنت في الصباح حين راودني ذلك الشعور

المضحك بأن هناك شيئاً مختبئاً في مكان قريب، وإنما كنت مصابة بالهلع. وهذا ليس شعوراً وإنما حقيقة... فأنا أبعد أميالاً عن الماء في يوم ترتفع فيه درجة الحرارة فوق مائة فهرنهايت. كنت أعلم أن هذه أخطر مشكلة تواجهني منذ أن بدأت رحلتي، فهي أخطر من الثور الغازي ومن الثلج، فأنا بحاجة للماء... بحاجة له على الفور... بحاجة له الآن، ويمكنني الشعور بتلك الحاجة في كل مسامات جسمي، وتذكرت ألبرت حين سألني كم مرة أتبول في اليوم حين التقيته، فأنا لم أتبوّل منذ أن غادرت أولد ستيشن في ذلك الصباح، إذ لم أشعر بأي حاجة لذلك، فكل أونصة تناولتها استهلكتها وبلغ مني العطش مبلغاً؛ إلى درجة أنني لم أعد أستطيع البصاق حتى.

وقد ذكر مؤلفو «طريق جبال المحيط الهادئ المجلد الأول: كاليفورنيا» أن أقرب مصدر موثوق للماء يبعد خمسة عشر ميلاً في روك سبرينغ كريك، لكنهم ذكروا أن هناك حوض ماء في مكان أقرب، غير أنهم يوصون بشدة بعدم الشرب منه؛ إذ قالوا إن جودة المياه مشكوك بها في أحسن الحالات. ويبعد ذلك الحوض حوالي خمسة أميال على الطريق، إلّا إن كان قد جفّ بالطبع، فهناك احتمال قوي بأن يجف. سارعت خطاي نحوه، لكن بالنظر إلى حالة قدميّ وثقل حقيبتي لم يتعدَّ الأمر كونه مشياً سريعاً، وبدا لي وكأنه بإمكاني رؤية العالم بكامله من الطرف الشرقي لهات كريك، حيث يمتد وادٍ عريض تحتي تقطعه جبال بركانية خضراء شمالاً وجنوباً. وفي خضم توتري وقلقي لم أستطع إلا وأن أطرب للجمال. فعلى الرغم من أنني كنت حمقاء بكل ما للكلمة من معنى– إذ إنني قد أموت بسبب التجفاف والحرارة– لكن هذا لا ينفي أنني في مكان جميل... مكان أحببته على الرغم من وبسبب المشقة، وقد جئت إلى هذا المكان بملء إرادتي. وبينما كنت أواسي نفسي بتلك الحقائق، أكملت طريقي وأنا أشعر بعطش شديد، لدرجة أنني بدأت أحس بالغثيان والحمى، وكنت أقول لنفسي إنني سأكون بخير إذ لم يعد هناك الكثير، وبقيت أردد ذلك عند كل منعطف وفوق كل مرتفع حتى رأيت الحوض في النهاية.

توقفت وحدقت به، إذ بدا كبركة قذرة تبدو بوضع مأساوي بحجم ملعب تنس، لكنها تحتوي على الماء. ضحكت بفرح وأنا أترنح على المنحدر نحو الشاطئ الطيني الصغير المحيط بالحوض. فهذا أول يوم أمشي فيه لعشرين ميلاً. خلعت الوحش ووضعتها على الأرض، وتوجهت إلى الشاطئ الطيني وجلست القرفصاء ووضعت يدي في الماء فوجدته رمادياً ودافئاً كالدم. وحين حركت يدي، طفت القذارات من الأسفل ولونت الماء باللون الأسود.

أخرجت منقي المياه وضخخت السائل المشكوك في نوعيته في عبوتي، وحين أنهيت تعبئة أول عبوة بدأت ذراعاي ترتعشان من التعب، فأخرجت حقيبة الإسعافات الأولية وأخرجت حبوب اليود ووضعت حبتين في الماء. كنت قد اشتريت تلك الحبوب خصيصاً لهذا السبب؛ في حال اضطررت لشرب الماء الملوث على الأرجح. وحتى ألبرت كان يظن أن حبوب اليود فكرة جيدة في كينيدي ميدوز حين كان يرمي أغراضي في كومة لأتخلص منها... ألبرت الذي أصيب بمرض من جراء الماء في اليوم التالي.

كان علي الانتظار لثلاثين دقيقة حتى يأخذ اليود مفعوله قبل أن يصبح من شرب الماء آمناً. ولأنني كنت في غاية العطش ألهيت نفسي بملء العبوة الأخرى بالماء. وحين انتهيت، وضعت المشمع على الشاطئ الطيني ووقفت عليه وخلعت ملابسي، فبردت الريح البقع الحارة على ردفيّ العاريين دون أن يخطر ببالي أن يمر أحد بالطريق؛ إذ لم أرَ أحداً طوال اليوم، وحتى لو أن أحداً مرّ فقد كنت أعاني من التجفاف والإرهاق حيث ما عدت أكترث.

نظرت إلى ساعة يدي ووجدت أن سبعاً وعشرين دقيقة قد مرت منذ أن وضعت حبّتَي اليود في الماء. وكنت في العادة أتضور جوعاً في مثل هذا الوقت، لكن حينها لم تخطر ببالي فكرة تناول الطعام، فالشيء الوحيد الذي أرغب به هو الماء.

جلست على المشمع الأزرق وشربت عبوة ثم الأخرى، حيث كان مذاق الماء معدنياً وطينياً، لكنني كنت سعيدة للغاية؛ إذ شعرت به يتحرك داخلي. وكما كنت في الأيام الأولى لي على الطريق حين كنت مصابة بإرهاق شديد حيث لم يطلب جسدي سوى النوم فإن جسدي لم يطلب الآن سوى الماء، فملأت العبوتين مجدداً وتركت اليود ينقي الماء ثم شربتهما مرة أخرى.

وبعد أن ارتويت، كان الظلام قد حل والقمر قد ارتفع في السماء، لكن قواي كانت خائرة فلم أستطع نصب خيمتي؛ مع أن ذلك لا يتطلب من الجهد سوى دقيقتين. لذا قررت أنني لست بحاجة للخيمة، فالمطر لم يهطل منذ ثاني يوم لي على الطريق، وارتديت ملابسي ومددت كيس النوم على المشمع. لكن الحر كان شديداً فاستلقيت فوقه. كنت متعبة للغاية فلم أقرأ، وحتى إن النظر إلى القمر بدا لي أنه يتطلب بعض الجهد. كنت قد استهلكت 128 أونصة من ماء الحوض منذ أن وصلت قبل بضع ساعات، لكنني مع ذلك لم أشعر بأية رغبة في التبول... لا بد أنني اقترفت خطأ غبياً وفادحاً حين عبرت هات كريك ريم بكمية قليلة من الماء، ووعدت القمر قبل أن أغفو ألا أتصرف بهذا الإهمال مجدداً.

استيقظت بعد ساعتين على إحساس رائع وغريب؛ إذ شعرت أن هناك أيادي باردة صغيرة تنقر علي بلطف... على ساقيّ وذراعيّ ووجهي وشعري وقدميّ وحنجرتي ويديّ، وشعرت بثقلها فوق قميصي القطني على صدري وبطني، فتأوهت وتلويت قبل أن أفتح عينيّ وتتدفق سلسلة من الحقائق إلى دماغي ببطء شديد.

القمر هناك، وأنا نائمة في العراء على قطعة المشمع.

استيقظت لأنه بدا لي أن هناك أيادي صغيرة باردة تنقر على جسدي، وهذه الأيادي الصغيرة الباردة تنقر علي بلطف.

وتلك الأيادي الصغيرة الباردة لم تكن أيادي وإنما مئات الضفادع السوداء الباردة والصغيرة.

ضفادع سوداء باردة وصغيرة ولزجة بحجم رقائق البطاطا... جيش من البرمائيات... ميليشيا رطبة وناعمة الملمس... مستعمرة ضخمة... وكنت أنا في طريقها وهي تقفز وتثب بأجسامها الصغيرة من الحوض إلى المساحة الموحلة التي كانت تعتبرها شاطئها الخاص.

وخلال لحظة، كنت بينها أقفز وأثب وألتقط حقيبتي ومشمعي وكل ما عليه وأنقلها بعيداً عن الشاطئ، بينما تساقطت الضفادع عن شعري وثنايا قميصي، ولم أستطع إلا أن أدوس بعضها تحت قدميّ الحافيتين. وحين أصبحت بأمان، وقفت أشاهدها من الشريط الخالي من الضفادع وقد ظهرت الحركة المحمومة لأجسادها الداكنة في ضوء القمر اللامع. تحقّقت من جيوب سروالي القصير بحثاً عن الضفادع، ثم جمعت أغراضي ونقلتها إلى بقعة صغيرة فارغة، وسحبت خيمتي من حقيبتي ونصبتها خلال لحظات.

وعند الساعة 8:30 صباحاً زحفت خارجة منها. وكانت الساعة الثامنة والنصف وقتاً متأخراً بالنسبة لي، إذ كانت بمثابة فترة الظهيرة بالنسبة لحياتي السابقة. وقفت ونظرت حولي مترنحة، لكنني لم أشعر بأية رغبة بالتبول، فوضبت أغراضي وعبأت المزيد من الماء القذر ومشيت شمالاً تحت الشمس الحارقة التي كانت أشد حرارة من اليوم السابق. وخلال ساعة، كدت أدوس على أفعى أخرى، لكنها حذرتني بفحيحها.

وفي وقت متأخر من فترة بعد الظهيرة، توقفت عن التفكير في الوصول إلى منتزه بيرني فولز ميموريال مع نهاية اليوم بسبب قدميّ المتقرحتين والحرارة الشديدة. وبدلاً من ذلك، قمت بجولة قصيرة على الطريق إلى كاسل، حيث ذكر الكتيب الإرشادي أن هناك متجراً يبيع بضائع

متنوعة. وصلت إليه حوالي الساعة الثالثة، حيث خلعت حقيبتي وجلست على مقعد خشبي في الشرفة القديمة للمتجر وأنا أكاد أنهار من شدة الحر، وكان مقياس الحرارة الكبير في الظل يشير إلى 102 درجة فهرنهايت. عددت نقودي وكدت أنفجر باكية حين اكتشفت أن ما معي لن يكون كافياً لشرب عصير الليمون؛ إذ كنت أرغب به بإلحاح، حتى تحولت الرغبة التي أشعر بها إلى حركة راحت تتزايد في أحشائي. كانت علبة من عصير الليمون ستكلفني 99 سنتاً أو 1.05 أو 1.15 دولار. لا أعرف المبلغ بالضبط، لكنني أعرف أنني لا أحمل سوى 76 سنتاً، وأن ذلك لن يكون كافياً. لكنني بكل الأحوال دخلت المتجر لإلقاء نظرة.

سألتني المرأة التي تقف وراء الطاولة:

- هل أنت متنزهة على طريق جبال المحيط الهادئ؟

أجبتها مبتسمة:

- نعم.

- من أين؟

- مينيسوتا.

وشققت طريقي أمام صف البرادات ذات الأبواب الزجاجية التي تحوي مشروبات باردة مصفوفة في صفوف مرتبة في الداخل، حيث مررت بعلب الشراب وزجاجات المياه المعدنية والعصير، ثم توقفت عند الباب الذي يضم صفوفاً من عصير الليمون، فوضعت يدي على الزجاج بالقرب من زجاجات عصير الليمون التي بدت كالألماس؛ إذ يمكنك النظر إليها لكن لا تلمسها.

- إن كنت قد انتهيت من رحلتك اليوم فبإمكانك التخييم في الحقل خلف المتجر، فنحن نسمح لجميع المتنزهين على طريق جبال المحيط الهادئ بالبقاء هنا.

- شكراً... أظنني سأفعل ذلك.

وبقيت أحدق بالمشروبات... ربما يمكنني الإمساك بواحدة والضغط بها على جبهتي للحظة، ففتحت الباب وسحبت زجاجة من عصير الليمون البارد للغاية لدرجة أنها بدت كما لو أنها تحرق يدي، ثم سألت:

- بكم هذه؟

ردت المرأة ضاحكة:

- رأيتك تعدين نقودك في الخارج... كم معك؟

أعطيتها كل ما معي وأنا أشكرها بحرارة، ثم أخذت الزجاجة إلى الشرفة وبدأت أرتشفها بتلذذ. كنت أمسك بالزجاجة بكلتا يديّ وأنا أسعى لامتصاص كل البرودة فيها. كانت هناك سيارات تتوقف وينزل منها الناس ويدخلون المتجر ثم يخرجون ويركبون سياراتهم مبتعدين، وظللت جالسة أشاهدهم لمدة ساعة. وبعد قليل، أبطأت شاحنة صغيرة أمام المتجر، ونزل رجل من الخلف وسحب وراءه حقيبة ظهره، ثم لوح للسائق والتفت إليّ وقال وهو ينظر إلى حقيبتي بينما امتدت ابتسامة كبيرة على وجهه الوردي البدين:

- مرحباً! يا له من يوم حار للتنزه على طريق جبال المحيط الهادئ أليس كذلك؟

كان اسمه ريكس، وهو رجل بدين ذو شعر أحمر وأشيب وفي الثامنة والثلاثين من عمره. توجّه إلى المتجر واشترى ثلاث علب من الشراب وشربها وهو يجلس بجانبي على الشرفة، حيث تكلمنا حتى حلول المساء. كان يقيم في فونيكس ويتولى وظيفة في شركة لم أفهم ماهيتها، لكنه ترعرع في بلدة صغيرة جنوب أوريغون، وقد مشى من الحدود المكسيكية إلى موهافي في الربيع، ثم ابتعد عن الطريق في النقطة التي بدأت منها رحلتي، ليعود إلى فونيكس لستة أسابيع للاهتمام ببعض الأعمال قبل أن يبدأ مجدداً على الطريق في أولد ستيشن بعد أن تجاوز كل الثلج.

وحين أريته قدميّ قال مردداً كلام غريغ وبرينت:

- أظن أنك بحاجة لحذاء جديد.

- لكن، لا يمكنني الحصول على حذاء جديد، فأنا لا أملك المال.

- من أين اشتريته؟

- من راي.

- اتصلي بهم، فلديك كفالة مرضية وسيستبدلونه لك مجاناً.

- حقاً؟

- اتصلي بالرقم 1800.

فكرت في الأمر طوال الأمسية وأنا أخيم مع ريكس في الحقل خلف المتجر. وفي اليوم التالي، عبرت الاثني عشر ميلاً ذات التضاريس السهلة بسرعة متجهة نحو منتزه ماكآرثر بيرني فولز ميموريال، حيث استلمت صندوق المؤونة مباشرة وتوجهت إلى الهاتف واتصلت بعامل المقسم ثم براي. وخلال خمس دقائق، وافقت المرأة التي تكلمت معها على إرسال زوج جديد من الأحذية أكبر بمقاس واحد عبر البريد السريع ودون أية تكاليف.

- أمتأكدة؟

- بالطبع.

وهكذا، أحببت راي أكثر من صانعي عصير الليمون. أعطيتها عنوان المتجر في المنتزه وأنا أقرأه من الصندوق الذي لم أفتحه بعد. ولولا الألم الذي أشعر به في قدميّ لكنت قد قفزت فرحاً بعد إعادة السماعة. فتحت الصندوق ووجدت عشرين دولاراً، ثم انضممت إلى حشد السياح وأنا آمل ألا يلاحظ أحد منهم الرائحة الكريهة المنبعثة مني، واشتريت المثلجات وجلست إلى طاولة النزهات وتناولتها بنهم. وبينما كنت جالسة هناك، مشى ريكس نحوي، ثم جاءت ترينا بعد عشر دقائق مع كلبها الأبيض الكبير فتعانقنا وعرفتها على ريكس. كانت قد وصلت مع ستاسي في اليوم السابق، وقد قررت ترك الطريق والعودة إلى كولورادو للمشي لعدة أيام بالقرب من منزلها لباقي الصيف بدلاً من التنزه على طريق جبال المحيط الهادئ، وستتابع ستاسي دربها كما خططت.

أضافت ترينا:

- أنا متأكدة من أنها ستسعد بانضمامك إليها، فهي ستبدأ رحلتها في الصباح.

- لا أستطيع.

وشرحت لها أنه علي انتظار حذائي الجديد.

- كنا قلقتين بشأنك في هات كريك ريم، إذ لم يكن هناك ماء في...

- أعلم.

- تعاليا... سأريكما أين خيمنا؛ فالمكان لا يبعد سوى عشرين دقيقة مشياً على الأقدام، لكنه بعيد عن كل هؤلاء.

وأومأت بنوع من الازدراء إلى السياح والمتجر.

- ... كما أنه مجاني.

كانت قدماي قد وصلتا إلى مرحلة أشعر فيها بالألم أكثر حين أنهض لأمشي بعد فترة استراحة، وبدأت التقرحات العديدة تنفتح مع كل جهد جديد. عرجت خلف ترينا وريكس في طريق عبر الغابة يؤدي إلى طريق جبال المحيط الهادئ حيث يوجد سهل صغير بين الأشجار.

نادت ستاسي وهي قادمة لتعانقني:

- شيريل!

تكلمنا حول هات كريك ريم والحرارة المرتفعة والطريق ونقص الماء وما يقدمه المقهى للعشاء، ثم خلعت حذائي وجوربيّ وانتعلت الحذاء المفتوح ونصبت خيمتي، وبدأت أفتح صندوق المؤونة ونحن نتكلم، حيث أصبحت ستاسي وريكس صديقين بسرعة، وقررا العودة إلى المقهى لتناول العشاء. أما أنا فكانت أصابع قدميّ قد احمرت وتورمت ولم أعد أحتمل حتى ارتداء الجوربين، لذا ذهبت إلى المقهى منتعلة الحذاء المفتوح، حيث جلسنا حول طاولة نزهة ومعنا أطباق ورقية فيها النقانق والفلفل الحار ورقائق البطاطا مع الجبن بنكهة البرتقال، وقد بدا الأمر كوليمة احتفالية؛ حيث رفعنا الأكواب وشربنا نخباً وقلنا ونحن نطرق كؤوسنا:

- بصحة ترينا وأودين ورحلة عودتهما إلى المنزل.

- بصحة ستاسي وريكس وهما يقطعان الطريق.

- بصحة شيريل وحذائها الجديد.

حين استيقظت في الصباح التالي كانت خيمتي هي الوحيدة في السهل بين الأشجار، فمشيت إلى الحمام المخصص للمخيمين في المخيم الرسمي، واستحممت ثم عدت إلى مخيمي، وجلست على كرسي التخييم لساعات، حيث تناولت طعام الفطور وقرأت نصف الكتاب بجلسة واحدة. وفي المساء، مشيت إلى المتجر بالقرب من المقهى لأرى إن كان حذائي قد وصل، لكن المرأة التي تعمل هناك أخبرتني أن البريد لم يصل بعد.

شعرت بالوحدة وأنا أمشي بحذائي المكشوف في طريق معبد وقصير إلى مرتفع لأرى الشلالات الضخمة التي تمت تسمية المنتزه باسمها؛ فشلالات

بيرني أكثر الشلالات غزارة في ولاية كاليفورنيا. وبينما كنت أحدق بالمياه الهادرة، شعرت أنني غير مرئية بين الناس الذين يحملون آلات التصوير وحقائبهم ويرتدون السراويل القصيرة، فجلست على مقعد، وشاهدت زوجين يطعمان مجموعة من السناجب التي اندفعت حول لافتة مكتوب عليها «لا تطعم الحيوانات البرية». شعرت بالغضب لدى رؤيتهما؛ لكنني لم أكن غاضبة فقط من انتهاكهما قانون مستعمرة السناجب، وإنما أيضاً لأنهما كانا زوجين، وكانا ينحنيان نحو بعضهما، ويشبكان أصابعهما معاً ويتعانقان بحنان. شعرت بالانزعاج منهما والحسد لهما؛ إذ بدا وجودهما كدليل على أنني لن أنجح أبداً في الحب الرومانسي، وكنت قد شعرت بذلك بقوة وأنا أتكلم عبر الهاتف مع بول في أولد ستيشن قبل بضعة أيام، لكن ذلك الشعور لم يعد إليّ حتى الآن، فكل شيء ثار الآن.

عرجت عائدة إلى المخيم، وتفحصت أصابع قدميّ المصابة، حيث أمكنني رؤيتها تنبض بشكل منتظم مما يلون أظافري بالأبيض ثم الوردي ثم الأبيض ثم الوردي. فقد كانت متورمة وكأن أظافري ستقع. وهنا خطرت ببالي فكرة أن سقوط أظافري قد يكون أمراً جيداً، فقرصت أحد الأظفار وشعرت بوخزة قوية تبعها ألم شديد، ثم سقط الظفر وشعرت بالراحة مباشرة. وبعد لحظة، فعلت الأمر نفسه بالظفر الآخر.

وهكذا، لم تتبقَ لدي سوى 4 أظفار.

ومع حلول الليل، انضم أربعة متنزهين على طريق جبال المحيط الهادئ إليّ، حيث وصلوا وأنا أحرق آخر صفحات كتابي. كانا زوجين في مثل عمري، وقد مشيا كل الطريق من المكسيك باستثناء الأقسام المغطاة بالثلج التي تجاوزتها في سيرا نيفادا. وقد بدأ كل زوج منهما رحلته بمفرده، لكنهم التقوا وانضموا لبعضهم في جنوب كاليفورنيا وبدأوا بالتنزه وتجاوز الثلج معاً في البراري. كان جون وساره من ألبيرتا في كندا، ولم تمضِ سنة على علاقتهما. أما سام وهيلين فمتزوجان، وهما من مين. وكان الزوجان سيبقون للراحة في اليوم التالي، لكنني أخبرتهم أنني سأكمل طريقي ما إن يصل الحذاء الجديد.

في الصباح التالي، وضبت أغراضي في الوحش ومشيت إلى المتجر منتعلة الحذاء المكشوف، وقد ربطت حذائي بحقيبة ظهري، وجلست إلى إحدى طاولات النزهة القريبة بانتظار وصول البريد. فقد كنت متحمسة للمشي بعيداً، ليس لأنني أحب المشي والتنزه وإنما لأنه يجب علي ذلك لكي أصل إلى كل نقطة إعادة تزود بالمؤونة في الوقت المتوقع تقريباً. إذ علي

الالتزام بالجدول. فعلى الرغم من كل التغييرات، لكنني ولأسباب تتعلق بالنقود والطقس علي الالتزام بخطتي لإنهاء رحلتي في منتصف سبتمبر. جلست لساعات أقرأ الكتاب الموجود في الصندوق «لوليتا» لفلاديمير نابوكوف وأنا أنتظر وصول حذائي. وقد جاء الناس وذهبوا دفعات، حيث كانوا يتجمعون حولي على شكل حلقات لسؤالي عن طريق جبال المحيط الهادئ؛ وذلك حين يلاحظون حقيبتي. وحين كنت أتكلم، كانت شكوكي حول نفسي تتلاشى لدقائق، وأنسى أنني حمقاء مغفلة، ويحل محل ذلك شعورٌ بأنني خبيرة رحلات وملكة رائعة وقوية من الأمازون.

قالت لي امرأة عجوز من فلوريدا تعتمر قبعة وردية اللون مشرقة، وتتزين بمجموعة من القلادات الذهبية:

- أنصحك بوضع ذلك في سيرتك الذاتية. فقد كنت أعمل في الموارد البشرية، وأصحاب العمل يبحثون عن أمور كهذه؛ إذ إنها تخبرهم أن لديك شخصية مميزة وأنك مختلفة عن الآخرين.

وصل ساعي البريد حوالي الساعة الثالثة، في حين وصل عامل الطرود البريدية بعد ساعة، لكنّ أحداً منهما لم يكن معه حذائي، فشعرت بالخوف وتوجهت إلى الهاتف واتصلت براي.

وقد أخبرني الرجل الذي تكلم معي أنهم لم يرسلوا لي حذائي بعد؛ إذ علموا أنه لا يمكنهم إرساله إلى المنتزه بالبريد الليلي، لذا قرروا إرساله بالبريد العادي، لكنهم لم يعرفوا كيفية الاتصال بي لإخباري فلم يفعلوا شيئاً، فقلت له:

- لا أظنك تفهم الوضع... أنا أتنزه على طريق جبال المحيط الهادئ وأنام في الغابات... بالطبع لن تستطيعوا الاتصال بي، كما أنه لا يمكنني الانتظار هناك لفترة طويلة... إلى كم من الوقت ستحتاجون ليصل إلي الحذاء بالبريد العادي؟

- خمسة أيام تقريباً.

- خمسة أيام؟

لم يكن بإمكاني التذمر، إذ إنهم سيرسلون لي زوجاً جديداً من الأحذية مجاناً، لكنني منزعجة ومذعورة. فبالإضافة إلى ضرورة التزامي بالتوقيت، أنا بحاجة للطعام الموجود في حقيبتي من أجل القسم التالي من الطريق، أي الأميال الثلاثة والثمانين التي ستوصلني إلى كاسل كراغز؛ وإذا بقيت عند

شلالات بيرني بانتظار حذائي فسأتناول ذلك الطعام لأنه لم تبقَ معي سوى حوالي خمسة دولارات، وهو مبلغ غير كافٍ لأمضي الأيام الخمسة التالية وأنا أتناول الطعام من مقهى المنتزه. مددت يدي إلى حقيبتي وأخرجت الكتيب الإرشادي، ووجدت عنوان كاسل كراغز. ورغم أنني لم أستطع تخيل نفسي وأنا أمشي ثلاثة وثمانين ميلاً بحذائي الضيق إلا أنه لم يكن أمامي خيار آخر سوى أن أطلب من راي إرسال الحذاء الجديد إلى هناك.

حين أنهيت المكالمة لم أعد أشعر أنني ملكة رائعة وقوية من الأمازون.

حدقت بحذائي بتعابير ملؤها التوسل؛ كما لو أنه بإمكاني عقد صفقة معه. فقد كان الحذاء متدلياً من حقيبة ظهري بلا اكتراث، وكنت أنوي تركه في الصندوق المجاني لمتنزهي جبال المحيط الهادئ ما إن يصل حذائي الجديد. مددت يدي إليه لكنني لم أستطع إقناع نفسي بانتعاله... ربما يمكنني انتعال حذاء التخييم المكشوف في بعض الأحيان، فقد التقيت بعض الناس الذين يبدّلون بين الحذاء المشي والحذاء المكشوف أثناء التنزه، لكن أحذيتهم المكشوفة تكون أفضل من حذائي؛ فأنا لم أخطط قط لانتعال حذائي المكشوف أثناء التنزه، وإنما اشتريته لأريح قدميّ من حذائي في نهاية اليوم، واشتريته بثمن زهيد من متجر تخفيضات بما يقارب 19.99 دولاراً. خلعت حذائي المكشوف وداعبته بيدي وكأنني حين أتفحصه يمكنني منحه استمرارية لا يمتلكها؛ فقد كان نعله الأزرق طرياً كالعجين ورقيقاً، لدرجة أنني حين كنت أمشي كنت أشعر بالحصى والعيدان تحت قدميّ، فانتعاله يشبه المشي حافية القدمين... هل سأمشي إلى كاسل كراغز بهذا؟

ربما لا ينبغي لي ذلك، وربما لن أفعل... هذه المسافة التي قطعتها من الطريقة كافية، ويمكنني وضعها في سيرتي الذاتية.

- تباً.

والتقطت حجراً ورميته بأقوى ما أستطيع على شجرة قريبة، ثم حجراً آخر، فآخر.

فكرت بالمرأة التي كنت أفكر بها دائماً في مثل هذه اللحظات... تلك المرأة التي توقّعت مخطط حياتي حين كنت في الثالثة والعشرين، بعد أن قامت إحدى صديقاتي بترتيب موعد لي معها كهدية قبل أن أغادر مينيسوتا إلى مدينة نيويورك. كانت امرأة متوقعة متوسطة العمر، اسمها بات، وقد أجلستني إلى طاولة مطبخها ووضعت على الطاولة ورقة مغطاة برموز غامضة، وشغّلت مسجل صوت بيننا. لم أكن ممن يصدقون التوقعات، لكنني

ظننت أن الجلسة ستكون ممتعة ومضحكة ومحفزة، وستقول خلالها أشياء عامة مثل «لديك قلب طيب».

لكنها لم تفعل ذلك، أو فعلت؛ لكنها قالت أشياء أخرى دقيقة للغاية... أشياء مريحة ومزعجة صدف أنها كانت صائبة، وكان كل ما استطعت فعله هو الصياح والتساؤل: «كيف عرفت ذلك؟». ثم أنصتّ لها وهي تشرح لي عن الكواكب والشمس والقمر، واللحظة التي ولدت فيها، ومعنى برج «العذراء»، وحين يكون القمر في برجي الأسد والجوزاء... وكنت أومئ لها فيما أنا أفكر في سري: «هذه مجموعة من الهراء الجنوني الرجعي». لكنها بعد ذلك كانت تقول شيئاً آخر يفاجئني لأنه يصدف أن يكون صحيحاً تماماً.

إلى أن تطرقت في حديثها إلى أبي، حيث سألتني: «أهو جندي سابق في فيتنام؟». فنفيت ذلك، وأخبرتها أنه التحق بالخدمة العسكرية لفترة وجيزة في منتصف الستينيات، حيث كان مركزه في قاعدة في كولورادو سبرينغز مع والد أمي، وهناك التقى أمي، لكنه لم يذهب إلى فيتنام قط.

فأصرت:

- يبدو لي كجندي سابق في فيتنام. ربما ليس حرفياً، ولكنّ هناك شيئاً مشتركاً بينه وبين أولئك الرجال. فقد كان مجروحاً بعمق ومتأذياً، وقد أفسدت أذيته حياته وحياتك.

لم أومئ لها برأسي، إذ إن كل ما حصل معي في حياتي بأكملها امتزج ببعضه حين أخبرتني أن أبي أفسد حياتي.

- مجروح!

- نعم... وأنت أيضاً مجروحة في المكان نفسه. فهذا ما يفعله الآباء إن لم يعالجوا جراحهم؛ إذ يجرحون أطفالهم في المكان نفسه.

- مممم.

- قد أكون مخطئة، فهذا ليس أكيداً بالضرورة.

- في الواقع، لم أرَ والدي سوى ثلاث مرات بعد أن بلغت السادسة من العمر.

- مهمة الأب هي تعليم أبنائه كيف يكونون محاربين، ومنحهم الثقة ليمتطوا الفرس وينطلقوا إلى المعركة عند الضرورة، وإن لم تحصلي على

ذلك من أبيك فعليك تعليم نفسك بنفسك.

- لكن، أظن أنني فعلت ذلك. فأنا قوية وأواجه الأمور و...

- لا يتعلق الأمر بالقوة، وقد لا تتمكنين من رؤية ذلك بعد، لكن ربما يأتي عليك وقت– ربما بعد سنوات– ستحتاجين فيه لامتطاء فرسك والانطلاق إلى معركة، وستتردّدين وتتلكئين. ولكي تعالجي الجرح الذي تركه والدك عليك امتطاء ذلك الفرس والانطلاق إلى المعركة كمحاربة.

حينها، ضحكت قليلاً ضحكة حزينة كنت أسمعها مراراً وتكراراً؛ لأنني أخذت الشريط المسجل معي إلى البيت وسمعته كثيراً.

كان أبي يسألني حين يكون غاضباً وقبضة يده على بعد بوصة من وجهي الصغير:

- أتريدين لكمة؟ أتريدين؟ آه؟ أجيبيني!

انتعلت الحذاء المكشوف، وبدأت أمشي إلى كاسل كراغز.

13

تراكم الأشجار

أول شخص فكّر بطريق جبال المحيط الهادئ هو امرأة. وقد كانت مدرّسة متقاعدة من بيلينغهام في واشنطن تدعى كاثرين مونتغومري. ففي محادثة مع متسلق الجبال والكاتب جوزيف ت.هازارد عام 1926 قالت إنه ينبغي وجود طريق عبر البلاد يمر بمرتفعات جبالنا الغربية، فقامت مجموعة صغيرة من المتنزهين باعتماد فكرة مونتغومري على الفور. وبعد ست سنوات، أعلن كلينتون شيرشل كلارك أن الرؤية الواضحة لطريق جبال المحيط الهادئ قد بدأت تتبلور، وقد كان كلارك يعيش برفاهية في باسادينا، ولكنه كان يحب حياة العراء بسبب اعتياده على ثقافة تمضية الكثير من الوقت بالجلوس على المقاعد الطرية في السيارات ودور السينما. وقد ضغط كلارك على الحكومة الفيدرالية لتشق ممراً من البراري إلى الطريق، وكانت رؤيته أبعد من طريق جبال المحيط الهادئ الذي كان يأمل أن يكون مجرد قسم من طريق أطول بين الأمريكيتين يمتد من ألاسكا إلى تشيلي، كما كان يثق في أن الوقت الذي يمضيه في البراري يزوده «بقيمة علاجية طويلة المدى»، وقد أمضى خمسة وعشرين عاماً من عمره وهو يدافع عن طريق جبال المحيط الهادئ، لكنه حين توفي عام 1957 كان الطريق مجرد حلم.

ربما يكون الإسهام الأهم لكلارك بالنسبة للطريق هو التعرف على وارن روجرز الذي كان في الرابعة والعشرين حين التقى الاثنان عام 1932. فقد كان روجرز يعمل في الرابطة النصرانية للشباب في ألهامبرا في كاليفورنيا حين أقنعه كلارك بمساعدته في مسح الطريق، وذلك من خلال توزيع فرق متطوعي الرابطة النصرانية للشباب لرسم وبناء ما سيصبح طريق جبال المحيط الهادئ. وعلى الرغم من رفض روجرز في البداية، إلا أنه سرعان ما أصبح متحمساً لإنشاء الطريق، وأمضى ما تبقى من حياته وهو يعمل للتغلب على العوائق القانونية والمالية التي تعترض طريقه. وقد عاش روجرز ليرى مجلس النواب يصمم طريق جبال المحيط الهادئ الوطني عام 1968، ولكنه توفي عام 1992 قبل إنهاء الطريق بعام.

كنت قد قرأت في الشتاء الماضي في الكتيب الإرشادي عن تاريخ الطريق، لكنني لم أدرك إلا وأنا أمشي بحذائي المكشوف في وقت مبكر من المساء قبل بضعة أميال من شلالات بيرني معنى تلك القصة، فمنحتني القوة وصدمتني؛ إذ إن كاثرين مونتغومري وكلينتون كلارك ووارن روجرز والمئات

الآخرين الذين أنشأوا طريق جبال المحيط الهادئ وتخيلوا الناس الذين سيمشون في ذلك الطريق المرتفع الملتف حول مرتفعات جبالنا الغربية كانوا يتخيلونني أيضاً. ولا يهم إن كان حذائي المكشوف زهيد الثمن أو حذائي المريح حديث الصنع غريبَين عنهم، وإنما ما يهم هو الشيء الذي دفعهم ليناضلوا من أجل الطريق، والشيء الذي دفعني أنا وجميع المتنزهين للمضي قدماً. فهذا الأمر ليست له علاقة بالمعدات أو الأحذية أو الحقائب أو فلسفة أية فترة أو حتى بالوصول من النقطة أ إلى النقطة ب.

فالأمر متعلق فقط بكونك في العالم، وبالمشي لأميال بلا سبب، وأنت لا تهدف إلّا إلى رؤية الأشجار والمروج والجبال والصحاري والجداول والصخور والأنهار والأعشاب وشروق الشمس وغروبها. وقد كانت التجربة قوية وجوهرية، وبدا لي أن هذا هو الشعور الدائم الذي ينجم عن كونك إنساناً في البراري. وأفترض أن هذا ما عرفته مونتغومري وكلارك وروجرز وآلاف الأشخاص الذين سبقوهم ولحقوا بهم، وهذا ما عرفته قبل أن أعرف كم سيكون طريق جبال المحيط الهادئ صعباً ورائعاً، وكم سيحطمني الطريق ويؤذيني.

فكرت في ذلك وأنا أمشي في الأسبوع السادس على الطريق، تحت الظل الرطب لأشجار الصنوبر والتنوب. وقد كانت أرضية الطريق مفروشة بالحصى، حيث كنت أشعر بها في أسفل قدميّ من خلال الحذاء المكشوف الرقيق، وقد بدت عضلات كاحلَيّ مشدودة بدون دعم حذائي، لكن على الأقل لم تكن أصابع قدميّ تصطدمان بمقدمة حذائي مع كل خطوة. مشيت حتى وصلت إلى جسر خشبي يلتف حول جدول. وحين لم أجد بقعة مستوية في مكان قريب، نصبت خيمتي على الجسر الذي كان جزءاً من الطريق، ونمت وأنا أستمع إلى صوت خرير مياه الجدول الصغير تحتي طوال الليل.

استيقظت مع بزوغ نور الفجر، ومشيت بحذائي المكشوف لبضع ساعات، حيث تسلقت 1700 قدم تقريباً وأنا أتمتع بمنظر جبل بيرني جنوباً؛ حين خرجت من ظل غابات الصنوبر والتنوب التي كنت أمر خلالها. وحين توقفت لتناول طعام الغداء فككت شريط حذائي الذي كنت أربطه إلى حقيبتي، وأنا أشعر أنه لم يعد أمامي خيار سوى أن أنتعله. فقد بدأت أرى دليلاً على ما ذكره مؤلفو كتاب «طريق جبال المحيط الهادئ المجلد الأول: كاليفورنيا» في مقدمة القسم الذي يصف الأميال بين شلالات بيرني وكاسل كراغز، حيث كتبوا أن الطريق في هذا القسم سيئ التجهيز، أي سيكون المشي فيه شبيهاً بالمشي عبر البراري. وعلى الرغم من أنني لم أرَ ذلك بعد، فإن مثل هذا التحذير لا يبشر بالخير مع حذائي المكشوف الذي بدأ يهترئ

ونعله ينقسم وينثني تحتي مع كل خطوة، كما تعلق به الحصى والأغصان الصغيرة وأنا أمشي.

انتعلت حذائي وأكملت طريقي متجاهلة الألم وأنا أمر ببرجين كهربائيين يصدران أصواتاً غريبة. فلبضع مرات خلال اليوم رأيت جبل بالد وقمة غريزلي نحو الشمال الغربي– كان الجبل بنياً وأخضر داكناً ومغطى بعدد قليل ومتناثر من الأشجار الهزيلة– لكنني كنت في أغلب الأحيان أمشي في غابة كثيفة، وأمر بعدد متزايد من الطرق البدائية المليئة بآثار الجرافات العميقة، كما كنت أمر بحقول ضخمة من الجذور وجذوع الأشجار والأشجار الخضراء الصغيرة الأقصر مني، حيث أصبح من الصعب تتبع الطريق في بعض الأماكن. وقد كانت الأشجار من الفصيلة نفسها في معظم أجزاء الطريق، لكن الغابة بدت مختلفة ومشتتة وداكنة على الرغم من المناظر الممتدة أحياناً والمتقطعة أحياناً أخرى.

وفي وقت متأخر من فترة بعد الظهيرة، توقفت لأخذ استراحة في مكان على الطريق مطل على الأراضي الخضراء الملتفة، حيث كنت على منحدر... جبل يرتفع فوقي بانحدار شديد. وحين لم أجد مكاناً آخر لأجلس عليه جلست على الطريق نفسه كما كنت أفعل غالباً، وخلعت حذائي وجوربيّ، ودلّكت قدميّ وأنا أحدق بقمم الأشجار تحتي. كنت قد أحببت الشعور بأنني أطول من الأشجار، ورؤية ظلها من الأعلى كالطيور؛ فمنظرها أراحني من القلق بشأن حالة قدميّ والطريق الوعر أمامي.

مددت يدي إلى الجيب الجانبي لحقيبة ظهري. وحين فتحت سحاب الجيب، سقطت الوحش على حذائي فقُذفت فردة الحذاء اليسرى بقوة، وشاهدتها وهي ترتمي إلى حافة الجبل ثم تسقط على الأشجار بلا صوت، فشهقت متفاجئة، وأمسكت بالفردة اليمنى وضممتها إلى صدري منتظرة أن يخرج أحد من الأسفل ضاحكاً ويهز رأسه ويقول إنها كانت مجرد دعابة.

لكن أحداً لم يضحك. فقد تعلمت أن الكون لا يمزح أبداً؛ فهو يأخذ ما يريده دون أن يعيده. وهكذا، لم تعد معي سوى فردة حذاء واحدة.

فوقفت ورميت الفردة الأخرى من أعلى القمة أيضاً، ونظرت إلى قدميّ الحافيتين، وحدقت بهما لوقت طويل، ثم بدأت بإصلاح حذائي المكشوف باستعمال الشريط اللاصق، حيث ألصقت النعل ودعمت الأشرطة المنذرة بالانقطاع، ثم ارتديت جوربيّ تحت الصندل لحماية قدميّ من خطوط الشريط اللاصق، ومشيت وأنا أشعر بالانزعاج من الوضع الجديد، لكنني كنت أطمئن نفسي بأن هناك زوجاً من الأحذية بانتظاري في كاسل كراغز.

وبحلول المساء، انفتحت الغابة إلى سهل واسع، واضطررت للتوقف عن المشي عدة مرات والبحث عن الطريق. وقد أعاقتني الأغصان المتساقطة وأكوام التراب، حيث بدت الأشجار الواقفة على الحافة تنوح وكأن أغصانها المثلمة تمد أيديها. لم أكن قد رأيت شيئاً مشابهاً في الغابات، إذ بدا الأمر وكأن أحداً قد مر ومعه كرة ضخمة وتركها تتأرجح. هل هذا هو ممر البراري الذي كان يخطط له مجلس الشيوخ؟! لم يبدُ لي كذلك، فأنا أتنزه عبر غابة وطنية على الرغم من اسمها الواعد، لكنها تعني أنني في أرض مخصصة للمصلحة العامة؛ مما يعني أن الأرض ستبقى بكراً كما هي الحال في معظم أجزاء طريق جبال المحيط الهادئ. وفي بعض الأحيان، كان ذلك يعني أن الأشجار القديمة ستقطع لصناعة بعض الأغراض كالمقاعد ومناديل الحمام.

وقد أزعجني منظر الأرض الجرداء، وشعرت بالحزن والغضب، لكن الأمر كان معقداً؛ فأنا أستخدم الطاولات والمقاعد ومناديل الحمام أيضاً. وبينما كنت أشق طريقي، عرفت أنني قد اكتفيت من المشي، فتسلقت ممراً ضيقاً وشديد الانحدار للوصول إلى الأرض المنبسطة في الأعلى، ونصبت خيمتي بين جذوع الأشجار وبرك الوحل وأنا أشعر بوحدة نادراً ما شعرت بها منذ بداية رحلتي؛ فقد كنت أريد الحديث مع أحد، ولم يكن ذلك الأحد أي شخص.

كنت أريد الحديث مع كارن أو ليف أو إيدي؛ فأنا أريد عائلتي مجدداً، لأبقى محاطة بشيء أثق أنه بأمان من الدمار. وبالإضافة إلى شوقي إليهم، شعرت بكراهية شديدة لكل واحد منهم، وتخيلت آلة ضخمة كتلك التي تجز الغابة تجز أرضنا المكونة من أربعين فداناً في غابات مينيسوتا، وتمنيت أن يحصل ذلك من كل قلبي لأتحرر؛ لأننا لم نصبح بأمان من الدمار بعد وفاة أمي. وهكذا، فإن الدمار الشامل سيريحنا، ففقداني عائلتي ومنزلي كان كارثة؛ خاصة بالنسبة لي، ولم يعد هناك سوى دليل قبيح على الشيء الذي لم يعد موجوداً.

كانت آخر مرة ذهبت فيها إلى البيت قبل أسبوع من بدء رحلتي في طريق جبال المحيط الهادئ، حيث انطلقت شمالاً لتوديع إيدي وزيارة قبر أمي؛ لأنني كنت أعلم أنني لن أعود إلى مينيسوتا بعد انتهاء رحلتي. كنت أعمل كنادلة في مطعم في مينيابوليس، وقدت سيارتي لثلاث ساعات شمالاً لأصل عند الساعة الواحدة من بعد منتصف الليل، وكنت أنوي أن أركن سيارتي في الممر وأنام في مؤخر شاحنتي لئلا أزعج أحداً في المنزل، لكنني حين وصلت وجدت أن هناك حفلة. فقد كان المنزل مضاءً، والنار موقدة، كما أن الخيام موزعة في الأرجاء، في حين تصدح الموسيقى الصاخبة من مكبرات الصوت المخفية بين العشب، وكان ذلك في يوم الشهداء. ترجلت من سيارتي،

ومشيت عبر حشود الناس الذين لا أعرف معظمهم. كنت متفاجئة بطبيعة الحفل وبأنني لست مدعوة؛ مما منحني دليلاً آخر على أن الأمور قد تغيرت جذرياً.

حين دخلت المرأب المكتظ بالناس صرخ ليف:

- شيريل!

فشققت طريقي نحوه عبر الحشود وتعانقنا ثم سألته:

- أين إيدي؟

- لا أدري. لكنّ لدي شيئاً لأريك إياه... من المؤكد أنه سيسعدك.

تبعته إلى الساحة، ثم صعدنا السلم الأمامي لمنزلنا ودخلنا عبر الباب ووقفنا أمام طاولة المطبخ؛ وهي الطاولة نفسها التي كانت عندنا في شقة تري لوفت حين كنا أطفالاً، والتي اشترتها أمي بعشرة دولارات، والتي تناولنا عليها عشاءنا في أول ليلة التقينا فيها إيدي، وحين كنا نظن أنفسنا صينيين لأننا نجلس على الأرض. لكنها أصبحت بارتفاع طاولة عادية؛ فبعد انتقالنا من تري لوفت إلى منزلنا مع إيدي قام إيدي بقطع القوائم القصيرة، ووضع برميلاً في أسفلها، وأصبحنا نتناول طعامنا عليها ونحن جالسون على مقاعد. وعلى الرغم من أن الطاولة لم تكن أنيقة قط، كما أصبحت أكثر اهتراءً مع مرور السنين– حيث تشققت فاضطر إيدي لإصلاحها بمعجون الخشب– لكنها تبقى طاولتنا.

أو على الأقل، كانت طاولتنا حتى تلك الليلة في الأسبوع الذي سبق ذهابي في رحلتي على طريق جبال المحيط الهادئ.

فقد أصبح سطح الطاولة مغطى بكلمات محفورة حديثاً... كلمات وعبارات وأسماء أشخاص موصولة بعلامة زائد، أو محاطة بقلوب، ومن الواضح أن الضيوف في الحفل هم الذين فعلوا ذلك. وبينما كنا ننظر، قام صبي مراهق لا أعرفه بالحفر على سطح الطاولة بسكين سويسرية فقلت بنبرة غاضبة:

- توقف... هذه الطاولة...

لكنني لم أستطع إكمال ما أردت قوله، وإنما استدرت وخرجت من الباب، ولحقني ليف. مررنا بالخيام وحلقة النار وقن الدجاج الخالي وإسطبل الخيول الذي لم تعد تعيش فيه أي خيول، واتجهت في طريق يؤدي إلى الغابة، حيث جلست وبكيت، بينما بقي أخي صامتاً بجانبي. فقد كنت أشعر بالاشمئزاز

من إيدي والقرف من نفسي، وكنت قد توصلت إلى نتائج صحية حول التقبل والامتنان والمصير والتسامح والقدر، وفي مكان صغير بداخلي تخليت عن أمي وأبي وإيدي أيضاً، لكن الطاولة كانت أمراً مختلفاً؛ إذ لم يخطر ببالي قط أنني سأضطر للتخلي عنها.

قلت والمرارة تعتصر قلبي:

- أنا سعيدة للغاية لأنني سأترك مينيسوتا... سعيدة للغاية.

- لكنني لست كذلك.

ووضع ليف يده على شعري من الخلف ثم أبعدها.

فقلت وأنا أمسح وجهي وأنفي بيدي:

- لا أقصد أنني سعيدة لأنني سأتركك، لكنني لا أراك إلا نادراً.

فعلى الرغم من أنه كان يدعي أنني أهم شخص في حياته وأنني «أمه الثانية»، لكنني نادراً ما كنت أراه. فقد كان غامضاً ومتهرباً وغير مسؤول، ومن شبه المستحيل العثور عليه؛ فخط هاتفه مقطوع غالباً، ووضعه المعيشي مؤقت دائماً. قلت له:

- يمكنك زيارتي.

- أزورك أين؟

- حيثما أقرر أن أعيش في الخريف بعد أن أنهي رحلتي على طريق جبال المحيط الهادئ.

فكرت في المكان الذي سأعيش فيه لكنني لم أستطع تخيل الأمر، فقد يكون أي مكان، والشيء الوحيد الذي كنت أعرفه هو أنه لن يكون هنا، ثم قلت لليف:

- ربما في أوريغون.

بعد بضع دقائق همس:

- المقصورة رائعة في الظلام.

فنظرنا كلانا حولنا في ضوء الليل الخافت. كنت قد تزوجت بول هنا، حيث بنينا المقصورة معاً من أجل زفافنا قبل سبع سنوات بمساعدة إيدي وماما؛ فقد كانت القلعة المتواضعة لحبنا الساذج. كان السقف من الصفيح المموج، والجوانب من الخشب غير المصقول الذي قد يجرحك إن لمسته، والأرضية من الطين والحجارة المسطحة التي جمعناها من الغابة في عربة زرقاء تمتلكها عائلتي منذ زمن. وبعد زواجي ببول في المقصورة، أصبح الناس يمشون في الغابة للوصول إليها ويجتمعون فيها، كما علق إيدي فيها أرجوحة عريضة كهدية لأمي.

قال ليف وهو يشير إلى الأرجوحة:

- لنجلس هناك.

فصعدنا، وبدأت أهزها بركل الحجر الذي كنت أقف عليه حين تزوجت ببول.

- أنا مطلقة الآن.

- كنت أظنك مطلقة منذ زمن.

- الآن أصبح الأمر رسمياً، وعلينا إرسال أوراقنا لننهي الأمر. لقد حصلت على الأوراق النهائية في الأسبوع الماضي مع ختم القاضي.

أومأ دون أن يقول شيئاً، لكن بدا أنه لا يشفق عليّ بسبب الطلاق الذي جلبته لنفسي. فقد كان هو وإيدي وكارن يحبون بول، ولم أستطع جعلهم يفهمون سبب رغبتي في تدمير كل شيء، إذ لم يقولوا سوى «لكنكما بدوتما سعيدين». وقد كانوا محقين؛ فقد بدونا كذلك، كما بدوت بخير بعد وفاة أمي؛ فالحزن لا يظهر في العلن.

بينما كنت أتأرجح مع ليف لمحنا أنوار المنزل والنار من خلال الأشجار، وسمعنا أصوات المحتفلين الخافتة لدى مغادرتهم. كان قبر أمنا وراءنا، على مسافة قريبة، ربما على بعد ثلاثين خطوة على الطريق الذي يمر بالمقصورة ليصل إلى سهل صغير حيث أنشأنا حوضاً وزرعنا فيه الأزهار ودفنّا رماد جثمانها، ووضعنا حجر قبر. وقد شعرت بها معنا، وأحسست أن ليف يشعر بها معنا أيضاً على الرغم من أنني لم أقل كلمة عنها خوفاً من أن تتسبب كلماتي بتلاشي ذلك الشعور. غفوت دون أن أشعر، واستيقظت مع بدء شروق الشمس، فالتفت إلى ليف مجفلة وقد نسيت للحظة أين أنا.

- لقد غططت في النوم.

- أعرف. لقد كنت مستيقظاً طوال الوقت.

نهضت وعدّلت جلستي على الأرجوحة، ثم التفتُّ لأنظر إليه وقلت:

- أنا قلقة بشأنك... من المخدرات.

- أنت من يتكلم؟!

- هذا مختلف، فقد كانت مجرد مرحلة ومضت.

كنت أحاول ألا تكون نبرة صوتي دفاعية؛ فقد كانت هناك الكثير من الأسباب التي جعلتني أندم على تعاطي الهيروين، لكن فقداني مصداقيتي مع أخي أكثر شيء أندم عليه.

قال لي:

- دعينا نمشي.

- كم الساعة؟

- ومن يكترث؟

تبعته على الطريق مروراً بالسيارات والخيام الصامتة حتى الممر المؤدي إلى الطريق الحصوي الذي يمر بمنزلنا. كان الضوء خفيفاً ومتموجاً باللون الوردي الفاتح الجميل، لدرجة أن إرهاقي تلاشى. وبدون مناقشة الأمر، مشينا إلى المنزل المهجور في آخر الطريق وراء الممر، حيث كنا نذهب ونحن أطفال في الأيام الطويلة والحارة قبل أن نكبر بما يكفي لنقود السيارة. كان المنزل خالياً ومتداعياً.

قلت لأخي ونحن نصعد إلى الشرفة:

- أظن أن اسمها فيوليت... المرأة التي كانت تقيم هنا.

وتذكرت المعلومات حول المنزل التي كنت أسمعها من الجيران الفنلنديين من قبل. وكالعادة، كان الباب غير مقفل، فدفعناه ودخلنا وخطونا فوق أماكن ألواح الخشب فيها منزوعة عن الأرض، وقد كانت الأغراض نفسها مبعثرة في أرجاء المنزل منذ عشر سنوات، لكنها الآن أكثر بلاء. تناولت مجلة مصفرة، ورأيت أنه تم نشرها من قبل الحزب الشيوعي في مينيسوتا بتاريخ

أوكتوبر 1920، كما كان هناك كوب شاي فيه ورود وردية اللون مقلوب على جانبه فعدلته. كان المنزل صغيراً للغاية، حيث إنه يمكنك رؤيته كله ببضع خطوات، فمشيت إلى الجهة الخلفية، واقتربت من الباب الخشبي المعلق من إحدى المفصلات بشكل مائل، وفيه لوح زجاجي قديم في نصفه الأعلى.

همس ليف:

- لا تلمسيه فهو يجلب الحظ السيئ إن انكسر.

مشينا بحذر عبر الباب، ودخلنا المطبخ حيث توجد حفر وثقوب وبقعة سوداء ضخمة حيث كان الموقد موضوعاً. وفي الزاوية، كانت هناك طاولة خشبية صغيرة تنقصها قائمة، فأشرت إليها وسألت بصوت مرتعش بسبب المشاعر المتدفقة:

- هل ستحفر اسمك على هذه؟

أمسك ليف كتفي وهزني بقوة قائلاً:

- لا تفعلي هذا. انسي الأمر يا شيريل... إنه الواقع... علينا تقبّل الواقع كما هو.

هززت رأسي فتركني، ووقفنا بجانب بعضنا نحدق من النافذة إلى الباحة، حيث كان هناك كوخ متهالك يحوي ساونا وحوض استحمام مليئاً بالطحالب والأشنات، ويوجد خلفه مستنقع، ووراءه أشجار القضبان، ووراءها كان هناك مستنقع نعلم بوجوده لكننا لا نستطيع رؤيته.

- بالطبع لن أحفر على الطاولة، ولا أنت... أتعلمين لماذا؟

هززت رأسي بالنفي على الرغم من أنني كنت أعرف الجواب.

- لأن ماما ربتنا.

مشيت بعيداً عن مخيمي عند بزوغ الفجر دون أن أرى أحداً طوال الصباح. وعند الظهيرة، لم أعد أرى حتى طريق جبال المحيط الهادئ؛ فقد أضعته بين المنعطفات والطرق المؤقتة والمتقاطعة، لكنني لم أخف في البداية ظناً مني أن الطريق الذي أمشي فيه سيلتف ويعود إلى مكان آخر يتقاطع مع طريق جبال المحيط الهادئ، غير أن ذلك لم يحصل. أخرجت خريطتي والبوصلة وبدأت العمل بمهارات مبتدئة، ثم تبعت طريقاً آخر، لكنه

لم يؤدِّ سوى إلى طريق آخر، وذلك الطريق الآخر أدى بدوره إلى آخر، حتى لم يعد بإمكاني تذكر الطريق الذي كنت فيه من قبل.

توقفت لتناول طعام الغداء في حر بعد الظهيرة وقد اختفت شهيتي بسبب إدراكي أنني لا أعرف مكاني، وقد شتمت نفسي بصمت لعدم اكتراثي واندفاعي بدلاً من التوقف للتفكير في الطريق، لكن لم يكن هناك ما يمكنني فعله الآن. لذا، خلعت قميص بوب مارلي وعلقته على غصن ليجف، وسحبت قميصاً آخر من حقيبتي وارتديته، فمنذ أن أعطاني باكو قميص بوب مارلي وأنا أحمل قميصين وأبدلهما خلال النهار كما أفعل بجوربيّ؛ على الرغم من أنني كنت أعلم أن هذا الفعل رفاهية تضيف المزيد من الوزن إلى حقيبة ظهري.

تفحّصت الخريطة وأكملت المسير في طريق وعر، لأنتقل منه إلى طريق آخر وأنا أشعر ببصيص أمل في كل مرة أعود فيها إلى حيث جئت. لكن وفي وقت مبكر من المساء، انتهى الطريق الذي كنت أسلكه بكومة ضخمة من الوحل والجذور والأغصان التي كانت بارتفاع منزل، فتفحّصته، ثم رأيت طريقاً آخر عبر فتحة صغيرة في الكومة، فشققت طريقي عبرها حتى سقط حذائي المكشوف من إحدى قدميّ وقد انقطع الشريط اللاصق والشريط الذي يثبته على قدمي.

صرخت:

- آآآآآآه.

ونظرت حولي وأنا أشعر بالصمت الغريب للأشجار في الأفق، فقد كانت تلك الأشجار تحميني من هذه الفوضى، لكنها لم تفعل شيئاً سوى النظر إليّ بصمت.

جلست على الوحل بين الأعشاب، وبدلاً من إصلاح حذائي قمت بصنع حذاء رمادي بلف الشريط اللاصق حول جوربيّ وبقايا حذائي كما لو كنت أصنع جبيرة لقدمي المكسورة. وكنت حريصة على لفه بقوة كافية ليبقى الحذاء في قدمي وأنا أمشي براحة كافية، ولأتمكن من خلعه في نهاية اليوم بدون تخريبه؛ إذ ينبغي أن يستمر معي إلى أن أصل إلى كاسل كراغز.

والآن، لم تكن لدي فكرة كم سيطول ذلك، أو كيف سأصل إلى هناك.

وبحذائي الجديد أكملت طريقي وأنا أنظر حولي– إذ لم أعد واثقة من الاتجاه الذي ينبغي لي أن أذهب فيه– فلم أرَ سوى الطرق؛ إذ كانت الغابة عبارة عن أجمة كثيفة من أشجار التنوب والأغصان المتساقطة، وتعلمت اليوم

أن الطرق المتداخلة مجرد خطوط في متاهة لا يمكن الخروج منها؛ إذ قد تتجه غرباً ثم للشمال الشرقي ثم تنعطف جنوباً. ولتعقيد الأمور أكثر، إن الجزء من طريق جبال المحيط الهادئ بين شلالات بيرني وكاسل كراغز لا يتجه شمالاً كثيراً، لذا بدا من غير المحتمل أنه بإمكاني التظاهر بأنني أتتبع الطريق بعد الآن، وإنما أصبح هدفي الوحيد إيجاد طريقي للخروج من حيث أنا. كنت أعلم أنني إن اتجهت شمالاً فسأمر بالطريق السريع 89، لذا مشيت من هناك حتى كاد الظلام يهبط، ووجدت سهلاً مستوياً في الغابة ونصبت خيمتي.

كنت قد ضعت، لكنني لم أكن خائفة؛ فمعي الكثير من الطعام والماء بما يكفيني لأسبوع أو أكثر. وإن استمررت بالمشي فسأجد أحداً في النهاية. لكنني حين زحفت إلى داخل خيمتي ارتعشت وأنا أشعر بامتنان واضح للمأوى المألوف من النايلون الأخضر والجدران المتشابكة التي أصبحت منزلي. سحبت قدمي بحذر من الحذاء المثبت بالشريط اللاصق ووضعته في الزاوية، ثم تفحصت الخريطة في الكتيب الإرشادي للمرة المائة ذلك اليوم وأنا أشعر بالشك والتوتر. وفي النهاية، استسلمت ببساطة، وقرأت مائة صفحة من «لوليتا» حيث غصت في واقعها الرهيب والمرح لدرجة أنني نسيت واقعي.

في الصباح، أدركت أن قميص بوب مارلي ليس معي؛ فقد تركته على غصن الشجرة ليجف في اليوم السابق. وقد كان فقداني حذائي أمراً سيئاً، لكن فقداني قميص بوب مارلي أسوأ؛ فهو ليس كأي قميص قديم، وإنما وفقاً لباكو هو قميص مميز. لم أكن أعلم إن كنت أصدق ذلك، لكن القميص أصبح بالنسبة إليّ شيئاً لا يمكنني تسميته.

عززت الحذاء بطبقة أخرى من الشريط اللاصق، ومشيت خلال اليوم الرطب. كنت في اليوم السابق قد وضعت خطة بأن أتبع الطريق إلى حيث سيقودني، وأن أتجاهل الطرق الأخرى التي تتقاطع معه مهما بدت واعدة أو مغرية؛ فقد اقتنعت في النهاية أنني إن لم أفعل ذلك فسأظل أمشي في متاهة لا تنتهي. وفي وقت متأخر من المساء، شعرت أن الطريق سيقودني إلى مكان ما، فقد أصبح أعرض وأقل التفافاً، وتبدو الغابة في نهايته. وأخيراً، انعطفت فرأيت جراراً خالياً، ووراءه طريق معبد قطعته والتفتُّ يساراً ومشيت على طرفه. كنت على الطريق السريع 89 حسبما افترضت، حيث أخرجت الخريطة وبحثت عن طريق يمكنني العودة منه إلى طريق جبال المحيط الهادئ، ثم بدأت أحاول العثور على أحد يسمح لي بالركوب معه؛ إذ إن حذائي المثبت بالشريط اللاصق لا يسمح لي بالمشي. وقفت لنصف ساعة وأنا أمد يدي وقد تزايد قلقي؛ إذ كانت السيارات تمر بي دون أن تتوقف. وفي

النهاية، توقف رجل يقود شاحنة، فتوجهت إلى الباب الأمامي وفتحته، فقال لي:

- يمكنك رمي حقيبتك في الخلف.

- هل هذا هو الطريق السريع 89؟

نظر إليّ باستغراب وقال:

- ألا تعرفين حتى على أي طريق أنت؟

فهززت رأسي نافية.

- ما هذا الذي تنتعلينه في قدميك؟

وبعد ساعة تقريباً، أنزلني في مكان يتقاطع فيه طريق جبال المحيط الهادئ مع طريق حصوي في الغابة يتشابه مع تلك الطرق التي مررت بها حين كنت ضائعة في اليوم السابق. وفي اليوم التالي، مشيت بسرعة قياسية؛ تدفعني الرغبة بالوصول إلى كاسل كراغز مع نهاية اليوم. فقد ذكر الكتيب الإرشادي أنني كالعادة لن أصل إلى بلدة، فالطريق يمر بمنتزه محاذٍ لمتجر ومكتب بريد، لكنّ ذلك كان كافياً بالنسبة لي، إذ سأجد في مكتب البريد حذائي الجديد وصندوق المؤونة، كما يوجد في المتجر مطعم صغير حيث يمكنني إشباع بعض رغباتي ما إن أحصل على العشرين دولاراً من الصندوق. والمنتزه يقدم مخيماً مجانياً للمتنزهين على طريق جبال المحيط الهادئ، حيث يمكنني الحصول على حمام ساخن.

حين وصلت إلى كاسل كراغز عند الساعة الثالثة كنت شبه حافية، فقد تمزق حذائي. وسألت عن بريدي مضيفة:

- ينبغي أن يكون هناك صندوقان لي.

وكنت أشعر بحاجة ملحة للحصول على الصندوق من راي. وبينما كنت أنتظر عودة الموظفة من الغرفة الخلفية، خطر ببالي أنه قد يكون هناك شيء آخر لي بالإضافة إلى الحذاء وصندوق المؤونة؛ مثل الرسائل. إذ كنت قد أرسلت إشعارات لجميع المواقف التي فوّتها حين تجاوزت قسماً من الطريق، وطلبت فيها إرسال بريدي إلى هنا.

قالت الموظفة وهي تضع صندوق المؤونة على الطاولة:

- تفضلي.

- لكن... ينبغي أن يكون هناك... أهناك شيء من راي؟ ينبغي أن...

- لحظة.

وعادت إلى الغرفة الخلفية.

حين خرجت من مكتب البريد كدت أصرخ من شدة الفرح والسعادة. فإلى جانب الصندوق المصنوع من الورق المقوى والذي يحتوي على حذائي، كانت هناك تسع رسائل مرسلة إليّ إلى نقاط توقف على طول الطريق ومكتوبة بخط أعرفه. جلست على الإسمنت بالقرب من المبنى الصغير، وبحثت بين المغلفات دون أن أتجرأ على فتح أي منها. كان أحدها من بول، وهناك مغلف آخر من جو، وواحد من كارن، أما البقية فمن أصدقاء من أنحاء البلاد. وضعت الرسائل جانباً، ومزقت صندوق راي بسكيني لأجد بداخله حذائي الجلدي الجديد بني اللون.

الحذاء نفسه الذي سقط عن الجبل، لكنه جديد ومقاسه أكبر.

نادتني امرأة:

- شيريل! ماذا تفعلين هنا؟

رفعت رأسي فوجدت سارة أمامي... وهي إحدى النساء اللاتي التقيتهن في شلالات بيرني، وكانت تقف هناك بدون حقيبتها.

- ماذا تفعلين هنا؟

كنت أتوقع أنها لا تزال خلفي على الطريق.

- لقد ضعنا فخرجنا إلى الطريق السريع وبحثنا عمن يسمح لنا بالركوب معه.

- وأنا أيضاً ضعت.

- الجميع ضاعوا. تعالي، فالجميع في الداخل.

وأشارت إلى مدخل المطعم في نهاية المبنى.

- سآتي على الفور.

وبعد أن غادرت، أخرجت حذائي الجديد من الصندوق، وخلعت حذائي القديم للمرة الأخيرة ورميته في سلة قمامة قريبة، ثم فتحت صندوق المؤونة وأخرجت زوجاً جديداً ونظيفاً من الجوارب وارتديته فوق قدميّ القذرتين، ثم انتعلت حذائي النظيف للغاية؛ لدرجة أنه بدا كتحفة فنية وأنا أمشي فيه عبر المرأب. وقد كان قاسياً، لكنه واسع. وقد كنت قلقة من أن أفسده على الطريق، لكن لم تكن باليد حيلة سوى أن آمل الأفضل.

وحين دخلت المطعم نادى ريكس:

- شيريل!

كانت ستاسي جالسة بجواره، وبجوارها سام وهيلين وجون وسارة. وكانوا هم الستة يملأون المطعم الصغير.

قال جون حاملاً زجاجة شراب بيده:

- أهلاً بك في النعيم.

تناولنا شطائر البرغر والبطاطا المقلية، ثم مشينا عبر المتجر بنشوة عارمة ونحن نحمل أكياس رقائق البطاطا والبسكويت والشراب زهيد الثمن، وأخرجنا أموالنا لندفع ثمن الأغراض، ثم صعدنا إلى تلة حيث نصبنا خيامنا بالقرب من بعضها على شكل دائرة في المخيم المجاني، وأمضينا المساء حول طاولة نزهات ونحن نضحك ونروي القصص أثناء غروب الشمس من السماء. وبينما كنا نتكلم، خرج دبان أسودان– أو بدا عليهما أنهما أسودان– من الغابة المحيطة بالمخيم، لكنهما خافا حين صرخنا بهما ليبتعدا.

وخلال المساء، قمت عدة مرات بملء الكوب الصغير المصنوع من الورق المقوى الذي أخذته من المتجر بالشراب، وشربته كما لو كان ماء؛ حتى بدأت أشعر أنه كالماء. لم يبدُ لي أنني مشيت سبعة عشر ميلاً في القيظ في ذلك اليوم مع حقيبة كبيرة على ظهري وشريط لاصق ملفوف حول قدميّ، وإنما بدا لي كما لو أنني طفت إلى هناك، كما بدت طاولة النزهات وكأنها أفضل مكان جلست أو سأجلس فيه. ولم أدرك أنني كنت ثملة إلى أن قررنا دخول خيامنا. فحين وقفت، أدركت أن فن الوقوف قد تغير. فخلال لحظة، سقطت على يديّ وركبتيّ، وتقيأت بشدة على الوحل وسط المخيم. وعلى الرغم من سخافة حياتي في السنوات السابقة، لكنني لم أنزعج من الشراب من قبل. حين توقفت عن التقيؤ، وضعت ستاسي زجاجة الماء أمامي، وتمتمت أنني بحاجة للشرب، وأدركت بصورة مشوشة أنها محقة، وأنني لست ثملة فحسب وإنما أعاني من تجفاف شديد؛ إذ لم أرتشف رشفة ماء منذ أن

كنت على الطريق الحار في فترة بعد الظهيرة، فأجبرت نفسي على الجلوس وشرب الماء.

وحين أخذت رشفة تقيأت مجدداً.

وفي الصباح، نهضت قبل الآخرين، وبذلت قصارى جهدي لأزيل القيء بغصن شجرة، ثم توجهت إلى غرفة الحمام وخلعت ملابسي القذرة ووقفت تحت الماء الساخن في المقصورة الإسمنتية وأنا أشعر وكأن أحداً قد ضربني في الليلة الماضية. لم أكن أملك الوقت للمعاناة من آثار الثمالة؛ فقد كنت أخطط للعودة إلى الطريق في منتصف النهار. لذا، ارتديت ملابسي وعدت إلى المخيم وجلست إلى الطاولة وأنا أشرب الماء قدر المستطاع، وأقرأ الرسائل التسع واحدة تلو الأخرى، بينما الآخرون نائمون. كان بول متفلسفاً في ما يتعلق بموضوع طلاقنا، أما جو فكان رومانسياً ومندفعاً، ولم يذكر شيئاً عن خضوعه لإعادة التأهيل أم لا، في حين كانت كارن مقتضبة وعادية، وزوّدتني بأحدث المعلومات عن حياتها. أما رسائل أصدقائي فكانت مليئة بالحب والنميمة والأخبار والقصص المضحكة. وحين أنهيت قراءتها، بدأ الآخرون بالخروج من خيامهم والقيام بحركات بسيطة لتحمية عضلاتهم. كنت أشعر بالامتنان لأن كل واحد منهم يعاني من آثار الثمالة بقدري، فابتسمنا جميعنا لبعضنا بمرح وشقاء، ثم غادر سام وهيلين وسارة للاستحمام، فيما غادر ريكس وستاسي للقيام بزيارة أخرى إلى المتجر.

قال ريكس محاولاً إغوائي لأنضم إليهما وهما يمشيان:

- لديهم لفائف القرفة.

لكنني لوحت له رافضة، إذ إن فكرة تناول الطعام أصابتني بالغثيان، كما أنني أنفقت الكثير البارحة على البرغر والشراب والوجبات الخفيفة التي اشتريتها في اليوم السابق، ولم أعد أملك سوى أقل من خمسة دولارات.

وحين غادروا، فتحت صندوق المؤونة ونظمت طعامي بكومة في الوحش. كنت أحمل كمية ثقيلة من الطعام في هذا الجزء من الطريق الذي يعتبر من أطول الأجزاء على طريق جبال المحيط الهادئ؛ حيث يمتد 156 ميلاً إلى وادي سياد.

سألت جون الذي بقي معي وحده في المخيم:

- أتريد تناول العشاء أنت وسارة؟ معي الكثير من هذه.

ومددت يدي بكيس معكرونة، وهو طبق تناولته بما يكفي في أول أيامي لدرجة أنني أصبحت أمقته.

- لا، شكراً.

أخرجت كتاب «دوبلينرز» لجيمس جويس بغلافه الأخضر والممزق ووضعته على أنفي وشممت رائحته التي بقيت على حالها منذ أن اشتريته من المكتبة في مينابوليس قبل أشهر. فتحته ووجدت أن نسختي قد تمت طباعتها قبل عقود من ولادتي.

سألني جون:

- ما هذه؟

وتناول البطاقة البريدية التي اشتريتها من المتجر في اليوم السابق، وعليها صورة منشار غير منتهٍ وعبارة «بلد أصحاب الأقدام الكبيرة» في أعلى البطاقة، ثم أعادها.

- بعض الناس يدّعون أن هذه عاصمة أصحاب الأقدام الكبيرة في العالم.

- الناس يقولون الكثير من الأشياء.

- حسناً، لكن إن كانوا في أي مكان من العالم فأفترض أن ذلك المكان هنا.

ونظرنا متأملين المكان حولنا. وراء الأشجار الكثيفة المحيطة بنا توجد صخور رمادية قديمة تدعى كاسل كراغز، ترتفع قمتها فوقنا كما لو أنها كاتدرائية. كنا سنمر بها عما قريب في طريقنا، ونحن نمشي لأميال بين صخور الغرانيت التي وصفها الكتيب الإرشادي على أنها بركانية الأصل ورسوبية بطبيعتها. لكنني لم أفهم ذلك، إذ لم أكن أهتم بالجيولوجيا قط. وقد كانت رحلتي إلى سلسلة كاسكيد كرحلتي إلى سيرا نيفادا، إذ مشيت لأيام في كل منهما حتى شعرت أنني دخلتهما.

قال جون وكأن بإمكانه قراءة أفكاري:

- هناك موقف واحد آخر فقط. لقد وصلنا للتو إلى وادي سياد، ثم سنتجه إلى أويغون؛ مما يعني أننا نبعد مائتي ميل فقط عن الحدود.

أومأت باسمة؛ إذ لم أكن أعتقد أن الكلمات «فقط» و«مائتي ميل» تنتمي إلى الجملة نفسها، كما أنني لم أسمح لنفسي بالتفكير كثيراً في ما بعد نقطة التوقف التالية.

وقال بصوت يملأه الفرح، وكأن مسافة مائتي ميل ستُجتاز بلحظات:

- أوريغون!

لكنني كنت أعلم، فكل أسبوع أمضيته على الطريق كان كاختبار قاسٍ لي.

- أوريغون، لكن كاليفورنيا أولاً.

14

غريب

كان يبدو لي أحياناً أن طريق جبال المحيط الهادئ جبل واحد طويل، وأنني في نهاية رحلتي عند نهر كولومبيا سأصل إلى قمة الطريق بدلاً من أسفل نقطة فيه. ولم يكن ذلك الشعور مجازياً فقط، إذ بدا لي وكأنني أصعد دائماً. وفي بعض الأحيان، كنت أبكي من قسوة الطريق، حيث تؤلمني عضلاتي ورئتاي بسبب قوة الجهد، ولم يستوِ الطريق ويهبط إلّا حين فكرت أنني لن أصعد أكثر.

وكم كان النزول رائعاً في الدقائق الأولى، حيث نزلت ونزلت ونزلت إلى أن أصبح النزول مستحيلاً ومؤلماً وقاسياً، لدرجة أنني بدأت أدعو أن يرتفع الطريق من جديد. فقد أدركت أن النزول كالإمساك بخيط محلول من كنزة قمت بحياكتها للتو، ثم سحبه حتى تتحول الكنزة إلى كومة من الخيطان. فقد كان التنزه على طريق جبال المحيط الهادئ كبذل جهد شديد لحياكة تلك الكنزة، ثم تحويلها إلى خيطان مرة تلو الأخرى؛ كما لو أننا فقدنا كل ما كسبناه.

حين غادرت كاسل كراغز عند الساعة الثانية، أي بعد ساعة من مغادرة ستاسي وريكس، وقبل بضع ساعات من مغادرة الزوجين، كنت أنتعل الحذاء بمقاسه الرائع الذي كان أكبر من مقاس الزوج الذي كنت أملكه. مشيت في الحر وأنا أشعر بالحماسة لكوني على الطريق، بينما بدأت آخر آثار الثمالة تتلاشى. صعدت وصعدت طوال المساء وفي اليوم التالي حتى تلاشت حماستي الناجمة عن انتعال الحذاء الجديد وحلّ محلها فهم قاتم بأن الأمور لن تختلف بالنسبة لي في ما يتعلق بقدمي. فحذائي الجديد بدأ بإيذاء قدميّ أيضاً. ورغم أنني كنت أمر بالمنطقة الجميلة التي كنت أتوق للوصول إليها، ورغم أن جسدي قد اعتاد على مهمة المشي لأميال طويلة، إلّا أنني أصبت بيأس شديد بسبب مشاكل قدميّ. وتذكرت ما حصل حين كنت أتمنى أمنية وأنا برفقة برينت في بلدة بيلدن، إذ يبدو أنني نحست حظي حين قلتها بصوت مرتفع، وربما لن تتعافى قدماي أبداً.

وفي اليوم التالي لي في كاسل كراغز، ضعت في دوامة من الأفكار المريرة، لدرجة أنني كدت أدوس على أفعى مرتين. وقد نبّهتني كل منهما في اللحظة الأخيرة، وقد حاولت تنبيه نفسي أيضاً وأنا أكمل طريقي وأتخيل أشياء

لا يمكن تخيلها؛ كأن قدميّ ليستا متصلتين بي، أو كما لو أن الشعور الذي أشعر به ليس ألماً وإنما مجرد شعور.

وقد كنت أشعر بالحر والغضب والانزعاج من نفسي، فتوقفت لتناول الغداء تحت ظل شجرة، ووضعت المشمع وارتحت عليه. كنت قد خيمت مع ريكس وستاسي في الليلة السابقة، واتفقنا على اللقاء معاً أيضاً هذه الليلة، في حين كان الزوجان وراءنا. لكنني أمضيت النهار أتنزه وحدي دون أن أرى أحداً. شاهدت طيوراً جارحة تحلق فوق القمم الصخرية، والسحاب الأبيض يمشي ببطء عبر السماء؛ حتى غططت في النوم دون أن أقصد ذلك، لأستيقظ بعد نصف ساعة مذعورة بسبب حلم؛ وهو الحلم نفسه الذي راودني في الليلة الماضية، حيث رأيت أن واحداً من أصحاب الأقدام الكبيرة قد اختطفني بطريقة مهذبة، حيث اقترب مني وسحبني من يدي إلى أعماق الغابة حيث توجد قرية كاملة يقطن فيها أصحاب الأقدام الكبيرة. وقد كنت في الحلم مذهولة وخائفة من رؤيتهم وسألت مختطفي:

- كيف اختبأتم من البشر طوال هذا الوقت؟

لكنه لم يجب وإنما نخر. وحين نظرت إليه أدركت أنه لم يكن من أصحاب الأقدام الكبيرة، وإنما كان رجلاً يرتدي قناعاً وبذلة مغطاة بالشعر، واستطعت رؤية جسده البشري من تحت طرف قناعه الذي أرعبني.

وحين استيقظت في ذلك الصباح تناسيت الحلم، وألقيت اللوم على البطاقة البريدية التي اشتريتها من كاسل كراغز. لكن بما أن الحلم قد راودني مرتين كان له ثقل أكبر؛ كما لو أنه لم يكن مجرد حلم، وإنما هو نذير سوء لشيء لا أعرفه. وقفت وحملت الوحش، ثم تفحصت الصخور شديدة الانحدار والقمم الصخرية والمرتفعات الرمادية الشاهقة المحيطة بي عن قرب وعن بعد من بين الأشجار الخضراء وأنا أشعر بعدم الارتياح. وحين التقيت ستاسي وريكس في ذلك المساء شعرت براحة كبيرة لرؤيتهما؛ فقد كنت أشعر بالعصبية لساعات وكنت متنبهة لأي ضجة خفيفة تأتي من بين الشجيرات وتقطع الصمت الطويل.

سألتني ستاسي وأنا أنصب خيمتي بالقرب من خيمتها:

- كيف حال قدميك؟

وبدلاً من أرد، جلست على الطين وخلعت حذائي وجوربيّ وأريتها قدمَيّ، فهمست:

- تباَ... يبدو الأمر مؤلماَ.

قال لي ريكس:

- احزري ماذا سمعت البارحة صباحاً في المتجر. يبدو أن هناك شيئاً يدعى تجمع رينبو عند بحيرة تود.

فسألته وقد تذكرت فجأة المرأة التي التقيتها في الحمام في محطة رينو للحافلات، والتي كانت متجهة إلى هناك:

- بحيرة تود؟

فقال ريكس:

- نعم... إنها لا تبعد سوى نصف ميل عن الطريق؛ أي حوالي تسعة أميال في الأعلى... أظن أنه ينبغي لنا الذهاب.

صفّقت بيديّ بمرح.

سألت ستاسي:

- ما هو تجمع رينبو؟

شرحت لهما عنه وهما يتناولان العشاء، فقد ذهبت إلى هناك قبل صيفين. تُنظِّم اجتماع رينبو عائلةُ رينبو للعيش الخفيف. وهي قبيلة من المفكرين الأحرار الذين يتشاركون هدفاً مشتركاً يتجسد في السلام والحب على الأرض. وفي كلّ صيف ينشئون معسكراً في الغابة يجذب آلاف المحتفلين الذين يتزايدون في الرابع من يوليو، ويستمر المعسكر طوال الصيف.

شرحت لستاسي وريكس:

- هناك حفلات وقرع طبول وحلقات نار، لكن أفضل شيء هو المطابخ الرائعة في الهواء الطلق؛ حيث يذهب الناس ويصنعون الخبز ويطهون الخضار والأرز وجميع أنواع الأطعمة، وحيث يمكن لأي شخص أن يذهب ويتناول الطعام.

سألني ريكس:

- أي شخص؟

- نعم. فقط أحضر معك كوبك وملعقتك.

وبينما كنا نتكلم، قررت البقاء مع تجمع رينبو لبضعة أيام، وليذهب جدول نزهتي أدراج الرياح، فأنا بحاجة لإراحة قدميّ لتشفيا ولأستعيد قواي ولأتخلص من ذلك الشعور المخيّم عليّ بأنه قد يتم خطفي من قبل وحش أسطوري.

وربما أتعرف إلى شاب مثير.

في اليوم التالي، مشيت بسرعة أكبر من السابق وأنا أعرج، بينما ارتفع الطريق ما بين 6500 و7300 قدم ليمنحني إطلالة على البحيرات تحت الطريق والجبال اللامتناهية في الأفق القريب والبعيد، وقد كان الوقت ظهراً حين بدأنا نسير على الطريق الذي ينزل من طريق جبال المحيط الهادئ إلى بحيرة تود.

قال ريكس ونحن نحدق بالبحيرة تحتنا بحوالي 350 قدماً:

- لا تبدو بعيدة جداً.

قالت ستاسي:

- ربما يكون التجمع بعيداً عن الماء.

وحين وصلنا إلى شاطئ البحيرة، بدا واضحاً أنه ليس هناك مخيم أو تجمّع من الناس المتنزهين الذين يصنعون الطعام الشهي والذين يشعرون بالسعادة، وإنما هناك لحى داكنة اللون وشباب مثيرون.

كان تجمع رينبو يشكل إخفاقاً كبيراً.

انحرفنا ثلاثتنا إلى جانب البحيرة، وتناولنا الأطعمة التي كنا نتناولها دائماً، ثم ذهب ريكس للسباحة، بينما مشيت أنا وستاسي بدون حقيبتينا على الطريق المنحدر نحو طريق وعر مذكور في كتيبيْنا الإرشاديين. وعلى الرغم من الدليل، إلّا أننا لم نفقد الأمل بالعثور على تجمع رينبو بالكامل، إلّا أننا حين وصلنا إلى الطريق الطيني الوعر بعد عشر دقائق لم نجد شيئاً... لا يوجد سوى الأشجار والطين والصخور والأعشاب كما كان الأمر دائماً.

قالت ستاسي وهي تتفحص المحيط، ويملأ صوتها الغضب والندم نفساهما المسيطران عليّ:

- أظن أننا حصلنا على معلومات خاطئة.

بدت خيبة أملنا كبيرة وطفولية. وشعرت كما لو أنني تلقيت صدمة لم أتلق مثلها منذ أن كنت في الثالثة من عمري. توجّهت إلى صخرة مسطحة كبيرة على جانب الطريق، واستلقيت عليها وأغمضت عينيّ لأتناسى هذا العالم الغبي وكي لا أبكي، وكانت الصخرة دافئة وملساء وعريضة كالطاولة ومريحة بشكل كبير.

قالت ستاسي بعد قليل:

- لحظة... أظن أنني سمعت شيئاً.

فتحت عينيّ وأنصت، وحين لم أسمع شيئاً قلت:

- ربما تكون الريح.

- ربما.

ونظرت إليّ فابتسمنا لبعضنا. كانت تعتمر قبعة واقية من الشمس مربوطة تحت ذقنها، وترتدي سروالاً قصيراً وجوربين يكادان يصلان إلى ركبتيها؛ مما جعلها تبدو من فتيات الكشافة. حين التقيتها لأول مرة شعرت بخيبة أمل لأنها لم تكن مثلي ومثل أصدقائي، وإنما كانت أكثر هدوءاً وعاطفية وبرودة، وأقل أنوثة وفناً وسياسة، ولا أدري لو أننا التقينا بعيداً عن الطريق إن كنا سنصبح صديقتين أم لا، لكنها الآن أصبحت عزيزة على قلبي.

قالت فجأة وهي تنظر إلى الطريق:

- سمعت الصوت مجدداً.

فوقفت لتظهر شاحنة صغيرة مليئة بالناس من وراء المنعطف وعليها لوحة من أوريغون، مرت بنا ثم توقفت فجأة على بعد بضع أقدام. وقبل أن يطفئ السائق المحرك بدأ الأشخاص السبعة والكلبان في الشاحنة بالقفز، وقد بدا من مظهرهم وملابسهم أنهم من قبيلة رينبو، وحتى الكلاب بدت مزينة بالخرز والأشرطة، فمددت يدي لأتلمس ظهورهم الناعمة وهم يندفعون أمامي نحو الغابة.

قلت أنا وستاسي بصوت واحد للرجال الأربعة والنساء الثلاث:

- أهلاً.

لكنهم حدقوا بنا بصمت وهم يحركون أجفانهم؛ وكأنهم خرجوا من كهف مظلم وليس من مؤخر شاحنة. وقد

بدوا وكأنهم ظلوا مستيقظين طوال الليل أو كما لو أنهم مصابون بالهلوسة.

سألنا الرجل الجالس وراء المقود:

- هل هذا تجمع رينبو؟

كان مسمرّاً من الشمس، وقد وضع عصابة بيضاء وغريبة كانت تغطي معظم رأسه وتبعد شعره الطويل المتموج عن وجهه.

فرددت عليه:

- هذا ما كنا نبحث عنه نحن أيضاً، لكننا هنا وحدنا.

تمتمت امرأة مرتدية كنزة كشفت صدرها، وهناك مجموعة من الوشوم على جسمها:

- يا إلهي! لقد قدنا السيارة كل هذا الطريق من آشلاند لأجل لا شيء. إنني جائعة... أكاد أموت من الجوع.

وتأوهت امرأة أخرى قصيرة سوداء الشعر تضع حزاماً عليه أجراس فضية صغيرة متصلة به:

- وأنا جائعة أيضاً.

صرخ الرجل رئيس العصابة:

- تباً!

وتمتم رجل يضع قرط أنف فضياً كبيراً من النوع الذي تراه بين الفينة والأخرى على الثيران:

- تباً!

سأل رئيس العصابة:

- أتعرفون ماذا سأفعل؟ سأقيم تجمعاً خاصاً بي عند بحيرة كارتر؛ فأنا لست بحاجة لأولئك الناس الحمقى ليخبروني أين أذهب؛ إذ إنّ لدي نفوذاً كبيراً هنا.

سألت المرأة الأخيرة بلكنة أسترالية:

- وكم تبعد بحيرة كارتر؟

كانت طويلة وجميلة وشقراء.

- ليست بعيدة.

قلت:

- كنا نحن أيضاً نحاول العثور على التجمع، فقد سمعنا أنه هنا.

أضافت ستاسي:

- إننا نتنزه على طريق جبال المحيط الهادئ.

صرخت المرأة:

- أنا بحاجة للطعام!

قلت لها:

- معي بعض الطعام الذي يمكنك تناوله، ولكنه هناك عند البحيرة.

نظرت إليّ بوجه خالٍ من التعابير، فتساءلت عن عمرها؛ إذ بدت في مثل سني، لكنها تتصرف كما لو أنها في الثانية عشرة.

سألتني المرأة الأسترالية بثقة:

- أمعكما متسع في سيارتكما؟ إن كنتما عائدتين إلى آشلاند فسأركب معكما.

- نحن نمشي على أقدامنا، ومعنا حقيبتا ظهر تركناهما عند البحيرة.

قالت ستاسي:

- في الواقع، سنذهب إلى آشلاند، لكن الأمر سيستغرق منا حوالي اثني عشر يوماً حتى نصل إلى هناك.

وضحكنا كلتانا، لكن أحداً آخر لم يضحك.

وبعد بضع دقائق، تكدسوا في الشاحنة وابتعدوا، فمشينا أنا وستاسي على الطريق عائدتين إلى بحيرة تود، لنجد الزوجين جالسين مع ريكس. وحين عدنا، مشينا جميعنا إلى طريق جبال المحيط الهادئ مع بعضنا، وكنت أمشي في النهاية وأنا أعرج؛ حيث أعاقتني كارثة قدميّ.

قالت سارة:

- لم نكن نعتقد أنك ستكملين، فقد كنا نظن أنك توقفت للتخييم.

- لا، أنا هنا.

وقد شعرت بالانزعاج، على الرغم من أنني كنت أعلم أنها لم تكن تقصد سوى التخفيف عني بشأن مشكلة قدميّ.

وفي الصباح، استيقظت قبل الجميع، ومزجت بديل الحليب في القدر مع الماء البارد، ثم أضفت الحبوب والزبيب. وكنت قد استيقظت على حلم آخر لأصحاب الأقدام الكبيرة مماثل تماماً للحلمين السابقين. وبينما كنت أتناول فطوري، وجدت نفسي أنصت بانتباه للأصوات بين الأشجار في الظلام، فنهضت وبدأت رحلتي قبل أن يخرج الآخرون من خيامهم وأنا سعيدة لأنني سبقتهم. فعلى الرغم من أنني مرهقة وبطيئة ومتقرحة القدمين، لكنني قادرة على اللحاق بهم. فبقطعي سبعة عشر ميلاً أو تسعة عشر ميلاً في اليوم، يوماً تلو الآخر أصبحت قوية ومتمرسة.

وبعد ساعة من خروجي، سمعت صوت تحطم هائلاً بين الشجيرات والأشجار المجاورة لي، فتجمدت دون أن أعرف إن كان علي الصراخ أو البقاء صامتة. لكنني لم أستطع المقاومة، فعلى الرغم من سخافة الفكرة لكن ذلك الرجل الذي يضع القناع والذي كنت أراه في أحلامي خطر ببالي، فصرخت:

- آآآآآه!

فظهر أمامي وحش مغطى بالشعر، وبعد لحظة أدركت أنه دب نظر إليّ بلطف، ثم نخر واستدار وركض شمالاً.

لماذا يهربون دائماً في الاتجاه الذي أسلكه؟

انتظرت لبضع دقائق ثم أكملت المسير وأنا أغني مقاطع من أغانٍ قديمة دون أن ألتقي الدب مجدداً أو صاحب القدم الكبيرة.

وبدلاً من ذلك، وجدت شيئاً علي الخوف منه؛ وهو مكان واسع مغطى بالجليد بزاوية قدرها 40 درجة. فعلى الرغم من الحر إلّا أن الثلج لم يذب كله عن المنحدرات الشمالية، وكان بإمكاني الرؤية عبر الطرف الآخر من الثلج ورمي حجر عبره، لكن لا يمكنني فعل الأمر ذاته بنفسي؛ إذ عليّ المشي فوقه. نظرت إلى أسفل الجبل وأنا أتتبع بعيني الثلج في حال انزلقت، فوجدته ينتهي في هوة سحيقة عند مجموعة من الصخور الضخمة التي لا يوجد شيء وراءها سوى الهواء.

بدأت أشق طريقي وأنا أضرب الأرض بحذائي مع كل خطوة وأتكئ على عصا التزلج. وبدلاً من الشعور بثقة أكبر على الثلج بفضل الخبرة التي اكتسبتها في سيرا، شعرت بالمزيد من الخوف، وأدركت ما قد يحصل. انزلقت إحدى قدميّ تحتي، وسقطت على يديّ، ثم وقفت ببطء وقد ثنيت ركبتي. وكانت الفكرة المسيطرة علي هي أنني سأسقط، فتجمدت مكاني ونظرت إلى الصخور الكبيرة تحتي، وتخيلت نفسي أهوي إليها. نظرت إلى المكان الذي أتيت منه والمكان الذي أتجه إليه فوجدت أنهما متساويان في البعد؛ إذ كنت بعيدة جداً عن كل منهما، لذا شققت طريقي إلى الأمام، وانحنيت على يديّ، وزحفت باقي الطريق، بينما كانت ساقاي ترتجفان وعصا التزلج ترتطم إلى جانبي وهي متدلية من معصمي من شريط النايلون وردي اللون.

وحين وصلت إلى الطريق في الجانب الآخر، شعرت كم أنا غبية وضعيفة بطريقة لم أشعر بها من قبل، كما حسدت الزوجين اللذين يساعدان بعضهما، وحسدت ستاسي وريكس اللذين صارا صديقين ويترافقان في الرحلة بسهولة بالغة. وحين سيترك ريكس الطريق في وادي سياد ستلتقي ستاسي صديقتها دي لتتنزها عبر أوريغون معاً، أما أنا فسأبقى وحيدة إلى الأبد. لماذا؟ ما الذي ستفعله لي الوحدة؟ وبقيت أردد لنفسي أنني لست خائفة، لكن الأمر لم يبدُ كما هو عليه في كل مرة كنت أقول فيها ذلك... ربما لم يعد ذلك صحيحاً.

ربما أكون قد فعلت ما يكفي، وأصبح من اللازم أن أخاف.

وحين توقفت لتناول الغداء، تلكأت حتى وصل الآخرون وأخبروني أنهم التقوا حارس غابة حذرهم من حريق في الغابة في الغرب والشمال بالقرب من وادي هابي. وعلى الرغم من أن الحريق لم يؤثر في طريق جبال المحيط الهادئ لكنه نصحهم بالبقاء متيقظين. تركتهم ينطلقون قبلي، وأخبرتهم أنني

سألحق بهم مع حلول الظلام، ومشيت وحدي في المساء. وبعد ساعتين، مررت بنبع ماء في مرعى، فتوقفت للحصول على الماء. وقد كانت منطقة جميلة، لذا تلكأت فيها وغطّستُ قدميّ في النبع حتى سمعت أصوات أجراس مرتفعة. وما إن وقفت على قدميّ حتى رأيت حيوان لاما يتجه نحوي بسرعة وقد كشر عن أسنانه، فصرخت:

- آآآآآه!

ومددت يدي إلى الحبل المتدلي من حقيبتي. كان اللاما يضع طوقاً تتدلى منه أجراس فضية لا تختلف كثيراً عن الأجراس التي رأيتها على حزام المرأة التي التقيتها عند بحيرة تود. قلت له وأنا واقفة حافية القدمين:

- على رسلك.

نظر إليّ باستغراب، وخطر ببالي أنه قد يعضّني؛ فأنا لم أقترب من حيوان لاما قط، وتجربتي مع هذا الحيوان ضئيلة. شددته بحذر باتجاه حذائي، وحشرت قدميّ في الحذاء، ثم ربطُّ على رقبته الرشيقة بقوة. وبعد بضع دقائق، جاءت امرأة عجوز على جانبي وجهها جديلتان شائبتان.

وقالت لي مبتسمة:

- أمسكت به! شكراً!

بدت كامرأة من قصة خيالية؛ فقد كانت فاتنة وممتلئة الجسم ومتوردة الخدين، يمشي وراءها صبي صغير ويتبعه كلب بني كبير.

- لقد تركته للحظة فهرب. افترضت أنك ستمسكين به، فقد التقيت أصدقاءك على الطريق، وقالوا لي إنك تلحقين بهم. أنا فيرا وهذا صديقي كايل... إنه في الخامسة من عمره.

نظرت إلى الصبي وقت:

- أهلاً. أنا شيريل.

كانت معه زجاجة مملوءة بالماء، ومعلقة على كتفه بحبل ثخين. وقد كان من الغريب رؤية الزجاج على الطريق، كما أن رؤيته كانت أمراً غريباً أيضاً؛ فأنا لم ألتق طفلاً منذ زمن.

رد عليّ وهو ينظر في عينيّ بعينيه الزرقاوين:

- أهلاً.

قالت فيرا وهي تربّت على رقبة اللاما:

- وقد التقيت النجم المندفع.

قال كايل لفيرا:

- نسيت ميريام.

ووضع يده الصغيرة على رأس الكلب وقال:

- هذه ميريام.

- أهلاً ميريام. أتستمتعون برحلتكم.

- نحن نستمتع للغاية.

ثم ذهب ليغسل يديه بماء النبع.

تكلمت مع فيرا بينما رمى كايل العشب في الماء وشاهده وهو يطفو بعيداً. وقد أخبرتني بصوت هامس أنها تعيش في بلدة صغيرة في وسط أوريغون، وأنها تذهب في رحلات كثيرة كلما سنحت لها الفرصة. وقد مر كايل وأمه بأوضاع صعبة، وعاشا في شوارع بورتلاند حيث التقتهما فيرا قبل بضعة شهور، وقد طلبت والدة كايل من فيرا أن تأخذه معها في هذه الرحلة بينما تحاول إصلاح حياتها.

صرخ كايل بغضب:

- لقد وعدت ألا تخبري الناس بمشاكلنا!

قالت فيرا بود:

- أنا لا أحكي عن مشاكلكم.

- لأن لدي مشاكل كبيرة، ولا أريد إخبار الناس الذين لا أعرفهم بها.

قلت له:

- الكثير من الناس لديهم مشاكل كبيرة، فأنا أيضاً لدي مشاكل كبيرة.

- أي نوع من المشكلات.

- كمشاكلي مع أبي.

ثم تمنيت لو أنني لم أقل ذلك. فأنا لم أمضِ وقتاً كافياً مع الأطفال لأعرف بالضبط إلى أي درجة ينبغي أن يكون المرء صريحاً مع طفل في الخامسة من عمره، فشرحت له بنبرة مرحة:

- أنا ليس لدي أب.

قال كايل:

- وأنا ليس لدي أب. الجميع لديهم أب، لكنني لا أعرف أبي. كنت أعرفه حين كنت رضيعاً، لكنني لا أذكر ذلك.

وفتح يديه ونظر إليهما، وكانتا مليئتين بالعشب، وسألني:

- وماذا عن أمك؟

- لقد ماتت.

ورفع وجهه إليّ، وتحوّلت تعابير وجهه من الانزعاج إلى الصفاء:

- أمي تحب الغناء. أتريدين سماع أغنية علمتني إياها؟

- نعم.

وبدون تردد غنّى لي بصوت عذب ونقي، وحين انتهى قلت له:

- شكراً... ربما كان هذا أفضل شيء سمعته طوال حياتي.

- لقد علمتني أمي الكثير من الأغاني... إنها مغنية.

التقطت لي فيرا صورة، ثم أكملت طريقي وأنا أقول:

- وداعاً يا كايل، وداعاً يا فيرا، وداعاً أيها النجم المندفع.

وحين كدت أغيب عن أنظارهما صرخ كايل:

- شيريل!

فتوقفت والتفت.

- اسم الكلب ميريام.

- وداعاً يا ميريام.

وفي وقت متأخر من المساء وصلت إلى بقعة ظليلة حيث توجد طاولة نزهة؛ وهي من وسائل الرفاهية الفخمة على الطريق. وبينما اقتربت، رأيت أن هناك حبة دراق على الطاولة، وتوجد تحتها ورقة مكتوب عليها.

«شيريل،

لقد حصلنا على هذه لك... استمتعي بها!

سام وهيلين».

شعرت بالإثارة بشأن حبة الدراق؛ فالفواكه والخضروات الطازجة تنافس عصير الليمون في ذهني، لكن ما أثر فيّ أكثر هو أن سام وهيلين تركاها لي. فلا شك في أنهما يرغبان بها لكنهما تركاها لي. جلست إلى الطاولة وتناولتها وأنا أشعر بعصيرها الرائع يصل إلى كل خلية من جسمي. وبينما كنت جالسة أتناولها أدركت أنني لن أتمكن من شكر سام وهيلين على تركها لي، فأنا جاهزة للبقاء وحدي مجدداً وسأخيّم وحدي هذه الليلة.

حين انتهيت من تناول الدراقة رأيت نفسي محاطة بمئات النباتات الصحراوية متعددة الألوان كالوردي والبرتقالي الفاتح، وقد بدت لي كما لو أنها هدية؛ كالدراقة وكغناء كايل. فعلى الرغم من صعوبة الطريق، لم يكن يوم يمرّ بدون نوع مما يدعى سحر الطريق؛ بلغة طريق جبال المحيط الهادئ. وقبل أن أقف لأضع الوحش على ظهري، سمعت صوت خطوات، فالتفتُّ ووجدت غزالاً يمشي نحوي على الطريق، وقد بدا غير مدرك لوجودي. أصدرت صوتاً خفيفاً لئلا أزعجه، لكنه بدلاً من الركض بعيداً توقف ونظر إليّ ثم أكمل طريقه نحوي. ومع كل خطوة، كان يقف قليلاً ليقيّم إن كان عليه التقدم إلى الأمام، ثم يكمل طريقه مقترباً مني؛ حتى أصبح على بعد عشر أقدام. كان وجهه هادئاً وفضولياً، في حين جلست بسكون وأنا أشاهده دون أن أشعر بأي خوف؛ كما كنت قبل أسابيع حين وقف الثعلب يتفحصني في الثلج.

همست له:

- لا بأس... أنت بأمان في هذا العالم.

وحين تكلمت، بدا وكأنه كانت هناك تعويذة وقد بطل تأثيرها؛ إذ فقدَ الغزال اهتمامه بي، ولكنه لم يركض بعيداً، وإنما رفع رأسه ومشى مبتعداً وهو يدوس على النباتات في طريقه.

مشيت وحدي في الأيام القليلة القادمة، وأنا أصعد وأنزل فوق قمة إيتنا وجبال ماربل متجهة نحو وادي سياد مروراً بالبحيرات؛ حيث اضطرني البعوض إلى أن أرش نفسي بالواقي من الحشرات لأول مرة في رحلتي، ثم مررت ببعض المتنزهين ليوم واحد، والذين أعطوني تقارير عن الحرائق المضطرمة غرباً، لكنها كما أخبروني لم تقترب بعد من طريق جبال المحيط الهادئ.

وفي إحدى الليالي، خيمت في بقعة مفروشة بالعشب يمكنني منها رؤية الدليل على تلك الحرائق؛ حيث كان الدخان يرتفع في الأفق نحو الغرب، فجلست على كرسيي لساعة وأنا أحدق بالشمس وهي تغرب وتغيب بين الدخان. كنت قد رأيت من قبل الكثير من مناظر الغروب الأخاذة في الأمسيات التي قضيتها على طريق جبال المحيط الهادئ، لكن هذا المنظر كان الأروع؛ فقد تلاشى الضوء وذاب مخلفاً آلاف الألوان من درجات الأصفر والوردي والبرتقالي والأرجواني على تموجات الأرض الخضراء. كان بإمكاني القراءة أو النوم داخل كيس النوم، لكن في هذه الليلة كانت السماء رائعة ولم أستطع تركها. وبينما كنت أشاهدها، أدركت أنني قطعت أكثر من نصف رحلتي، فقد أمضيت أكثر من خمسين يوماً على الطريق، وفي حال سار كل شيء حسب ما خططت له فستنتهي رحلتي على طريق جبال المحيط الهادئ خلال خمسين يوماً أخرى. ومهما كان ما سيحصل لي هنا، فقد كان من المفترض أن يحصل.

وبدأت أغني الأغنية التي غناها لي كايل، لكنني حين وصلت إلى منتصف الأغنية لم أعد أذكر باقي الكلمات، بينما ظهرت صور لوجه كايل ويديه الصغيرتين في ذهني، وتساءلت إن كنت سأصبح يوماً ما أماً، وعن الوضع الرهيب الذي تمر به أم كايل، ومكان أبيه ومكان أبي. ما الذي يفعله أبي في هذه اللحظة؟ كنت أحياناً أفكر به، لكنني لم أستطع تخيله، فأنا لا أعرف حياة أبي. فقد كان هنا، لكنه غير مرئي كظل وحش في الغابة، أو كنار بعيدة حيث لا أرى منها سوى الدخان.

كان ذلك أبي... الرجل الذي لم يكن أباً لي قط، وقد أذهلني ذلك مراراً وتكراراً. فمن بين كل الأمور الغريبة، كان إخفاقه في أن يحبني كما يجدر به أغرب شيء على الإطلاق. لكن، في تلك الليلة، وبينما كنت أحدق في الأراضي

المظلمة بعد أكثر من خمسين يوماَ أمضيتها على طريق جبال المحيط الهادئ، خطر ببالي أنه لا يفترض بي الاستغراب من سلوكه بعد الآن.

كانت هناك الكثير من الأمور المذهلة الأخرى في هذا العالم التي انكشفت بداخلي كنهر؛ وكأنني لم أكن أعرف أنه بإمكاني التنفس ثم تنفست، فضحكت لذلك بفرح. وفي اللحظة التالية، بكيت وذرفت أول دمعة لي على طريق جبال المحيط الهادئ، وبكيت وبكيت وبكيت؛ ليس لأنني كنت سعيدة، ولا لأنني كنت حزينة، ولا بسبب أمي أو أبي أو بول، وإنما كنت أبكي لأنني اكتفيت من تلك الأيام الخمسين العصيبة على الطريق ومن 9760 يوماً قبلها.

كنت أدخل... كنت أغادر... مرت كاليفورنيا ورائي كوشاح حريري طويل، ولم أعد أشعر أنني حمقاء أو كملكة رائعة وقوية من الأمازون، وإنما شعرت بالقوة والتواضع من داخلي؛ وكأنني بأمان في هذا العالم أيضاً.

القسم الخامس

صندوق المطر

أنا ماشٍ عظيم، لكنني لا أمشي عائداً.

أبراهام لينكولن

أخبرني ماذا تخطط لحياتك الثمينة؟

ماري أوليفر

15

صندوق المطر

استيقظت في الظلام في ليلتي ما قبل الأخيرة في كاليفورنيا على صوت الرياح التي تهز أغصان الأشجار، وقطرات المطر التي تنقر على خيمتي. كان الطقس جافاً طوال الصيف، فتوقفت عن وضع الغطاء المطري واكتفيت بالنوم دون أن يفصل بيني وبين السماء سوى شبك. أسرعت في الظلام حافية القدمين لأسحب الغطاء المطري على خيمتي وأنا أرتجف، مع أننا كنا في بداية شهر أغسطس، وكانت درجة الحرارة في التسعينات منذ أسابيع لتصل أحياناً إلى المائة، لكن مع الريح والمطر تغير الطقس فجأة. حين عدت إلى خيمتي، ارتديت سروالي وسترتي، وزحفت إلى داخل كيس النوم وأغلقته بالكامل حتى ذقني، ووضعت القبعة على رأسي. وحين استيقظت في تمام الساعة السادسة، كانت درجة الحرارة على المقياس الصغير المعلق بحقيبتي 37 فهرنهايت.

مشيت على طريق مرتفع في المطر وأنا أرتدي معظم ملابسي. وفي كل مرة كنت أقف فيها لأكثر من خمس دقائق كنت أبرد، لدرجة أن أسناني تظل تصطك بشكل مضحك إلى أن أعاود المسير وأتعرق مجدداً. وقد ذكر الكتيب الإرشادي أنه في الأيام الصحوة يمكن رؤية أوريغون شمالاً، لكنني لم أستطع رؤية شيء بسبب الضباب الكثيف الذي أخفى أي شيء يبعد عني عشر أقدام. ولم أكن بحاجة لرؤية أوريغون؛ إذ إنني أشعر بها... ضخمة أمامي... وسأمشيها بكاملها في حال أكملت طريقي إلى الجسر. من سأكون إن أكملت؟ من سأكون إن لم أكمل؟

في منتصف الصباح، ظهرت ستاسي من وسط الضباب وهي تمشي جنوباً على الطريق، إذ كنا قد مشينا معاً من وادي سياد في اليوم السابق بعد أن أمضينا الليلة مع ريكس والزوجين. وفي الصباح، استقل ريكس الحافلة ليعود إلى حياته الواقعية، بينما أكمل بقيتنا الطريق لننفصل بعد بضع ساعات. كنت واثقة من أنني لن أرى الزوجين على الطريق مجدداً، لكنني كنت قد اتفقت مع ستاسي على اللقاء في آشلاند حيث ستبقى هناك لبضعة أيام بانتظار وصول صديقتها دي لتكملا رحلتهما في أوريغون، وقد أفزعتني رؤيتها الآن وكأنها نصف امرأة ونصف شبح.

أخبرتني أنها ستعود إلى وادي سياد. فهي تشعر بالبرد، وقدماها متقرحتان، وكيس النوم قد ابتل بالكامل في الليلة السابقة، وما من أمل بأن يجف قبل هبوط الظلام، وقالت:

- سأستقل الحافلة إلى آشلاند... تعالي إليّ في الفندق حين تصلين إلى هناك.

عانقتها قبل أن تمشي بعيداً ليلفها الضباب مجدداً خلال لحظات.

في الصباح التالي، استيقظت في وقت مبكر أكثر من المعتاد بينما كانت السماء رمادية فاتحة. كان المطر قد توقف والجو قد أصبح أكثر دفئاً، وكنت أشعر بالإثارة وأنا أحمل الوحش وأمشي بعيداً عن المخيم، فأنا سأقطع آخر أميال لي في كاليفورنيا.

وقبل الحدود بأقل من ميل علق غصن شجيرة بسواري المكتوب عليه ويليام ج. كروكيت، فطار السوار إلى الشجيرة الكثيفة. وحين بحثت بين الصخور والشجيرات والأشجار مذعورة، كنت أعرف أنها قضية خاسرة وأنني لن أجد السوار؛ إذ إنني لم أرَ إلى أين طار، وقد بدا لي من العبثي أن أفقد السوار في تلك اللحظة، وأن ذلك نذير شؤم واضح للمشاكل التي بانتظاري. حاولت قلب الأمر في عقلي، وجعل فقدانه يمثل شيئاً جيداً؛ كأن يكون رمزاً لأشياء لم أعد بحاجة إليها؛ كتخفيف الثقل المجازي، لكن هذه الفكرة تلاشت بعد ذلك، ولم أعد أفكر سوى بويليام ج. كروكيت نفسه؛ وهو رجل من مينيسوتا كان في سني حين توفي في فيتنام، ولم يتم العثور على جثمانه ولا شك أن عائلته لا تزال تفتقده. ولا بد أن سواري رمز للحياة التي يتم فقدانها في شبابها، فالعالم أخذها ببساطة في فكه الجائع القاسي.

ولم يكن هناك ما يمكن فعله سوى المضي قدماً.

وصلت إلى الحدود بعد دقائق، فوقفت لأتأمل الوضع... كاليفورنيا وأوريغون... نهاية وبداية، لكن مثل هذه البقعة الهامة لم تبدُ بالغة الأهمية؛ إذ لم يكن هناك سوى صندوق معدني بني اللون فيه سجل الطريق، ولافتة مكتوب عليها «واشنطن 498 ميلاً» بدون أي ذكر لأوريغون.

لكنني كنت أعرف كم تعني 498 ميلاً، فقد بقيت في كاليفورنيا لشهرين، لكنني بدوت وكأنني هرمت سنوات منذ أن توقفت عند ممر تيهاشابي وحدي مع حقيبتي وتخيلت الوصول إلى هذه البقعة. توجهت إلى الصندوق المعدني، وسحبت سجل الطريق وبحثت في صفحاته لأقرأ من كتب فيه خلال الأسابيع الماضية، فوجدت بضع ملاحظات من بعض الأشخاص الذين

لم أقرأ أسماؤهم من قبل، وملاحظات من أشخاص لم ألتقِهم لكنني شعرت كما لو أنني أعرفهم لأنني كنت أمشي على خطاهم طوال الصيف. وكان آخر من كتب في السجل الزوجان سارة وجون وهيلين وسام، وتحت كتابتهم كتبت اسمي.

أوريغون... أوريغون... أوريغون.

أنا هنا... دخلتها... رأيت قمم جبل شاستا المهيب جنوباً، وجبل ماكلوف شمالاً، ومشيت على طريق مرتفع لأمر ببقع جليدية قصيرة قطعتها بمساعدة عصا التزلج. وكان بإمكاني رؤية الأبقار وهي ترعى في المروج الخضراء المرتفعة بالقرب مني، بينما راحت أجراسها تقرع وهي تتحرك. ناديتها:

- مرحباً يا أبقار أوريغون.

في تلك الليلة، خيمت تحت قمر مكتمل في سماء مشرقة وصافية، وفتحت كتابي، لكنني لم أقرأ سوى بضع صفحات لأنني لم أستطع التركيز. فقد كان ذهني يفكر في آشلاند؛ فقد اقتربت منها كثيراً. ففي آشلاند يوجد طعام وموسيقى وأناس لا يعرفون شيئاً عن طريق جبال المحيط الهادئ، والأهم من ذلك كله، ستكون هناك نقود بانتظاري... ليس العشرين دولاراً المعتادة فحسب، وإنما كنت قد وضعت في صندوقي 250 دولاراً على شكل شيك مصرفي حين كنت أظن أنه الصندوق الذي سيرحب بي في نهاية رحلتي، ولم يكن يحتوي على طعام أو مؤونة، وإنما على شيك مصرفي وملابس أنيقة كنت أظنها أفضل شيء أحتفل به بنهاية رحلتي وأنا أركب عائدة إلى بورتلاند، لكنني حين غيرت مسار رحلتي طلبت من ليزا أن تضع الصندوق الصغير في صندوق آخر مملوء بالطعام والمؤونة وترسله إلى آشلاند بدلاً من إحدى نقاط التوقف التي لن أصل إليها في سيرا نيفادا. ولم يكن بإمكاني الانتظار لأمسك بالصندوق الموجود داخل الصندوق وأمضي عطلة نهاية الأسبوع مرتدية ملابس غير ملابس الطريق.

وصلت إلى آشلاند في اليوم التالي حوالي وقت الغداء بعد أن ركبت من الطريق مع مجموعة من المتطوعين.

وقد سألني أحدهم بعد أن ركبت السيارة المغلقة:

- أسمعت الخبر المهم؟

هززت رأسي نافية دون أن أشرح له أنني لم أسمع أي خبر منذ شهرين.

- لقد مات جيري غارسيا.

وقفت في طريق جانبي في مركز المدينة وانحنيت لرؤية صورة وجه غارسيا على الصفحة الأولى لصحيفة ملونة، وقرأت ما استطعت من خلال النافذة البلاستيكية الواضحة لصندوق الصحيفة، لكنني كنت مفلسة ولا يمكنني شراء نسخة. كنت أحب العديد من أغاني فرقته الموسيقية، لكنني لم أشترِ أقراصاً لعروضهم الحية، ولم أتبعهم عبر البلاد كما فعل بعض أصدقائي. ومع ذلك، بدت لي وفاة غارسيا مأساوية، كما لو أنها ليست نهاية لحظة فحسب وإنما مرحلة استمرت طوال حياتي.

مشيت حاملة الوحش على ظهري واجتزت بضعة شوارع حتى وصلت إلى مكتب البريد، حيث مررت بلافتات منزلية الصنع معلقة على نوافذ المتاجر ومكتوب عليها «نحن نحبك يا جيري... لترقد بسلام». وكانت الشوارع مليئة بمجموعة من السياح المتأنقين والمتدفقين للاستمتاع بعطلة نهاية الأسبوع، والشباب من الشمال الغربي المتجمعين على شكل حشود على طوال الطرق، والذين يصدرون أصواتاً قوية أكثر من المعتاد بسبب الخبر. وقد قال لي العديدون منهم وأنا أمر بهم «مرحباً»، وأضاف بعضهم «يا أختاه»، وقد كانت أعمارهم تتراوح ما بين سن المراهقة والشيخوخة، كما كانوا يرتدون ملابس بطراز فريد، وبدوت كواحدة منهم؛ إذ كان جسمي مكسواً بالشعر، وكنت مسمرة، ولدي وشم، كما كنت مثقلة بحملي وتفوح مني رائحة نتنة لأنني لم أستحم منذ أن كنت في المخيم في كاسل كراغز؛ حين كنت أعاني من آثار الثمالة قبل بضعة أسابيع. لكنني شعرت بنفسي غريبة عنهم وعن الجميع، كما لو أنني هبطت من زمان ومكان آخرين.

تفاجأت حين مررت بالرجل الصامت الذي كان في الشاحنة التي توقفت عند بحيرة تود حيث كنا أنا وستاسي نبحث عن تجمع رينبو، لكنه رد بإيماءة متحجرة دون أن يبدو عليه أنه يتذكرني.

وصلت إلى مكتب البريد، ودفعت بابه فاتحة إياه بترقب، لكنني حين أعطيت المرأة التي وراء المنضدة اسمي عادت وهي لا تحمل سوى مغلف مرسل إليّ بدون صندوق، ولا وجود لصندوق داخل الصندوق، ولا سروال جينز أو حمالة صدر أو 250 دولاراً في شيك، ولا طعام أحتاج إليه لأكمل رحلتي إلى الموقف التالي في منتزه بحيرة كارتر.

قلت وأنا أمسك بالمغلف:

- ينبغي أن يكون هناك صندوق لي.

- عليك التحقق غداً.

- أمتأكدة؟ أعني أنه ينبغي بالتأكيد أن يكون هنا.

هزت المرأة رأسها بدون أي تعاطف أو اكتراث؛ فقد كنت شابة متطرفة وقذرة تفوح مني رائحة نتنة. أشارت المرأة إلى الرجل الواقف في أول الطابور وقالت:

- التالي.

فترنحت إلى الخارج وقد أعماني الذعر والحنق، فأنا في آشلاند في أوريغون وليس معي سوى 2.29 دولاراً. كنت بحاجة لدفع أجرة غرفة في الفندق تلك الليلة وبحاجة للطعام قبل أن أكمل رحلتي. والأهم من ذلك كله أنني بعد ستة أيام من المشي تحت ثقل حقيبتي وأنا أتناول الطعام المجفف الذي له مذاق الورق ودون أي تواصل مع أي إنسان لفترات قد تصل إلى أسبوع، وأنا أمشي في الجبال في درجات حرارة متقلبة بشكل كبير، كنت بحاجة لأشياء تشعرني بالراحة لبضعة أيام فقط... أرجوكم.

توجهت إلى هاتف مدفوع وخلعت الوحش ووضعتها على الأرض ثم أغلقت باب مقصورة الهاتف، فشعرت براحة كبيرة وبرغبة في عدم مغادرة تلك الغرفة الشفافة الصغيرة. نظرت إلى المغلف من صديقتي لورا من مينابوليس، ثم فتحته وأخرجت محتوياته، فوجدت رسالة مطوية حول قلادة صنعتها لي احتفالاً باسمي الجديد... سترايد... بأحرف فضية على سلسلة من الكرات المتصلة. ارتديت القلادة ونظرت إلى الصورة المشوهة لصدري على الوجه المعدني اللامع للهاتف، فرأيتها معلقة تحت القلادة التي كنت أرتديها منذ أن كنت في كينيدي ميدوز، أي قرط الأذن الفضي والفيروزي الذي كان لأمي.

رفعت السماعة وحاولت الاتصال بليزا للاستعلام عن صندوقي لكن أحداً لم يرد علي.

مشيت في الشوارع ببؤس محاولة ألا أرغب بشيء... لا غداء... لا كعك... لا حلوى... لا قهوة بأكواب ورقية كتلك التي يمسك بها السياح. مشيت نحو الفندق لأرى إن كان بإمكاني العثور على ستاسي لكنها لم تكن هناك، لكن الموظف أخبرني أنها ستعود في ما بعد، وأنها لم تحجز سوى لتلك الليلة، ثم سألني:

- أتريدين الحجز أيضاً؟

فهززت رأسي نافية.

مشيت نحو ركن للطعام أعده الشباب الذين نصبوا مخيماً نهارياً وتجمعوا على العشب والممرات أمام المتجر، وعلى الفور رأيت رجلاً آخر كنت قد التقيته عند بحيرة تود، وهو الرجل ذو العصابة قائد المجموعة. كان جالساً على الممر بالقرب من مدخل المتجر وهو يحمل لافتة صغيرة من الورق المقوى كتب فيها يطلب المال ويضع أمامه علبة قهوة فارغة فيها حفنة من العملات المعدنية.

وقفت أمامه وقد شعرت بالسعادة لرؤية وجه مألوف حتى لو كان وجهه وقلت:

- مرحباً.

فردّ علي من دون أن يبدو عليه أنه تذكرني، كما أنه لم يطلب مني المال؛ إذ كان من الواضح عليّ أنني لا أملك شيئاً:

- كيف حالك؟ أتسافرين؟

قلت لأنعش ذاكرته:

- أنا أتنزه على طريق جبال المحيط الهادئ.

فهز رأسه دون أن يبدو عليه أنه عرفني:

- الكثير من الناس من خارج البلدة يظهرون لأجل مراسم الدفن.

- أهناك مراسم؟

- هناك شيء الليلة.

تساءلت إن كان قد أنشأ تجمع رينبو صغير عند بحيرة كارتر كما قال لكنني لم أسأله.

توجهت نحو المتجر، فبدا لي الهواء المكيف غريباً على بشرتي المكشوفة. كنت قد دخلت العديد من المتاجر في بعض نقاط التوقف للتزود بالمؤونة على طريق جبال المحيط الهادئ، لكنني لم أدخل متجراً كهذا منذ بدء رحلتي. مشيت في الممرات ونظرت إلى أشياء لا يمكنني شراؤها وقد أذهلتني وفرتها... كيف كنت أعتبر هذه الأمور من المسلمات؟ المخلل، والخبز

الطازج الملفوف بالأكياس الورقية، وزجاجات عصير البرتقال، وعلب المثلجات، والمنتجات البراقة التي شعرت أنها أعمتني. تلكأت وشممت بعض الأشياء كالطماطم والخس والبرتقال والليمون، وبذلت قصارى جهدي وأنا أقاوم وضع شيء ما في جيبي.

توجهت إلى قسم العناية بالصحة والجمال، ووضعت عينات مجانية من الكريم المرطب على يدي وفركت جسدي بأنواع متعددة، وقد كاد يغمى علي من روائحها؛ كالدراق وجوز الهند والخزامى والمندرين، وتأملت عينات أحمر الشفاه، وجربت واحداً مصنوعاً من مواد طبيعية عضوية مصنوعة من مواد مكررة موضوعاً في مرطبان زجاجي ذي غطاء فضي، ثم استخدمت منديلاً طبيعياً وحدقت بنفسي في مرآة مدورة موضوعة على منصة إلى جانب طاولة أحمر الشفاه. وقد اخترت أحمر الشفاه هذا لأن لونه شبيه بلون أحمر الشفاه الذي كنت أضعه في حياتي المعتادة قبل رحلتي على طريق جبال المحيط الهادئ، لكنني بدوت الآن كمهرج بفم جنوني على وجهي متغير اللون.

سألتني امرأة تضع نظارة وتحمل بطاقة مكتوباً عليها اسمها جين غ:

- أيمكنني مساعدتك؟

- لا، شكراً... أنا أبحث فحسب.

- ذلك اللون جميل عليك، فهو يظهر لون عينيك الأزرق.

- أتظنين ذلك؟

وشعرت بخجل مفاجئ وأنا أنظر إلى نفسي في المرآة الصغيرة المدورة كما لو أنني كنت أفكر بجدية بشرائه.

قالت جين غ:

- أحببت قلادتك... ما المكتوب عليها؟

- سترايد... إنه لقبي.

- أوه.

وأكملت طريقي في الممر باتجاه قسم الأطعمة المطهوة، وسحبت منديلاً ومسحت به أحمر الشفاه، ثم بدأت بالبحث عن عصير الليمون، حيث اشتريت عصير الليمون الطازج الطبيعي بدون مواد حافظة بآخر قطعة نقود

أحملها، وعدت لأجلس أمام المتجر. بسبب تشوقي للوصول إلى البلدة لم أكن قد تناولت الغداء، لذا تناولت قطعة من البروتين والقليل من المكسرات من حقيبتي وأكلتها وأنا أمنع نفسي عن التفكير بالوجبة التي كنت أخطط لتناولها... سلطة سيزر مع صدر دجاج مشوي، وسلة من الخبز الفرنسي المقرمش والمغمس بزيت الزيتون، وعلبة كولا دايت مع حلوى الموز. شربت عصير الليمون وتكلمت مع كل من اقترب مني، حيث تكلمت مع رجل من ميتشيغان كان قد جاء إلى آشلاند من أجل الجامعة، ورجل يعزف على الطبل في فرقة موسيقية، وامرأة تصنع الخزف، وامرأة سألتني بلكنة أوروبية إن كنت سأحضر المراسم الخاصة بجيري غارسيا تلك الليلة.

وناولتني منشوراً مكتوباً عليه في الأعلى «لنتذكر جيري».

- إنها في النادي القريب من الفندق إن كنت تقيمين هناك.

كانت بدينة وجميلة وشعرها مربوط عند مؤخر رأسها. وأضافت وهي تشير إلى حقيبتي:

- إننا نتجول في أرجاء البلاد أيضاً.

لكنني لم أفهم من هم حتى ظهر رجل بجانبها، وكان ذلك الرجل بعكسها تماماً؛ إذ كان طويلاً ونحيلاً ويرتدي تنورة بنية تصل إلى ركبتيه النحيلتين، أما شعره القصير فمقسم إلى أربع أو خمس خصل موزعة حول رأسه.

سألني الرجل:

- هل ركبت مع أحد حتى وصلت إلى هنا؟

شرحت لهما عن رحلتي على طريق جبال المحيط الهادئ، وكيف كنت أخطط للبقاء في آشلاند خلال عطلة نهاية الأسبوع، فلم يكترث الرجل لكن المرأة أبدت صدمتها، وقالت وهي تمسك بيدي بين يديها:

- اسمي سوزان، وأنا من سويسرا. ما تفعلينه يدعى طريق الحج، سأفرك لك قدميك إن أحببت.

- أوه... ذلك رائع لكنك لست مضطرة للقيام بذلك.

- أنا أريد ذلك، فهذا شرف لي... سأعود على الفور.

والتفتت ومشت نحو المتجر وأنا أناديها وأخبرها أنها لطيفة للغاية. وحين ابتعدت، نظرت إلى حبيبها الذي ذكرني بالدمية، فجلس أمامي وقال:

- إنها تحب القيام بذلك فلا تقلقي.

حين خرجت سوزانا بعد دقيقة، كانت تضم يديها إلى بعضهما، وقد ملأتهما بزيت عطري، وقالت لي وهي تبتسم:

- إنه زيت النعناع... اخلعي حذاءك وجوربيك.

- لكنّ قدميّ بحالة مزرية وقذرتين.

- هذه مهمتي!

فأطعتها وسرعان ما بدأت تمسحهما بزيت النعناع وتقول:

- قدماك قويتان كقدمَي حيوان. يمكنني الشعور بقوتهما في يديّ لكنهما متأذيتان... لقد فقدت بعضاً من أظافرك.

- نعم.

كنت متكئة على مرفقي على العشب وقد أغمضت عينيّ.

قالت وهي تضغط بإبهاميها على أسفل قدمي:

«حين رأيتك شعرت أن علي إعطاءك شيئاً ما، ولهذا اقتربت منك وناولتك المنشور، لكنني فهمت حينها أن هناك شيئاً آخر. في سويسرا نظهر احتراماً كبيراً للأشخاص الذين يسافرون على طريق الحج.

وهكذا استمر الوضع لساعات وأنا جالسة أمام المتجر، لكنني كنت أتضور جوعاً لدرجة أنني شعرت بأنني كصندوق مليء بالرغبة... شيء ذابل وجائع. أعطاني أحد الأشخاص قطعة كعك، فيما أعطاني شخص آخر طبق سلطة يحتوي على العنب، في حين اقترب آخرون ليبدوا إعجابهم بالوشم، أو ليستفسروا عن حقيبة ظهري. وحوالي الساعة الرابعة، جاءت ستاسي فأخبرتها بمشكلتي، فعرضت عليّ أن تقرضني المال حتى يصل صندوقي.

- دعيني أولاً أتحقق من مكتب البريد مجدداً.

وعدت إلى مكتب البريد ووقفت في الطابور، وقد خاب أملي حين رأيت أن تلك المرأة نفسها التي أخبرتني أن صندوقي لم يصل لا تزال تعمل

وراء المنضدة. وحين اقتربت منها وسألتها عن صندوقي وكأنني لم أكن هناك منذ بضع ساعات، توجهت إلى الغرفة الخلفية وعادت ممسكة به ودفعته عبر المنضدة بدون أي اعتذار.

- إذاً، كان هنا طوال الوقت.

لكنها لم تكترث وإنما أجابت أنها وبكل بساطة لم تره.

كنت أشعر بالفرح، وليس لدي متسع من الوقت لأغضب، فمشيت مع ستاسي نحو الفندق وأنا أحمل صندوقي، وحجزت غرفة، ثم تبعت ستاسي على السلم، وعبر غرفة نوم السيدات الرئيسة إلى ركن خاص صغير فيه ثلاثة أسرّة فردية؛ واحد لستاسي والثاني لصديقتها دي في حين حجزتا الثالث لي. عرفتني ستاسي على دي، وتكلمنا وأنا أفتح صندوقي، حيث وجدت سروال الجينز القديم والنظيف وحمالة الصدر الجديدة والسروال الداخلي ومبلغاً من المال أكبر من كل ما حصلت عليه منذ بداية رحلتي.

توجّهت إلى حجرة الدش ووقفت تحت الماء الساخن وفركت جسدي، إذ لم أكن قد استحممت منذ أسبوعين تراوحت فيهما درجة الحرارة بين الثلاثين والمائة. شعرت بالماء يغسل طبقات العرق، وكأنها طبقة من البشرة. وحين أنهيت، حدقت إلى نفسي في المرآة وأنا عارية، فوجدت جسدي أكثر نحولاً مما كان عليه في آخر مرة نظرت فيها إلى نفسي في المرآة، وشعري أفتح من الوقت الذي كنت فيه فتاة صغيرة. ارتديت حمالة الصدر السوداء الجديدة والسروال الداخلي والقميص القطني وسروال الجينز الذي أصبح واسعاً عليّ الآن على الرغم من أنه لم يكن يتسع لي قبل ثلاثة أشهر، ثم عدت إلى ركننا وانتعلت حذائي الذي لم يعد جديداً وإنما أصبح قذراً وثقيلاً ومؤلماً؛ لكنه الحذاء الوحيد لدي.

أثناء العشاء مع ستاسي ودي طلبت كل ما رغبت به، وبعد ذلك توجهت إلى متجر أحذية واشتريت حذاء مكشوفاً رياضياً أسود وأزرق من النوع الذي كنت أنتعله قبل رحلتي. وبعد أن عدنا إلى الفندق، خرجت مجدداً برفقة ستاسي للمشاركة في المراسم الخاصة بجيري غارسيا في نادٍ قريب، بينما بقيت دي لتنام. جلسنا إلى طاولة في مساحة صغيرة محاطة بالحبال تحيط بمساحة الرقص، واحتسينا الشراب ونحن نشاهد النساء والرجال من كل الأعمار والأشكال والأحجام وهم يرقصون على أغاني فرقة جيري غارسيا التي يتم عزفها واحدة تلو الأخرى. ووراء الراقصين، كانت هناك شاشة يتم عليها عرض سلسلة من الصور بعضها مجردة وبعضها حرفية تصور جيري وفرقته.

وحين تم عرض صورة لجيري صرخت امرأة من الطاولة المجاورة:

- نحبك يا جيري!

سألتُ ستاسي:

- هل سترقصين؟

فهزت رأسها بالنفي وقالت:

- ينبغي أن أعود إلى الفندق، إذ سنبدأ رحلتنا في وقت باكر فيالصباح.

- أظنني سأبقى قليلاً... أيقظيني لأودعك إن كنت لا أزال نائمةغداً.

وبعد أن غادرت، طلبت كأساً أخرى من الشراب، وجلست أنصت للموسيقى وأشاهد الناس وأنا أشعر بسعادة عميقة لكوني جالسة في غرفة ما مع الآخرين في مساء صيفي ونحن نستمع إلى الموسيقى. حين نهضت لأغادر بعد نصف ساعة، بدأت أغنية «صندوق المطر»، وهي واحدة من الأغاني المفضلة لدي، وقد كنت ثملة نوعاً ما فتوجهت إلى مساحة الرقص وبدأت أرقص، لكنني ندمت على ذلك بسرعة. فقد كانت ركبتاي متيبستين من كل المشي، أما ردفاي فكانا متصلبين. لكن بينما كنت على وشك المغادرة ظهر فجأة ذلك الرجل من ميتشيغان الذي التقيته في وقت باكر ذلك اليوم وبدأ يرقص معي ويدور حولي ويرسم صندوقاً خيالياً في الجو بإصبعه وهو يومئ لي؛ وكأنني كنت أعرف ما يعنيه ذلك، فبدا من الفظاظة أن أغادر.

صرخ لي من فوق الموسيقى وأنا أحرك جسدي برقص مصطنع.

- إنني أفكر بأوريغون دائماً حين أسمع هذه الأغنية... أفهمت؟ صندوق المطر؟ كأن أوريغون صندوق مطر أيضاً.

هززت رأسي وضحكت، وأنا أحاول أن أبدو مستمتعة. لكن، ما إن انتهت الأغنية حتى انطلقت بعيداً، ووقفت بالقرب من جدار منخفض.

بعد برهة، قال لي رجل:

- مرحباً.

فالتفتُّ ووجدته يقف في الجانب الآخر من الجدار، حاملاً قلماً ومصباحاً يدوياً. كان موظفاً في النادي لكنني لم أنتبه له من قبل. أجبته:

- أهلاً.

كان وسيماً، وبدا أكبر مني بقليل، وخصلات شعره الداكنة تلامس أعلى كتفيه، وعلى قميصه القطني مكتوب «ويلكو»، فقلت وأنا أشير إلى قميصه:

- أحب تلك الفرقة.

سألني:

- أتعرفينها؟

- بالطبع أعرفها.

وتغضنت عيناه البنيتان بابتسامة، وقال وهو يصافحني:

- أنا جوناثان.

لكن الموسيقى بدأت قبل أن أخبره باسمي، غير أنه انحنى إلى أذني وسألني بصرخة خفيفة عن المكان الذي جئت منه، إذ بدا أنه يعرف أنني لست من آشلاند، فصرخت له وشرحت له باقتضاب عن طريق جبال المحيط الهادئ، ثم انحنى مجدداً وصرخ بجملة طويلة لم أستطع فهمها بسبب الموسيقى، لكنني لم أكترث بسبب الطريقة الرائعة التي كانت فيها شفتاه تداعبان شعري، ونفسه يداعب رقبتي ثم ينتشر على أنحاء جسمي.

وحين انتهى صرخت:

- ماذا؟

فأعاد ما قاله وهو يتكلم ببطء أكبر وصوت أعلى، وفهمت منه أنه كان يخبرني أنه سيعمل حتى وقت متأخر الليلة، لكنه في الليلة القادمة سيُنهي عمله عند الساعة الحادية عشرة، وسألني إن كنت أرغب بالذهاب لمشاهدة الفرقة التي تعزف، ثم الخروج معه في ما بعد.

صرخت:

- بالطبع.

لكنني كنت أرغب بجعله يكرر ما قاله ليبقى فمه يداعب شعري ورقبتي مجدداً. ناولني القلم، وأشار إلي أن أكتب اسمي على راحة يده ليتمكن من وضعي على لائحة الضيوف، فكتبت بخط أنيق «شيريل سترايد»،

وحين انتهيت نظر إلى اسمي وحيّاني، ثم لوحت له وخرجت من الباب وأنا أشعربالسعادة.

لدي موعد غرامي.

ألدي موعد غرامي؟ مشيت في الشوارع الدافئة وأنا أشكك نفسي... ربما لن أجد اسمي على القائمة، وربما كان ما سمعته خطأ، وربما كان من السخف الخروج في موعد مع شخص لم أتكلم معه سوى بضع كلمات وميزته الوحيدة أنه وسيم وأنه يحب ويلكو... لقد فعلت الأمر ذاته مع رجال آخرين لكن هذا مختلف... أنا مختلفة... ألست مختلفة؟

عدت إلى الفندق ومشيت بهدوء عبر الأسرة التي تستلقي عليها نساء لا أعرفهن حتى وصلت إلى الركن الصغير حيث كنت أنام فيه أنا ودي وستاسي، فخلعت ملابسي، واستلقيت على سرير حقيقي، وبقيت مستلقية لساعة وأنا أمرر يدي على جسدي وأتخيل كيف سيبدو لجوناثان في الليلة القادمة... بروز صدري وتسطح بطني وعضلات ساقيّ... بدا كل ذلك لا بأس به حتى وصلت إلى البقع بحجم الكف على ردفيّ فأدركت أنه لا يمكن لعلاقتنا أن تتطور أبداً خلال موعدي معه غداً.

أمضيت اليوم التالي وأنا أشغل نفسي عن فكرة رؤيتي جوناثان تلك الليلة؛ حيث غسلت ملابسي، وتناولت الطعام في المطعم، وتجوّلت في الشوارع، وشاهدت الناس وأنا أسأل نفسي: «لم قد أنجذب إلى ذلك الشخص من محبي فرقة ويلكو؟». لكن، مع ذلك، ظل ذهني مشغولاً بتخيل الأشياء التي قد نفعلها معاً.

في ذلك المساء، استحممت وارتديت ملابسي، ومشيت إلى المتجر حيث وُضِعت بعض مساحيق التجميل والزيت العطري من العينات المجانية، قبل أن أمشي نحو المرأة الواقفة قرب باب النادي حيث يعمل جوناثانوقلت:

- قد أكون على القائمة.

وأعطيتها اسمي وأنا مستعدة لسماع الرفض.

لكنها ودون أية كلمة ختمت يدي بالحبر الأحمر.

رأينا أنا وجوناثان بعضنا لحظة دخولي، حيث لوح لي من مكانه البعيد وهو يجهز الإضاءة. طلبت كأساً من الشراب، ووقفت أحتسيه بطريقة كنت آمل أن تكون أنيقة، وأنا أنصت إلى الفرقة بالقرب من الجدار المنخفض، حيث

التقيت جوناثان في الليلة الماضية. كانت الموسيقى رائعة، لكنني لم أستطع التركيز عليها لأنني كنت أبذل جهدي لأبدو مستمتعة ومرتاحة؛ كما لو أنني كنت سآتي إلى هذا النادي لأسمع تلك الفرقة سواء أدعاني جوناثان أم لا. وكنت كلما نظرت إلى جوناثان وجدته ينظر إليّ؛ مما جعلني أقلق من أن يظن أنني أنظر إليه دائماً. إن كانت مجرد مصادفة أنه ينظر إليّ كلما نظرت إليه سيجعله ذلك يتساءل: «لماذا تنظر إلي هذه المرأة دائماً؟». لذا لم أنظر إليه لثلاث أغنيات كاملة، ثم لم أعد أحتمل ونظرت إليه، لكنه لم يكن ينظر إليّ فحسب، وإنما لوّح لي أيضاً فلوّحت له.

أشحت بنظري، ووقفت بسكون وأنا أشعر بنفسي أنني جميلة ومثيرة، وشعرت بعينَي جوناثان على فخذيّ وردفيّ المليئة بالعضلات، في حين كان صدري مرتفعاً بفضل حمالة الصدر الجميلة تحت القميص الضيق، وشعري أشقر، وبشرتي برونزية، وعيناي الزرقاوان تظهران بوضوح مع أحمر الشفاه. لكنّ هذا الشعور لم يستمر سوى لأغنية واحدة ثم انعكس بالكامل، وأدركت أنني قبيحة بسبب البقع على ردفيّ ووجهي المسمرّ وشعري المتأثر بعوامل الطقس وبطني الذي كان ممتلئاً على الرغم من كل التمارين والحرمان ورباط الحقيبة حوله لمدة شهرين، وذلك ما لم أكن مستلقية. كما كان أنفي بارزاً، وشفتاي مضحكتين ولافتتين للنظر، فقمت بالضغط عليهما بخفاء بمؤخر يدي لأخفف من أحمر الشفاه، بينما كانت الموسيقى تصدح.

والحمد لله، كانت هناك فترة راحة، وسرعان ما وقف جوناثان قربي، وضغط على يدي بتوق، وقال إنه سعيد لقدومي، وسألني إن كنت أريد كأساً أخرى من الشراب.

لكنني لم أكن أريد الشراب، وإنما أردت أن تحين الساعة الحادية عشرة لنغادر معاً وأتوقف عن التفكير في ما إذا كنت جميلة أو قبيحة، وإن كان ينظر إليّ أو يظن أنني أنظر إليه.

لكن، لا تزال هناك ساعة ونصف الساعة.

سألني:

- ماذا سنفعل في ما بعد؟ هل تناولت العشاء؟

أخبرته أنني تناولت العشاء، لكنني مستعدة لأي شيء؛ إلا أنني لم أذكر له أنني كنت حينها قادرة على تناول أربع وجبات عشاء تقريباً.

- أنا أقيم في مزرعة طبيعية على بعد خمسة عشر ميلاً من هنا، والمكان رائع في الليل... يمكننا الذهاب إلى هناك، ثم سأعيدك بالسيارة حين تكونين جاهزة.

- حسناً. في الواقع، أظن أنني سأخرج لتنشق بعض الهواء، لكنني سأعود عند الساعة الحادية عشرة.

- كما تشائين.

ومد يده ليضغط على يدي قبل أن يعود إلى موقعه وتبدأ الفرقة بالعزف.

مشيت مترنحة وقد تدلى من معصمي الكيس الأحمر الصغير الذي كنت أضع فيه الموقد. كنت قد تخلصت من معظم الأكياس والعلب في كينيدي ميدوز لئلا أحمل وزناً إضافياً، لكنني احتفظت بهذا الكيس ظناً مني أن الموقد بحاجة للحماية، ثم استخدمته كحقيبة يد خلال أيام إقامتي في آشلاند على الرغم من أن رائحته كانت مفعمة بالوقود، وقد احتفظت بالأغراض بداخله في كيس مختوم؛ كنقودي ورخصة القيادة ومطري الشفاه والمشط والبطاقة التي أعطاني إياها موظفو الفندق لأستعيد الوحشَ وعصا التزلج وصندوقَ الطعام الموضوعة في المخزن.

قال رجل يقف على الرصيف أمام النادي بصوت هادئ:

- كيف حالك؟ هل أحببت الفرقة؟

- نعم.

وابتسمت له بأدب. بدا لي في أواخر العقد الرابع، ويرتدي الجينز وقميصاً باهت اللون، ولديه لحية طويلة تصل إلى صدره، وشعره الرمادي يصل إلى كتفيه تحت القبة الصلعاء أعلى رأسه.

- لقد جئت إلى هنا من الجبال، فأنا أحب المجيء وسماع الموسيقى أحياناً.

- وأنا أيضاً... أقصد أنني أتيت من الجبال.

- أين تقيمين؟

- أنا أتنزه على طريق جبال المحيط الهادئ.

- أوه نعم... طريق جبال المحيط الهادئ... أنا أقيم في الاتجاه الآخر، حيث لديّ خيمة جلدية أقيم فيها لأربعة أو خمسة شهور فيالسنة.

- أتقيم في خيمة جلدية؟

- نعم... لوحدي... أحبها لكنني أشعر بالوحدة أحياناً. اسمي كلايد.

ومد يده مصافحاً.

- وأنا شيريل.

- أترغبين بالمجيء وشرب كوب من الشاي معي.

- شكراً، لكنني بانتظار صديقي ليخرج من عمله.

ونظرت إلى باب النادي وكأن جوناثان سيخرج في تلك اللحظة.

- حسناً... شاحنتي المغلقة هنا لذا لن نبتعد.

وأشار إلى شاحنة حليب في المرأب وقال:

- أنا أقطن هناك حين لا أكون في خيمتي؛ فأنا أجرب حياة التنسك منذ سنوات، لكن أحياناً من الممتع المجيء إلى المدينة وسماع فرقة موسيقية.

- فهمت قصدك.

كنت قد أحببت أسلوبه اللطيف، فقد ذكرني ببعض الرجال الذين كنت أعرفهم في شمال مينيسوتا من أصدقاء ماما وإيدي الباحثين والمنفتحين والخارجين عن المألوف. كنت نادراً ما أرى أحداً منهم منذ وفاة أمي، فقد بدا لي أنني لم أعرفهم ولن أعرفهم مجدداً. فمهما كان ما قد حصل في المكان الذي ترعرعت فيه فإن من المستحيل إرجاعه.

قال كلايد:

- حسناً... سررت بلقائك شيريل. سأضع إبريق الشاي، ويمكنك الانضمام إليّ كما قلت.

- بالتأكيد... سأتناول كوباً من الشاي.

لم أرَ قط منزلاً داخل شاحنة مغلقة من قبل، وقد أذهلني كونه أروع شيء في العالم. فقد كان مرتباً وأنيقاً وفنياً ومضحكاً ومتعدد الاستعمالات، ويحتوي على موقد خشبي ومطبخ صغير وصف من الشموع وحبل من المصابيح التي تلقي ظلالاً ساحرة في الأرجاء، كما يوجد رف مرصوف بالكتب يلتف حول ثلاثة جوانب من الشاحنة مع سرير عريض مقابله. خلعت حذائي المكشوف الجديد واستلقيت على السرير، وسحبت الكتب عن الرف بينما بدأ كلايد بإعداد الشاي. كانت هناك كتب حول رجال الدين، والناس الذين يعيشون في الكهوف، والناس الذين يعيشون في القطب الشمالي وغابة الأمازون وعلى جزيرة مقابل ساحل ولاية واشنطن.

قال كلايد وهو يصب الماء الساخن في الإبريق:

- إنني أعلّم نفسي.

ثم أشعل بعض الشموع، وجاء وجلس بجانبي على السرير، حيث كنت مستلقية على بطني، ومتكئة على مرفقي وأنا أتأمل كتاباً مصوراً حولالهندوس.

سألته ونحن ننظر إلى رسوم معقدة وأقرأ القليل عنها في الفقرات تحت كل صورة.

- أتعتقد بالتقمص؟

- لا، بل أعتقد أننا نعيش في هذه الحياة لمرة واحدة، وما يهم هو ما نفعله فيها... ماذا تعتقدين أنت؟

- ما زلت أحاول اكتشاف ذلك.

وتناولت الكوب الساخن منه.

- لدي شيء آخر لنا إن أحببت... شيء صغير آخر جنيته من الغابة.

سألته:

- الأفيون؟

- إنه يمنحك النشوة والاسترخاء... أتريدين القليل؟

- بالتأكيد.

وراقبته وهو يقطع قطعة ويناولني إياها، ثم قطع قطعة أخرى ووضعها في فمه، فسألته:

- أتمضغها؟

ووضعتها في فمي ومضغتها، فبدا لي الأمر كأنني أتناول الخشب. وبعد لحظة، أدركت أنه قد يكون من الأفضل ألا أتناول الأفيون أو أية عشبة أخرى يعطيني إياها رجل غريب مهما بدا لطيفاً وغير مؤذٍ، فبصقتها في يدي.

قال ضاحكاً وهو يناولني سلة المهملات:

- ألم تحبيها؟

جلست أتكلم مع كلايد في شاحنته المغلقة حتى الساعة الحادية عشرة، حيث مشى معي حتى الباب الأمامي للنادي، فتعانقنا وقال لي:

- حظاً موفقاً في رحلتك.

بعد لحظة، ظهر جوناثان وقادني إلى سيارته البويك القديمة التي يدعوها بياتريس.

سألته:

- كيف كان العمل؟

وجلست بجواره دون أن أشعر بأي توتر كما حصل لي في النادي حين كان يراقبني.

- جيد.

وقاد السيارة إلى الظلام خلف آشلاند، وأخبرني عن العيش في مزرعة طبيعية يملكها أصدقاؤه، حيث يقيم هناك بلا مقابل سوى القيام ببعض العمل. وانعطف في طريق، ومنه إلى طريق آخر، وهكذا حتى لم أعد أستطيع تقدير مكاننا بالنسبة لآشلاند؛ مما يعني بالنسبة لي مكاني بالنسبة للوحش، فندمت على عدم إحضارها؛ فأنا لم أبتعد عنها لهذه الدرجة منذ بدء رحلتي على طريق جبال المحيط الهادئ. ثم انعطف جوناثان إلى ممر صغير، ومر بمنزل مظلم حيث نبح كلب، وبعدها سار في طريق طيني بين حقول الذرة حتى أضاءت أنوار السيارة خيمة كبيرة منتصبة على منصة خشبية قام بركن السيارة أمامها.

- هذا منزلي.

ونزلنا، فوجدت أن الهواء كان أكثر برودة مما هو عليه في آشلاند. ارتجفت، فوضع جوناثان ذراعه حولي وكأنه فعل ذلك مائة مرة من قبل، ثم مشينا بين الذرة والأزهار تحت القمر البدر، وتكلمنا عن الفرق الموسيقية والموسيقيين الذين نحبهم، وروينا القصص حول العروض التيحضرناها.

قال جوناثان:

- لقد شاهدت ميشيل شوكد في حفل حي ثلاث مرات.

- ثلاث مرات؟

- في إحدى المرات قدت سيارتي في عاصفة ثلجية لحضور الحفل الذي لم يكن فيه سوى عشرة أشخاص.

- واو.

فقال وعيناه البنيتان تنظران في عينيّ في الظلام:

- واو.

- واو.

- واو.

لم نقل سوى كلمة واحدة، لكنني شعرت فجأة بالارتباك؛ إذ لم يبدُ لي أننا ما زلنا نتكلم عن ميشيل شوكد.

أشرت إلى الأزهار المتفتحة حولنا وسألته:

- ما نوع هذه الأزهار؟

وقد كنت أشعر بالذعر من أن يقبّلني، ليس لأنني لا أريده أن يقبلني، وإنما لأنني لم أقبل أحداً منذ أن قبّلت جو منذ أكثر من شهرين. وفي كل مرة أظلّ فيها كل هذه المدة من دون أن أقبّل أحداً، أصبح واثقة من أنني نسيت كيف أفعل ذلك. ولكي أؤجل القبلة سألته عن عمله في المزرعة، وعمله في النادي، وعن أصله وعائلته، وعن آخر حبيبة لديه وكم بقيا معاً وعن سبب انفصالهما. وكان بالكاد يجيبني، دون أن يطرح عليّ أي سؤال.

لم يكن الأمر يهمني، فقد كنت مرتاحة ليده على كتفي، ثم شعرت براحة أكبر حين أنزلها إلى خصري. وحين استدرنا لنعود إلى خيمته على المنصة، التفت ليقبّلني وأدركت أنني ما زلت أعرف كيف أقبِّل، وحينها تلاشت كل الأشياء التي لم يسألني عنها أو يجيب عنها.

- هذا رائع... سررت بقدومك إلى هنا.

وابتسمنا لبعضنا كما يفعل أي شخصين بعد أن يقبِّلا بعضهما للمرة الأولى.

- وأنا أيضاً.

وبدأ إحساسي بيده على خصري يتزايد رغم قماش قميصي الرقيق على حافة سروالي الجينز. كنا واقفين في المساحة المفتوحة بين سيارة جوناثان وخيمته، حيث يمكنني التوجه إلى أي من الاتجاهين... إما أن أعود إلى سريري في الفندق في آشلاند وحدي، أو أذهب إلى سريره.

- انظري إلى السماء... إلى كل النجوم.

- إنها جميلة.

لكنني لم أنظر إلى السماء، وإنما تفحصت الأرض المظلمة وأنا أبحث عن نقاط الضوء والمنازل والمزارع المنتشرة في الوادي. فكرت بكلايد الجالس وحيداً تحت السماء نفسها وهو يقرأ الكتب الجيدة في شاحنته المغلقة، وتساءلت عن موقع طريق جبال المحيط الهادئ من هذا المكان، فقد بدا بعيداً. وحينها أدركت أنني لم أخبر جوناثان عن طريق جبال المحيط الهادئ سوى بتلك العبارة الصغيرة التي صرخت بها في أذنه مع صوت الموسيقى المرتفعة في الليلة السابقة لكنه لم يسأل شيئاً.

قال جوناثان:

- لا أعرف ما الأمر، لكنني ما إن رأيتك حتى عرفت أنه عليّ الاقتراب والحديث معك وأنك ستكونين رائعة.

- وأنت رائع أيضاً.

انحنى للأمام وقبلني مجدداً، فبادلته قبلته بحماسة أشد من قبل، حيث وقفنا هناك نقبّل بعضنا مرة تلو المرة بين خيمته وسيارته، وتحيط بنا الذرة والأزهار والنجوم والقمر، وقد شعرت أنني أروع شيء في العالم، بينما مرّرت

يدي في شعره المتجعد وعلى كتفيه العريضتين وذراعيه القويتين وظهره الصلب، وأنا أشد جسده الذكوري الرائع إلى جسدي.

- أتريدين الدخول؟

هززت رأسي موافقة، فطلب مني الانتظار ريثما يدخل ويشعل النور والتدفئة، ثم عاد بعد لحظات ممسكاً بباب الخيمة المفتوح بينما أدخل.

لم تكن خيمة كالخيمة التي كنت أنام فيها، وإنما كانت جناحاً فخماً فيه مدفئة صغيرة وهي طويلة بما يكفي ليقف فيها المرء ويمشي في المساحة التي لا يشغلها السرير المزدوج المحشور في الوسط، وعلى جانبيه خزانتان من الورق المقوى عليهما مصابيح تعمل على البطارية وتبدو كالشموع.

قلت وأنا أقف بجانبه في المساحة الصغيرة بين الباب ونهاية السرير:

- جميل.

فسحبني إليه، وقبلنا بعضنا مجدداً.

- أشعر أنه من المضحك أن أطرح عليك هذا السؤال، فأنا لا أريد أن أضع آمالاً لأنه سيكون من الكافي بالنسبة لي أن نستمتع بوقتنا، وهذا سيكون أمراً رائعاً، أو حتى إن كنت تريدين أن أعيدك إلى الفندق الآن فسأفعل؛ وإن كنت آمل ألا تطلبي ذلك. لكن... قبل... أقصد أننا قد لا نقوم بذلك بالضرورة... لكن في حال...؟

وقد بدا لي ذلك أمراً في غاية السخف، فقد كنت متشوقة لصحبة أحد ما وأنا في الصحاري الحارة والمنحدرات المكسوة بالجليد والغابات والجبال والأنهار وفي أكثر الأيام الحارة والمتعبة. وها أنا هنا في خيمة فخمة مع تدفئة وسرير مزدوج ومصابيح شموع تعمل على البطارية وأحدق بعيني رجل مثير ووسيم بني العينين يحب ميشيل شوكد.

همس وهو يمسك بيدي:

- لا بأس... يمكننا الاستمتاع بوقتنا فهناك أشياء كثيرة يمكننا القيام بها.

وهكذا قبّلنا بعضنا؛ مرة واثنتين وثلاث مرات... بينما كان يمرر يديه على كل أنحاء جسمي من فوق الثياب وأمرر يدي على كل أنحاء جسمه.

همس في أذني بعد قليل:

- أترغبين بخلع قميصك؟

فضحكت لأنني كنت أرغب في ذلك. وحين خلعته، وقف ينظر إليّ في حمالة الصدر السوداء التي وضبتها قبل شهور لأنني كنت أظن أنني حين أصل إلى آشلاند فسأرغب بارتدائها، وحين تذكرت ذلك ضحكت مجدداً.

- ما المضحك في الأمر؟

- أتصدق أن حمالة الصدر هذه سافرت لمسافات طويلة؟

- أنا سعيد لأنها وجدت طريقها إلى هنا.

ومد يده ولمس بإصبعه برقة طرف أحد شريطيها بالقرب من عظم الترقوة، لكنه بدلاً من أن ينزله عن كتفي كما كنت أظن أنه سيفعل مرّر إصبعه ببطء على الطرف العلوي منها من الأمام، ثم أنزلها إلى الأسفل بينما كنت أنظر إلى وجهه؛ فبدا الأمر حميمياً أكثر من التقبيل. وحين انتهى من تتبع حوافها كلها لم يكن قد لمسني، ومع ذلك لم أكن قادرة على الوقوف.

قلت له وأنا أسحبه إلي:

- تعال إلى هنا.

ثم استلقينا على سريره ونحن لا نزال نرتدي سروالينا الجينز، لكنه خلع قميصه، قبّلنا بعضنا وتدحرجنا على السرير بشكل محموم حتى تعبنا واستلقينا بجانب بعضنا ونحن نتبادل القبلات، بينما كانت يداه تنتقلان من شعري إلى جسدي. وأخيراً، مد يده لفتح الزر العلوي لسروالي الجينز، وحينها ابتعدت عنه.

- آسف... ظننت أنك...

- ليس الأمر كذلك... لكن... هناك شيء ينبغي أن أخبرك به أولاً.

- هل أنت متزوجة؟

- لا.

عندها خطر بول ببالي... وفجأة جلست وسألته:

- هل أنت متزوج؟

والتفتُّ إلى جوناثان الذي كان مستلقياً على السرير ورائي.

- لست متزوجاً ولا يوجد لدي أطفال.

- كم عمرك؟

- أربع وثلاثون سنة.

- أنا ست وعشرون.

جلسنا نفكر في الأمر، فقد بدا لي من الغريب والرائع أن يكون في الرابعة والثلاثين. فعلى الرغم من أنه لم يطرح علي أي سؤال عن نفسي، إلا أنني على الأقل مستلقية على السرير مع رجل لم يعد طفلاً.

- ما الذي تريدين إخباري به؟

ووضع يده على ظهري العاري، وحينها أدركت أنني كنت أرتجف، وتساءلت إن كان يشعر بالأمر ذاته.

- إنه أمر يزعجني.... أتذكر حين أخبرتك في الليلة الماضية أنني في رحلة تنزه على هذا الطريق المدعو طريق جبال المحيط الهادئ؟ قمت بهذه الرحلة لكي أعيد تقييم بعض الأمور، ولا أريد التورط في أي شيء.

فهمس وقد وضع فمه الناعم على خدي:

- أوه يا حلوتي... لا تقلقي من شيء.

كان الأمر ممتعاً في تلك الخيمة... ممتعاً للغاية... كما لو أنه مهرجان... نمنا عند الساعة السادسة، واستيقظنا بعد ساعتين، لكننا كنا متيقظين؛ فقد كان جسدانا متنبهين وغير قادرين على النوم أكثر.

قال جوناثان وهو يعتدل جالساً:

- اليوم عطلتي. أتريدين الذهاب إلى الشاطئ؟

وافقت دون أن أعرف أين يقع الشاطئ، فقد كان يوم عطلتي أيضاً... آخر يوم في العطلة، وسأعود في الغد إلى الطريق، وأتجه إلى بحيرة كراتر. ارتدينا ملابسنا، وقدنا السيارة لمدة ساعتين في طريق طويل عبر الغابة، حتى وصلنا إلى الجبال الساحلية. وبينما كنا في السيارة، احتسينا القهوة، وتناولنا الكعك المسطح، واستمعنا للموسيقى، وتكلمنا عن الموضوع الذي تكلمنا عنه في الليلة السابقة... الموسيقى، وحين انعطفنا إلى مدينة بروكينغز الساحلية،

ندمت على موافقتي على المجيء؛ ليس لأن اهتمامي بجوناثان قد تضاءل فحسب، وإنما لأننا كنا نقود السيارة لثلاث ساعات؛ مما جعلني أشعر أنني بعيدة للغاية عن طريق جبال المحيط الهادئ، وكأنني أخونه بطريقة ما.

لكن روعة الشاطئ طغت على ذلك الشعور. وبينما كنت أمشي على شاطئ المحيط إلى جانب جوناثان، أدركت أنني جئت إلى هذا الشاطئ نفسه من قبل مع بول، حيث خيّمنا في مخيم المنتزه القريب حين كنا في رحلتنا نحو مدينة نيويورك التي ذهبنا فيها إلى غراند كانيون وفيغاس وبيغ سور وسان فرانسيسكو وصولاً إلى بورتلاند. وأثناء الرحلة، توقفنا وخيمنا على هذا الشاطئ، وأشعلنا النار، وطهونا العشاء، ولعبنا الورق على طاولة النزهة، ثم زحفنا إلى مؤخر شاحنتي حيث أقمنا علاقة. شعرت بتلك الذكرى كغطاء لي... مَنْ كنتُ حين أتيت إلى هنا مع بول؟ وماذا كنت أظن أنه سيحصل؟ وما الذي حصل؟ ومن أنا الآن؟ وكيف تغير كل شيء؟

لم يسألني جوناثان عمّا كنت أفكر به على الرغم من أنني بقيت صامتة، واكتفينا بالمشي بصمت والمرور ببعض الناس على الرغم من أنه كان مساء الأحد. ومشينا ومشينا حتى لم يبق هناك أحد سوانا.

سألني جوناثان حين وصلنا إلى مكان محاط بصخور ضخمة:

- ما رأيك بهذا المكان؟

وشاهدته وهو يمد غطاء ويضع حقيبة الغداء الذي اشتراه من المتجر ويجلس، فقلت له بعد أن تركت الحذاء المكشوف إلى جانب الغطاء:

- أريد المشي قليلاً إن كنت لا تمانع.

وشعرت بإحساس رائع حين أصبحت وحدي، والريح تداعب شعري، والرمال تهدّئ قدميّ. وبينما كنت أمشي، جمعت صخوراً جميلة لن أستطيع أخذها معي. وحين ابتعدت ولم أعد أرى جوناثان انحنيت وكتبت اسم بول على الرمل.

كنت قد فعلت هذا مرات عديدة... فعلت هذا لسنوات... في كل مرة زرت فيها شاطئاً بعد أن وقعت بحب بول حين كنت في التاسعة عشرة؛ سواء أكنا معاً أو لا. لكنني وأنا أكتب اسمه الآن عرفت أنني أقوم بذلك لآخر مرة، فأنا لا أريد أن أحزن عليه بعد الآن، ولا أن أتساءل إن كنت قد ارتكبت خطأ بتركه، ولا أن أعذّب نفسي بشأن كل الأخطاء التي ارتكبتها بحقه. ماذا لو سامحت نفسي؟ ماذا لو سامحت نفسي حتى لو كنت قد اقترفت شيئاً ما كان

ينبغي لي القيام به؟ ماذا لو كنت كاذبة وخائنة وليس هناك عذر لما فعلته سوى أن ذلك ما أردتُ فعله؟ ماذا لو كنت آسفة، لكن في حال عاد الزمن إلى الوراء فلن أفعل أي شيء مختلف عما فعلته؟ ماذا لو أنني أردت أن أكون على علاقة مع العديد من الرجال؟ ماذا لو أن الهيروويين علمني شيئاً؟ ماذا لو أن «نعم» هو الجواب الصحيح بدلاً من «لا»؟ ماذا لو أنّ ما جعلني أقوم بكل تلك الأشياء التي يظن الجميع أنه ما كان ينبغي لي القيام بها هو ما أوصلني إلى هنا؟ ماذا لو أنني قد كفرت عن ذنوبي؟ وماذا لو لم أفعل؟

حين عدت إلى جوناثان، سألته وأنا أناوله الصخور التي جمعتها:

- أتريد هذه؟

فابتسم وهز رأسه نافياً، ثم شاهدني وأنا أتركها تسقط على الرمال.

جلست بجواره على الغطاء، وسحب الأغراض من الحقيبة: الخبز والجبن ومرطبان العسل البلاستيكي الصغير والموز والبرتقال الذي قام بتقشيره لنا فأكلته. وبعد قليل، مد إصبعه المليئة بالعسل ومسح بها شفتيّ برفق.

وهنا، بدأت فنتازيا العسل على البحر...

- واو!

كانت هذه الكلمة تمثل ما لم أقله، وهو أنه شاب قليل الكلام ولكنه رائع. ومع ذلك، لم أقم بعلاقة معه.

وبدون أية كلمة، وقف وأمسك بيدي وسحبني لأقف أيضاً، فتركته يقودني على الرمال إلى تجمع صخور تشكل كهفاً اختبأنا فيه، وأمضينا وقتاً ممتعاً.

لم يكن هناك الكثير لنقوله ونحن عائدان إلى آشلاند؛ فقد كنت متعبة من السباحة وقلة النوم والرمال والشمس والعسل حيث كنت بالكاد أتكلم. وهكذا، بقينا هادئين معاً ونحن نستمع للأغنيات طوال الطريق إلى الفندق حيث اختتمنا موعدنا الذي استمر لاثنين وعشرين ساعة.

قلت له وأنا أقبله:

- شكراً على كل شيء.

كان الظلام قد خيّم منذ وقت؛ فالساعة هي التاسعة في ليلة الأحد، ممّا جعل البلدة تبدو هادئة أكثر من الليلة الماضية بعد أن غادر أكثر من نصف السياح.

قال لي وهو يناولني قطعة ورق وقلماً:

- عنوانك.

فكتبت عنوان ليزا، بينما سيطر عليّ شعور متزايد بشيء لم يكن أسفاً ولا ندماً ولا توقاً وإنما كان مزيجاً من كل ذلك. فقد أمضينا وقتاً رائعاً، لكنني الآن أشعر بالفراغ كما لو كان هناك شيء ما لا أعرف أنني أريده حتى فقدته.

ناولته قطعة الورق.

- لا تنسي حقيبتك.

وناولني كيس الموقد الأحمر الصغير.

- وداعاً.

أخذته منه واستدرت نحو الباب.

- ليس بهذه السرعة.

وسحبني إليه وقبّلني بقوة، وقبّلته بقوة أكبر كما لو أنها نهاية مرحلة استمرت طوال حياتي.

في الصباح التالي، ارتديت ملابس التنزه؛ أي حمالة الصدر الرياضية نفسها المبقعة والقديمة، وسروال التنزّه القصير الأزرق الذي ارتديته منذ أول يوم في رحلتي، مع زوج جديد من الجوارب الصوفية، وآخر قميص جديد سأحصل عليه حتى نهاية الرحلة؛ وهو قميص رمادي اللون مكتوب عليه جامعة كاليفورنيا بيركلي بأحرف صفراء على الصدر. مشيت نحو المتجر وأنا أحمل الوحش على ظهري، وعصا التزلج متدلية من معصمي، والصندوق بين ذراعيّ، وحجزت طاولة في قسم المأكولات في المتجر لأنظم حقيبتي.

حين أنهيت، وضعت الوحش بعد أن ملأتها إلى جانب الصندوق الصغير الذي يحتوي على سروالي الجينز وحمالة الصدر وسروالي الداخلي، والذي كنت سأرسله بالبريد إلى ليزا، بالإضافة إلى كيس بقالة فيه وجبات لم أعد أستطيع تناولها كنت أنوي تركه في الصندوق المجاني للمتنزهين على طريق

جبال المحيط الهادئ عند مكتب البريد في طريقي إلى خارج المدينة. كان منتزه بحيرة كراتر وهو نقطة التوقف التالية يقع على بعد 110 أميال. وكان علي العودة إلى طريق جبال المحيط الهادئ لكنني غير قادرة على مغادرة آشلاند. بحثت في الحقيبة حتى وجدت قلادتي المكتوب عليها «سترايد» وارتديتها، ثم مددت يدي ولمست ريشة الغراب التي أعطاني إياها دوغ والتي لا تزال معلقة بحقيبة ظهري في المكان الذي وضعتها فيه أول مرة، لكنها كانت قد اهترأت. فتحت الجيب الجانبي حيث أحتفظ بحقيبة الإسعافات الأولية وأخرجتها وفتحتها لأتأكد من محتوياتها، ثم وضعت الوحش على ظهري وغادرت المتجر حاملة الصندوق وكيس البقالة.

وقبل أن أبتعد، رأيت الرجل الذي يضع على رأسه عصابة والذي التقيته عند بحيرة تود وجلست إلى جانبه حين رأيته من قبل وهو يضع علبة القهوة واللافتة الصغيرة من الورق المقوى أمامه، فقلت له وأنا أقف أمامه:

- سأخرج من المدينة.

نظر إليّ وهز رأسه، لكن لم يبدُ لي أنه تذكرني، لا من لقائنا عند بحيرة تود ولا من لقائنا قبل يومين.

فقلت له:

- التقيتك حين كنت تبحث عن تجمع رينبو، فقد كنتُ هناك مع امرأة أخرى تدعى ستاسي، وقد تكلمنا معك.

أومأ مجدداً وهو يهز الفكة في علبته.

- معي هنا بعض الطعام الذي لا أحتاج إليه إن كنت تريده.

ووضعت كيس البقالة إلى جانبه.

- شكراً يا عزيزتي.

وبدأت المسير، ثم توقفت والتفتُّ إليه وقلت له:

- لا تنادني عزيزتي.

فضغط يديه على بعضهما وكأنه يشكرني وأومأ برأسه.

16

مازاما

كانت بحيرة كراتر في ما مضى جبلاً... جبل مازاما، ولم تكن مختلفة عن سلسلة البراكين الخامدة التي تجاوزتها على طريق جبال المحيط الهادئ في أوريغون... جبل ماكلوغلين، وقمم الأخوات الثلاث، وجبل واشنطن وثري فينغرد جاك، وجبل جيفرسون، وجبل هود؛ باستثناء أنه كان أكبر منها كلها؛ إذ يصل ارتفاعه إلى أقل من 12000 قدم بقليل. وقد انفجر بركان جبل مازاما منذ حوالي 7700 سنة، بانفجار كارثي أقوى باثنين وأربعين مرة من انفجار جبل سانت هيلين عام 1980؛ إذ كان أكبر انفجار في سلسلة كاسكيد منذ مليون سنة. وبعد انفجار بركان مازاما، غطّى الرماد المحيط حتى 500000 ميل مربع، ليغطي أوريغون بكاملها تقريباً ويصل إلى ألبرتا وكندا. وتعتقد قبيلة كلاماث من سكان أمريكا الأصليين الذين شهدوا انفجار البركان أنه كان معركة ضارية بين للاو وسكيل. وحين انتهت المعركة، أصبح جبل مازاما كقدر فارغة؛ أي كجبل مقلوب. وببطء وخلال مئات السنوات، امتلأ الجبل المقلوب بالماء، حيث جمع أمطار أوريغون والثلج الذائب حتى تشكلت هذه البحيرة التي يزيد عمقها عن 1900 قدم لتكون أعمق بحيرة في الولايات المتحدة وأعمق بحيرة في العالم.

كنت أعرف القليل عن البحيرات، فقد جئت من مينيسوتا. لكن بينما كنت أبتعد عن آشلاند، لم أستطع تخيل ما سأراه عند بحيرة كراتر، فافترضت أنها ستكون كبحيرة سوبيريور التي ماتت أمي قربها، والتي يمتد لونها الأزرق في الأفق إلى ما لا نهاية. ولم يذكر الكتيب الإرشادي سوى أنني سأراها أول مرة من الحافة التي ترتفع 900 قدم فوق سطح البحيرة وأن المنظر سيكون خلاباً.

كان معي الآن كتيب إرشادي جديد يدعى «طريق جبال المحيط الهادئ المجلد 2: أوريغون وواشنطن» لكنني في المتجر في آشلاند مزقت آخر 130 صفحة من الكتاب لأنني لست بحاجة إلى القسم المتعلق بواشنطن. وفي أول ليلة لي خارج آشلاند، بحثت في الكتاب قبل أن أستغرق في النوم، وقرأت مقاطع من هنا وهناك كما كنت قد فعلت مع الكتيب الإرشادي الخاص بكاليفورنيا في الصحراء في أول ليلة على طريق جبال المحيط الهادئ.

وبينما كنت أمشي خلال تلك الأيام الأولى خارج آشلاند لمحت مناظر لجبل شاستا جنوباً، لكنني كنت في الغالب أمشي في الغابات التي تعيق الرؤية، وغالباً ما كان المتنزهون يسمون طريق جبال المحيط الهادئ في أوريغون «النفق الأخضر»؛ لأنه لا يظهر منه سوى القليل من المناظر بعكس الطريق في

كاليفورنيا. ولم يعد يراودني الشعور بأنني مرتفعة وأنظر إلى كل شيء في الأسفل، كما بدا لي أمراً غريباً ألا أكون قادرة على الرؤية عبر الأراضي؛ فكاليفورنيا غيّرت طريقة نظرتي إلى الأمور، أما أوريغون فأعادتها إلى وضعها السابق. كنت أتنزه عبر غابات التنوب الفخمة، ومررت ببحيرات محاطة بالشجيرات والأعشاب التي كانت تعيق الطريق أحياناً، ثم مررت بغابة نهر روغ، ومشيت تحت الأشجار القديمة الضخمة قبل أن أخرج إلى مساحات فارغة كتلك التي رأيتها قبل بضعة أسابيع، والتي تحوي مساحات مفتوحة وشاسعة مليئة بجذوع الأشجار المقطوعة وجذور الأشجار، ثم أمضيت فترة بعد الظهيرة ضائعة بين الأطلال، حيث مشيت لساعات قبل أن أخرج إلى طريق مرصوف، ووجدت طريق جبال المحيط الهادئ.

كان الجو صحواً ومشمساً لكن الهواء بارد. وقد ازداد البرد يوماً بعد يوم وأنا أمر بسكاي ليكس وايلدرنس حيث كان الطريق يرتفع ما يزيد عن 6000 قدم. وقد انفتحت المناظر أمامي مجدداً وأنا أمشي على صف من الصخور البركانية الضخمة، حيث رأيت بعض البحيرات تحت الطريق واليابسة الممتدة وراءها. وعلى الرغم من أشعة الشمس، بدا الجو كصباح باكر في شهر أكتوبر، وليس كما يكون وقت الظهيرة في منتصف أغسطس؛ إذ كان علي الاستمرار بالحركة لأحافظ على دفئي. وإن توقفت لأكثر من خمس دقائق، تحوّل العرق الذي يبلل ظهر قميصي إلى عرق بارد. ولم أكن قد رأيت أحداً منذ أن غادرت آشلاند، لكنني التقيت الآن بعض المتنزهين ليوم واحد الذين صعدوا إلى طريق جبال المحيط الهادئ من أحد لطرق العديدة التي تتقاطع معه، والتي تؤدي إلى القمم في الأعلى أو البحيرات في الأسفل. لكنني في معظم الأحيان كنت وحدي، وهو أمر ليس بالغريب، لكن البرد جعل الطريق يبدو خالياً أكثر، وخاصة حين تهب الريح على أغصان الأشجار المتتابعة. وبدا الجو أكثر برودة بكثير، حتى إنه أبرد من الوقت الذي كنت فيه في الثلج فوق مدينة سيرا؛ على الرغم من أنني لم أرَ سوى بقع من الثلج هنا وهناك. ثم أدركت أنه حينها كان الطقس في الجبال يتحول إلى الصيف، أما الآن فبعد ستة أسابيع سنصبح في الخريف.

في إحدى الليالي، توقفت للتخييم وخلعت ملابسي المبللة بالعرق، ثم ارتديت كل قطعة أخرى من الملابس التي أحملها، وأعددت العشاء بسرعة، ثم استلقيت في كيس النوم ما إن أنهيت تناول طعامي. فقد كنت أرتجف من شدة البرد؛ لدرجة أنني لم أكن قادرة على القراءة. لذا، استلقيت معتمرة قبعتي، ومرتدية قفازيَّ طوال الليل دون أن أتمكن من النوم. وحين أشرقت الشمس في الصباح، كانت درجة الحرارة 26 فهرنهايت، وخيمتي مغطاة بطبقة رقيقة من الثلج، أما الماء في العبوات فكان متجمداً على الرغم من أنها كانت بجانبي داخل الخيمة. وضّبت خيمتي وانطلقت دون أن أرتشف نقطة ماء واحدة، مكتفية بتناول قطعة بروتين بدلاً من الحبوب الممزوجة ببديل الحليب. وبدأت أفكّر بأمي

التي كان شبحها مخيماً منذ أيام ومسيطراً على ذهني منذ أن كنت في آشلاند. والآن، أخيراً وفي يوم الثلج لم أعد أستطيع تجاهلها.

لقد كان التاريخ 18 أغسطس، أي يوم ميلادها. ولو أنها لا تزال على قيد الحياة لكانت الآن في الخمسين من عمرها.

لم تبق على قيد الحياة... لم تبلغ الخمسين... لن تبلغ الخمسين... كوني في الخمسين يا ماما... كوني في الخمسين.

كنت أقول ذلك لنفسي وأنا أمشي تحت شمس أغسطس المشرقة والباردة وقد سيطر عليّ غضب متزايد. فقد كنت غاضبة من أمي لدرجة لا توصف لأنها ماتت قبل ميلادها الخمسين، وسيطرت علي رغبة شديدة بأن ألكمها في وجهها.

في ذكرى ميلادها السابقة لم أشعر بمثل هذا الحنق، وإنما كنت حزينة فحسب. ففي أول ذكرى ميلاد لها بدونها– أي في اليوم الذي كانت ستبلغ فيه السادسة والأربعين– قمت بنثر رماد جثمانها مع إيدي وكارن وليف وبول في حوض الأزهار الصغير المحاط بالصخور الذي صنعناه لأجلها في أرضنا. وفي ذكرى ميلادها التالية، لم أفعل شيئاً سوى البكاء وأنا جالسة أستمع باهتمام إلى أغاني جودي كولينز وأتذكر كيف كانت أمي تعزف لنا أغانيها حين كنا أطفالاً؛ فكنت أشعر مع الموسيقى وكأن أمي موجودة معي وتقف في الغرفة، لكنها لم تكن كذلك، ولن تكون.

أما الآن على طريق جبال المحيط الهادئ، لم أكن قادرة على سماع عبارة واحدة من الأغنية، إذ قمت بحذف كل أغانيها من الإذاعة التي تعمل في رأسي؛ فهذه ليست ذكرى ميلاد أمي الخمسين، ولن تكون هناك أية أغنية. وهكذا، مررت بالبحيرات المرتفعة، وتجاوزت الصخور البركانية الضخمة، بينما ذاب ثلج الليل على الأزهار البرية التي نمت بينها، ومشيت بسرعة أكثر من قبل وأنا أفكر بأفكار شريرة حول أمي، فوفاتها في الخامسة والأربعين أسوأ ذنب اقترفته. وبينما كنت أمشي، وضعت قائمة بباقي ذنوبها في رأسي:

> مرّت بمرحلة دخنت فيها الحشيش بانتظام، ولم تكن لديها أية مشكلة في القيام بذلك أمامي وأمام أخوَيّ، وفي إحدى المرات قالت لنا: «إنها مجرد عشبة كالشاي».
>
> لم يكن من غير الشائع أن تتركنا وحدنا أنا وأخي وأختي وتقول لنا إن هناك أمهات كثيرات يمكننا الذهاب إليهن في حال حصل خطب ما؛ لكننا كنا بحاجة لأمنا.

خلال تلك الفترة نفسها كانت تهدد كثيراَ بضربنا بملعقة خشبية، وقد قامت بضع مرات بتنفيذ تهديدها.

في إحدى المرات، قالت إنه لا توجد لديها أية مشكلة إن ناديناها باسمها بدلاً من أن نناديها «ماما».

كانت في أحيانٍ كثيرة لطيفة لكنها بعيدة عن أصدقائها. فقد كانت تحبهم، لكنها تبقيهم بعيدين عن حياتها العائلية؛ إذ لم تسمح لأحد بالاقتراب كثيراً لأنها كانت تصدق أن «الدم لا يصبح ماء»، مع أن عائلتي لم يكن لديها أقارب لا يعيشون على بعد مئات الأميال. كانت تحافظ على عزلتها وخصوصيتها. فعلى الرغم من أنها تشارك في مجموعات أصدقائها لكنها تبقي عائلتها بعيدة عنهم، ولهذا لم يزرنا أحد حين ماتت؛ فأصدقاؤها لم يقتربوا مني لأنها لم تسمح لأحد منهم بالاقتراب منا، ولم يقم أحد منهم بحملي حين كنت طفلة. كانت نواياهم طيبة لكنهم لم يدعوني إلى العشاء يوماً أو يتصلوا بي في ذكرى ميلاد أمي ليلقوا عليّ التحية بعد وفاتها.

كانت متفائلة لدرجة مزعجة؛ حيث كانت تردد هاتين العبارتين: «نحن لسنا فقراء لأننا أغنياء بالحب!»، أو «حين يغلق الله باباً يفتح باباً آخر». وقد كان ذلك يزعجني للغاية. حتّى إنها حين كانت تحتضر ظلت متمسكة بتفاؤلها، وعبّرت عن ثقتها أنها لن تموت قريباً طالما أنها تشرب كميات هائلة من عصير عشبة القمح.

حين كنت في السنة الأخيرة في المدرسة الثانوية لم تسألني عن الجامعة التي أريد الانضمام إليها، ولم تأخذني في جولة في إحدى الجامعات. لذا، لم أعلم أن الناس يذهبون في جولات حتى التحقت بالجامعة وأخبرني الآخرون أنهم ذهبوا في جولة. وهكذا، تركتني لأقرر بنفسي، وأرسل طلب الالتحاق إلى جامعة واحدة في سانت بول لسبب وحيد؛ وهو أنها بدت جميلة في المنشور، وأنها لا تبعد سوى ثلاث ساعات بالسيارة عن المنزل. نعم، لقد تقاعستُ في المدرسة الثانوية، ومثلتُ دور

الشقراء الغبية لئلا يتم نبذي لأن عائلتي تقيم في منزل يُستخدم فيه دلو العسل كمرحاض، وموقد الحطب للتدفئة، ولأن زوج أمي شعره طويل ولحيته كثيفة ويقود سيارة مشوهة حوّلها إلى شاحنة بنفسه باستخدام منشار وموقد لحام، في حين كانت أمي لا تحلق تحت إبطيها، وتقول أشياء للسكان المحليين محبي السلاح مثل: «أعتقد أن الصيد جريمة»، لكنها كانت تعلم في سرها أنني كنت ذكية ومتوقدة الفكر وألتهم الكتب طوال النهار. فقد كانت نتائج اختباراتي مرتفعة، مما فاجأ الجميع سواي وسواها. لماذا لم تقل لي: «ينبغي أن تتقدمي بطلب للالتحاق بجامعة هارفارد، ينبغي أن تتقدمي بطلب للالتحاق بجامعة يال»؟ فمجرد فكرة الالتحاق بهارفارد ويال لم تخطر ببالي حينها، إذ بدتا كجامعتين خياليتين، ولم أدرك إلا لاحقاً أن هارفارد ويال جامعتان حقيقيتان؛ حتى لو كانتا في الواقع لن تقبلاني، إذ لم أكن متناسبة مع معاييرهما. لكن شيئاً بداخلي تحطم لأنني لم أقم بالمحاولة حتى.

لكن الأوان قد فات الآن، ولم يعد هناك سوى أمي الميتة والمعزولة وشديدة التفاؤل التي لا تقوم بأي استعدادات للجامعة، والتي تترك أطفالها أحياناً وتدخن الحشيش وتضرب بالملعقة الخشبية وتسمح لنا بمناداتها باسمها... لقد كانت فاشلة... لقد كانت فاشلة... لقد كانت فاشلة.

تباً لها... كنت غاضبة للغاية لدرجة أنني توقفت عن المسير.

ثم بكيت بدون دموع، وإنما بسلسلة من العويل المرتفع الذي سرى بجسدي بقوة فلم أعد قادرة على الوقوف. كان علي أن أنحني وأتكئ بيديّ على ركبتيّ لتبقى حقيبتي الثقيلة على ظهري، وأن أجر عصا التزلج ورائي في الوحل بينما خرجت كل تلك الحياة الغبية التي عشتها من حلقي.

كان ذلك خطأً رهيباً؛ أي أن تتركني أمي. إذ لم أستطع أن أكرهها بما فيه الكفاية. فأنا لم أكبر لأبتعد عنها وأسخر منها مع أصدقائي وأواجهها بالأشياء التي كنت أتمنى لو فعلتها بشكل مختلف، ثم أكبر أكثر وأفهم أنها فعلت أفضل ما يمكنها فعله، وأدرك أن ما فعلته أمر جيد، ثم أصالحها وأعود إلى حضنها، فموتها قضى على كل شيء... قضى علي... قضى على غطرستي الشبابية، وأجبرني على النضوج ومسامحتها على كل أخطائها الأمومية؛ مما أبقاني طفلة للأبد. فحياتي انتهت وابتدأت في ذلك المكان السابق لأوانه حيث افترقنا. كانت أمي،

لكنني بلا أم، فقد كنت محاصرة بها لكنني وحيدة بالكامل، فهي ستبقى الوعاء الفارغ الذي لا يمكن لأحد أن يملأه، وعليّ أنا أن أملأه بنفسي مرة تلو الأخرى.

تباً.

وبدأت أغني «تباً... تباً» وأنا أمشي الأميال القليلة التالية، وقد تسارعت خطواتي بسبب الغضب، لكنني بعد قليل أبطأت وتوقفت للجلوس على صخرة كبيرة، حيث نبتت مجموعة من الأزهار عند قدميّ لتحيط بتلاتها الوردية بالصخور. كانت هذه الأزهار نفسها تنمو في التراب حيث نثرت رماد جثمانها، فمددت يدي ولمست بتلات إحدى الأزهار وشعرت بالغضب ينسحب من جسدي.

حين نهضت وبدأت أمشي مجدداً لم أعد أشعر بالحقد على أمي. فالحق يقال، وهو أنها على الرغم من كل شيء كانت أماً رائعة. فقد عرفت ذلك وأنا صغيرة، وعرفت ذلك حين كانت تحتضر، وأعرف ذلك الآن، وأعرف أن هذا يعني شيئاً بل يعني الكثير؛ فلدي الكثير من الأصدقاء الذين لديهم أمهات مهما بلغن من العمر لن يمنحن أبناءهن كل ذلك الحب الذي منحتني إياه أمي. فقد كانت أمي تعتبر ذلك الحب من أعظم إنجازاتها، كانت تعتبر ذلك رصيدها حين كانت تحتضر وماتت، وهو الأمر الذي جعلها مطمئنة وهي ترحل وتتركني أنا وكارن وليف.

كانت تردد مراراً وتكراراً في آخر أيامها:

- لقد أعطيتكم كل شيء.

وقد كنت أوافقها وأقول:

- نعم.

وقد كانت محقة، فقد أعطتنا كل شيء، ولم تمنع عنا شيئاً؛ ولا حتى نقطة واحدة من حبها.

كانت تقول:

- سأبقى معكم دائماً مهما حصل.

- نعم.

وحين مرضت وعرفنا أنها ستموت وكنا بوضع لا يوصف ولم نعد نظن أن أي مقدار من عصير عشبة القمح سينقذها سألتها عما تريد منا فعله بجثمانها– ندفنه أو نحرقه– نظرت إلي وكأنني أتحدث باللغة الألمانية، ثم قالت بعد برهة:

- تبرعوا بكل ما يمكن التبرع به... أقصد أعضائي... اسمحوا لهم بأخذ كل عضو يمكنهم الاستفادة منه.

بدا لي من الغريب التفكير ومعرفة أننا لا نضع خططاً بعيدة، وتخيل أعضاء من جسد أمي في أجسام أشخاص آخرين، فقلت:

- ثم ماذا؟ ماذا تحبين أن تفعلي بـ... بما... يتبقي؟ أتريدين دفنه أم حرقه؟

- لا يهمني.

- بل يهمك.

- لا يهمني... افعلوا ما ترونه مناسباً... افعلوا ما يكلفكم أقل.

- لا... عليك أن تخبريني... أريد أن أعرف ما تريدين منا فعله.

ففكرة أنني من سيقرر ذلك ملأتني ذعراً.

- أوه شيريل... أحرقوني... حوّلوني إلى رماد.

وهذا ما فعلناه. لكن الرماد لم يكن كما توقعت، إذ لم يكن كرماد الخشب المحترق الناعم والدقيق كالرمل، وإنما كان كالحصى شاحب اللون وفيه قطع كبيرة يمكن رؤية أنها كانت في ما مضى عظاماً. وقد كان الصندوق الذي ناولني إياه الرجل في مركز الجنائز موجهاً إلى أمي، فأخذته إلى البيت، ووضعته في الخزانة حيث كانت تحتفظ بأفضل أغراضها. كان ذلك في شهر يونيو، وأبقيناه حتى 18 أغسطس، وكذلك حجر القبر الذي صنعناه لها والذي وصل في الأسبوع نفسه الذي استلمنا فيه الرماد، حيث أبقيناه في زاوية غرفة الجلوس ليبقى منظره مزعجاً للزوار لكنه مريح لي. كان الحجر رمادياً ومكتوباً عليه باللون الأبيض اسمها وتاريخ ولادتها وتاريخ وفاتها والعبارة التي كانت تقولها مرة تلو الأخرى حين مرضت وقبل أن تموت: «أنا معكم دائماً».

كانت تريدنا أن نتذكر ذلك، وقد كنت أشعر أنها معي دائماً؛ على الأقل مجازياً وأحياناً حرفياً. وحين وضعنا حجر القبر ونثرنا الرماد في التراب، لم أنثره كله، وإنما احتفظت ببعض القطع الكبيرة في يدي، حيث وقفت لفترة طويلة غير مستعدة لرميها على التراب. ولم أنثرها ولن أنثرها أبداً.

وضعت عظامها المحترقة في فمي وبلعتها.

في ليلة ذكرى ميلاد أمي الخمسين أحببتها مجدداً، لكنني لم أستطع تحمّل أغاني جودي كولنز. وكان الجو بارداً لكنه ليس ببرودة الليلة الماضية. لذا،

جلست في خيمتي مرتدية قفازيّ، وقرأت الصفحات الجديدة من كتابي الجديد «أفضل مقالات أمريكية 1991». كنت في العادة أنتظر حتى الصباح لأحرق الصفحات التي قرأتها في الليلة السابقة، لكنني في تلك الليلة حين انتهيت من القراءة زحفت إلى خارج خيمتي وأضرمت ناراً بالصفحات التي قرأتها، وبينما كنت أشاهدها وهي تلتهب، ردّدت اسم أمي بصوت مرتفع، كما لو كان ما أقوم به مراسم خاصة بها. كان اسمها باربارة لكن الجميع كانوا ينادونها بوبي، ولذلك رددت أنا اسم بوبي. فحين قلت بوبي بدلاً من ماما شعرت وكأنها أول مرة أفهم فيها بحق أنها كانت أمي وأكثر من ذلك، وحين توفيت فقدت ذلك أيضاً... فقدت بوبي... المرأة المنفصلة عن نفسها بالنسبة لي. وقد جاءت إليّ الآن بالقوة الكاملة لإنسانيتها؛ كما لو أن حياتها كانت لوحة رخامية عليها رسوم معقدة، ويمكنني الآن رؤية كل شيء فيها... من كانت بالنسبة لي، ومن لم تكن، وكيف كانت مرتبطة بي بعمق، وكيف لم تكن.

لم تتحقق أمنية بوبي الأخيرة بأن يتم استخدام أعضائها لمساعدة الآخرين، أو على الأقل ليس كما كانت تأمل. فحين توفيت، كان السرطان قد انتشر في جسدها وأضناه المورفين، ليصبح جسدها البالغ من العمر خمسة وأربعين عاماً مليئاً بالسموم. لذا، لم يستطيعوا في النهاية سوى أن يستخدموا قرنيتَي العينين. كنت أعلم أن ذلك الجزء من العين مجرد غشاء شفاف، لكنني حين فكرت بما قدمته أمي لم أفكر به بتلك الطريقة، وإنما فكرت بعينيها الزرقاوين الرائعتين على وجه شخص آخر. وبعد بضعة أشهر من وفاة أمي، تلقينا رسالة شكر من المؤسسة التي سهلت عملية التبرع، وذكرت الرسالة أنه بسبب سخائها أصبح بإمكان شخص آخر الرؤية. وقد قتلتني الرغبة بلقاء ذلك الشخص والنظر في عينيه، فاتصلت بالرقم الموجود على الرسالة لأستفسر، لكنهم رفضوا طلبي على الفور؛ فخصوصية المريض مهمة للغاية بالنسبة لهم، وهي من حقوقه.

كان صوت المرأة التي كلمتني عبر الهاتف مطمئناً. وذكرتني نبرتها بالمتطوعين في المشفى، والممرضين والأطباء، وموظفي دفن الموتى الذين كانوا يتكلمون معي في الأسابيع الأخيرة حين كانت أمي تحتضر، وفي الأيام التي تلت وفاتها. فقد كان صوتها متعاطفاً وهي تقول:

- سأشرح لك طبيعة تبرع أمك. إذ لم تتم زراعة عينها كلها؛ وإنما فقط القرنية، وهي...

- أعرف ما هي القرنية، لكنني أرغب بمعرفة ذلك الشخص ورؤيته إن كان ذلك ممكناً. أظن أنكم مدينون لي بذلك.

أنهيت الاتصال وقد سيطر علي حزن شديد، لكنني كنت في أعماقي أعلم أن المرأة محقة. فأمي ليست هناك، وعيناها الزرقاوان قد رحلتا ولن أتمكن من النظر إليهما مجدداً.

حين خمدت ألسنة اللهب التي أشعلتها في الصفحات ووقفت لأعود إلى خيمتي، سمعت صوت نباح وعواء محموماً من جهة الشرق... إنها مجموعة من الذئاب. كنت قد سمعت ذلك الصوت شمال مينيسوتا مرات عدة، فلم يخفني وإنما ذكّرني ببيتي. نظرت إلى السماء ووجدت النجوم المتلألئة في الظلام ثم ارتعشت، فقد كنت أعرف أنني محظوظة لكوني هنا وشعرت أن المنظر جميل للغاية ولا يمكنني تركه ودخول خيمتي... أين سأكون بعد شهر؟ بدا من المستحيل أن لا أكون على الطريق؛ لكن هذا ما سيحصل. فعلى الغالب، سأكون في بورتلاند. لا لسبب سوى أنني مفلسة بالكامل. فمع أنه لا يزال معي بعض المال من آشلاند، لكنني سأنفقه كله حين أصل إلى الجسر.

في صباح يوم السبت وصلت إلى منتزه بحيرة كراتر. لكن البحيرة لم تكن ضمن مجال الرؤية، فقد مررت بدلاً منها بالمخيم على بعد سبعة أميال جنوب طرف البحيرة، ولم يكن المخيم مجرد مخيم، وإنما كان مجمعاً سياحياً جنونياً يشمل مرأباً ومتجراً ونزلاً ومساحة لآلات غسل الملابس التي تعمل بالقطع المعدنية، وحوالي ثلاثمائة شخص يشغلون محركات سياراتهم، فيما تصدح الأصوات المرتفعة من أجهزة المذياع، ويرتشفون المشروبات بصوت عالٍ، ويتناولون طعامهم من أكياس كبيرة من رقائق البطاطا التي اشتروها من المتجر. وقد أذهلني المنظر. ولولا أنني كنت أعلم بالأمر من قبل لما صدّقت أنه بإمكاني المشي لربع ميل في أي اتجاه للوصول إلى عالم مختلف تماماً. خيّمت هناك خلال الليل، واستمتعت بالاستحمام في الحمام. وفي اليوم التالي، شققت طريقي نحو بحيرة كراتر.

كانت المعلومات المذكورة في الكتيب الإرشادي صحيحة. فأول مرة رأيت فيها البحيرة كانت من زاوية خيالية، حيث كان سطح الماء أدنى بما يقارب 900 قدم من مكان وقوفي على الحافة الصخرية التي يبلغ ارتفاعها 7100 قدم، في حين امتدت الدائرة المثلمة للبحيرة تحتي بلون أزرق بحري نقي لم أرَ مثيلاً له من قبل، وبلغ عرضها حوالي ستة أميال لا تقطعها سوى قمة بركان صغير أو جزيرة ويزارد التي ترتفع 700 قدم فوق سطح الماء، وتشكل جزيرة مخروطية تنمو فوقها أشجار الصنوبر.

قالت امرأة غريبة تقف بجواري مجيبة عن السؤال الذي كدت أطرحه مذهولة:

- لأن البحيرة نقية وعميقة فإنها تمتص كل الألوان باستثناء اللون الأزرق، فهي تعكسه لنا.

- شكراً.

كان ذلك تفسيراً علمياً، لكنّ هناك أيضاً شيئاً لا يمكن تفسيره. فقبيلة كلاماث لا تزال تعتبر بحيرة كراتر موقعاً مبجلاً، ويمكنني رؤية السبب. كنت موقنة بذلك دون أدنى شك، ولا يهم أن السياح محيطون بي ويلتقطون الصور ويقودون سياراتهم؛ إذ كنت أشعر بقوة البحيرة التي بدت كصدمة وسط هذه الأرض العظيمة التي لا يمكن انتهاك حرمتها، والمنفصلة والوحيدة كما لو كانت هنا دائماً وستبقى إلى الأبد لتمتص كل الألوان باستثناء الأزرق.

التقطت بعض الصور، ومشيت على طرف البحيرة بالقرب من تجمع صغير من الأبنية التي تم بناؤها لتستوعب السياح، ولم يكن أمامي خيار سوى أن أمضي اليوم في هذا المكان لأنه كان يوم أحد، ومكتب البريد مغلق، ولا يمكنني الحصول على صندوقي حتى الغد. كان الجو مشمساً ودافئاً مجدداً. وبينما كنت أمشي، فكرت أنني لو أكملت حملي الذي علمت به في غرفة النزل عند شلالات سيوكس في الليلة التي سبقت قراري التنزه على طريق جبال المحيط الهادئ لكنت سألد طفلاً في هذا الوقت تقريباً. فأسبوع ذكرى ميلاد أمي سيكون موعد ولادتي، وقد جاء تطابق هذين التاريخين كلكمة على وجهي. لكن ذلك لم يدفعني لتغيير قراري بإنهاء حملي، وإنما جعلني أتمنى أن أمنح فرصة أخرى، وأن أتمكن من تحقيق ما أريده قبل أن أصبح أماً... امرأة حياتها مختلفة بالكامل عن حياة أمها.

فبقدر ما كنت أحب أمي ومعجبة بها إلّا أنني أمضيت طفولتي وأنا أخطط كي لا أصبح مثلها. فقد كنت أعرف سبب زواجها بأبي في سن التاسعة عشرة؛ إذ كانت حاملاً وواقعة في الحب. كانت تلك واحدة من القصص التي كنت أجعلها ترويها لي. فقد كنت أسأل وأسأل، فتهز لي برأسها وتقول: «لماذا تريدين أن تعرفي؟». وقد سألت كثيراً حتى استسلمت في النهاية وأخبرتني أنها حين علمت بحملها كان أمامها خياران... إجهاض غير شرعي في دينفر، أو الاختباء في مدينة بعيدة خلال حملها ثم إعطاء أختي لأمها التي تبرعت بتربية الطفلة على أنها طفلتها. لكنّ أمي لم تتخذ أياً من هذين الخيارين، فقد قررت تربية طفلتها بنفسها، فتزوجت من أبي لتصبح أم كارن ثم أمي وأم ليف.

أمنا.

وبعد أن علمت أنها ستموت، قالت لي مرة وهي تبكي:

- لم أتولّ قط قيادة حياتي، وإنما كنت أقوم بما يريد مني الآخرون القيام به، فكنت ابنة أو أماً أو زوجة أحد ما، ولم أكن نفسي قط.

فقلت لها وأنا أربت على يدها:

- أوه يا ماما.

كنت صغيرة للغاية ولا أعرف ما يجدر بي قوله.

عند الظهيرة، توجهت إلى المقهى في أحد الأبنية القريبة، وتناولت طعام الغداء، ثم مشيت عبر المرأب نحو نزل بحيرة كراتر، وقطعت الردهة الأنيقة البسيطة وقد وضعت الوحش على ظهري، وتوقفت لأنظر إلى غرفة الطعام حيث توجد مجموعة من الناس الجالسين إلى الطاولات، ومجموعات تحمل كؤوس الشراب. خرجت إلى الشرفة الطويلة المطلة على البحيرة، ومررت بصف من الكراسي الهزازة الفخمة حتى وجدت واحداً يهتز لوحده.

جلست عليه لباقي الأمسية وأنا أحدق بالبحيرة. كانت لا تزال أمامي 334 ميلاً لأتنزه فيها قبل أن أصل إلى الجسر. لكن شيئاً ما جعلني أشعر أنني وصلت؛ وكأن الماء الأزرق يخبرني شيئاً قد قطعت كل تلك المسافة لأعرفه.

ذكّرت نفسي أن هذه البحيرة كانت في ما مضى مازاما... كانت في ما مضى جبلاً يبلغ ارتفاعه 12000 قدم... كانت في ما مضى أرضاً يباباً من الحمم البركانية والرماد... كانت في ما مضى وعاء فارغاً استغرق مئات السنين حتى امتلأ. لكن، مهما حاولت لم أستطع تخيل ذلك في ذهني... لا الجبل ولا الأرض اليباب ولا الوعاء الفارغ، فهي لم تعد هناك، وإنما بقي الهدوء وصمت الماء وما تحول إليه الجبل والأرض واليباب والوعاء الفارغ.

17

إلى جهاز بدائي

كانت أوريغون كلعبة الحجلة في ذهني؛ إذ تجاوزتها ودرت حولها وقفزت فوقها في خيالي طوال الطريق من بحيرة كراتر إلى الجسر، وكانت أمامي خمسة وثمانون ميلاً حتى الصندوق التالي في مكان يدعى منتجع شيلتر كوف، ثم مائة وثلاثة وأربعون ميلاً إلى الصندوق الأخير عند بحيرة أولالي، ثم سأتجه إلى نهر كولومبيا: 106 أميال إلى بلدة كاسكيد لوكس لأتوقف وأحتسي شراباً احتفالياً في نزل تيمبرلين في جبل هود في منتصف تلك المسافة النهائية.

لكن ذلك يعني أن أمامي 334 ميلاً لأمشيها.

وسرعان ما فهمت أن الجيد في الأمر هو أنه مهما حصل في تلك الأميال فسيكون هناك توت طازج بجميع أنواعه طوال الطريق. فكنت أقلب الشجيرات بيديّ وأنا أمشي، وأحياناً كنت أتوقف لأملأ قبعتي وأنا أشق طريقي ببطء عبر جبل ثيلسن ودياموند بيك وايلدرنس.

كان الجو بارداً وحاراً، وقد تشكلت طبقة جديدة فوق البقع على ردفيّ، كما توقّفت قدماي عن النزيف والتقرح، لكنهما ظلتا تؤلمانني ألماً شديداً. مشيت بضعة أيام ببطء، إذ كنت أقطع سبعة أميال أو ثمانية فقط كمحاولة لتخفيف الألم، لكن ذلك لم يأتِ بنتيجة؛ فالألم شديد. وكنت أحياناً أشعر أن قدمَيّ مكسورتان؛ وكأنهما محاطتان بجبيرة وليس بحذاء، أو كأنني فعلت لهما شيئاً مؤذياً ولا يمكن تصحيحه بحمل كل ذلك الوزن لأميال على الأراضي الوعرة. ومع ذلك، كنت أقوى من السابق. فرغم حقيبتي الضخمة التي كنت أحملها، كنت قادرة على قطع مسافات كبيرة، لكنني في نهاية اليوم كنت أشعر بالإرهاق.

لقد أصبح طريق جبال المحيط الهادئ أسهل بالنسبة لي، لكن ذلك كان مختلفاً عن أن يصبح سهلاً.

شهدت صباحات رائعة، وفترات جميلة بعد الظهيرة، حيث كنت أقطع عشرات الأميال دون أن أشعر بشيء. وقد كنت أحب حين أضيع على إيقاع خطواتي، وطرق عصا التزلج على الطريق، والصمت، والأغنيات والعبارات في رأسي. كنت أحب الجبال والصخور والغزلان والأرانب التي تنطلق إلى

الأشجار، والخنافس والضفادع التي تعبر الطريق. لكن وفي كل يوم، كانت تمرّ لحظات لا أحب فيها شيئاً ما؛ حين يصبح الأمر رتيباً وشاقاً، ويتحول ذهني إلى جهاز بدائي فارغ من أي شيء سوى التقدم للأمام، والمشي حتى يصبح المشي غير محتمل، وحين أتيقن من أنه لم يعد بمقدوري أن أمشي خطوة أخرى، فأتوقف وأخيم وأقوم بجميع المهمات التي يتطلبها التخييم بأسرع ما يمكنني، حتى أصل إلى اللحظة الرائعة التي يمكنني فيها الاستراحة في خيمتي.

هذا ما شعرت به حين جررت نفسي إلى منتجع شيلتر كوف. إذ كنت مرهقة، وضجرة من الطريق، وخاوية من كل شيء سوى الامتنان لوصولي إلى هناك. وقد كان منتجع شيلتر كوف عبارة عن متجر محاط بمجموعة من المقصورات على مرج أخضر واسع يقع على شاطئ بحيرة كبيرة تدعى أوديل، تحيط بها الغابات الخضراء. خطوت نحو شرفة المتجر ثم دخلته، فوجدت صفوفاً قصيرة من الوجبات الخفيفة وطعم الصيد وبراد بداخله مشروبات، فأخذت زجاجة من عصير الليمون، وكيساً من رقائق البطاطا، وتوجهت نحو موظف الحساب.

سألني الموظف:

- هل أنت متنزهة على طريق جبال المحيط الهادئ؟

وحين هززت رأسي بالإيجاب أشار إلى نافذة في مؤخر المتجر وقال:

- مكتب البريد مغلق حتى صباح الغد، لكن يمكنك التخييم مجاناً في مكان قريب، وهناك حمام يكلفك استعماله بعض الفكة.

لم أكن أملك سوى عشرة دولارات، فنقاط التوقف في آشلاند ومنتزه بحيرة كراتر كلفت أكثر مما كنت أتخيل، لكنني كنت أعلم أنني سأحصل على عشرين دولاراً من الصندوق الذي سأستلمه في الصباح التالي. لذا، حين ناولت الرجل النقود لأدفع ثمن الشراب ورقائق البطاطا طلبت منه بعض الفكة لأجل الحمام.

في الخارج، فتحت زجاجة عصير الليمون وكيس البطاطا وتناولتهما وأنا أشق طريقي نحو الحمام الخشبي الصغير الذي أشار إليه الرجل. وحين دخلت، سعدت لأنه مخصص لشخص واحد، فأقفلت الباب ورائي ليصبح المكان ملكي، ولو كانوا يسمحون لي لنمت في الداخل. خلعت ملابسي ونظرت إلى نفسي في المرآة المكسورة، فوجدت أن قدميّ ليستا

المتضررتين الوحيدتين من رحلتي على الطريق، وإنما أيضاً أصبح شعري خشناً وكثيفاً وأشعث بسبب طبقات التراب والعرق الجاف.

وضعت العملة المعدنية في صندوق العملة الصغير ودخلت الدش واستمتعت بالماء الساخن وأنا أفرك نفسي بقطعة صابون تركها أحدهم حتى ذابت بالكامل في يدي. وبعد ذلك، جففت جسدي بالمنديل نفسه الذي أستخدمه لغسل قدر الطهو والملعقة وارتديت ملابسي القذرة مجدداً، ثم حملت الوحش وعدت إلى المتجر وأنا أشعر بالتحسن أكثر بألف مرة. كانت هناك شرفة في الأمام فيها مقعد طويل، فجلست عليه، ونظرت إلى بحيرة أوديل وأنا أمشط شعري المبلل بأصابعي، وأفكر بأنني سأذهب إلى بحيرة أولالي ثم إلى نزل تيمبرلين وبعدها كاسكيد لوكس.

سألني رجل خرج من المتجر:

- هل أنت شيريل؟

وخلال لحظة خرج وراءه رجلان آخران. عرفت على الفور من ملابسهم الملطخة بالعرق أنهم متنزهون على طريق جبال المحيط الهادئ؛ على الرغم من أنهم لا يحملون حقائبهم. كانوا شباناً وسيمين، لديهم لحى وبشرة قذرة ومسمرة وعضلات مفتولة. وكان أحدهم طويلاً، والآخر أشقر، أما الثالث فعيناه حادتان.

شعرت بسعادة بالغة لأنني استحممت.

قلت:

- نعم.

قال الأشقر بابتسامة عريضة على وجهه النحيل:

- لقد كنا نتبعك منذ مسافة طويلة.

ثم قال ذو العينين الحادتين:

- كنا نعلم أننا سنلحق بك اليوم، فقد رأينا آثار قدميك على الطريق.

وأضاف الطويل:

- لقد كنا نقرأ ملاحظاتك في سجل الطريق.

قال الأشقر:

- كنا نحاول معرفة كم عمرك.

سألتهم مبتسمة كحمقاء:

- كم كنتم تظنون أنني أبلغ من العمر؟

قال ذو العينين الحادتين:

- ظننا أنك إما في مثل عمرنا أو في الخمسين من العمر.

- آمل أن ظنكم لم يخب.

كانوا ريك وجوش وريتشي، وثلاثتهم أصغر مني بثلاث سنوات أو أربع، وهم من بورتلاند ويوجين ونيو أورلينز بالتتابع، وقد درسوا جميعاً في الجامعة معاً؛ في مدرسة للفنون الحرة في مينيسوتا على بعد ساعة من المدينتين التوأم.

فقلت لهما:

- أنا من مينيسوتا أيضاً.

لكنهم كانوا يعرفون ذلك من ملاحظاتي في سجل الطريق.

سألني أحدهم:

- أليس لديك اسم على الطريق؟

- لم أعلم بذلك.

كان لديهم اسم على الطريق وهو «الذكور الشباب الثلاثة»، وقد قطعوا الطريق بكامله من حدود المكسيك ولم يتركوا الطريق عند الثلج كما فعل الجميع، وإنما مشوا فوقه بغض النظر عن الثلوج المتراكمة، وبسبب ذلك التقوني، ولكنهم لم يلتقوا توم ودوغ وغريغ ومات وألبرت وبرينت وستاسي وترينا وريكس وسام وهيلين وجورج وسارة، كما لم يتوقفوا في آشلاند، ولم يرقصوا في النادي، ولم يمضغوا الأفيون، ولم يقصدوا الشاطئ، وإنما كانوا يشقون طريقهم ويتنزهون لأكثر من عشرين ميلاً في اليوم، وتابعوني منذ اللحظة التي تجاوزت فيها مدينة سيرا، ولم يكونوا مجرد ثلاثة ذكور شبان، وإنما ثلاث آلات تنزه شابة وغير عادية.

وقد بدت صحبتهم كالذهاب في إجازة.

مشينا نحو المخيم الذي خصصه لنا المتجر؛ حيث كان الذكور الشباب الثلاثة قد ألقوا حقائبهم، وطهونا طعام العشاء، وروينا القصص حول أمور حصلت معنا على الطريق وبعيداً عنه. وقد أحببتهم كثيراً؛ إذ كانوا لطفاء ومرحين، وجعلوني أنسى كم كنت أشعر بالأسى قبل ساعة. واحتفالاً بهم، حضّرت حلوى توت العليق المجفف الذي حملته لمسافة طويلة، حيث خبأته لمناسبة خاصة. وحين انتهيت، تناولناه بملاعقنا الأربع من قدري، ثم نمنا في صف واحد تحت النجوم.

في الصباح، أحضرنا صناديقنا وأخذناها إلى المخيم لنعيد تنظيم حقائبنا قبل المضي قدماً. فتحت صندوقي، وبدأت أبحث بين أكياس الطعام المغلقة عن المغلف الذي يحوي العشرين دولاراً، لكنني هذه المرة لم أستطع العثور عليه. لذا، أخرجت كل شيء، ومررت أصابعي على الطيات داخل الصندوق باحثة عنه، لكنه لم يكن موجوداً. لا أدري ما السبب، لكنه لم يكن هناك، ولم أعد أملك سوى ستة دولارات واثني عشر سنتاً.

- تباً.

سألني أحد الذكور الشباب الثلاثة:

- ماذا هناك؟

- لا شيء.

كان من المحرج بالنسبة لي أنني كنت مفلسة على الدوام، وأنه لا يوجد أحد يقف خلفي في الخفاء مع بطاقة ائتمان أو حساب مصرفي.

عبأت الطعام في كيس أزرق قديم وأنا أشعر بالانزعاج لأنه يتوجب عليّ التنزه 143 ميلاً للوصول إلى الصندوق التالي، وليس في جيبي سوى ستة دولارات واثني عشر سنتاً فقط. لكن على الأقل، لن أحتاج للنقود حيث سأذهب. كنت متجهة عبر قلب أوريغون وعبر الأخوات الثلاث وجبل واشنطن وجبل شيفرسون، ولن يكون هناك مكان لأنفق فيه الدولارات الستة التي أملكها والاثني عشر سنتاً... صحيح؟

مشيت ساعة مع الذكور الشباب الثلاثة، وتوقّفنا أحياناً للراحة، وقد فاجأني ما يأكلونه وكيفية أكلهم؛ إذ كانوا «كالهمج»، حيث يضع الواحد منهم ثلاث قطع سنيكرز كاملة في فمه في الاستراحة البالغة مدتها خمس عشرة

دقيقة؛ على الرغم من كونهم في غاية النحول، لدرجة أن أضلاع أقفاصهم الصدرية كانت واضحة حين خلعوا قمصانهم. وعلى الرغم من أنني فقدت بعض الوزن، ولكن ليس بقدر هؤلاء الرجال. وأنا أيضاً لم أكن أكترث إن سمنت أو نحلت، فجل ما كان يهمني هو الحصول على المزيد من الطعام؛ إذ أصبحت «كالهمج» أيضاً، وأصبح جوعي ضارياً، لدرجة أنني في حال وجدت إحدى شخصيات الكتاب الذي أقرأه تأكل أقوم بتجاوز ذلك المقطع لتفادي الألم الناجم عن قراءة شيء أريده ولا يمكنني الحصول عليه.

ودّعت الذكور الشباب الثلاثة في ذلك المساء؛ إذ كانوا سيتقدمون بضعة أميال في حين كنت أريد التخييم. أما هم فكانوا متحمسين للوصول إلى معبر سانتيام، حيث سيتركون الطريق لبضعة أيام لزيارة الأصدقاء والعائلة. وبينما هم يستمتعون بحياتهم ويستحمون في حمامات أنيقة وينامون على أسرة حقيقية ويتناولون الطعام الذي لا أريد تخيله سأسبقهم مجدداً، وسيتبعوا آثاري من جديد.

- الحقوا بي إن استطعتم.

كنت آمل أن يفعلوا، وأحزنني افتراقي عنهم بهذه السرعة. خيّمت وحدي بالقرب من بركة في ذلك المساء، وجلست أفكر في القصص التي رووها لي وأنا أدلك قدميّ بعد العشاء، فسقط ظفر قدم أسود آخر، ورميته علىالعشب.

الآن تعادلت مع طريق جبال المحيط الهادئ، إذ أصبحت النتيجة 5–5.

جلست في خيمتي وقد رفعت قدميّ على كيس الطعام، وقرأت الكتاب الذي حصلت عليه من الصندوق حتى لم أعد أقوى على فتح عينيّ مجدداً. أطفأت المصباح الرأسي، واستلقيت في الظلام، وحين بدأت أغفو سمعت صوت بومة على الشجرة التي فوقي مباشرة. كانت تنعب بصوت قوي ولطيف أيقظني:

- ووووو.

فناديتها:

- ووووو.

ثم حاولت مجدداً:

- ووووو.

فردت علي:

- ووووو.

مشيت إلى براري الأخوات الثلاث التي تمت تسميتها هكذا على اسم الجبال الإخوة الجنوبي والشمالي والأوسط المحيطة بها، وقد كانت كل واحدة من القمم الإخوة الثلاثة ترتفع لأكثر من 10000 قدم، وهي ثالث ورابع وخامس أعلى قمم في أوريغون، كما كانت أبرز الجبال بين تجمع من القمم البركانية التي سأمر بها خلال الأسبوع المقبل. لكنني لم أستطع رؤيتها وأنا أقترب من جهة الجنوب على طريق جبال المحيط الهادئ بينما كنت أغني وأردد القصائد في رأسي وأنا أجتاز غابة طويلة من شجر التنوب والصنوبر وأعبر البحيرات والبرك.

وبعد بضعة أيام من توديعي للذكور الشباب الثلاثة قمت بجولة بعيداً عن الطريق إلى منتجع إيلك ليك، وهو مكان مذكور في الكتيب الإرشادي، ويحتوي على متجر صغير إلى جانب البحيرة يلبي احتياجات صيادي السمك، كما يحتوي على مقهى يقدم سندويش البرغر. لم أكن أنوي القيام بالجولة، لكن حين وصلت إلى تقاطع الطريق مع طريق جبال المحيط الهادئ انتصر جوعي الضاري، ووصلت إلى هناك قبل الحادية عشرة صباحاً لأجد أنني الشخص الوحيد في المكان إلى جانب الرجل الذي يعمل هناك. تفحصت قائمة الطعام وقمت بعمليات حسابية، ثم طلبت سندويش برغر بالجبن وبطاطا مقلية مع علبة كولا صغيرة، ثم جلست وتناولتها منتشية. وبما أن فاتورتي بلغت ستة دولارات وعشرة سنتات لم أستطع لأول مرة في حياتي أن أدفع بقشيشاً؛ إذ إن دفع السنتين المتبقيين معي سيبدو إهانة. لذا، أخرجت مستطيلاً صغيراً من الطوابع أحمله في حقيبتي التي تحوي رخصة القيادة ووضعته بالقرب من طبقي وقلت:

- آسفة، لكنني لا أحمل مالاً إضافياً، لذا تركت لك شيئاً آخر.

هز الرجل رأسه وتمتم بكلمات لم أفهمها.

مشيت نحو الشاطئ الصغير الفارغ لبحيرة إيلك حاملة السنتين المتبقيين بيدي، وأنا أفكر إن كان علي أن أرميهما في الماء وأتمنى أمنية، لكنني عدلت عن رأيي وأعدتهما إلى جيب سروالي القصير تحسباً لأن أحتاج إليهما بين هذه النقطة ومحطة حراسة غابات بحيرة أولالي التي تبعد حوالي مائة ميل. وقد بدا إفلاسي سوى من هذين السنتين مروعاً ومضحكاً في الوقت ذاته. وبينما كنت واقفة هناك أحدق ببحيرة إيلك، خطر ببالي أن نشأتي في

محيط فقير قد أفادتني؛ إذ ما كنت لأتشجع بالشكل الكافي للذهاب في رحلة كهذه بهذا المبلغ الضئيل من المال لو لم أترعرع بدون نقود. فلطالما كنت أفكر بوضع عائلتي الاقتصادي من ناحية ما لم أحصل عليه، كالتخييم والدروس والسفر والرسوم الجامعية، وسهولة الحياة حين تحمل بطاقة ائتمان يمولها شخص آخر. لكنني الآن أستطيع رؤية الفرق بين هذا وبين طفولتي؛ حين كنت أرى أمي وزوج أمي يشقان طريقهما في الحياة وليس في جيوبهما سوى سنتين، وبين شعوري العام وهو أنه بإمكاني القيام بذلك أيضاً. فقبل أن أغادر، لم أستطع حساب كلفة رحلتي، ولم أدّخر ذلك المبلغ بالإضافة إلى ما يكفي للمصاريف غير المتوقعة. ولو أنني فعلت ذلك لما وصلت بعد ثمانين يوماً ويزيد إلى هنا على طريق جبال المحيط الهادئ وأنا مفلسة، لكنني بخير، وأقوم بما أردت القيام به على الرغم من أن أي امرئ عقلاني كان سيقول إنه لا يمكنني القيام بذلك.

أكملت المسير، وصعدت إلى نقطة على ارتفاع 6500 قدم يمكنني منها رؤية القمم باتجاه الشمال والشرق. وبما أنني وصلت الآن بين الأخوات الثلاث لم يعد الطريق لي بعد الآن. فعلى المروج الصخرية المرتفعة مررت بالمتنزهين والرحالة وفرق الكشافة الخارجين في رحلة لليلة واحدة، وحين توقفت للحديث مع بعضهم سألوني: «أمعك مسدس؟ هل أنت خائفة؟». فكنت أجيبهم ضاحكة: «لا... لا». والتقيت رجلين في مثل عمري كانا يخدمان في العراق خلال عاصفة الصحراء، ولا يزال كلاهما في الجيش حتى الآن. فمشينا معاً، ثم أخذنا قسطاً من الراحة بعد الظهيرة بالقرب من جدول وضعا فيه علبتَي شراب لتبردا. كانت تلك ليلتهما الأخيرة في رحلة استمرت لخمسة أيام حملا فيها هاتين العلبتين طوال الوقت حتى يشرباهما في آخر ليلة لهما في الرحلة.

كانا يريدان معرفة كل شيء عن رحلتي، وكيف بدا المشي كل تلك الأيام، والأشياء التي رأيتها، والأشخاص الذين التقيتهم، وما حصل لقدميّ، كما أصرا على حمل حقيبة ظهري، وذُهلا حين وجداها أثقل من أي من حقيبتيهما. وحين قررا إكمال رحلتهما ودعتهما وأنا مسترخية في الشمس على ضفةالجدول.

حين كادا يغيبان عن نظري، التفت أحدهما وقال:

- يا شيريل! لقد تركنا إحدى علبتي الشراب لك في الجدول. لقد فعلنا ذلك لئلا تعترضي، فنحن نريدك أن تتناوليها لأنك أقوى منا.

ضحكت وشكرتهما، ثم توجهت إلى الجدول لإحضارها وأنا أشعر بالإطراء. في تلك الليلة، تناولت الشراب بالقرب من شلالات أوبسيديان التي اكتسبت اسمها من كسرات الزجاج الأسود التي تغطي الطريق مما يؤدي إلى صدور صوت طقطقة تحت قدميك في كل خطوة؛ كما لو كنت أمشي على طبقات فوق طبقات من الأطباق الخزفية المكسورة.

في اليوم التالي، شعرت بالذهول وأنا أمشي فوق معبر ماكينزي باتجاه جبل واشنطن، ثم أصبح الطريق صخرياً أكثر وأنا أمر بالصخور البازلتية لبيلكناب كراتر وليتل بيلكناب التي كانت مليئة بكسرات الصخور المتلألئة والجميلة في المروج الربيعية الخضراء. وبينما كنت أمشي في طريق يمتد لخمسة أميال مليء بالصخور البركانية السوداء التي يتراوح حجمها ما بين كرة البيسبول وكرة القدم التوى كاحلاي وركبتاي عدة مرات. وكان المحيط مهجوراً، والشمس تحرقني بشدة وأنا أشق طريقي باتجاه جبل واشنطن. وحين وصلت إلى الجانب الآخر من كراتر، مشيت بامتنان بين الأشجار، ثم أدركت أن حشود الناس قد تلاشوا وأصبحت وحدي مجدداً؛ إذ لم يعد هناك سواي أنا والطريق.

في اليوم التالي، مررت بمعبر سانتيام وعبرته إلى جبل جيفرسون الذي اكتسب اسمه من القمة الداكنة والمهيبة شمالاً، ثم مررت بجبل ثري فينغرد جاك ذي القمم المتعددة الذي يرتفع إلى السماء، وبعدها أكملت المسير في المساء بينما اختفت الشمس وراء غطاء من الغيوم، ليلفني الضباب السميك. كان اليوم حاراً. لكنْ خلال ثلاثين دقيقة انخفضت الحرارة 20 درجة مع تزايد سرعة الرياح ثم سكونها، فمشيت بأسرع ما يمكنني ليتساقط مني العرق على الرغم من البرودة، وأنا أبحث عن مكان لأخيم فيه. وعلى الرغم من هبوط الظلام، لم أجد أي مكان مستوٍ أو خالٍ بما يكفي لأنصب فيه خيمتي. وحين وجدت بقعة بالقرب من بركة صغيرة بدا لي وكأنني وسط غيمة؛ إذ كان الهواء ساكناً وهادئاً على نحو غريب. وبعد أن نصبت خيمتي ونقّيت عبوة ماء بدأت الرياح تعصف مجدداً بعنف، وتضرب أغصان الأشجار فوقي. لم أتعرض قط لعاصفة جبلية، لذا بدأت بتذكير نفسي أنني لست خائفة، وزحفت إلى داخل الخيمة بدون تناول العشاء؛ إذ كان يراودني شعور بوجود خطر محدق في الخارج، على الرغم من معرفتي التامة بأن خيمتي لا تؤمن لي الحماية الكافية، وجلست متوجسة وخائفة بانتظار عاصفة قوية لم تأتِ.

بعد ساعة من هبوط الظلام سكن الهواء مجدداً، وسمعت الذئاب تعوي من بعيد كما لو أنها تحتفل بسكون الجو. وقد كنت في أول سبتمبر، ودرجة

الحرارة في تلك الليلة باردة للغاية. وحين خرجت من خيمتي للتبول مرتدية قبعتي وقفازَيّ تفحصت الأشجار بمصباحي الرأسي، فرأيت شيئاً جعلني أتجمد في مكاني؛ رأيت عينين براقتين تحدقان بي.

لكنني لم أعرف قط لمن تعود هاتان العينان؛ إذ اختفتا خلال لحظة.

كان اليوم التالي حاراً ومشمساً، كما لو أن العاصفة الغريبة التي حصلت في الليلة الماضية كانت مجرد حلم، وخلال مسيري فوّتّ منعطفاً على الطريق لأكتشف في ما بعد أنني لم أعد على طريق جبال المحيط الهادئ وإنما على طريق أوريغون سكايلاين الذي يوازي طريق جبال المحيط الهادئ على بعد ميل غرباً، وهو طريق بديل ذكر الكتيب الإرشادي تفاصيله بدقة، لذا أكملت بدون أي قلق، لأن الطريق سيعيدني إلى طريق جبال المحيط الهادئ في اليوم التالي، وفي اليوم الذي يليه سأصل إلى بحيرة أولالي.

مشيت في غابة كثيفة في المساء، وفي إحدى المرات انعطفت ووجدت أمامي ثلاثة أيائل ضخمة ركضت نحو الأشجار بسرعة. وبعد لحظات من توقفي للتخييم بالقرب من بركة على جانب الطريق ظهر صيادان يمشيان باتجاه الجنوب.

سأل أحدهما على الفور:

- أمعك ماء؟

وسأل الآخر وقد لاح اليأس على وجهه:

- لا يمكننا شرب ماء البركة أليس كذلك؟

بدا كلاهما في منتصف العقد الثالث، وأحدهما شعره رملي اللون ولديه بطن صغير، أما الآخر فأحمر الشعر وطويل، وكل منهما يرتدي سروال جينز ويحمل سكاكين كبيرة معلقة بحزامه وحقيبة ظهر ضخمة علّق بها قوساً ورمحاً.

- يمكنكما شرب ماء البركة، لكن ينبغي أن تنقياها أولاً.

قال الرجل ذو الشعر رملي اللون:

- لا نحمل منقي مياه.

وخلع حقيبته ووضعها بالقرب من صخرة ضخمة بين البركة والطريق حيث كنت أنوي التخييم. لكنهما ظهرا ما إن وضعت حقيبتي على الأرض.

- يمكنكما استخدام منقي المياه الذي معي.

وفتحت جيب الوحش وأخرجت منقي الماء وناولته إياه، فأخذه ومشى إلى شاطئ البركة، وجلس القرفصاء ثم ناداني:

- كيف تستخدمينه؟

فأريته كيف يضع أنبوب السحب في الماء، وكيف يضخ الماء مضيفة:

- ستحتاج لعبوة ماء.

لكنه نظر إلى صديقه بندم، وأخبرني أنه لا يملك واحدة؛ إذ كانا ينويان الخروج للصيد خلال النهار فقط، وركنا سيارتهما على طريق غابة على بعد ثلاثة أميال من طريق جانبي مررت به مؤخراً، وكانا يظنان أنه من المفترض أن يكونا قد وصلا إليها.

- أبقيتما طوال النهار بدون شرب؟

- لقد أحضرنا معنا البيبسي... فكل واحد منا أحضر معه ست علب.

- سنتجه إلى سيارتنا بعد هذا، لذا لن نحتاج سوى إلى كمية من الماء تكفي لنتقدم قليلاً، لكننا نكاد نموت عطشاً.

- تفضلا.

وأخرجت من حقيبتي الماء المتبقي معي وناولته للرجل ذي الشعر الأحمر فشرب رشفة كبيرة ثم ناولها لصديقه الذي شرب الباقي. وعلى الرغم من شعوري بالأسف لأجلهما، لكنني كنت متضايقة من وجودهما معي؛ لأنني كنت مرهقة وأتوق لخلع حذائي وتغيير ملابسي المبللة بالعرق ونصب خيمتي وإعداد عشائي لأتمكن من الاستلقاء والقراءة، بالإضافة إلى أن شعوراً مضحكاً راودني لدى رؤيتي هذين الرجلين. فمع البيبسي والأقواس والسهام والسكاكين الكبيرة والطريقة التي ظهرا فيها أمامي، عاد لي ذلك الشعور الذي كان يراودني في أول أسبوع لي على الطريق، حين كنت جالسة في شاحنة فرانك وفكرت أنه قد يؤذيني لكن كل ما كان يريده هو أن يعطيني نباتالعرقسوس.

قال الرجل ذو الشعر الأحمر:

- معنا علب البيبسي الفارغة... يمكننا ضخ الماء في عبوتك ثم صبه في العلب.

جلس الرجل ذو الشعر رملي اللون القرفصاء عند البركة حاملاً عبوة الماء الفارغة ومنقي المياه، بينما خلع الرجل ذو الشعر الأحمر حقيبته وبحث فيها حتى أخرج علبتي بيبسي فارغتين، ووقفت أنا أراقبهما وقد لففت ذراعيّ حول خصري وأنا أشعر ببرد شديد؛ إذ بدا سروالي القصير والقميص وحمالة الصدر المبللة باردة للغاية على بشرتي.

بعد برهة، قال الرجل ذو الشعر رملي اللون:

- من الصعب فعلاً ضخ الماء.

أجبته:

- اضغط بقوة.

- لا أدري، لكنني لا أستطيع ضخ شيء.

ذهبت إليه ورأيت العوامة قد صعدت بالقرب من الخرطوش والنهاية المفتوحة لأنبوب السحب قد غرقت في الوحل في قاع البحيرة الضحل، فأخذت منقي المياه منه، وسحبت الأنبوب إلى المياه الصافية، وحاولت الضخ لكنه كان مسدوداً تماماً بالوحل.

- ما كان يفترض بك وضع الأنبوب في الطين هكذا، وإنما ينبغي أن تتركه في الماء.

- تباً.

سألني صديقه:

- ماذا سنفعل؟ نريد شيئاً لنشربه.

توجهت إلى حقيبتي وأخرجت علبة الإسعافات الأولية، ثم سحبت منها عبوة حبوب اليود التي لم أستخدمها منذ أن كنت عند ذلك الخزان المليء بالضفادع في هات كريك ريم، وقلت وقد أدركت أنني لن أشرب سوى مياه معقمة باليود حتى يتم إصلاح منقي المياه؛ في حال كان من الممكن إصلاحه:

- يمكننا استخدام هذه.

سألني الرجل ذو الشعر رملي اللون:

- ما هذا؟

- يود... تضعه في الماء وتنتظر ثلاثين دقيقة ليصبح شرب الماء آمناً.

وتوجهت إلى البحيرة، ووضعت العبوتين في أكثر بقعة تبدو المياه فيها صافية، ثم وضعت حبوب اليود في الماء، فقلدني الرجلان بعلب البيبسي، ووضعت حبة يود في كل واحدة منها، ثم نظرت إلى ساعتي وقلت:

- سيصبح الماء صالحاً للشرب في تمام السابعة وعشر دقائق.

كنت آمل أن يمشيا بعيداً، لكنهما جلسا في مكانيهما، وسألني الرجل ذو الشعر رملي اللون:

- إذاً، ماذا تفعلين هنا لوحدك؟

- أتنزه على طريق جبال المحيط الهادئ.

- لوحدك؟

- نعم.

كنت خائفة من إخبارهما الحقيقة، وفي الوقت نفسه خائفة من أن أكذب كذبة تورطني أكثر.

- لا يمكنني أن أصدق أن فتاة مثلك ستأتي إلى هنا لوحدها، فأنت جميلة للغاية لتكوني هنا لوحدك. منذ متى وأنت في هذه الرحلة؟

- منذ مدة طويلة.

قال الرجل ذو الشعر الأحمر:

- ما كنت لأسمح لك بالمجيء إلى هنا لو كنت صديقتي.

فرد الرجل ذو الشعر رملي اللون:

- لديها قوام جميل أليس كذلك؟ مع بعض الانحناءات الناعمة كما أحب تماماً.

أصدرت صوتاً خافتاً شبيهاً بضحكة على الرغم من أن حنجرتي كانت مختنقة بالخوف، وقلت وأنا أتجه نحو الوحش:

- حسناً... سررت بلقائكما أيها الشابان... سأكمل طريقي.

- ونحن سننطلق أيضاً، إذ لا نريد أن يحل علينا الظلام.

وسحب الرجلان حقيبتيهما بينما راقبتهما وأنا أتصنع أنني أستعد للمغادرة؛ على الرغم من أنني لم أكن أريد أن أضطر للمغادرة؛ إذ كنت متعبة وعطشى وجائعة وبردانة والظلام بدأ يهبط، وقد اخترت التخييم عند هذه البركة لأن الكتيب الإرشادي ذكر أن هذا آخر مكان يمكن فيه نصب خيمة.

حين غادرا، وقفت لبرهة حتى استرخيت وشعرت أنني بخير وأمان، لكنني كنت سخيفة نوعاً ما؛ فصحيح أنهما كانا بغيضين ودمرا منقي المياه لكنهما لم يفعلا لي شيئاً ولم يقصدا الأذية، غير أنهما لا يحسنان التصرف. أخرجت الأغراض من حقيبتي، وملأت وعاء الطهي بماء البركة، وأشعلت الموقد وتركت الماء يغلي، ثم خلعت ملابسي المبللة بالعرق وارتديت ملابس أخرى ووضعت المشمع. وبينما كنت أخرج الخيمة من حقيبتها ظهر الرجل ذو الشعر رملي اللون مجدداً، وحين رأيته عرفت أن ما كنت أشعر به صحيح، وأن لدي سبباً منطقياً للخوف، وأنه عاد من أجلي، فسألته بنبرة هادئة على الرغم من أن منظره أرعبني وكأنني رأيت أحد أسود الجبال؛ غير أنني قررت ألا أتبع حدسي، وألا أركض لئلا أثيره بحركتي السريعة أو غضبيأو خوفي:

- ما الأمر؟

- ظننت أنك ستكملين طريقك.

- لقد غيرت رأيي.

- لقد حاولت خداعنا.

- لا، لم أفعل، وإنما غيرت...

- لقد غيرت ملابسك أيضاً.

هنا امتدت كلماته في أحشائي كرصاصة، واحمر جسدي كله حين عرفت أنني حين خلعت ملابسي كان قريباً مني يراقبني.

- لا أدري ما تتحدث عنه.

وأدركت أن كامل رحلتي على طريق جبال المحيط الهادئ قد تنتهي هكذا، وأنه بغض النظر عن مدى قوتي وشجاعتي وعن مدى ارتياحي لبقائي لوحدي لكنني كنت محظوظة. وفي حال خذلني حظي الآن فسيبدو لي الأمر وكأن شيئاً آخر لم يحصل، وأن هذا المساء سيقضي على كل تلك الأيام الرائعة.

- لقد أحببت سروالك، فهو يبدو رائعاً عليك ويظهر جمال ساقيك.

- لا تقل هذا من فضلك.

- ماذا؟ إنني أطري عليك! ألا يمكن للرجل أن يقوم بالإطراء؟ ينبغي أن تشعري بالسعادة.

- شكراً.

كنت أحاول تهدئته، وفي الوقت نفسه شعرت بكراهية نفسي، وتذكرت الذكور الشباب الثلاثة الذين لم يعودوا إلى الطريق بعد، كما تذكرت صفارتي العالية التي لن يسمعها سوى الرجل ذي الشعر الأحمر، وتذكرت سكيني البعيدة في الجيب الأيسر العلوي من الحقيبة، وتذكرت الماء الذي لم يغلِ بعد في القدر على الموقد الصغير، ثم رأيت السهام الظاهرة من وراء الرجل، وقررت أنه في حال اقترب مني فسأسحب أحد هذه السهام وأطعنه في حنجرته.

ثم قلت بهدوء:

- أظن أنه من الأفضل أن تذهب، فالظلام سيحل قريباً.

- هذا بلد الحريات... سأذهب حين أريد، وهذا حقي كما تعلمين.

سُمِع صوت رجل يقول:

- ماذا تفعل هنا؟

وبعد لحظة، ظهر الرجل ذو الشعر الأحمر:

- لقد مشيت كل المسافة إلى هنا حتى وجدتك، فقد ظننت أنك ضعت.

ونظر إليّ نظرة اتهام وكأنه يلومني، أو كأنني تآمرت مع الرجل ذي الشعر رملي اللون ليبقى وقال:

- علينا الذهاب الآن إن كنا نريد الوصول إلى الشاحنة قبل هبوط الظلام.

فقال لي الرجل ذو الشعر رملي اللون:

- خذي حذرك.

أجبته بهدوء:

- وداعاً.

- هيه... إنها السابعة وعشر دقائق... أصبح من الآمن شرب الماء الآن.

ورفع علبة البيبسي باتجاهي وقال:

- بصحة فتاة شابة وحيدة في الغابة.

ورشف الماء وهو يتبع صديقه على الطريق.

وقفت قليلاً كما فعلت في أول مرة غادرا فيها، وطمأنت نفسي بأن شيئاً لم يحصل، وأنني بخير وأنه مجرد رجل غير لطيف وغريب الأطوار.

لكنني بعد ذلك أعدت خيمتي إلى حقيبتي، وأطفأت الموقد، ورميت الماء المغلي على العشب، ووضعت القدر في البركة ليبرد، وأخذت رشفة من الماء باليود، وحشرت عبوة الماء والسروال القصير وحمالة الصدر والقميص الرطبة في الحقيبة، وحملت الوحش ومشيت في الطريق نحو الشمال في النور الباهت. مشيت ومشيت وقد عاد ذهني ليصبح مجدداً جهازاً بدائياً خالياً من أي شيء سوى التقدم للأمام. مشيت حتى أصبح المشي غير محتمل، وأيقنت أنه لم يعد بمقدوري أن أمشي خطوة أخرى.

وعندها ركضت.

18

ملكة طريق جبال المحيط

الهادئ

7

كانت السماء تمطر عندما استيقظت في صباح اليوم التالي مع انتشار الضوء عبر السماء، وكنت مستلقية في خيمتي في المنخفض الموجود في الطريق الذي لم أجد فيه منطقة مستوية في الظلام الليلة السابقة إلا بقعة بعرض قدمين. وكان المطر قد بدأ يهطل في منتصف الليل، واستمر في الهطول طوال الليل. وبينما كنت أمشي خلال الصباح، كان المطر يهطل تارة وينقطع أخرى، فأخذت أفكر في ما حصل مع الرجلين، أو ما كان على وشك الحدوث، أو ما لم يكن ليحدث أبداً، وقلّبت الأمر في ذهني، مما جعلني أشعر بالإعياء والارتعاش. ولكن مع حلول الظهيرة، تركت ذلك خلفي، وعدت إلى طريق جبال المحيط الهادئ، حيث أدى هذا المنعطف الذي أخذته عن غير قصد إلى الطريق.

تساقطت الأمطار من السماء، كما كانت تقطر من الأغصان وتجري عبر الطريق، ومشيت تحت الأشجار الضخمة وظلال الحراج التي تعلوني، والشجيرات والنباتات القصيرة التي تتواجد على حافتي الطريق تغمرني أثناء مروري بها. ورغم رطوبة الغابة وبؤسها فقد كانت ساحرة: فهي فخمة بعظمتها الخضراء، ولامعة ومعتمة في الوقت نفسه، ووافرة الخصوبة جداً لدرجة أنها تبدو خيالية؛ كما لو أنني أمشي عبر قصة خرافية وليس عبر العالم الواقعي.

واستمر المطر بالهطول على نحو متقطع خلال ذلك اليوم واليوم التالي، وعندما وصلت إلى شواطئ بحيرة أولالي التي تبلغ مساحتها 240 فداناً كانت الأمطار لا تزال تتساقط، فمشيت مارة بمحطة حراس الغابة المغلقة وأنا أشعر بإحساس عميق بالراحة، وأمشي بتثاقل فوق الطين والعشب الرطب عبر مجموعة من طاولات النزهة إلى مجموعة صغيرة من المباني الخشبية القاتمة التي تشكل منتجع بحيرة أولالي. كانت لدي فكرة مختلفة تماماً عن المعنى الذي توحيه كلمة «منتجع» قبل أن أمشي عبر أوريغون، إذ

لم يكن هناك أي منتجع قريب مني؛ فالأكواخ العشرة البدائية المتوزعة قرب شاطئ البحيرة كانت تبدو فارغة جميعها، كما أن المتجر الموجود في وسط الأكواخ كان مغلقاً طوال الليل.

بدأ المطر يهطل من جديد بينما وقفت تحت شجرة صنوبر قرب المتجر ورفعت قبعة معطفي لأغطي رأسي ونظرت إلى البحيرة. وقد كان من المفترض أن تلوح القمة العظيمة لجبل جيفرسون من جهة الجنوب، وأن يكون الارتقاء المنخفض للجبل البركاني أولالي من جهة الشمال، لكنني لم أرَ أياً منهما، فقد حجبهما الظلام والضباب المتزايدان. وكانت أشجار الصنوبر والبحيرة الواسعة بدون مناظر الجبال تذكرني بالغابات الشمالية في مينيسوتا، كما أن الهواء كان يبدو مثل الهواء في مينيسوتا، وكان ذلك بعد أسبوع من يوم العمال؛ فالخريف لم يأتِ بعد ولكنه كان قريباً، وكان كل شيء يبدو مهجوراً وموحشاً. بحثت داخل معطفي، وأخرجت صفحات كتاب الدليل، وقرأت عن مكان قريب أخيم فيه فوجدت موقعاً خلف محطة حراس الغابة التي تشرف على بحيرة هيد؛ وهي بحيرة مجاورة أصغر بكثير من أولالي.

خيّمت هناك، وقمت بطبخ الغداء تحت المطر، ثم زحفت إلى داخل خيمتي واستلقيت في كيس النوم الرطب مرتدية ملابسي الرطبة. لم أكن أستطيع القراءة؛ إذ إن بطاريات المصباح الرأسي قد فرغت، فاستلقيت وأنا أستمع إلى رذاذ قطرات المطر وهي تضرب النايلون المعقود بعد بضع أقدام من رأسي.

غداً ستكون هناك بطاريات جديدة في علبتي، وستكون هناك حبيبات من شوكولا هيرشي التي سأوزعها على نفسي خلال الأسبوع القادم، كما ستكون هناك آخر دفعة من الوجبات المجففة وأكياس المكسرات والحبوب التي أصبحت فاسدة. وكان التفكير بهذه الأشياء عذاباً وراحة لي في الوقت نفسه. انحنيت قدر المستطاع لأحاول أن أبقي كيس النوم بعيداً عن حواف الخيمة في حال قامت بتسريب الماء، لكنني لم أستطع النوم؛ فقد سرى بريق ضوء مُكئِب في نفسي له صلة بحقيقة انتهاء رحلة المشي على الطريق خلال أسبوع. فمنذ أن استقرت فكرة العيش في بورتلاند في ذهني، أمضيت ساعات وأنا أتخيل كيف سيكون شعوري عند عودتي إلى العالم؛ حيث يمكنني أن أتناول الطعام وأحتسي الشراب والقهوة وأستمع إلى الموسيقى.

وأعتقد بالطبع أنه يمكنني أخذ الهيروبين أيضاً، لكن الأمر هو أنني لا أريده، وربما لم أرد ذلك من قبل حقاً. وأخيراً، توصلت إلى فهم ما كان يحصل؛ كان توقاً إلى طريقة للهروب، بينما ما كنت أحتاج إليه هو طريقة للانخراط، وأنا هناك الآن أو قريبة من ذلك.

في الصباح التالي، ناديت الحارس وأنا أتبعه وهو يبدأ في قيادة شاحنته بعيداً:

- لدي صندوق عندك.

فتوقف وأنزل زجاج النافذة:

- هل أنت شيريل؟

فهززت رأسي بالإيجاب، ثم كررت ما قلته وأنا لا أزال أرتدي ثياب المطر المتعفنة:

- لدي صندوق عندك.

فقال وهو يخرج من شاحنته:

- لقد أخبرني صديقاك عنك؛ الزوجان.

فأومأتُ ونزعت قبعتي، وسألته:

- سام وهيلين؟

هز رأسه، فبعث تفكيري بهما دفعة من الحنان في نفسي. رفعت القبعة فوق رأسي وأنا أتبع الحارس إلى المرأب الذي يتصل بمحطة حراس الغابة التي تتصل بما يبدو مكان معيشته، ثم قال وهو يسلمني صندوقي وثلاث رسائل:

- أنا ذاهب إلى البلدة، لكنني سأعود في وقت متأخر من بعد الظهيرة إن احتجت لشيء.

وكان رجلاً بني الشعر والشاربين، في أواخر العقد الثالث من عمره حسب توقعاتي.

أجبته وأنا أحضن الصندوق والرسائل الثلاث:

- شكراً.

كان الجو لا يزال ماطراً وبائساً في الخارج، فسرت نحو المتجر الصغير، حيث اشتريت فنجان قهوة من الرجل المسن الذي يعمل قرب آلة دفع النقود، مع وعد بأن أدفع له عندما أفتح صندوقي، وجلست على كرسي

بجانب الموقد لأقرأ الرسائل. كانت الرسالة الأولى من إيمي، والثانية من بول، والثالثة فاجأتني؛ فقد كانت من إيد، وهو الذي التقيته عندما كنت في سهول كينيدي، وقد كتب لي: «إذا وصلتك رسالتي فهذا يعني أنك حققت الإنجاز يا شيريل، فتهانينا!». تأثرت كثيراً بقراءة هذه الكلمات، لدرجة أنني ضحكت بصوت عالٍ، فرفع الرجل المسن الجالس قرب عداد النقود رأسه لينظر إليّ وسألني:

- أهناك أخبار جيدة من الوطن؟

فأجبته:

- نعم، شيء من هذا القبيل.

فتحت صندوقي فلم أجد المغلف الذي يحمل العشرين دولاراً فحسب، وإنما أيضاً المغلف الآخر الذي يحتوي على عشرين دولاراً أخرى. وهو المغلف الذي كان يفترض أن أجده في صندوقي في منتجع شيلتر كوف؛ ممّا يعني أنني أخطأت بالتأكيد عند ترتيب الأغراض قبل أشهر، لكن الأمر سيان عندي الآن، فقد تدبرت أمري ببنسين، ومكافأتي هي أنني الآن غنية، ولدي أربعون دولاراً وسنتان اثنان، فدفعت ثمن القهوة واشتريت قطعة كعك مغلفة، وسألت الرجل إن كان هناك أي مكان للاستحمام، فأومأ برأسه بالنفي بكآبة عندما نظرت إليه. وهكذا، إن هذا المنتجع بدون أماكن للاستحمام أو مطاعم، وكان المطر منهمراً وخفيفاً، ودرجة الحرارة في الخارج تبلغ تقريباً 55 درجة.

أعدت ملء فنجان القهوة وأنا أفكر في ما إذا كان ينبغي لي السير في ذلك اليوم أو لا. ورغم أنه لم يكن هناك سبب عظيم يجعلني أبقى، إلّا أن الخروج للسير في الغابة مجدداً مع كل أغراضي الرطبة لم يكن فقط مثبطاً، وإنما من المحتمل أن يكون خطراً أيضاً؛ فالبرد مع المطر المحتوم يعرضانني لخطر انخفاض حرارة الجسم. أما هنا فعلى الأقل بإمكاني الجلوس في دفء المتجر؛ فقد مرت عليّ ثلاثة أيام وأنا أتعرق من الحر أو أتجمد من البرد بالتناوب وأنا أتابع طريقي؛ ولذلك فأنا متعبة نفسياً وجسدياً. ورغم أنني مشيت نصف اليوم بضع مرات، إلّا أنني لم أتوقف عن السير ليوم كامل منذ أن كنت عند بحيرة كراتر. وبالرغم من تشوقي للوصول إلى الجسر، إلا أنني لم أكن على عجلة من أمري؛ فقد أصبحت الآن قريبة بما يكفي، كما عملت على الوصول قبل ذكرى ميلادي، لذلك يمكنني أخذ الوقت الذي أريده.

قال الرجل المسن:

- لا توجد عندنا أماكن للاستحمام أيتها السيدة. لكن يمكنني أن أقدم لك العشاء هذه الليلة إن أردت أن تنضمي إليّ مع اثنين من الموظفين عند الساعة الخامسة.

وفوراً اتخذت قراري:

- العشاء؟

عدت إلى المخيم، وبذلت قصارى جهدي لتجفيف أغراضي بين فترات هطول المطر، ثم سخّنت إبريق ماء وانحنيت عارية قربه، واستحممت مستخدمة منديلي المزركش، وفككت منقي الماء ورججته لأخرج الطين الذي أنزله الرجل ذو الشعر رملي اللون فيه، ثم وضعت ماء نظيفاً في المضخة لأستخدمها من جديد. وقبل أن أمشي إلى البناء الصغير الذي طلب مني الرجل العامل في المتجر أن أذهب إليه لتناول العشاء ظهر الذكور الشباب الثلاثة والماء يقطر منهم، وكانوا يبدون حالمين أكثر من أي وقت مضى. قفزت من شدة الفرح عند رؤيتهم، ثم شرحت لهم أنني متوقفة عن السير لكي أتناول العشاء، وأنه بإمكانهم أن يذهبوا لتناول العشاء معي أيضاً، وأنني سأعود لأخذهم إن استطاعوا. لكن عندما وصلت إلى البناء الصغير واستفسرت، لم تُبدِ المرأة المسؤولة أي اهتمام بوصولهم، بل قالت:

- لا يوجد لدينا ما يكفي من الطعام.

فشعرت بالذنب للجلوس وتناول الطعام رغم أنني كنت أتضور جوعاً؛ فالعشاء كان طعاماً عائلياً مثل النوع الذي أكلته في آلاف الوجبات الجماعية المتنوعة عندما كنت طفلة في مينيسوتا. فقد كانت هناك أطباق عميقة تحتوي على اللحم المفروم المغطى بجبن شيدر، بالإضافة إلى علب مغلقة من الذرة، وبطاطا مع سلطة الخس. ملأت صحني، وأكلت الطعام في أقل من خمس لقم تقريباً، وجلست بأدب أنتظر أن تقطع المرأة الكعكة الصفراء ذات الزينة البيضاء المغرية التي كانت موجودة على طاولة جانبية. وعندما قامت بتقطيعها، أكلت قطعة، ثم نهضت لأخذ قطعة أخرى بتحفظ؛ لكونها أكبر قطعة في الطبق، ولففتها بمنديل ورقي ووضعتها في جيب معطفي، وقلت:

- شكراً. من الأفضل الآن أن أعود إلى أصدقائي.

ومشيت عبر العشب المبلل وأنا أمسك بقطعة الكعكة بحذر داخل جيب معطفي، وكانت الساعة لا تزال 5:30، لكن الجو كان مظلماً وكئيباً؛ كما لو أن الوقت منتصف الليل.

وناداني رجل:

- ها أنت هنا. كنت أبحث عنك.

وكان هذا الرجل هو الحارس الذي أعطاني صندوقي والرسائل في الصباح، وكان يمسح شفتيه بمنشفة الصحون، فقال مبتلعاً الكلمات عندما اقتربت منه:

- إنني أتكلم بطريقة مضحكة، فقد أجريت جراحة في فمي اليوم.

رفعت قبعتي على رأسي لأن المطر بدأ يهطل من جديد، وكان يبدو أن الحارس ثمل قليلاً، بالإضافة إلى المشاكل في فمه؛ فقد قال بصوته المشوّه:

- ما رأيك بالذهاب إلى مكان إقامتي لتناول الشراب وبذلك تبتعدين عن المطر؟ فأنا أسكن هناك في الطرف الآخر من المحطة، وقد أشعلت الموقد، كما يمكنني أن أحضِّر لك عصير الكوكتيل.

فقلت:

- شكراً، لكنني لا أستطيع، فأصدقائي قد وصلوا إلى هنا للتو، ونحن كلنا مجتمعون في المخيم.

وأشرت إلى الارتفاع خلف الطريق حيث تنتصب خيمتي وربما خيام الذكور الشباب الثلاثة الآن، وتخيّلت تماماً ما يفعلونه في تلك اللحظة، وطريقة انحنائهم تحت معاطفهم بينما المطر يهطل، وهم يحاولون تناول عشائهم الكريه، أو يجلسون لوحدهم في خيمهم؛ فقط لعدم وجود مكان آخر يجلسون فيه. وعندها، فكرت بالموقد الدافئ والشراب، وفكرت أنه إذا ذهب الرجال معي إلى مسكن الحارس فإن ذلك سيساعدني في تفادي أية نية أخرى يحملها في ذهنه. لذا، قلت بتردد بينما سال لعاب الحارس ثم مسح فمه:

- لكن، ربما كان ذلك ممكناً... أعني طالما أنه يمكنني اصطحاب أصدقائي.

وحين عدت إلى مخيمنا مع الكعكة، وجدت الشباب الثلاثة في خيماتهم، فناديت:

- معي كعكة.

عندها، خرجوا ووقفوا حولي، وأكلوها من يدي بأصابعهم، واقتسموها بينهم بالطريقة السهلة الصامتة التي اكتسبوها من أشهر التماسك والحرمان غير المتناهي التي عاشوها.

فخلال الأيام التسعة منذ أن ودّعتهم، كان يبدو أننا أصبحنا أكثر قرباً وألفة، كما لو أننا كنا مجتمعين وغير مفترقين في ذلك الوقت. فقد كانوا لا يزالون الذكور الشباب الثلاثة بالنسبة لي، لكنهم بدوا أيضاً مختلفين في ذهني. فريتشي كان مرحاً وغريباً بعض الشيء، مع شيء من الغموض المظلم المحتّم عليه. أما جوش فقد كان جذاباً وذكياً ومتحفظاً أكثر من الآخرين، بينما كان ريك مضحكاً وثاقب البصر ولطيفاً ومتحدثاً بارعاً. وبينما وقفت هناك مع ثلاثتهم وهم يأكلون قطعة الكعك من يدي، أدركت أنه رغم إعجابي بهم جميعاً إلا أن إعجابي الأكبر كان بريك. وكنت أعلم أنه إعجاب سخيف، فقد كان أصغر مني بأربع سنوات تقريباً، وكنا في عمر تعني فيه هذه السنوات الأربع تقريباً الكثير، حيث إن الفجوة بين ما قام به وما قمت به كانت كبيرة جداً؛ مما جعلني كأخت كبيرة له أكثر من كوني شخصاً يفكر في الاختلاء به في خيمته، ولذلك استبعدت الفكرة. لكن، لا يمكنني أن أنكر أنني كنت أشعر بالارتعاش داخلي لدرجة متزايدة كلما التقت عيناي عينَي ريك، كما لا يمكنني أن أنكر أنني كنت أرى في عينيه الارتعاش نفسه.

قلت بعد أن شرحت ما حصل:

- آسفة بشأن العشاء.

وسألتهم وأنا أشعر بالذنب:

- هل أكلتم؟

فأومأوا برؤوسهم بالإيجاب وهم يلعقون بقايا الكعكة عن أصابعهم. وسأل ريتشي بلهجة نيو أورلينز التي تزيد من جاذبيته رغم إعجابي بريك:

- هل كان جيداً؟

- مجرد طبق من اللحم مع السلطة.

فنظر الجميع إليّ كما لو أنني قد جرحتهم، وصرخت من تحت القبعة المطرية:

- لذلك أحضرت لكم الكعكة. كما أنّ لدي شيئاً آخر قد يعجبكم، وهو نوع آخر من التحلية؛ فقد دعاني الحارس لتناول الشراب في مسكنه، فأخبرته أنه

لا يمكنني الذهاب بدونكم. لكن، عليّ أن أنبّهكم إلى أنه غريب قليلاً، فقد أجرى عملية جراحية اليوم، وأعتقد أنه يأخذ المسكنات وثمل بعض الشيء، لكنّ عنده موقداً مشتعلاً وشراباً في الداخل. فهل تودّون الذهاب؟

فنظروا إليّ نظرة «همجية»، وخلال دقيقتين كنا نطرق باب الحارس. قال مبتلعاً كلماته وهو يدخلنا:

- ها أنت هنا بعد أن بدأت أعتقد أنك ستتخلين عن الموعد.

فقلت:

- هؤلاء أصدقائي، ريك وريتشي وجوش.

لكنه لم ينظر إليهم إلا بازدراء واضح وهو لا يزال يضغط على شفتيه بمنشفة الأطباق. إذ لم يكن صحيحاً أنه كان موافقاً تماماً على إحضارهم معي، وإنما قبِل فقط عندما قلت له إنه إما أن نأتي جميعنا أو لا أحد.

دخل الذكور الشباب الثلاثة وجلسوا على الأريكة أمام الموقد، وأسندوا أحذيتهم الرطبة على الموقد الحجري.

وسألني الحارس وأنا أتبعه إلى المطبخ:

_ هل تريدين شراباً يا حلوة؟ بالمناسبة اسمي غاي. لا أذكر إن كنت قد أخبرتك به من قبل أو لا.

فقلت وأنا أحاول أن أقف بطريقة توحي أنني لم أكن معه في المطبخ حقاً بقدر كوني أملأ الفراغ بيننا وبين الرجال قرب الموقد، وأننا جميعنا فريق واحد كبير وسعيد.

- إنني أعدّ شيئاً خصيصاً من أجلك.

- من أجلي؟ شكراً.

وناديتُ الذكور الشباب الثلاثة، وسألتهم:

- هل تريدون شراباً؟

فردوا بالإيجاب. راقبتُ غاي وهو يملأ كأساً بلاستيكية ضخمة بالثلج، ثم يسكب أنواعاً متنوعة من السوائل فيها، وينهي عمله بإضافة شراب من الفواكه أخذه من عبوة أخرجها من البراد.

فقلت عندما قدّم لي الكأس:

- إنه كالانتحار. هكذا كنا نسمي هذا النوع من الشراب عندما كنا في الجامعة، حيث توضع كل أنواع النكهات فيه.

فقال غاي:

_ جرّبيه لتري إن كانت نكهته جيدة.

أخذتُ رشفة من الكأس، فكان مذاق الشراب لا بأس فيه؛ فهو أفضل من الجلوس تحت المطر البارد، غير أنني قلت بابتهاج:

- ما ألذه! وأعتقد أن هؤلاء الشباب ريك وريتشي وجوش يودونتجربته.

وسألتهم وأنا أفرّ إلى الأريكة:

- هل تريدون من هذا الشراب؟

فقال الجميع بصوت واحد رغم أن غاي لم يعر ذلك اهتماماً:

- بالطبع.

وسلمت الكأس لريك، وأقحمت نفسي بجانبه. جلسنا نحن الأربعة في صف واحد على أرض العجائب المخملية للأريكة المجاورة للموقد من دون أي إنش يفصل بيننا؛ مما جعل جانب جسد ريك الفاتن ملتصقاً بجسدي، والنار مقابلنا كالشمس الخاصة بنا تجفّفنا.

قال غاي وهو يقف أمامي، ويميل نحو رفّ الموقد الحجري:

- إن أردتِ أن تتحدثي عن الانتحار يا عزيزتي فسأخبرك عن الانتحار.

شرب ريك من الكأس، ثم سلمها إلى جوش على جانبه الآخر، فأخذ جوش رشفة وأعطاها إلى ريتشي في آخر الصف. قال غاي وعيناه تنبضان بالحيوية، ووجهه مخبأ خلف منشفة الأطباق من شاربه ونحو الأسفل:

- عندنا هنا بعض التعاملات مع الانتحار لسوء الحظ، وهذا ما يجعل العمل ممتعاً.

وعادت الكأس إليّ ببطء، فأخذت رشفة منها وأعطيتها لريك وهكذا؛ وكأننا ندخن قنباً سائلاً. وبينما كنا نحتسي الشراب، روى لنا غاي بالتفصيل

المشهد الذي حضره ذات مساء؛ عندما فجّر رجل دماغه في مرحاض متنقل في الغابة القريبة، وقال من خلال المنشفة:

- أعني بالتأكيد أن دماغه كان في كل مكان؛ أكثر مما قد تتخيلين. فكّري بأكثر شيء مقزز قد تتصوّرينه ثم تخيلي ذلك.

ووقف يحدق فيّ فقط، وكأن الذكور الشباب الثلاثة لم يكونوا موجودين في الغرفة، وتابع قائلاً:

- ليس الدماغ فقط، وإنما الدم أيضاً، بالإضافة إلى قطع من جمجمته ولحمه التي كانت منتشرة في كل المكان، ومتناثرة على جدران ذلك الشيء.

فقلت وأنا أرجّ الثلج في الكأس التي تركها الرجال في عهدتي وحدي بعد أن فرغت:

- لا يمكنني حتى تصوّر ذلك.

فسألني غاي:

- هل تريدين كأساً أخرى يا حلوة؟

فأعدتها إليه، وأخذها إلى المطبخ. عندها، التفتُّ إلى الرجال ونظرنا إلى بعضنا بعضاً بتعبيرات ذات معنى، ثم انفجرنا جميعنا بالضحك بهدوء قدر المستطاع ونحن نتمتع بوهج النار.

وعاد غاي ومعه شرابي قائلاً:

_ وتوجد أيضاً حالة أخرى عليّ أن أرويها لك. لكن هذه المرة كانت جريمة قتل، ولم يكن هناك دماغ متفجر، وإنما دم؛ الكثير من الدم، بل براميل من الدم يا تشيرل.

وهكذا مضى الوقت طوال المساء.

وبعد ذلك عدنا إلى المخيم، ووقفنا في دائرة قرب الخيام ونحن نتحدث نصف ثملين في الظلام، حتى بدأ المطر يهطل من جديد، فلم يعد أمامنا إلا أن نفترق ونتمنى لبعضنا ليلة سعيدة. وعندما دخلت خيمتي وجدت بركة متشكلة في الطرف الآخر فيها، ومع حلول الصباح أصبحت كالبحيرة الصغيرة، وتبلل كيس النوم فنفضته، وبحثت حول المخيم لأجد مكاناً لنشره ولكن دون جدوى. فمع استمرار هطول المطر سيبتلل أكثر فقط. لذا، حملته معي عندما سرت

مع الشباب الثلاثة إلى الشاطئ، وقربته من موقد الخشب ونحن نشرب قهوتنا.

قال جوش:

- لقد توصلنا إلى اسم للطريق لك.

فسألت بدون حماسة من خلف قماش كيس النوم الأزرق المبلل؛ وكأنه بإمكانه أن يحميني من أي شيء قد يقولونه، فقال ريتشي:

- ملكة طريق جبال المحيط الهادئ.

وأضاف ريك:

- لأنه في الواقع يريد الناس دائماً أن يعطوك أشياء، وأن يفعلوا أشياء من أجلك، بينما لا يعطوننا أي شيء أبداً، ولا يقومون بأي شيء من أجلنا.

فأخفضت كيس النوم ونظرت إليهم، وضحكنا جميعاً ونحن نناقش أسئلة عما إذا كنت خائفة لكوني امرأة تسير وحدها؛ على افتراض أن المرأة التي تسير بمفردها تكون فريسة، بينما كنت أتلقى أنا الإحسان تلو الآخر؛ إذ لم أتلقَّ شيئاً سوى الكرم. وفي ما عدا التجربة المزعجة مع الرجل ذي الشعر رملي اللون الذي سدّ منقي الماء، والزوجين اللذين طرداني من أرض المخيم في كاليفورنيا، العالم وسكانه فتحوا أذرعهم لي في كل خطوة.

وكدليل على ذلك، اتكأ الرجل المسن على آلة النقود وقال:

- يا سيدتي، أردت أن أخبرك أنك إن أردت أن تبقي لليلة أخرى لكي تجف أغراضك فبإمكاننا أن نقدم لك أحد هذه الأكواخ مقابل لا شيء تقريباً.

فالتفتُّ إلى الذكور الشباب الثلاثة والسؤال واضح في عينيّ.

وخلال خمس عشرة دقيقة، انتقلنا إلى كوخنا، وعلّقنا أكياس النوم المبللة على الدعائم المغبرة. وقد كان الكوخ غرفة يملأها سريران مزدوجان ذوَا إطارين معدنيين قديمين جداً يصدران صريراً بمجرد الاتكاء عليهما.

وحالما استقررنا في الداخل، مشيت عائدة إلى المتجر تحت المطر لأشتري وجبات خفيفة. وعندما دخلت كانت ليزا واقفة هناك بجانب الموقد، ليزا التي تعيش في بورتلاند والتي كانت ترسل لي صناديقي طوال الصيف، والتي سأنتقل للعيش معها خلال أسبوع.

فصرخت بينما أمسكنا ببعضنا:

- مرحباً!

ثم قالت بعد أن أفقنا من الصدمة:

- علمت أنك ستكونين تقريباً هنا الآن، فقررنا أن نقود السيارة إلى هنا لنتأكد.

والتفتت إلى صديقها جيسون فصافحته، إذ كنت قد التقيته بإيجاز في الأيام التي قضيتها برفقتها قبل أن أغادر بورتلاند لأنطلق في رحلة جبال طريق المحيط الهادئ، أي عندما كانا لا يزالان في بداية فترة تواعدهما. وبدا أنه من الخيال رؤية الناس الذين أعرفهم من عالمي المألوف القديم، ومن المحزن قليلاً في الوقت نفسه. وقد كنت في الوقت نفسه سعيدة وخائبة الأمل لرؤيتهما؛ فوجودهما كان يعني تسريع نهاية رحلتي؛ إذا أخذنا بعين الاعتبار أن بورتلاند كانت على بعد تسعين ميلاً فقط بالسيارة، رغم أن الوصول إليها سيراً على الأقدام سيستغرق أسبوعاً بالنسبة لي.

ومع حلول المساء، انحشرنا جميعاً في سيارة جيسون المغلقة، وانطلقنا عبر طرقات الغابة الملتوية نحو ينابيع باغباي الحارة. وقد كانت باغباي تقع في الغابات، وفيها سلسلة ذات ثلاثة مستويات من الألواح التي تحوي أحواض استحمام متنوعة الأشكال متوضعة على جدول يخرج منه البخار الساخن على بعد ميل ونصف سيراً من مكان مخصص لركن السيارات على جانب طريق في غابة ماونت هود الوطنية. وهذا المكان ليس مشروعاً تجارياً ولا منتجعاً ولا مركز استجمام، وإنما هو مجرد مكان يقصده أي شخص دون تكلفة في أي وقت نهاراً أو ليلاً ليغطس في المياه الطبيعية تحت ظلال التنوب والشوكران والأرز القديمة.

وكان المكان كله لنا، فمشيت مع الذكور الشباب الثلاثة إلى أكثر الألواح انخفاضاً، حيث توجد ألواح مقطوعة يدوياً كبيرة الحجم، بحجم الزورق الطويل، ومصنوعة من خشب الأرز المجوف تحت سقف خشبي شاهق الارتفاع. خلعنا ملابسنا والمطر يتساقط بلطف على أغصان الأشجار الكبيرة الوافرة التي تحيط بنا، وعيناي تنزلقان على أجسادهم العارية في الضوء الخافت. كنا أنا وريك في حوضين متجاورين، وفتحنا صنابير المياه ونحن نتأوه مع ارتفاع المياه الساخنة الغنية بالمعادن حولنا، وتذكرت استحمامي في فندق مدينة سيرا قبل أن أمشي في رحلتي عبر الثلوج. وكان يبدو من الملائم أنني

هنا الآن، فليس لدي إلا أسبوع واحد أكمله؛ وكأنني استطعت تحقيق حلم شاق وجميل.

وكنت قد ركبت في المقدمة مع ليزا وجيسون في الطريق إلى باغباي. ولكن في رحلة العودة إلى بحيرة أولالي ركبت في الخلف مع الذكور الشباب الثلاثة وأنا أشعر بالنظافة والدفء والنعيم، بينما تسلقت بجهد الفرش الذي يغطي قاع السيارة المغلقة.

فقالت ليزا قبل أن تغلق باب العربة خلفنا:

- بالمناسبة، هذا الفرش لك، فقد أخرجته من سيارتك المغلقة ووضعته هنا في حال قررنا أن نمضي الليلة هنا.

فقلت بنبرة فاسقة وساخرة لأغطي على التشويش الذي شعرت به لتذكري أن هذا كان سريري حقاً الذي تشاركته مع بول لسنوات:

- أهلاً بكم في سريري يا فتيان.

وأضعف التفكير ببول مزاجي المنتشي. لم أكن قد فتحت الرسالة التي أرسلها لي بعد. فعلى عكس البهجة الاعتيادية التي أشعر بها حين أمزق المغلف ما إن أتلقى البريد، جعلني منظر خطه المألوف هذه المرة أمتنع عن فتحه، وقررت أن أقرأ الرسالة حالما أعود إلى الطريق؛ ربما لأنني أعلم أن هذا سيمنعني من إرسال رد فوري، ومن قول أشياء متسرعة وعاطفية لم تعد صحيحة. فقد قلت له في يوم طلب الطلاق: «سأبقى دائماً متزوجة بك في قلبي». ورغم أنه لم تمضِ سوى خمسة أشهر على هذا الكلام، فإنني أشك بما قلته. فحبي له أكيد، لكن ولائي له لم يكن كذلك. فنحن لم نعد متزوجين، وعندما جلست مع الذكور الشباب الثلاثة على السرير الذي كان بول يشاركني إياه، شعرت بنوع من القبول لذلك؛ وهو وضوح نوعاً ما، حيث كان من قبل ينطوي على الكثير من الارتياب.

واستلقينا نحن الأربعة– أنا وريك وجوش وريتشي– بالترتيب نفسه على سرير السيارة المغلقة عبر امتداد الفرش، بينما كانت السيارة تهتز في الطرقات المظلمة. ولم يكن بيننا أي إنش فاصل؛ تماماً مثلما كنا على أريكة الحارس المعتوه في الليلة الماضية. وكان جانب جسد ريك ملتصقاً بي ومنحرفاً قليلاً باتجاهي بعيداً عن جوش، وكانت السماء قد أصبحت صافية أخيراً؛ مما جعلني قادرة على رؤية البدر.

فقلت لريك وأنا أشير باتجاه نافذة العربة إلى السماء:

- انظر.

وتحدثنا بهدوء عن أشكال القمر التي شاهدتها على الطريق، وعن الأماكن التي كنا فيها عندما شاهدناها، وعن الطريق بعدها، فقال ريك:

- يجب أن تعطيني رقم ليزا كي نمضي وقتاً مع بعضنا في بورتلاند؛ فأنا سأعيش هناك أيضاً بعد نهاية الطريق.

- بالتأكيد سنمضي وقتاً مع بعضنا.

- بالتأكيد.

ونظر إليّ برقة جعلتني أشعر بالإغماء؛ رغم أنني كنت أعلم أنه بالرغم من حقيقة أنني أحببته أكثر من عدد كبير من الناس الذين كنت على علاقة معهم ربما بألف مرة، إلا أنني لن ألمسه مهما رغبت بذلك بعمق. فاحتمال ملامسته أبعد لدي من القمر، وهذا ليس فقط لأنه يصغرني أو لأن اثنين من أصدقائه كانوا معنا ملتصقين بظهره، وإنما لأنه أخيراً أصبح كافياً بالنسبة لي أن أستلقي هناك بجانب رجل طيب وذكي ومثير وقوي وجذاب– وأنا أشعر بنشوة عفيفة ومكبوحة– لا يمكن أن يكون إلا صديقاً لي. وعلى غير المعتاد، لم أعد أتوق إلى الرفقاء. وعلى غير المعتاد أيضاً، لم تعد عبارة «المرأة التي توجد فجوة في قلبها» تدوي في رأسي، كما أن العبارة لم تعد تعيش معي.

فقلت لريك:

_ أنا حقاً سعيدة بلقائك.

_ وأنا أيضاً. فمن لا يُسعَد بلقاء ملكة طريق جبال المحيط الهادئ؟

فابتسمت والتفتّ لأنظر من النافذة الصغيرة إلى القمر مرة ثانية، وأنا أشعر بشدة بدفء جسده الملتصق بي، بينما كنا نستلقي بصمت واعٍ.

فقال ريك بعد فترة:

- جميل جداً.

ثم أعاد كلامه، ولكن بتوكيد أكبر هذه المرة:

- جميل جداً.

فسألته وأنا ألتفت نحوه رغم أنني أعرف ما يعنيه:

- ما هو؟

- كل شيء.

وقد كان ذلك صحيحاً.

19

حلم اللغة المشتركة

كانت السماء في الصباح التالي زرقاء صافية، والشمس تتلألأ على بحيرة أولالي، ومناظر جبل جيفرسون تتناسق تماماً إلى الجنوب، وتلة أولالي إلى الشمال. جلستُ إلى إحدى طاولات النزهات قرب محطة الحراس، وملأت الوحش استعداداً لآخر مرحلة في رحلة المشي. كان الذكور الشباب الثلاثة قد غادروا عند الفجر على عجلة، ليصلوا إلى كندا قبل أن تغطي الثلوج جبال كاسكيد العالية في واشنطن. أما أنا فلم أكن سأبتعد تلك المسافة، ولذلك لديّ متسع من الوقت.

ظهر غاي وهو يحمل علبة في يده، وكان متزناً الآن. قاطعني عن نشوة تأملي وقال:

- سررت لأنني أدركتك قبل أن تغادري، فقد وصلت هذه للتو.

أخذت منه العلبة، ونظرت إلى عنوان المرسل، وأدركت أنها من صديقتي غريتشن، فقلت له وهو يبتعد:

- شكراً على كل شيء، وعلى الشراب والضيافة في تلك الليلة.

فقال وهو يختفي عند زاوية البناء:

- أتمنى أن تصلي بالسلامة.

فشققت العلبة وفتحتها، وانبهرت عندما رأيت المحتوى؛ اثنتي عشرة قطعة من الشوكولا ملفوفة بشريط مزخرف، بالإضافة إلى قارورة من الشراب. أكلت بعض الشوكولا فوراً وأنا أفكر بالشراب. وبقدر رغبتي بفتحها تلك الليلة على الطريق، إلّا أنني لم أكن أرغب بحمل القارورة معي طوال الطريق إلى نزل تيمبرلاين. وضعت آخر أغراضي في الحقيبة وربطت الحبال، ثم أخذت قارورة الشراب والعلبة الفارغة وبدأت أمشي إلى محطة حراس الغابة.

ودوّى صوت فالتفت إليه:

- شيريل!

وصرخ رجل قادم باتجاهي:

- ها أنت هنا! ها أنت هنا! لقد أدركتك! لقد أدركتك!

كنت مذهولة جداً لدرجة أنني أوقعت العلبة على العشب، بينما رفع قبضتَي يديه في الهواء، وأطلق صرخة فرح عرفتها لكنني لم أستطع تمييز صاحبها؛ فقد كان شاباً ملتحياً ومشرقاً ومختلفاً، لكنه شبيه بآخر مرة رأيته بها. وصاح مرة ثانية وهو يشبك يديه عملياً حولي في عناق:

- شيريل!

وبدا أن الوقت يمر ببطء منذ اللحظة التي لم أعرف فيها من هو وحتى اللحظة التي عرفته فيها. لكنني لم أستطع تذكره إلى أن ضمني بين ذراعيه، فصرخت:

- دوغ!

وكررت:

- دوغ... دوغ... دوغ!

- شيريل... شيريل... شيريل!

ثم صمتنا، وتراجعنا، وتبادلنا النظرات، فقال:

- لقد خسرت من وزنك.

- وأنت أيضاً.

- لقد أصبحت متمرسة الآن.

- أعرف. وأنت أيضاً.

- عندي لحية.

ثم جذب لحيته وقال:

- عندي الكثير لأحكيه لك.

- وأنا أيضاً. أين توم؟

- إنه على بعد بضعة أميال، لكنه سيلحق بنا بعد قليل.

- هل استطعتما تجاوز الثلوج؟

- تجاوزنا بعضاً منها، لكن بعضها الآخر كان تجاوزه صعباً، فنزلنا وانتهى بنا المطاف بالذهاب في طرق فرعية.

هززت رأسي وأنا لا أزال مصدومة لأنه واقف قربي، وأخبرته عن رجوع غريغ عن الطريق، وسألته عن ألبرت ومات.

- لم أسمع أي شيء عنهما منذ التقينا بهما آخر مرة.

ونظر إليّ وابتسم وعيناه تلتمعان بالحياة وقال:

- لقد قرأنا ملاحظاتك في السجل طوال الصيف، وقد أعطتنا دافعاً للالتواء فقد كنا نريد أن نلحق بك.

- كنت في طريقي للرحيل الآن.

وانحنيت لأخذ العلبة الفارغة التي أسقطتها بسبب حماستي، وأكملت:

- لو تأخرت دقيقة لكنت قد رحلت. ومن يدري؟ كان من الممكن ألا تلحق بي.

فقال:

- لقد لحقت بك.

وضحك بالطريقة الصبيانية المشرقة التي أذكرها بقوة؛ رغم أنها تغيرت الآن أيضاً. فقد أصبح أكثر حزماً من ذي قبل، ومتزعزعاً أكثر قليلاً، وكأنه قد كبر بضعة أعوام خلال الأشهر الماضية، وسألني:

- هل تريدين أن تمكثي بينما أنظم أغراضي؟ ثم بإمكاننا أن نرحل معاً، ما رأيك؟

فقلت من دون تردد:

- بالتأكيد. لأنه عليّ أن أمشي هذه الأيام الأخيرة قبل أن أصل إلى كاسكيد لوكس وحدي؛ فكما تعلم، أريد أن أنهي الأمر كما بدأته. لكن، دعنا نمشي معاً حتى نزل تمبرلاين.

وسحبني ليحضنني مرة ثانية:

- شيريل، لا أصدق أننا هنا معاً. هل ما زلت تحتفظين بالريشة السوداء التي أعطيتك إياها.

ومد يده ليلمس حافتها الممزقة، فقلت:

- إنها تميمة الحظ الجيد بالنسبة لي.

- ماذا بشأن الشراب؟

وأشار إلى القارورة في يدي، فأجبت بعد أن رفعتها:

- سأعطيها للحارس. لا أريد أن أحملها طوال الطريق إلى تمبرلين.

فقال دوغ:

- هل أنت مجنونة؟ أعطيني إياها.

وفتحناها تلك الليلة في مخيمنا قرب نهر الينابيع الدافئة بالفتاحة الموجودة في السكين السويسرية. وكان اليوم دافئاً تصل حرارته إلى أول السبعينات، لكن المساء كان بارداً. فنهاية الصيف الحادة تحوّلت إلى خريف في كل مكان حولنا، وأوراق الأشجار رقت بطريقة غير واضحة، وجذوع الأزهار البرية انحنت على نفسها وقد امتلأت بالعفن. أشعلتُ ناراً مع دوغ، وطبخنا عشاءنا، ثم جلسنا نأكل من القدور، ومررنا قارورة الشراب بيني وبينه. كنا نشرب منها مباشرة لأنه لم تكن لدى أي منا كأس لنشرب بها. وقد كان الشراب والنار ورفقة دوغ ثانية بعد كل هذه المدة كشعيرة تجاوز الطريق، وكدليل رسمي على نهاية رحلتي.

وبعد فترة، التفت كل منا فجأة نحو الظلام، واستمعنا إلى عواء الذئاب القريبة أكثر من كونها بعيدة، وقال دوغ:

- إن هذا الصوت يجعل شعري يقف دائماً.

وأخذ رشفة من الشراب، ثم أعطاني القارورة وقال:

- هذا الشراب جيد حقاً.

فوافقته، وأخذت جرعة كبيرة وقلت:

- نعم إنه كذلك. لقد سمعت عواء الكثير من الذئاب هذا الصيف.

- ولم تخافي، أليس كذلك؟ أليس هذا ما كانت نفسك تحدثك به؟

فقلت:

- هذا ما حدثتني به نفسي.

وأضفت:

- إلا بين الفينة والأخرى حيث شعرت بالخوف.

- وأنا أيضاً.

ومد يده ووضعها على كتفي، فوضعت يدي على كتفه وضغطت بها؛ فقد كان كأخ لي، ولكنه ليس كأخي الحقيقي على الإطلاق. فقد كان كرجل أعرفه دائماً حتى لو لم أره قط.

وعندما انتهينا من احتساء الشراب، ذهبت إلى حقيبتي، وأخرجت الكيس المغلق بسحّاب والذي يحتوي على كتبي، وسألت دوغ رافعة كتاب «عشرة آلاف شيء»:

- هل تريد شيئاً تقرأه؟

فهز رأسه بالنفي، وكنت قد أنهيته قبل بضعة أيام ولكنني لم أستطع حرقه بسبب المطر. وعلى عكس أغلب الكتب الأخرى التي قرأتها على طريقي، كنت قد قرأت كتاب «عشرة آلاف شيء» قبل أشهر؛ عندما حزمت الأغراض في صندوق إعادة التموين. وهو رواية غنائية تحصل في جزر الملوك في إندونيسيا، وقد كتبت بالألمانية، ونشرت عام 1955 حيث نالت استحسان النقاد، لكنها أصبحت الآن منسية تقريباً. إذ لم ألتقِ أي شخص قرأ الكتاب؛ ما عدا أستاذ الكتابة الجامعي الذي حدّده لي في ورشة عمل النثر التي التحقت بها عندما مرضت أمي. فالعنوان لم يضِع مني بينما كنت أجلس وأنا أقرأ الكتاب على نحو مطيع في غرفة أمي في المشفى، محاولة أن أبعد المخاوف والحزن عني بإجبار ذهني على التركيز على المقاطع، وآملة أن أشير إليها في نقاش درس الأسبوع القادم، ولكن دون جدوى. حيث إنني لم أستطع التفكير إلا بأمي، بالإضافة إلى أنني كنت أعرف بعض المعلومات عن «عشرة آلاف شيء»، وهي تشمل كل الأشياء المسماة وغير المسماة في العالم، وكلها معاً لا تساوي مدى حب أمي لي وحبي لها. لذلك، عندما حزمت أمتعتي للسفر على طريق جبال المحيط الهادئ، قررت أن أعطي الكتاب فرصة ثانية؛ إذ لا

يوجد ما يمنعني من التركيز هذه المرة، وقد فهمته من الصفحة الأولى. وكانت كل جملة من جمل ديرموت تأتي كخنجر معرفة خفيف، وتصوّر أرضاً بعيدة تبدو لي كالدم الذي يجري في كل الأماكن التي كنت أحبها.

قال دوغ وهو يحمل قارورة الشراب الفارغة:

- أعتقد أنني سآوي إلى فراشي، فمن المحتمل أن يلحق بنا توم غداً.

فقلت:

- وأنا سأطفئ النار.

وعندما ذهب، مزقت صفحات كتاب «عشرة آلاف شيء» عن رباطها الذي يثبّتها إلى غلاف الكتاب الورقي، ووضعتها في النار بمجموعات نحيلة، وحركتها بالعصا حتى احترقت. وبينما كنت أحدق في اللهب، فكرت بإيدي؛ كما يحصل في كل مرة أجلس فيها قرب النار. فهو من علمني كيف أشعلها، وهو من أخذني أول مرة للتخييم، وأراني كيف أنصب الخيمة وأربط عقدة في الحبل. ومنه تعلمت فتح العلب المعدنية بالمشرط، والتجذيف بالزوارق الطويلة في نهر مينيسوتا ونهر سانت كرويكس ونهر نامكاغون عملياً في كل نهاية أسبوع من حزيران وحتى أيلول. وبعد أن انتقلنا شمالاً إلى الأرض التي اشترتها عائلتي بالعائدات التي حصل عليها بعد أن كسر ظهره، علّمني أيضاً أكثر عن الغابة.

من المستحيل أن تعرف ما يجعل شيئاً ما يحصل وليس شيئاً آخر، وما يؤدي إلى أي شيء، وما يدمر أي شيء، وما يجعل شيئاً ما يزدهر أو يموت أو يتخذ مساراً آخر. لكنني كنت متأكدة وأنا جالسة هناك تلك الليلة أنه لولا إيدي لما كنت قد وجدت نفسي على طريق جبال المحيط الهادئ. ورغم أنه من الصحيح أن كل شعور أحس به نحوه كان كصخرة في حلقي، فإن هذا الإدراك خفّف من وطأة الصخرة. ورغم أنه لم يحبني جيداً في النهاية، إلا أنه أحبني جيداً في الأمور الهامة.

عندما تحول كتاب «عشرة آلاف شيء» إلى رماد، سحبت الكتاب التالي من الكيس المغلق بسحّاب، وكان «حلم اللغة المشتركة». وكنت قد حملته طوال الطريق رغم أنني لم أفتحه منذ أول ليلة لي على الطريق؛ إذ لم أكن أحتاج إلى قراءته فأنا أعرف ما يقوله، وأسطره كانت تذاع طوال الصيف عبر الشريط المنوع لمحطة الراديو الذي يدور في رأسي، وهي أجزاء من قصائد متنوعة، وأحياناً عنوان الكتاب نفسه الذي يشكل أيضاً سطراً من القصيدة: حلم اللغة المشتركة. فتحت الكتاب، وقلّبت صفحاته وأنا منحنية

للأمام كي أرى الكلمات على ضوء النار، وقرأت سطراَ أو سطرين من عشر قصائد تقريباً، وكانت كلها مألوفة؛ مما أعطاني نوعاً غريباً من الراحة؛ فقد كنت أغني هذه الأسطر بصمت خلال الأيام التي سرت بها. ورغم أنني لم أكن أعرف معناها غالباً، فقد كانت هناك طريقة أخرى أعرف فيها معناها تماماً؛ وكأنها كانت كلها أمامي ولكنها بعيدة عني في الوقت نفسه. فمعناها كان كسمكة تحت سطح الماء أحاول الإمساك بها بيديّ العاريتين لأنها قريبة وموجودة وتعود إليّ، ولكنني حين أمد يدي نحوها تنطلق بعيدة.

أغلقت الكتاب ونظرت إلى غلافه البني الفاتح. ولأنه لم يكن هناك سبب يمنعني من أن أحرق هذا الكتاب أيضاً، ضممته إلى صدري بدلاً من ذلك.

وصلنا إلى نزل تمبرلين بعد يومين، ولم أكن عندها وحدي مع دوغ، وإنما لحق بنا توم، وانضمت إلينا امرأتان كانتا في العقد الثاني من العمر ومتزوجتين سابقاً. كانتا تمشيان عبر أوريغون، وجزء صغير من واشنطن. ومشينا نحن الخمسة مع بعضنا في مجموعات مكونة من شخصين أو ثلاثة بتركيبات متنوعة، وأحياناً كنا نمشي كلنا في رتل مقيمين حفلة تسلية، وكان الشعور الاحتفالي يرجع إلى عددنا والأيام المشمسة المعتدلة. وفي وقت استراحاتنا الطويلة لعبنا الهاكي ساك، وسبحنا بدون ثياب في بحيرة باردة ومتجمدة، وأثرنا غضب مجموعة من الزنابير وركضنا هاربين منها ونحن نضحك ونصرخ. وحين وصلنا إلى نزل تمبرلين التي تبعد 6000 قدم جنوب جانب جبل هود، كنا مرتبطين كما لو أننا قبيلة؛ بطريقة جعلتني أتخيل شعور الأطفال عندما يقضون أسبوعاً في مخيم الصيف.

وصلنا عند العصر. وفي النزل، أخذنا نحن الخمسة أريكتين مقابل بعضهما تفصل بينهما طاولة خشبية قصيرة، وطلبنا شطائر باهظة الثمن، ثم شربنا بعد ذلك قهوة موضوعة عليها كريما بابليز ونحن نلعب بمجموعة ورق استعرناها من النادل في المقهى. وكان منحدر جبل هود مرتفعاً أمامنا خارج نافذة النزل، ويبلغ ارتفاعه 11240 قدماً؛ وهو أعلى جبل في أوريغون. وهو جبل بركاني كسائر الجبال التي مررت بها منذ أن دخلت كاسكيد رينج جنوب قمة جبل لاسين في تموز. لكن هذه القمة وهي الأخيرة ضمن الجبال الأساسية التي قطعتها في رحلتي تبدو الأكثر أهمية؛ ليس لأنني أجلس على سفحها فحسب، وإنما لأن منظرها أصبح مألوفاً بالنسبة لي؛ فعظمتها الجليلة يمكن رؤيتها من بورتلاند في الأيام الصافية. وحالما وصلت إلى جبل هود أدركت أنني أشعر تقريباً كما لو أنني في وطني بورتلاند التي تبعد ستين ميلاً فقط، والتي أعيش فيها تقنياً؛ رغم كل ما حدث في الأشهر الثمانية أو التسعة التي قضيتها هناك خلال السنتين الأخيرتين.

عن بعد، استطاع منظر جبل هود أن يحبس أنفاسي. ولكن عن قرب كان الأمر مختلفاً في كل شيء. فقد كان أقل فخامة، وعادياً أكثر، وغير محدود أكثر بسلطته الصارمة. أما المناظر الطبيعية خارج النوافذ الشمالية للنزل فلم تكن عبارة عن القمم البيضاء المتلألئة التي تراها على بعد أميال، وإنما كانت المنحدر الرمادي القاحل تقريباً، والذي يحتوي بضع أشجار من الصنوبر متجمعة وهزيلة، وعدداً قليلاً ومتناثراً من نبات الترمس، وأزهار النجم التي نمت بين الصخور. وكانت صفحة الأرض قد نقطت بمصعد تزلج يؤدي إلى المساحة اليابسة من الثلج في الأعلى. شعرت بالسعادة لكوني قد احتميت من الجبل لفترة بعد أن استقررنا داخل النزل العظيم؛ وهو أرض الأعاجيب في الأماكن الوعرة. فهو بناء كبير من الحجر والخشب حفره يدوياً عمال من إدارة التقدم بالعمل في منتصف الثلاثينيات من القرن العشرين. وكل شيء في المكان له قصة، وكل قطعة فنّيّة على الجدران وعمارة البناء بالإضافة إلى القماش المنسوج يدوياً الذي يغطي الأثاث مصنوعةٌ بعناية لتعكس تاريخ شمال غرب المحيط الهادئ وثقافته، والموارد الطبيعية فيه.

اعتذرت من الآخرين، ومشيت ببطء عبر النزل، ثم خرجت إلى فناء مرصوف وواسع يقابل الجنوب، وكان يوماً مشمساً وصافياً، فاستطعت رؤية أكثر من مائة ميل. وكان المنظر يتضمن العديد من الجبال التي مررت بها في رحلتي: جبلين من الجبال الثلاثة، وجبل جيفرسون، وجبل بروكنفنجر.

وبدأت أفكر: اقفز، تخطَّ، در، انتهيت. أنا هنا أو تقريباً هناك. لكنني لم أنتهِ بعد، فلا يزال عليّ أن أسير خمسين ميلاً قبل أن أصل إلى الجسر.

وفي الصباح التالي، ودّعت دوغ وتوم والسيدتين ومشيت وحدي، وصعدت عبر الطريق القصير المنحدر الذي يصل بين النزل وطريق جبال المحيط الهادئ، ومررت تحت مصعد التزلج، وشققت طريقي شمالاً وغرباً حول كتف جبل هود، على طريق يبدو أنه صخور محطمة فتتها الشتاء القارس إلى قطع بحجم الحصى. وبينما اجتزت الطريق إلى برية جبل هود بعد عشرين دقيقة، كنت قد دخلت الغابة مرة ثانية وشعرت بالصمتيخيم عليّ.

شعرت أنه من الجيد أن تكون وحيداً، فقد شعرت بإحساس رائع؛ إذ رغم أن الوقت كان منتصف أيلول، إلا أن الشمس كانت دافئة ومشعة والسماء أكثر زرقة مما كانت عليه من قبل. انفتح الطريق أمامي على مناظر واسعة بقدر أميال، ثم انغلق حولي إلى الغابة الكثيفة، ثم توسع مرة ثانية. مشيت عشرة أميال دون توقف، وقطعت نهر ساندي ثم توقفت لأجلس على لوح صخري مستوٍ يشرف على النهر من الطرف الآخر. وكانت معظم صفحات كتاب «طريق جبال المحيط الهادئ، المجلد الثاني: أوريِغون

وواشنطن» قد تلاشت الآن. أما ما تبقى من كتاب الدليل فقد كان مطوياً في جيب سروالي القصير. أخرجت الصفحات وقرأتها ثانية، وتركت نفسي أصل إلى النهاية، وقد أثارني أمل الوصول إلى كاسكيد لوكس وأحزنني في الوقت نفسه. إذ لم أكن أعرف كيف أصبح العيش في الخارج، والنوم على الأرض في خيمة كل ليلة، والسير وحيدة عبر البرية طوال النهار تقريباً كل يوم يبدو لي كحياتي الطبيعية، وأصبحت فكرة عدم القيام بذلك مخيفة بالنسبة لي.

ذهبت إلى النهر، وجلست القرفصاء وغسلت وجهي. وقد كان النهر ضيقاً وضحلاً هنا؛ إذ لم يكن أكبر من الجدول بكثير لكون الوقت آخر الصيف ولارتفاع المكان. وتساءلت: أين ترقد أمي؟ فقد حملتها معي لمسافة طويلة وأنا أترنح تحت ثقلها.

وتركت لنفسي حرية التفكير في أنها في الجانب الآخر من النهر.

وانطلق شيء من داخلي.

وفي الأيام التالية، مررت بشلالات رامونا، وسرت بمحاذاة برية كولومبيا من الداخل والخارج، وشاهدت مناظر جبال بركان سانت هيلين ورينير وآدمز عن بعد إلى الشمال، ووصلت إلى بحيرة ويتم، ثم انحرفت عن طريق جبال المحيط الهادئ إلى الطريق البديل الذي نصحني مؤلفو كتاب الدليل به، والذي يقودني إلى جدول إيغل وإلى خليج نهر كولومبيا وفي النهاية إلى النهر نفسه الذي يجري على طول مدينة كاسكيد لوكس.

أكملت طريقي نحو الأسفل والأسفل في ذلك اليوم الأخير الكامل من السير، ونزلت أربعة آلاف قدم في حوالي أكثر من ستين ميلاً فقط. وكانت الجداول والسواقي والمياه السائلة من طرف الطريق التي قطعتها وحاذيتها تجري أيضاً نحو الأسفل، وشعرت أن النهر يسحبني مثل المغناطيس العظيم نحو الأسفل وإلى الشمال، وشعرت أنني أصل إلى نهاية الأشياء، فتوقفت لأمضي الليلة على ضفة جدول إيغل، وكانت الساعة هي الخامسة فقط، وكنتُ على بعد ستة أميال عن كاسكيد لوكس. كان بإمكاني أن أصل إلى المدينة مع حلول الظلام، لكنني لم أكن أريد أن أنهي رحلتي بهذه الطريقة، وإنما كنت أريد أن آخذ وقتي لأشاهد النهر والجسر في ضوء النهار الساطع.

جلست تلك الليلة بجانب جدول إيغل وأنا أشاهد المياه وهي تتدفق على الصخور، وكانت قدماي تؤلمانني بشدة من جراء الهبوط الطويل. فحتى بعد اجتيازي كل ذلك الطريق؛ حيث أصبح جسمي أقوى الآن من أي وقت مضى أو من أي وقت سيأتي، كان السير على طريق جبال المحيط الهادئ

يؤلم؛ فقد تشكلت قروح جديدة على أصابع قدميّ في الأماكن التي أصبحت أكثر نعومة بسبب الهبوط الشديد نسبياً عبر أوريغون، فوضعت أصابع يديّ عليها برقة لأريحها بلمسة يدي، وبدا أحد أظفار قدمي وكأنه سينقلع، فسحبته بلطف حتى أصبح في يدي؛ وهو السادس، أي بقيت عندي أربعة أظفار سليمة.

لم أعد أنا وطريق جبال المحيط الهادئ متعادلين قط، والنتيجة كانت 6–4 لصالح الطريق.

نمت تلك الليلة على غطاء مشمع كيلا أحمي نفسي في تلك الليلة الأخيرة، ولأستيقظ قبل الفجر وأشاهد شروق الشمس على جبل هود. فكرت أن الأمر قد انتهى فعلاً، وأصبح من المستحيل العودة لجعله يبقى؛ فهذا غير ممكن. جلست لفترة طويلة، وتركت الضوء يملأ السماء ثم يتوسع ليصل إلى الأشجار، وأغمضت عينيّ واستمعت بإمعان إلى جدول إيغل.

كان يجري نحو نهر كولومبيا مثلي.

بدا لي أنني أطفو طوال الأميال الأربعة التالية حتى مكان ركن السيارات الصغير قرب رأس طريق جدول إيغل، يحملني شعور نقي ومحض لا يمكن وصفه إلا بأنه الفرح. تجوّلت عبر مكان ركن السيارات الأقل ازدحاماً، ومررت بالحمامات، ثم تبعت طريقاً آخر أخذني مسافة ميلين نحو كاسكيد لوكس، وتحوّل الطريق بحدة نحو اليمين، وصار أمامي نهر كولومبيا الذي رأيته عبر السياج ذي السلاسل الذي يحد الطريق ليفصله عن طريق إنترستيت 84 تحته. توقفت وأمسكت بالسياج ونظرت، فبدت لي رؤية النهر أخيراً مثل أعجوبة؛ وكأنني أنجبت طفلاً أخيراً بين راحتي يدي بعد مخاض طويل؛ فالمياه القاتمة المشعة كانت أجمل من أي شيء كنت أتخيله خلال كل تلك الأميال التي سرتها لأصل إليها.

سرت شرقاً على طول ممر أخضر خصب، . واستطعت رؤية بقع من الإسمنت في بعض الأماكن، لكن الطريق استصلحته الطحالب التي نمت على الصخور على حافة الطريق، وعلى الأشجار التي كانت متدلية بثقل وانخفاض فوقها، والعناكب التي نسجت بيوتها عبر امتداده. مشيت عبر بيوت العناكب، ولمستها كالسحر، وأبعدتها عن وجهي وسحبتها عن شعري. واستطعت أن أسمع لا أن أرى صخب السيارات على طريق إنترستيت إلى يساري الذي كان يمتد بيني وبين النهر، وقد كان صوتها الطبيعي أزيز الأنين والدندنة.

وعندما خرجت من الغابة، وجدت نفسي في مدينة كاسكيد لوكس التي كانت مدينة فعلية على عكس الكثير من المدن على الطريق، ويبلغ عدد

سكانها أكثر من ألف نسمة بقليل. كان الوقت صباح الجمعة، واستطعت الإحساس بصباح الجمعة وهو ينبثق من بين المنازل التي مررت بها. مشيت تحت طريق المرور السريع، وذهبت في سبيلي على طول الشوارع وأنا أطرق بعصا التزلج على الرصيف وقلبي يتسارع عندما لاح الجسر لنظريّ؛ وهو دعامة أنيقة وناتئة من الفولاذ، وقد حصل على اسمه بسبب الجسر الطبيعي الذي شكله انزلاق أساسي للصخور قبل حوالي ثلاثمائة عام، والذي سدّ نهر كولومبيا مؤقتاً. كان الجسر الذي صنعه الإنسان يمتد عبر نهر كولومبيا لأكثر من ثلث الميل، وهو يصل أوريغون بواشنطن، وكاسكيد لوكس بستيفنسون من كل جانب. وكان هناك مقر لدفع الضريبة على طرف أوريغون. وعندما وصلت إليه أخبرتني المرأة التي تعمل بالداخل أنه بإمكاني اجتياز الجسر دون مقابل.

فقلت:

- أنا لا أريد اجتيازه، وإنما فقط لمسه.

ومشيت على حافة الطريق حتى وصلت إلى الدعامة الإسمنتية للجسر، فوضعت يدي عليها، ونظرت إلى نهر كولومبيا الذي يجري تحتي؛ وهو أكبر نهر شمال غرب المحيط الهادئ، ورابع أكبر نهر في البلاد. وقد عاش على النهر سكان أمريكا الأصليون لآلاف السنين، وكان النهر يمدّ معظمهم بالغذاء؛ أي سمك السلمون الذي كان وفيراً. وقد جذّف كل من ميريويذر لويس ووليام كلارك في نهر كولومبيا في زورقين شجريين طويلين في رحلة استكشافهما المشهورة عام 1805. وبعد مائة وتسعين عاماً، وقبل يومين من ذكرى ميلادي السابعة والعشرين، ها أنذا هنا.

لقد وصلت، لقد فعلت ذلك. وقد بدا الأمر كشيء صغير جداً، ولكنه شيء هائل في الوقت نفسه؛ مثل سر كنت أنبئ نفسي به دائماً لكنني لم أعرف معناه حتى الآن. وقفت هناك لعدة دقائق، ومرت السيارات والشاحنات بي، فشعرت أنني أريد البكاء، لكنني لم أبكِ.

لقد سمعت منذ أسابيع عند دالية على الطريق أنني حالما أصل إلى كاسكيد لوكس فعليّ أن أذهب إلى محل إيست ويند درايف إن للمثلجات لأتناول واحداً من مخاريط المثلجات الكبيرة المشهورة هناك. ولذلك، وفرت بضعة دولارات عندما كنت في نزل تمبرلين. غادرت الجسر، وشققت طريقي عبر شارع مزدحم يحاذي النهر وشارع إنترستيت. كان الطريق ومعظم المدينة محصورين بينهما، وكان الوقت لا يزال صباحاً، ومحل المثلجات لا يزال مغلقاً؛ فجلست على المقعد الخشبي الأبيض الصغير أمام المحل وبجانبي حقيبتي.

سأكون في بورتلاند في وقت متأخر من ذلك اليوم، وكانت تبعد فقط خمسة وأربعين ميلاً إلى الغرب، وسأنام على فرشي (فوتون) القديم تحت سقف، وسأخرج مسجلتي وأقراصي المضغوطة لأستمع لأية أغنية أريدها، وسألبس حمالة الصدر السوداء ذات الأشرطة، أو أياً من الملابس الداخلية، وبنطال الجينز الأزرق، وسأتناول جميع أنواع الطعام والشراب المذهلة التي يمكن تناولها، وسأقود شاحنتي إلى أي مكان أريد الذهاب إليه، وسأضع كمبيوتري وأكتب روايتي، وسآخذ صناديق الكتب التي أحضرتها معي من مينيسوتا وأبيعها في اليوم التالي في متجر باول للكتب لأوفر بعض النقود، وسأنشئ مكاناً أبيع فيه الأشياء المستخدمة لأتدبر أموري إلى أن أحصل على عمل، كما سأضع أثواباً ومناظير صغيرة ومنشاراً يطوى على العشب لأحصل على أي ثمن يمكن الحصول عليه، وكانت كل تلك الأفكارمذهلة.

نادتني سيدة أخرجت رأسها من النافذة في مقدمة محل المثلجات وقالت:

- إننا جاهزون.

فطلبت مخروطاً لولبياً من الفانيلا والشوكولا. وبعد بضع دقائق، أعطتني إياه وأخذت الدولارين وأعادت لي منهما قطعتَي نقود تساويان عشرين سنتاً. وكان هذا كل ما لدي من نقود في العالم. كنت أملك عشرين سنتاً فقط. جلست على المقعد الأبيض، وتناولت مخروطي بكامله، ثم شاهدت السيارات مرة ثانية، وكنت الزبونة الوحيدة في المحل حتى توقفت سيارة من طراز بي ام دبليو وخرج منها شاب بزي رسمي.

فقال وهو يمر بي:

- مرحباً.

كان في مثل عمري، وشعره مصفف نحو الوراء «بالجل»، وحذاؤه لا يعتريه أي عيب. وحالما أخذ مخروطه عاد ليقف بالقرب مني، وقال لي:

- يبدو أنك كنت في رحلة سفر مع حقيبة ظهر فقط.

فقلت بحماسة لم أستطع أن أسيطر عليها:

- نعم، على طريق جبال المحيط الهادئ. وقد مشيت أكثر من ألف ومائة ميل، وقد أنهيت رحلتي للتو هذا الصباح.

- حقاً!؟

فأومأت برأسي وضحكت.

- هذا غير معقول! فلطالما أردت أن أقوم بشيء مماثل كرحلة طويلة.

- يمكنك أن تقوم بذلك، بل عليك أن تقوم بذلك. صدّقني، إن استطعتُ أنا أن أقوم بذلك فباستطاعة أي شخص القيام به.

- لا يمكنني أخذ إجازات من العمل؛ لأنني أعمل كمحامٍ.

ورمى النصف غير المأكول من مخروطه في حاوية القمامة، ومسح يديه بمنديل، وقال:

- ما الذي تريدين فعله الآن؟

- أريد أن أذهب إلى بورتلاند لأعيش هناك لفترة.

- أنا أعيش هناك أيضاً، وأنا في طريقي إلى هناك إن أردت توصيلة. سأكون سعيداً بإيصالك إلى أي مكان تودين الذهاب إليه.

- شكراً، لكنني أريد أن أبقى هنا لبعض الوقت لأزور كل الأماكن.

فسحب بطاقة عمل من محفظته وأعطاني إياها، وقال:

- اتصلي بي حالما تستقرين، فأنا أود أن نخرج معاً لتناول الغداء. أريد أن أعرف أكثر عن رحلتك.

- حسناً.

ونظرت إلى البطاقة. كانت بيضاء وفيها أحرف زرقاء بارزة، وهي بقايا تذكرني بالعالم الآخر.

وقال:

- شرف لي أن ألتقيك عند هذا الموقف الحاسم.

فصافحته وقلت:

- سررت بلقائك.

وبعد أن قاد سيارته مبتعداً، أسندت رأسي إلى الخلف، وأغمضت عينيّ من الشمس، بينما اِنهمرتِ الدموعِ التي كنت أتوقعِ أن تنهمر عند الجسر من

عينيّ. وفكرت مراراً: شكراً. شكراً ليس فقط من أجل المشي الطويل، ولكن من أجل كل شيء شعرت به أخيراً متجمعاً بداخلي، ومن أجل كل شيء علمني إياه الطريق، وكل شيء لم أستطع أن أعرفه بعد بالرغم من أنني شعرت بوجوده سابقاً في داخلي: كيف أنني لم أرَ رجل سيارة البي أم دبليو مرة ثانية، وكيف قطعت الجسر بعد أربع سنوات مع رجل آخر وتزوجته في مكان يمكن رؤيته من البقعة التي أقف فيها الآن، وكيف أصبح لدينا ولد بعد تسع سنوات وأسميناه كارفر، وبنت بعد سنة ونصف من ذلك واسمها بوبي، وكيف أحضرت عائلتي بعد خمس عشرة سنة إلى هذا المقعد الأبيض نفسه، وجلسنا نحن الأربعة لنأكل مخاريط المثلجات، وأنا أروي لهم قصة الوقت الذي قضيته هنا من قبل بعد أن أنهيت رحلة مشي طويلة على ما يدعى طريق جبال المحيط الهادئ، وكيف لم يتكشف معنى رحلتي أمامي إلا في ذلك الوقت؛ فالسرّ الذي طالما كنت أخبر نفسي به انكشف أخيراً.

السر الذي جعلني أروي هذه الرواية.

لم أكن أعلم أنني سأتذكر مجدداً رحلتي عبر السنوات، وسأبحث عن الناس الذين قابلتهم في الطريق، وأنني سأجد بعضهم ولن أجد البعض الآخر، أو كيف أنني سأجد شيئاً لم أتوقعه في إحدى الحالات: نعي دوغ؛ إذ لم أعلم أنني سأقرأ أنه توفي بعد تسع سنوات من وداعي له على طريق جبال المحيط الهادئ؛ فقد توفي في حادث ركوب الأمواج باستعمال الطائرات الورقية في نيوزيلندا، أو كيف أنني بعد أن بكيت وأنا أذكر كم كان شاباً مشرقاً ذهبت إلى أبعد زاوية من القبو، إلى المكان الذي كانت الوحش معلقة فيه على مسمارين صدئين، ونظرت إلى ريشة الغراب التي أعطاني إياها دوغ فوجدتها مكسورة ومهترئة الآن، لكنها ما زالت موجودة هناك ومحشورة على إطار الحقيبة حيث وضعتها منذ سنوات.

كان كل شيء غير مفهوم بالنسبة لي في ذلك الوقت بينما كنت أجلس على المقعد الأبيض في اليوم الذي أنهيت فيه رحلة المشي؛ ما عدا حقيقة أنني غير مضطرة إلى المعرفة. فيكفيني أن أثق أن ما قمت به هو الصحيح، وأن أفهم معنى ذلك من دون أن أتمكن من تحديد المعنى تماماً؛ ككل الأسطر في كتاب «حلم اللغة المشتركة» التي كانت تدور في رأسي ليل نهار، وأن أعتقد أنه لم تعد هناك حاجة لأن أصل بيديّ العاريتين إلى السمكة، وأن أعرف أن رؤية السمكة تحت سطح الماء تكفي، وهذا كل شيء؛ فحياتي مثل حيوات الآخرين كلهم، فهي غامضة وحاسمة وقريبة جداً وموجودة وعائدة لي.

وبتعبير آخر: كم هي جامحة!